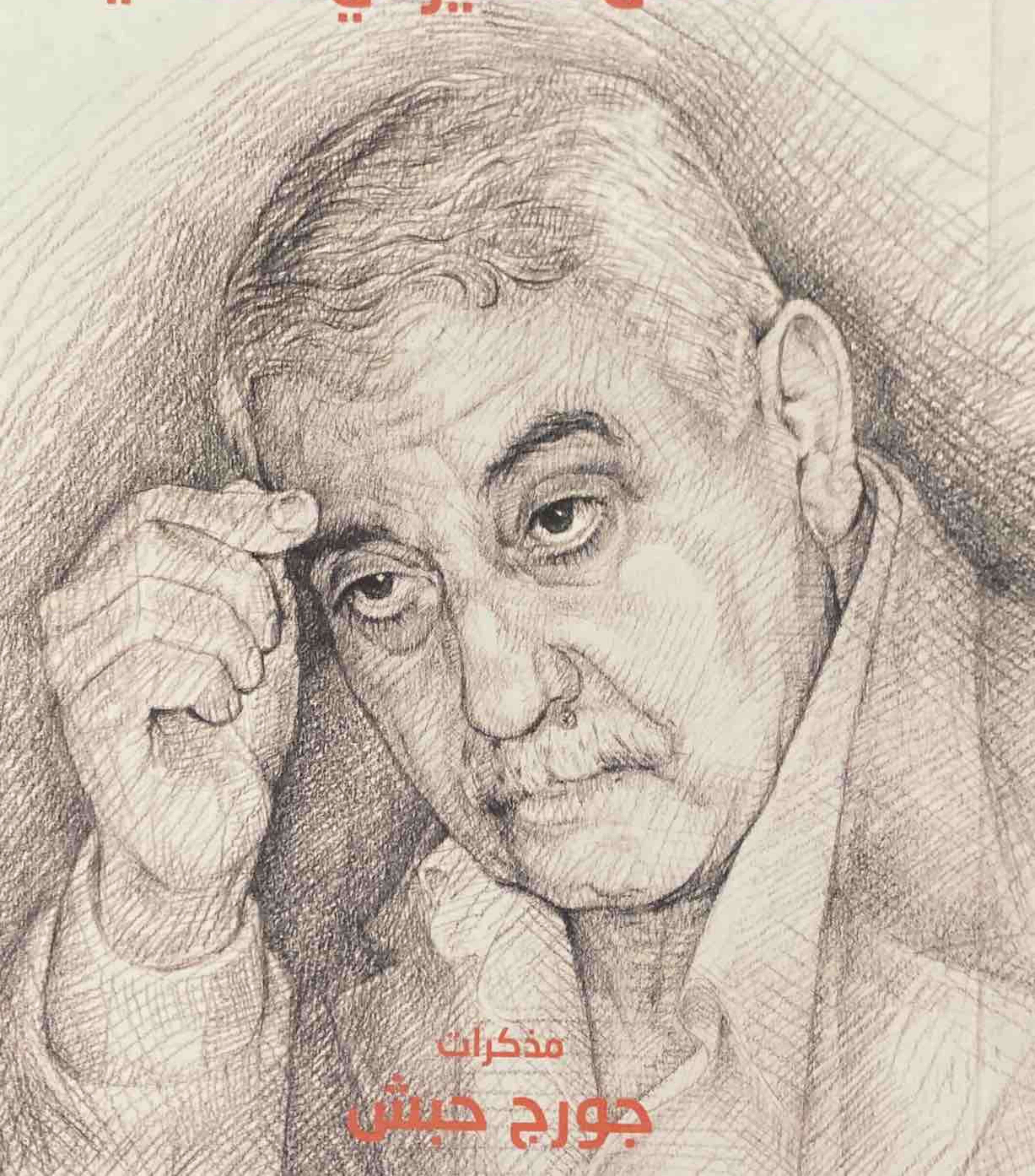


صفحات من مسيرتي النضالية



مذكرات

جورج حبش

إهداء

الى رفيقة العمر أم ميساء،

وأنا أفكر في إهداء هذا الكتاب إليك تشابكت في ذهني مشاعر متسقة: الحب، الوفاء، الصدق، التقدير، الاحترام، والاعتزاز..

بل إنني أقول: إنك حاضرة في ثنايا الكتاب ذاته... فهل كان بالإمكان أن تكون حياتي وتجربتي كما هي عليه لو لم تكن نصف حياتي الآخر حاضراً فيها باستمرار، بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟!

لقد كنت الحبيبة والزوجة والأم والأخت والرفيقة والصديقة في آن.

لقد اجتمعت فيك كل هذه المفردات، وبهذا أخذت حياتي طعماً ولوناً ومعنى خاصاً.

أعطيتني الحب والعطف والحنان. انتزعت كل ذلك من قلب الألم والمعاناة والتشرد. لقد كنت جريئة، شجاعة، صامدة كشلال حين يستدعي الأمر ذلك. وكنت حميمة، حنونة، رقيقة كانسياب نهر هادئ عندما يستدعي الموقف ذلك أيضاً.

وبكلمة بسيطة: لقد كنت فلسطينية من البداية حتى النهاية، وهذا لعمري يثير أجمل مشاعر الاعتزاز.

وهكذا، فأنت بالنسبة لي جزء من فلسطين، التي تستحق أن يضحي الرجل بحياته من أجلها بلا تردد.

أستعيد شريط حياتنا ولقائنا الأول، وكيف ارتبط مصيرنا معاً، فتراودني بسمة عزيزة وذكرى حلوة تنعش الروح والقلب.

أرفع رأسي فأجدك بجانبي كما أنت، فأشتعل استعداداً لمواصلة الدرب الذي اخترته، أو اخترناه معاً وكأنني في اليوم الأول للثورة.

شكراً للأقدار، شكراً للأم التي وهبتني إياك.

وشكراً لك على كل شيء. فلا زال أمامنا الكثير الذي علينا إنجازه معاً.

مع خالص حبي

إلى رفيقة العمر أم ميساء،

وأنا أفكر في إهداء هذا الكتاب إليك تشابكت في ذهني مشاعر عميقة: الحب، الوفاء، الصدق، التقدير، الاحترام، والاعتزاز...

بل إنني أقول: إنك حاضرة في ثنايا الكتاب ذاته... فهل كان بالإمكان أن تكون حياتي وتجربتي كما هي عليه لو لم يكن نصف حياتي الآخر حاضراً فيها باستمرار، بصورة مباشرة أو غير مباشرة؟!

لقد كنتِ الحبيبة والزوجة والأم والأخت والرفيقة والصديقة في آن. لقد اجتمعت فيك كل هذه الذروات، وبهذا أخذت حياتي طعماً ولوناً ومعنىً خاصاً.

أعطيتني الحب والعطف والحنان. انتزعتِ كل ذلك من قلب الألم والمعاناة والتشرد. لقد كنتِ جريئة، شجاعة، صاخبة كشلال حين يستدعي الأمر ذلك. وكنت حميمة، حنونة، رفيقة كانسياب نهر هادئ عندما يستدعي الموقف ذلك أيضاً.

وبكلمة بسيطة؛ لقد كنت فلسطينية من البداية حتى النهاية، وهذا لعمري يثير أجمل مشاعر الاعتزاز.

وهكذا، فأنتِ بالنسبة لي جزء من فلسطين، التي تستحق أن يضحي الرجل بحياته من أجلها بلا تردد.

أستعيد شريط حياتنا ولقائنا الأول، وكيف ارتبط مصيرنا معاً، فتراودني بسمة عزيزة وذكرى حلوة تنعش الروح والقلب.

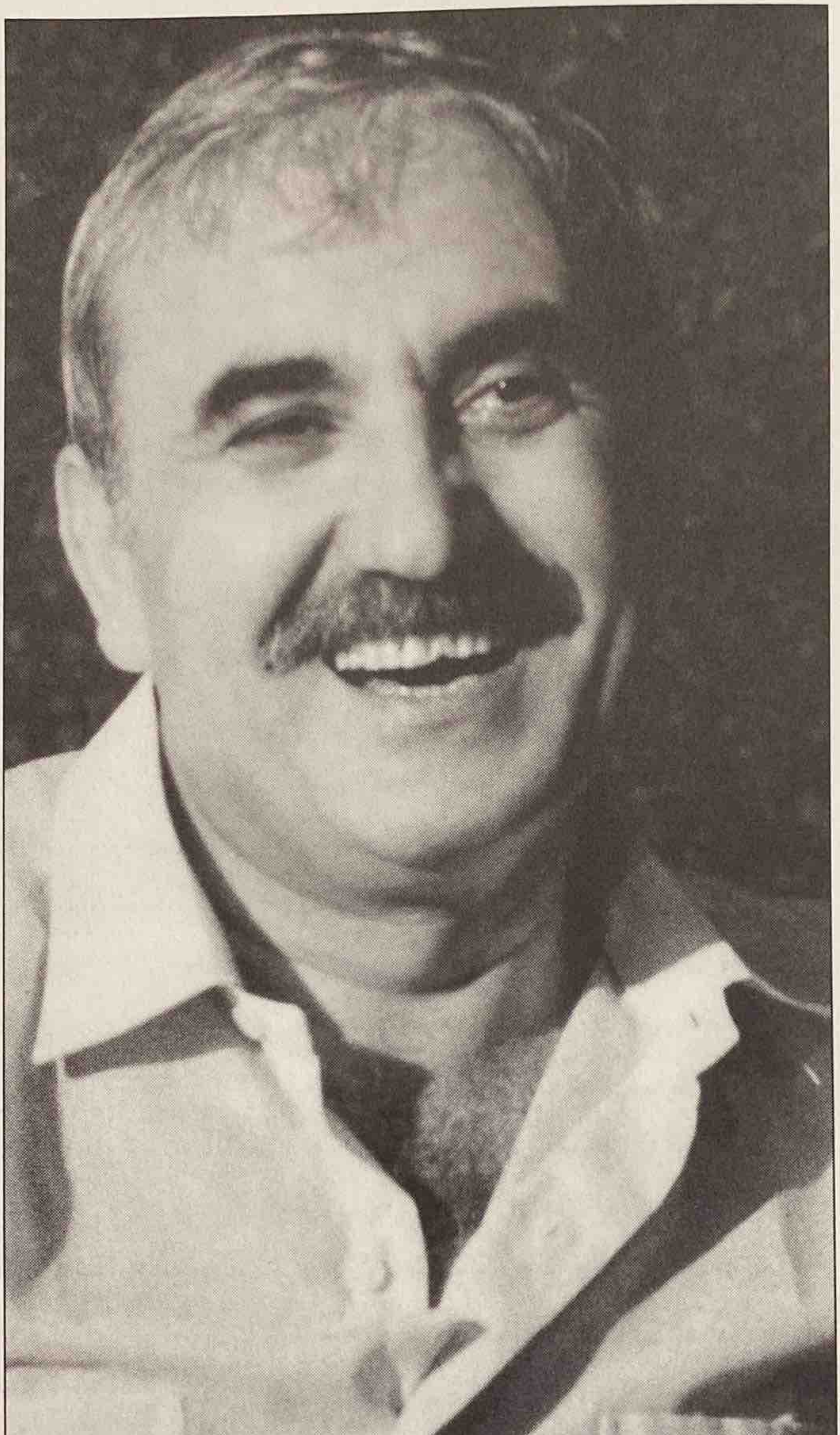
أرفع رأسي فأجدك بجانبي كما أنت، فأشتعل استعداداً لمواصلة الدرب الذي اخترته، أو اخترناه معاً وكأنني في اليوم الأول للثورة.

شكراً للأرض، شكراً للأم التي وهبتني إياك.

وشكراً لك على كل شيء. فلا زال أمامنا الكثير الذي علينا إنجازه معاً.

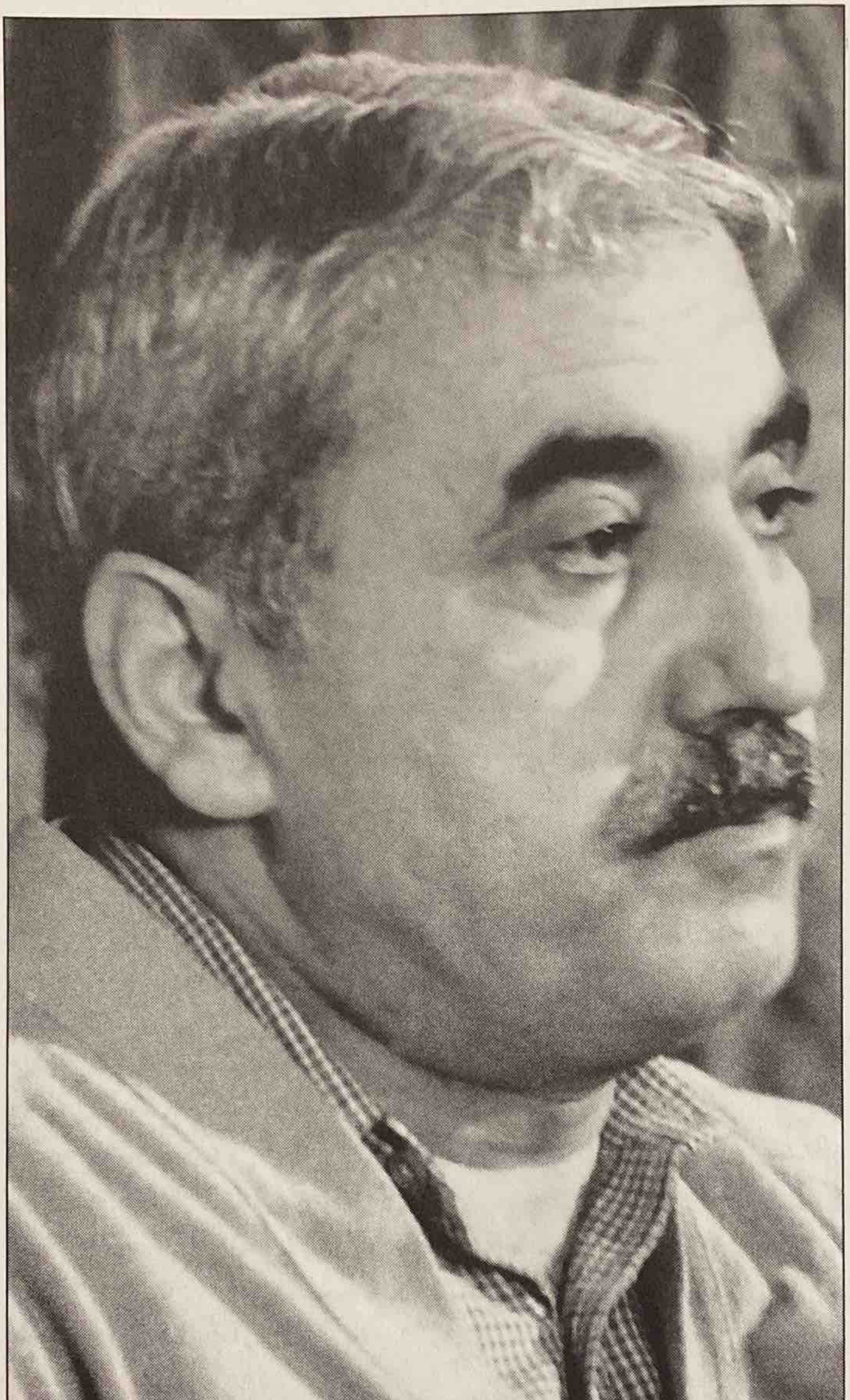
مع خالص حبي

جورج



المحتويات

ملاحق



تقديم
جورج حبش: الاشتباك الأخير

سيف دعنا(*)

«سوف أذهب الى أرض وطني وأقول:
عانقيني بلا أي خوف،
وإذا كان كل ما أعرف القيام به هو أن أتكلم، فأنني لن أتكلم إلا من أجلك
وسأقول لها أيضاً:
فمي سوف يكون صوت كل تلك المآسي التي ليس لها فم،
وصوتي سوف يكون صوت حرية كل الذين يقبعون في زنازين القهر
وعلى الطريق سوف أظل أردد لنفسي
وقبل أي شيء، لجسدي وكذلك لروحي:
حذارِ حذارِ
من القَبول بموقف المتفرج العقيم، لأن الحياة ليست مشهداً،
ولأن بحراً من المآسي ليس مجرد مقدمة مسرحية،
ولأن أنساناً يصرخ من العذاب ليس مجرد دباً راقصاً»

إيميه سيزير

«مذكرات العودة الى أرض الوطن»

«إلّا رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم، بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم، بل أحلى، وهممهم عند الثريا، بل أعلى، إن عُرفوا تنكروا، وإن رُئيت لهم كرامة أنكروا. فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبهم بقاع الأرض، وتفرح بهم أفلاك السماء».

ابن الجوزي في وصف الأبدال

(*) أستاذ علم الاجتماع والدراسات الدولية، جامعة ويسكونسن ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

«الأبدال» أو «البدلاء» في التقليد الصوفي، كما جاء في **لسان العرب**، هم «قوم من الصالحين، بهم يقيم الله الأرض، أربعون في الشام وثلاثون في سائر البلاد، لا يموت منهم أحد إلا قام مكانه آخر فلذلك سُمّوا أبدالاً». ويذكر ابن عربي في **الفتوحات المكية** أن «ثم رجالاً سبعة يقال لهم الأبدال يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، لكل بدل إقليم، وإليهم تنظر روحانيات السموات السبع، ولكل شخص منهم قوة من روحانيات الأنبياء الكائنين في هذه السموات»(1). وينقل هادي العلوي عن ابن شميل: أن «الأبدال خيار بدل من خيار»، وعن ابن السكيت: «سمي المبرزون في الصلاح أبدالاً لأنهم أبدلوا من السلف الصالح (أي قاموا مقامهم بعد ذهابهم). والأبدال هم الأولياء والعباد، سُموا بذلك لأنهم كلما مات منهم أحد أبدل بآخر». أما علامتهم، كما نقل الزبيدي في **تاج العروس** أنه لا يولد لهم، أو «لا يولد لهم ولدا ذكراً»، كما جاء في ترجمة صاحب **مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات**، محمد المهدي الفاسي (وهو من الأبدال، كما ينقل البعض)(2). وإذا وقفنا عند قول الزبيدي أنه لا يولد لهم ولد ذكر، يقول هادي العلوي: ف «هذه حال المسيح الذي لم يتزوج أصلاً. وحال محمد الذي لم يكن له ولد ذكر. وكذلك حال معظم الصوفية من الأقطاب. ومن المعاصرين لم يكن لكارل ماركس ولد ذكر ولم يولد للينين»(3).

أما «الأوتاد»، «الذين يحفز الله بهم العالم»، فهم كما يذكر ابن عربي «أخص من الأبدال»(4). أو أخص الأبدال، في المذاهب الصوفية، وهم أيضاً «أضنان الله». والأضنان، كما يشير هادي العلوي، من الضن، «أي البخل الشديد»، و«ضنائن الله» هم الذين يضن الله بهم عن الفساد. وفي

---

(1) محيي الدين بن عربي، **الفتوحات المكية** (بيروت: دار الكتب العلمية، 2006)، ج 1، ص 236.

(2) «مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات» هو شرح الفاسي لـ «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار» لأبي عبد الله الجزولي.

(3) هادي العلوي، **مدارات صوفية** (دمشق: دار النهج للثقافة والنشر، 1997)، ص 112.

(4) ابن عربي، المصدر نفسه، ص 345.

لسان العرب هم «الخصائص من أهل الله تعالى الذين يضنّ بهم لنفاستهم عنده تعالى، كما قال عليه الصلاة والسلام»: «إنّ لله ضنائن من خلقه ألبسهم النور الساطع يحييهم في عافية ويميتهم في عافية». والأوتاد من الأبدال، كما جاء عند ابن عربي في **الفتوحات**. والقول «إن الله يقيم بهم الأرض هو ما يعطيهم اسم الأوتاد»، وهذا «مأخوذ من الفلك القرآني حيث اعتبرت الجبال أوتاداً للأرض تمنع ميلانها وتثبتها في مستقرها، واستعيرت للأبدال الأوتاد لأن وجودهم على الأرض يمنع أهلها من الفساد ويبقيهم على حال الصلاح والاستقامة فلا تنخسف بهم»[5].

لهذا، فالأبدال، في مذهب الصوفية، هم قوة الخير المضادة، في هذا الكون، لقوة الشر والخراب التي يمثلها الفاسدون والخونة وأصحاب السلطة والمال والجشع. وهم قوة الإنسانية وروحها التي تعطي الحياة معناها وتوازنها وتحميها من خراب قوى الخراب في هذه الأرض. لذلك هم أيضاً كالأوتاد (الجبال) التي تحمي الأرض من الميلان وتحفظ لها توازنها بموازنتها للفساد والخراب الذي يمثله جشع أهل الدولة ورأس المال ورجال الدين.

هكذا كان جورج حبش، من ضنائن الله، ومن أوتاد هذه الأرض. أفنى عمره ثائراً يقاوم العدو، وأفناه يُقَوِّم زيغَ المتنفذين الغارقين في الفساد والخيانة والشر والخراب، ليجعل منا بشراً أفضل، وليعطي لهذه الحياة توازناً يجعل العيش فيها ممكناً ويبقي الأمل حياً. تقرأ كلمات هذا الثائر غير المهزوم، رغم كل الهزائم، وغير المقهور، رغم كل القهر، فلا تطلب ولا تتمنى إلا أن يكون لدى كل منا شيء قليل من هذه القناعة التي لا تتزعزع، وحظ قليل من هذه الشجاعة الفائقة التي لا تهزم، ونصيب صغير من تلك القوة الروحية العظيمة غير القابلة للكسر. تقرأ جورج حبش فتعرف أنه هكذا فقط يكون الثوار الحقيقيون. تقرأ جورج حبش فتتأكد أن

(5) العلوي، المصدر نفسه، ص 112.

هناك طريقاً واحداً ووحيداً للنصر وطريقاً واحداً ووحيداً لتحرير فلسطين هو طريق جورج حبش. تقرأ جورج حبش فتعرف أن هناك تعريفاً واحداً ووحيداً فقط للحرية الحقيقية وتعريفاً واحداً ووحيداً للكرامة هو تعريف جورج حبش. تقرأ جورج حبش فتعرف أن هناك معنىً واحداً ووحيداً للوطن ومعنىً واحداً ووحيداً لفلسطين هو معنى الوطن ومعنى فلسطين عند جورج حبش.

لقد بدا لي صائباً أول الأمر، قبل أن تبدأوا بقراءة النص الأخير لحكيم الثورة الفلسطينية، أن أتكلم قليلاً (وسأتجرأ لأقول باسم الجميع)، في مديح ذلك الرجل الشجاع، الذي سعى، بأكثر مما يستطيع أي إنسان آخر، إلى صوغ الفكرة وصناعة الأمل الذي لا يزال يعيش فينا ويعطينا القدرة على العيش والاستمرار رغم كل شيء. لقد بدا لي الأمر صائباً جداً ونحن نقف أمام كلماته الأخيرة، أن أكتب متحدثاً، ولو قليلاً، باسم جيل جديد أعيد بناؤه في عقيدة الجبهة الشعبية وعقيدة فلسطين الأصلية والأصيلة التي أسس لها وأسسها جورج حبش، تلك العقيدة العروبية الأصيلة التي لا تعرف أي مهادنة مع العدو، ولا تعرف أي مساومة حتى على حبة رمل واحدة من أرض فلسطين. لهذا، فإذا كان هناك أي شيء يجعل من المناسب أن أكتب أنا، أو أي رفيق من جيلي هذا النص، بدلاً من أحد آخر من الرجال ذوي الشعر الأبيض الآن، أولئك الذين كانوا مع الحكيم منذ البداية، وشاركوه في المقاومة وفي المعاناة والتفاني في مشروع تحرير فلسطين لعقود، فهو فقط الأمل بأن تكون هذه مناسبة لنا جميعاً لنجدد التزامنا ووفاءنا مرة جديدة لهذا الرجل العظيم، ولنهجه، ولطريقه الذي اختطه منذ خسارتنا فلسطين وحتى اللحظة الأخيرة من حياته.

لا أكتب مدخلاً لهذا الكتاب الذي يصدر في الذكرى الحادية عشرة لرحيله خضوعاً للحزن، أو للوعة المشتاق المصاب بفقدان الحبيب والقدوة، بل من أجل تمجيد هذه الروح العظيمة التي أعطيت لنا، ولكي ندخل مجدداً في شراكة وثيقة وعهد جديد وقَسَم جديد مع هذا الرجل

الشجاع والمثال. فالكثيرون منا يشعرون بهذه الشراكة، ويشعرون بحاجتهم إليها الآن أكثر من أي وقت مضى. فلقد كان جورج حبش قائداً ومقاوماً ومثالاً؛ كان مثالاً في نعمة البطولة الفريدة، والتفاني اللامحدود، التي كانت طريق حياة وطريقة عيش واحدة ووحيدة له. كان مثالاً في قوة روحه ووضوحه وصدقه وتفانيه وصلابته وشجاعته التي فضحت كل أولئك «القادة» المزورين بضعف روحهم وكذبهم واستسلامهم وخنوعهم وجبنهم. وكل هذه الروعة والعظمة والقوة كانت متوافقة تماماً، رغم كل ذلك، مع التواضع المذهل لرجل مثله وبمقامه، وببساطة التفاني اللامتناهي حتى اللحظة الأخيرة من أجل فلسطين وأهلها والوطن العربي وأهله. وشراكتنا مع الحكيم وعهدنا له هما شراكة وعهد، كذلك، مع كل الذين أفنوا أعمارهم يقاومون على طريق تحرير كل الوطن المسلوب. شراكة وعهد حتى النهاية مع كل الذين أفنوا أعمارهم يقارعون الصهيونية في الزنازين أو في ساحات القتال. شراكة وعهد مع كل الذين أصبحت فلسطين قضيتهم الأولى والأخيرة، قضيتهم العامة وقضيتهم الخاصة، وأعطوها، مستلهمين القليل من نموذج القائد جورج حبش، كلَّ ثانية من أعمارهم الفانية. أكتب باسمنا جميعاً لنتعهد للحكيم، ونتعهد لكل هؤلاء الأبطال، بالوفاء والقسم والعهد، وأن نتعهد أولاً وقبل أي شيء لفلسطين حبنا إلى الأبد، واستعدادنا للتضحية من أجلها وفي سبيلها بكل شيء وبأي شيء، وأن نتعهد للصهاينة الأعداء كرهنا وحقدنا وعزمنا على مقاومتهم حتى النهاية.

عن النص

«ولادة القارئ ستكون حتماً على حساب الكاتب»، جادل رولاند بارث في موت الكاتب. فعلى القارئ، يقول، تقع مسؤولية الإمساك بالمعنى النهائي للنص، وبالتالي، فالقارئ، بكل مواصفاته وخلفيته وإمكانياته وهوياته، وليس الكاتب، هو المسؤول الأول والأخير عن فهم النص (وبالتالي

عن نجاح هذا النص أو فشله). لهذا يجادل بارث، أيضاً، بأنه ينبغي فصل النص عن صاحبه لتحريره من «طغيان التفسير». وفي مخالفة ظاهرية (ظاهرية فقط في رأيي) لهذه الرؤية، يركز ميشيل فوكو، في نص يقصد منه، كما فهمه كثيرون، مخالفة زعم بارث، على «وظيفة الكاتب» التي تتمحور حول دوره التصنيفي للنص في سياق خطابي معين. يبدو في نص فوكو، **ما هو الكاتب**، دورٌ ما للكاتب (ظاهرياً في الحقيقة لا أكثر)، وهو ممكن فقط في سياق خطابي. بصورة أدق، تضيء رؤية فوكو، بتركيزه على الخطاب، على مجالات وإمكانيات السيطرة والتحكم بالمعنى الذي تحدد معه وتحد بدورها بالضرورة دور الكاتب. هذا الجدال الباريسي - الباريسي ما بعد الحداثي، بالشكل والجوهر، لم ينتهِ حتى رغم التدخل الساحر لجاك دريدا لاحقاً في **ميتات رولاند بارث**. هو جدال باريسي - باريسي يشوبه الكثير من الترف الذي لا يعرفه ولا حتى يهتم به الكثير من الكتاب (والنصوص) الذين تأخذ الكتابة عندهم معنىً وهدفاً ودوراً ووظيفة مختلفة.

فالكتابة «فعل تاريخي» لدى من يرى نفسه منخرطاً جدياً في واقع عصره. وفي حالة العرب، وخصوصاً بعد هزيمة عام 1967، أصبحت الكتابة «فعلاً مقاوماً» بامتياز، كما جادل الناقد المصري غالي شكري. ففي حين شكلت النكبة سؤال العرب الوجودي، وسؤال إمكان استمرارهم التاريخي كشعب وثقافة، وسؤال تحولهم من أمة في طور عملية تاريخية من التشكل أصابتها النكبة بحالة قطع عنيفة إلى أمة تدخل مسرح التاريخ، أصبح على الكاتب العربي «إنتاج فكر ولغة يجسدان إرادة الدفاع عما هو مهدد بالانقراض في الحياة العربية»[6].

الكتابة فعل مقاومة وفعل اشتباك. لهذا بالضبط لا يزال الشهيد غسان كنفاني يحتل مكانة فريدة ومتميزة بين كل الكتاب العرب والفلسطينيين. فهو لم يكن مسكوناً في كتاباته بتصوير الحاضر القادم من ماضي النكبة

(6) Edward Said, *Reflections on Exile and Other Essays* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2000), p. 48.

فقط، بل، وربما أهم من ذلك، كان مهموماً باستتباع ذلك بفتح آفاق للمستقبل. لهذا كان كل نص لكنفاني، أدبياً كان أم سياسياً، أشبه ببيان ثوري. فكنفاني كان نموذجاً لكاتب من نوع خاص جداً اقتضت وجوده الحالة العربية الجديدة. فما بعد النكبة، وتحديداً ما بعد ثورة 1952 في مصر، التي ساهمت في التأسيس لنشوء حركات التحرر، «تفاقم دور الكاتب»، كما جادل إدوارد سعيد في **تأملات في المنفى**. هكذا كانت الدعوة إلى الثورة «دقوا جدران الخزان» في **رجال في الشمس**. ولهذا ذكر الحكيم في رسالة التعزية لآني كنفاني «إننا تلقينا (باستشهاد غسان) ضربة موجعة جداً»[7].

الكتابة فعل مقاومة وفعل اشتباك. فأهم ما قام به قسطنطين زريق، صاحب **معنى النكبة**، وأحد ملهمي الحكيم، في كتابه عن النكبة، غير تعريفه للحدث وحفره للمصطلح، هو «إلقاؤه الضوء على مشكلة الحاضر، موقع المعاصرة الإشكالي، الذي يشغله العرب ويعملون على إعاقته». فلقد أدرك مبكراً أن ما ينبغي على «الكتّاب» العرب القيام به بمعرفة ودراية هو خلق الحاضر تمهيداً لمعركة استعادة الاستمرارية التاريخية، ورأب الصدع الذي تسببت به النكبة، والأهم من كل ذلك إطلاق إمكان تاريخي للتغيير.

الكتابة فعل مقاومة وفعل اشتباك. لهذا بالضبط علق باولو فريري في كتابه **تعليم المقهورين** أن «أسلوب [تشي] غيفارا الواضح في سرد تجاربه هو ورفاقه، ووصف علاقته بالفلاحين الفقراء الموالين لهم بلغة إنجيلية تقريباً، يكشف القدرة الكبيرة لهذا الرجل المدهش على الحب والتواصل مع الناس»[8].

---

(7) انظر ص 219 من هذا الكتاب.

(8) Paulo Freire, *Pedagogy of the Oppressed* (New York: Bloomsbury, 2012), p. 171.

الكتابة فعل مقاومة وفعل اشتباك. هكذا يتوجب قراءة النص الأخير، وفهم الفعل الأخير، لجورج حبش وإدراك الهدف منه. فهذا النص ليس سرداً بلا غاية، أو هذا ليس سرداً أراد له صاحبه أن يكون نوعاً من التاريخانية أو السرديات الأكاديمية أو المذكرات الذاتية. ليس سرداً أراد له صاحبه أن يكون مجرد أرشفة أخرى للتاريخ بلا غاية أو لمجرد الأرشفة. فالتاريخ يجب أن يُقرأ أولاً وأخيراً كحالة أيديولوجية. يجب أن يُقرأ كتحفيز لعمل مستقبلي. يجب أن يُقرأ كخارطة طريق للمقاومة والتغيير والثورة. ففي نهاية الأمر، كل الحقائق التي يختارها مؤرخو أي مرحلة من بين آلاف الحقائق الأخرى، هي (لذلك) ذاتية وسياسية أولاً وأخيراً، كما جادل مؤرخ الثورة البلشفية إدوارد هاليت كار. لهذا، فجوهر التأريخ ليس النص وحده أو بحد ذاته (على أهميته)، بقدر ما هو الاستشراف والأفق الذي يفتحه أمامنا، فيضع السرد أو النص نفسه في حيز المقاومة وسياقها في المستقبل، وحتى يمكن أن يعمل على تأسيس مسارها بفتحه آفاقاً من الإمكانات التحويلية ـ هذا هو المعنى الحقيقي لفكرة أن «الناس تموت والفكرة لا تموت».

الكتابة فعل مقاومة وفعل اشتباك، لأن الفعل والاشتباك المقصودين هنا بالذات هما اشتباك وفعل من أجل تكوين الوعي وخلق الإنسان من جهة، وإسقاط الخرافات (من خرافة «إسرائيل» نفسها إلى كل الخرافات التي يسوقها المهزومون)، من جهة أخرى. الكتابة فعل مقاومة واشتباك، لأن الكتابة عمل، ولأن العمل نفسه (والفعل المشتبك نفسه) هو الشيء الحقيقي الوحيد في التاريخ، والشيء الحقيقي الوحيد في هذه الحياة، وما عداه هو الخرافة والتزوير. لهذا، فالكتابة كـ «فعل مقاومة وفعل اشتباك» هي أكثر توصيف مناسب للنص الأخير الذي تركه لنا جورج حبش، ويُنشر بعد أحد عشر عاماً على رحيله. فهذه ليست محاولة للتأريخ بقدر ما هي أحدى محاولات الحكيم المتعددة للاشتباك مرة أخرى مع الأسئلة الكبرى التي أرَّقته منذ اتفاقيات أوسلو، وتحديداً مع انعقاد المؤتمر الخامس للجبهة

الشعبية (1993) حين أرسل الحكيم أول إشارات العزم على التخلي عن الأمانة العامة، وأصر عليها ونفذها في المؤتمر السادس (2000) من أجل خوض مرحلة جديدة من النضال تتمثل، كما كتب، بالعمل «على إنشاء مركز [الغد] الذي يُعنى بدراسة تجربة حركة القوميين العرب ومن ثم الجبهة الشعبية والأحزاب القومية الأخرى، وكذلك تجربة الثورة الفلسطينية المعاصرة، وأيضاً العمل القومي منذ النكبة، بحيث تكون تجربة الجبهة والحركة والأحزاب والتجارب الأخرى درساً مفيداً لمتابعة النضال الوطني والقومي، من دون أن يعني ذلك ابتعادي من ساحة النضال الوطني والقومي»[9].

في ثنايا هذا النص لا توجد فقط الكثير من الأسئلة التي كانت تؤرق حبش وكان يرى في التصدي لها والإجابة عنها مسؤولية ثورية ووطنية وقومية وإنسانية، وليس في هذا النص فقط الكثير من الحديث في التاريخ وعن التاريخ والأحداث والتجارب الفردية والجمعية، بل يوجد أيضاً الكثير مما يمكن أن نفهمه ونعرفه عن شخصية صاحب هذا النص وروحه وقلبه، والنموذج الذي ينبغي أن يكون عليه الثائر الحقيقي والقائد الحقيقي والمقاوم الحقيقي، ما دفعني إلى البحث عميقاً في نصوصنا التراثية لاستلهام توصيف لهذه الروح الفذة والفريدة. فعقب النكبة مباشرة، يكتب الحكيم، «حصلت عملية الاندماج الكلي والصادق بيني وبين العمل الكلي من أجل قضية شعبي ووطني»[10]. وهذا النص يؤكد أن هذا الاندماج الكلي رافق الحكيم حتى اللحظة الأخيرة من حياته، فقد رحل هذا المقاوم العظيم مبتسماً وهو يسمع أخبار أبطال غزة يكسرون الحدود بين فلسطين ومصر، فتأكد أن المراهنة على الناس التي أفنى عمره من أجلها لا يمكن أن تخيب أبداً.

(9) انظر ص 305 من هذا الكتاب.

(10) انظر ص 62 من هذا الكتاب.

في ثنايا هذا النص صدق ووضوح وشجاعة نادرة في زمن يدعي فيه «البطولة» و«الصراحة» و«الوضوح» كل من أراد ذلك فقط لتبرير تخاذله وعجزه وكذبه واستسلامه. «إنني عادة أحدد موقفي السياسي وموقف الجبهة بعد تأنٍ وتفكير، ولكنني أعترف أنه في سياق الثورة تأتي لحظات أفكر فيها بعقلي وقلبي ووجداني معاً»[11]. هذا ما قاله الحكيم، في سياق تفسيره لمقولة «سادات فلسطين» التي نعت بها عرفات عقب زيارته نظام كامب دايفيد، وظل يرددها لاحقاً رغم عتب البعض من رفاقه عليه لخروجه عن «حدود اللياقة السياسية». لهذا فنص الحكيم الأخير يصلح أن يكون بياناً ثورياً حقيقياً يؤسس لمراجعة حقيقية لمرحلة سابقة مليئة بالبطولات، وحتى مليئة بالمعجزات، ولكنها مليئة أيضاً بالمآسي والهزائم والخداع.

في ثنايا هذا النص أيضاً حديث عن التاريخ وفي التاريخ، ولكن بإيقاع ثوري فريد يعيد إلى الذاكرة الخطاب الثوري الفلسطيني الأصلي والأصيل، ويعيد إلى الذاكرة بيانات الجبهة الشعبية ووثائقها الأولى ونصوص الميثاق الوطني غير المعدل، وكأنها محاولة لبث الحياة من جديد في روحنا: «كانت وجهة نظر أبو عمار وفتح وعدد كبير من أعضاء المجلس الوطني وبعض الفصائل هي قيام دولة فلسطينية إلى جانب «إسرائيل»، أي قيام دولتين على الأرض، **بينما كانت الجبهة الشعبية تريد دولة على الأرض مع الاستمرار في النضال من أجل إزالة هذا الكيان الصهيوني البغيض**»[12]. هكذا يذكرنا الحكيم، بما قاله مرة الشهيد عماد مغنية، عن الهدف الذي علينا ألّا ننساه أبداً وأن نعمل من أجله كل لحظة، وأن نضحي في سبيله بكل شيء: «الهدف واضح ومحدد ودقيق: إزالة «إسرائيل» من الوجود».

لكن هذا النص، رغم كل ما فيه، غير مكتمل، وهي في الحقيقة «طبيعة الأشياء»، كما يذكر بابلو نيرودا في مذكراته. فالحكيم كتب هذا النص على أجزاء وعلى نحوٍ متقطع وعبر مراحل زمنية متباعدة أثناء انهماكه في العمل

(11) انظر ص 274 من هذا الكتاب.

(12) انظر ص 291 من هذا الكتاب.

الحزبي أولاً والثقافي لاحقاً، وفي ظروف سياسية متقلبة. لهذا رحل الحكيم قبل أن يكمل وقبل أن يغطي كلياً بعض المراحل، وجزئياً بعضها الآخر، وخصوصاً التجارب ذات البعد الفردي، فظلت بلا تفاصيل (تجربة المرض والعلاج في فرنسا مثلاً ـ انظر الفصل [22] من هذا الكتاب). لكن ما تركه الحكيم من صفحات كفيل بأن يعطي القارئ لمحة عن تجربة إنسانية وثورية فريدة ونادرة هي التي صنعت الحكيم. ففيها الحكيم القائد الفذ، والحكيم الإنسان المرهف الحس، والحكيم العنيد، والحكيم الأب والزوج، وفوق كل شيء الحكيم المؤمن بالنصر واستعادة فلسطين.

الخروج من اللد: ولادة الثائر جورج حبش

يوم الإثنين الموافق 24 أيار/مايو 1948، دَوَّنَ دايفيد بن غوريون في مذكراته: «علينا تنظيم مجموعة الألوية الجديدة وتعزيز [الألوية] القديمة. وينبغي إقامة لواء من أفراد «كرياتي» بقيادة لرر [تسادوك]. لدى تسلم المدافع، يجب تدمير الرملة واللد فوراً»[13]. بعدها بأسبوع، في 30 أيار/مايو 1948، سَيَرِدُ ذِكر اللد والرملة مرتين في تدوينات بن غوريون لذلك اليوم: «أثرت مسألة الرملة ـ اللد، إذ إن هاتين النقطتين خطرتان من جميع النواحي، ومن شأنهما أن تشكلا قاعدة للهجوم على تل أبيب والمستوطنات و[الطريق] إلى القدس. وفي مقابل ذلك، فإن احتلالهما يحرر مناطق وقوات ويعزل خطوط المواصلات العربية. أليس من المجدي خفض قسم من القوة الناشطة في الشمال «البعيد»؟ بموجب الخطة ـ المفروض على «كرياتي» أن ينشط ضد اللد هذه الليلة، علاوة على القليل من الإزعاج [المدفعي] للرملة»[14]. وفي مساء ذلك اليوم (30 أيار/مايو 1948)، خرج بن غوريون مسرعاً من جلسة الحكومة قبل أن تنتهي متوجهاً

(13) ديفيد بن ـ غوريون، **يوميات الحرب: 1947 ـ 1949** (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1993)، ص 359.

(14) المصدر نفسه، ص 369.

إلى «رامات غان» حيث القيادة العامة (الساعة السابعة مساءً) عقب وصول برقية في شأن قرار مجلس الأمن المتعلق بوقف إطلاق النار في اليوم التالي، واستدعى «يغئيل [يادين]، ويوحنان [راتنر]، ويسرائيل [غاليلي]، واقترح[ت] عليهم أن نرسل إلى ييغال [آلون] فوراً أمراً بأن ينزل مع كتيبة واحدة غداً فجراً كأقصى حد، كي نتمكن من احتلال اللد والرملة، إذا تمكنوا من احتلال اللطرون، وأن ينقلوا كتيبة أخرى إلى القدس هذه الليلة من أجل ضمان صمود القدس والسعي لإزعاج المثلث من جنين وطولكرم [كي] يحين موعد بدء وقف إطلاق النار - إذا انصاع له العرب هذه المرة. ونكون في وضع أفضل مما نحن عليه الآن»[15].

ورغم انشغال بن غوريون بجبهتي الشمال والجنوب المشتعلتين بشدة حينها، إلا أن جبهة الوسط (حيث اللد والرملة) كانت الأكثر إثارة للقلق لديه، كما تشير مذكراته. وكما يتضح من يوميات الحرب التي تركها. فالحرب على اللد والرملة كانت جزءاً أساسياً من حرب القدس، و«حرب القدس هي حرب أرض إسرائيل»، يقول بن غوريون، «لا بسبب أهميتها التاريخية فحسب، بل لأسباب استراتيجية أيضاً، والحرب ليست من أجل طريق القدس فحسب. لا يكفي طريق بين تل أبيب والقدس من أجل إحكام سيطرتنا على القدس. هناك حاجة إلى امتداد جغرافي. وقد ثبت في هذه الحرب أنه لن تقوم للقدس اليهودية قائمة من دون ارتباط ما بالدولة اليهودية ذي امتداد إقليمي»[16]. لهذا بالضبط أثار بن غوريون قضية اللد والرملة منذ البداية في إحدى جلسات «القيادة» في 11 أيار/مايو 1948: «أبديت ملاحظتين: (1) تدمير الجزر العربية في المستوطنات [في المناطق] اليهودية (الرملة - اللد، وبيسان، وزرعين) التي تشكل خطراً خاصاً في حال الغزو، ومن شأنها أن تفرض إشغال قوات؛ (2) تسليح

(15) المصدر نفسه، ص 371 (30 أيار/مايو 1948).

(16) المصدر نفسه، ص 414.

القدس بصورة متزايدة ـ حتى لو استمرت الهدنة، [وذلك بسبب] أهمية القدس في حد ذاتها»[17].

اللافت للنظر في تدوينات بن غوريون هذه، وغيرها الكثير، ليس الحديث الواضح عن «التدمير» و«التدمير الفوري» و«تهجير العرب»، بل إنهم قاموا بذلك فعلاً. لهذا كانت المجازر أولاً، كما حدث في مسجد اللد حيث احتمى المدنيون العزّل قبل أن تقوم العصابات الصهيونية بقتلهم في مجزرة رهيبة أصبحت موثقة في الأرشيفات الصهيونية رغم أننا لا نحتاج إلى ذلك لنعرف أن أهلنا قد ذبحوا هناك بلا رحمة (500 مدني تقريباً، برغم الاعتراف الصهيوني بما بين 200 و300)[18]، وكان كذلك القتل العشوائي أيضاً وإطلاق النار على أي شيء وكل شيء أثناء محاولة احتلال اللد والرملة. في ذلك اليوم (11 تموز/يوليو 1948) فشلت الكتيبة الثالثة للبلماح من اقتحام دفاعات اللد التي أقامها أهلها والمتطوعون من القوات الشعبية، فقام ييغال آلون بإرسال اللواء الثامن (الكتيبة الثامنة والتاسعة) بقيادة موشي ديان. فدخلت، كما تروي الأرشيفات الصهيونية نفسها، «عرباتهم نصف المجنزرة، عربة مدرعة، وسيارات جيب عسكرية يعتليها مدافع رشاشة، مسرعة جنوباً من طريق بن شيمين باتجاه اللد ووصلت أطراف الرملة ـ ثم استدارت عائدة حول اللد إلى بن شيمين. استغرقت الغارة سبعاً وأربعين دقيقة. ويظهر أن القوات كانت تطلق النار على أي شخص في طريقها»[19]. ويذكر أحد أفراد العصابات الصهيونية ويدعى «جدعون» في شهادته: «كانت سيارة الجيب العسكرية التي أركب فيها تقوم بالدوران أمام مدخل أحد المنازل، وفي المقابل كانت طفلة تقف وتصرخ وعيونها مليئة بالخوف والفزع. كان جسدها ممزقاً وينقط دماً،

(17) المصدر نفسه، ص 316.

(18) Benny Morris, *1948: A History of the First Arab-Israeli War* (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), p. 290.

(19) Ibid., p. 289.

وحولها كانت جثث أفراد عائلتها ملقاة على الأرض. [ثم تساءلت] هل أطلقت أنا النار عليها؟ ولكن لماذا هذه الأفكار، فنحن في أوج معركة، في أوج احتلال مدينة. العدو في كل زاوية. الجميع أعداء. اقتل! دمر! اذبح! وإلا سوف تُقتل أنت ولن تستطيع احتلال المدينة»[20].

عقب سقوط اللد والرملة وطرد من بقي حياً من أهلها العرب بالقوة، بدأت مسيرة طويلة وصعبة في أشد أيام العام حرارة على الأقدام باتجاه رام الله ـ تشبه إلى حد بعيد «مسيرة الدموع» التي سارها سكان أمريكا الأصليون المطرودون من وطنهم في جنوب شرق الولايات المتحدة باتجاه الشمال الغربي. وفي أثناء المسيرة سقط العشرات من سكان اللد الصغيرة من الأطفال والعجائز من العطش والجوع والحر وكانت جثثهم ملقاة على جوانب الطريق إلى رام الله ـ يذكر الحكيم الذي عاش كل تلك الأيام بتفاصيلها المؤلمة أن كتاب **الطريق إلى بئر السبع** للإنكليزية إيثيل مانين[21] التي تصف رحلة الخروج المؤلمة من اللد والمسيرة إلى رام الله وعذاباتها، ليس فيه «أية مبالغة... بل أستطيع القول إن المأساة كما عشتها كانت أكثر حدة مما أظهرته تلك الرواية»[22].

لكن من يقرأ الرواية يعرف أن أكثر ما شد الحكيم إليها، ربما، ليس التفاصيل المؤلمة لسقوط اللد أولاً ثم الترحيل القسري لأهلها، فتلك تجربة عاشها حبش لحظة بلحظة. لكن في كتاب مانين ما يلفت الانتباه من إصرار على التمسك بالوطن وعدم اليأس رغم كل ما حصل، ويبدو أنها كانت فعلاً تدور في خاطر الحكيم حينها. فتقرأ على لسان بطرس منصور: «لم يستطيعوا أن يقتلونا. لم يقتلوا منا إلا الطاعنين في السن فقط والصغار جداً. لقد أخرجونا إلى البرية لنموت كالكلاب ولكننا لم نمت.

---

(20) Ibid., p. 289.

(21) إيثيل مانين، **الطريق إلى بئر السبع** (دمشق: طلاس للدراسات والنشر، 1985).

(22) انظر ص 59 من هذا الكتاب.

إننا لم نزل هنا. معظمنا على الأقل»[23]. والأهم، تقرأ على لسان وليد، أحد الشخصيات الرئيسية التي انتهت بالتسلل إلى بئر السبع للتأسيس للمقاومة في رفضه لكل مبررات الاستسلام والإصرار على المقاومة: «وإسرائيل؟ ألم تبدأ فكرتها بحلم أشد من هذا الحلم (تحرير فلسطين) إمعاناً في الخيال؟ لو سيطر هذا الحلم على قلوب مليون فلسطيني شاب فلا بد من أن يحفزهم على تحويل الحلم إلى حقيقة، بالإصرار والكفاح»[24].

لكن الدمار، والمجازر، والتهجير القسري التي حلت باللد، وكان الحكيم شاهداً حيّاً عليها وعاش مآسيها لحظة بلحظة مع أهله وأبناء بلدته، لم تشكل لحظة الولادة الحقيقية فقط لثائر حقيقي ومقاوم عنيد لا يتعب ولا يعرف التعب، ولا يهزم ولا يعرف الهزيمة، كما تدل على ذلك مذكراته. لكن تلك الظروف وتلك المآسي كانت مناسبة لتكشف الجوهر الحقيقي لجورج حبش وروحه الثائرة. ليس ذلك فقط لأن الحكيم عرف منذ البداية أن الهدف من هذه الحرب ومن هذا المشروع الصهيوني هو «اقتلاعنا من الجذور»[25] لذلك لم يتردد في حمل السلاح منذ البداية حين انضم إلى «كتائب الفداء العربي»[26]. وليس ذلك فقط لأن الحكيم قاوم لأكثر من ستين عاماً بعدها من دون أن ينال منه اليأس أو الهزيمة للحظة واحدة. بل لأن هذا المقاوم العنيد، جورج حبش، كان معداً أصلاً لأن يكون إنساناً من نوع خاص جداً وثائراً من نوع خاص جداً عرفنا مثله في تاريخنا العربي كما في تاريخ الشرق. وفي هذه الأيام، الأسابيع الأولى من تموز/يوليو 1948، تكشفت الأحداث التي حلت باللد وفلسطين عن ثائر عربي من نوع خاص جداً أفنى عمره حتى اللحظة الأخيرة يقاوم من أجل استعادة وطنه المسلوب والعودة إليه. ثائر من نوع خاص لم يكن ليقبل أقل من

(23) مانين، المصدر نفسه، ص 82.
(24) المصدر نفسه، ص 207.
(25) انظر ص 56 من هذا الكتاب.
(26) انظر ص 65 من هذا الكتاب.

تحرير حقيقي وكريم لكل فلسطين، وعودة كريمة لكل أهلها علها تمسح قليلاً من عار الهزيمة وذل الشتات. لهذا رفض أن يعود بالشروط التي عاد بها الآخرون جازماً أن عودته ستكون فقط مع عودة آخر لاجئ من الشتات. في تلك الأيام تكشفت الأحداث عن ثائر عربي حقيقي هو امتداد لتقليد ثوري إنساني فريد عرفه تاريخ العرب وتاريخ الشرق فكان خير سليل لهذا التقليد العظيم.

سليل المشاعية الثورية

«أن تعيش في قلوب من تركت خلفك
يعني أنك لن تموت أبداً»

توماس كامبل «الأرض المقدسة»

سُئِلَ الحلّاجُ على الصليب: ما التصوّف؟ قال: «أهونُ مِرقاةٍ منه ما تراه». ويضع إسنادٌ صوفيٌّ آخرُ السؤالَ على لسان بندر بن حسين الشيرازي، فيأتي الجواب: «ابتداؤه ما تراه، وانتهاؤه تراه غداً»[27].

كان هذا المشهد، على صليب الحلّاج، ذروةَ سيرورة خطّ التصوّف الاجتماعيّ، بحسب هادي العلوي في تقديمه لأخبار الحلّاج. فليس التصوّفُ الزهدَ فقط؛ كما أنّه ليس الدروشة، كما هو شائع، رغم انتكاسِه إلى تلك الحال في المرحلة العثمانيّة. لقد كان جوهرُ الوعي في التصوّف، وفي خطّه الاجتماعيّ على وجه الخصوص، هو المعارضةَ (أو المقاومةَ بلغة عصرنا): معارضةَ سلطةِ الدولة، وسلطةِ رأسِ المال، وسلطةِ الدين. وكانت الثورةُ أساسَ مبادئه الأولى مع المتصوّف الأوّل إبراهيم بن أدهم (رغم مشاركة التصوف المعرفي معه أيضاً معاداته للقمع، كما هي عند ابن عربي).

---

(27) لويس ماسينيون، آلام الحلّاج، ترجمة الحسين مصطفى الحلاج (بيروت: قدمس للنشر والنشر، 2004)، ص 503.

فابنُ أدهم كان مقاوماً شجاعاً برغم معاداته الجذريّة لسلطةِ الدولة قبلها وحينها وبعدها (الدولة كلّها شرّ)؛ فبعد أن حمل السيفَ على الحدود الشاميّة ضدّ الغزوات البيزنطيّة، رفض المشاركةَ في الغنائم، بل رفض حتى الحصولَ على تعيينات الطعام من الجيش، وظلّ يعمل بيديه ليقوتَ نفسَه في الأيام الفاصلة بين المعارك. وبعد ابن أدهم، تطوّر خطٌّ التصوّف الاجتماعيّ تدريجاً ليصل إلى ذروةَ المقاومة والتمرّد والثورة مع صلب الحلّاج، الوثيقِ الصلةِ بثورة الزنج، التي هي إحدى أهمّ الثورات في التاريخ العربيّ ـ الإسلاميّ، وليتمثّلَ لنا لاحقاً في عصرنا عبر روح ثائرٍ عربيٍّ استثنائيٍّ هو جورج حبش.

«أهونُ مِرقاةٍ منه ما تراه»: هذا توصيفٌ فذٌّ لحياة المتصوّفين المقاومين اللقاحيّين المشاعيّين؛ فهو يذكّر ببعض العبارات من **فارس الأمل**، رائعةِ جورج أمادو عن لويس كارلوس برستس، أحدِ أعظم ثوّار أمريكا اللاتينيّة: «من السهل الموتُ في سبيل الحريّة. إنّما من الصعب العيشُ حياةَ آلامٍ ونضالٍ من دون يأسٍ وتخاذل، من دون بيعٍ للنفس وانحناء. فالحريّةَ تتطلّب أكثرَ من الموت؛ إنّها تتطلب أن يهبَها الإنسانُ كلَّ لحظاتِه وكلَّ قواه».

«أهونُ مرقاة منه ما تراه»: توصيفٌ فذٌّ يذكّر كذلك بتجربة جورج حبش، أحدِ أعظم أبطال فلسطين والعرب في عصرنا. فحياته كانت «سلسلةً من الأعمال الشاقّة،» كما كتب أنيس صايغ في تقديمه لـ **الثوريّون لا يموتون أبداً**، سرد لنا قليلاً منها فقط حكيمُ الثورة في مقابلته مع جورج مالبرينو. لكنْ، في هذا القليل جدّاً، يظهر حبش واعياً جدّاً، منذ البداية، للعذاب الذي سيَنْتج من خياراته الثوريّة الاستثنائيّة. فالبطولة هي أن تَعرف مسبّقاً أنّ خياراتِكَ سوف تدفعكَ حتماً إلى أن تكون منذوراً، وأن تكون حياتُكَ منذورةً، لكلِّ ما قد يُوجع قلبَ أمِّك. حياة مليئة بـ «الأعمال الشاقّة»، اختارها الحكيمُ بوعيٍ تامّ، فأضحى سليلَ أعظم خطّ ثوريّ اجتماعيّ أنتجه الشرقُ وعرفه العالَم.

«يجب أن يكون هنالك فهمٌ لشخصيّتي. فالقضيّة الفلسطينيّة هي كلُّ ما يَشْغلني. كانت لي علاقةٌ مع الشعب، وليس مع الجهات الرسميّة». هكذا أجاب الحكيمُ الصحافيَّ جورج مالبرينو عن سؤاله «إنْ كان قد قابل أحدَ الملوك»[28]. لكنّ الحكيم، الذي قابل أكثرَ وأهمَّ زعماء العالم والمنطقة، لا يكتفي بأن يتجنّب - وعن قصدٍ كما يبدو - المباهاةَ بذلك، كما قد يفعل (ويفعل) غيرُه من القادة، بل يشارف في حديثه **على الخجلِ الشديدِ من اضطراره إلى لقائهم** في ظروف المقاومة المعقَّدة وتاريخِها الطويل. ثلاثةُ زعماء فقط تشعر وكأنّ عينَي الحكيم تضيئان، وأساريرَه تنشرح، حين يتذكّر لقاءهم: جمال عبد الناصر، وفيديل كاسترو، وحسن نصر الله... إضافة إلى رفاق النضال الطويل، كالشهيد القائد وديع حدّاد، والشهيد الفذّ أبو أمل (محمد عبد الكريم الخطيب) الذي حملت قصةُ شهادته قصةَ مأساة تلّ الزعتر.

في سطرٍ واحدٍ («يجب أن يكون هنالك فهمٌ لشخصيّتي. فالقضيّة الفلسطينيّة هي كلُّ ما يَشْغلني. كانت لي علاقةٌ مع الشعب، وليس مع الجهات الرسميّة»)، يكتشف مَن لم يعرف الحكيمَ سابقاً، ويكتشف مَن ظنّ أنّه عرف شيئاً عنه، روحَ جورج حبش الحقيقيّة. في سطرٍ واحدٍ يكتشف القارئُ سرَّ الاستثنائيّة الثوريّة، وسرَّ فرادة الشخصيّة، وسرَّ التمايز البطوليّ، الذي ميّز الحكيمَ من كلّ قادةِ الثورة الفلسطينيّة الآخرين، وربّما من قادةٍ آخرين لحركات التحرر العربيّة والعالمثالثيّة. في سطرٍ واحدٍ يكتشف القارئ الخيطَ السُّرّيَّ الذي يربط الحكيمَ بـ **السيّد المسيح**، الذي أخرج الأغنياءَ من ملكوته وجعله وقفاً للفقراء؛ **وبعليّ بن أبي طالب**، نبيِّ المشاعيّين العرب، الذي اختار الفقرَ والحرمانَ للأئمّة، والاعتدالَ في العيش دون الحرمان للعامّة؛ **وبلاوتسه**، فيلسوفِ المشاعيّة الصينيّ، ورائدِ

---

(28) جورج حبش، **الثوريون لا يموتون أبداً** (بيروت: دار الساقي، 2009)، ص 289

التاويّة العظيم؛ وبأبي **ذرّ الغفاري**، أوّلِ اشتراكيّي الإسلام، وألدِّ أعداء السلطة؛ وبإبراهيم **بن أدهم**، المتصوّفِ الأوّل، ومؤسّس خطّ التصوّف الاجتماعيّ الذي أعطانا في تطوره الحلاّجَ، شهيدَ ثورة الزنج؛ **وبحمدان بن الأشعث**، زعيمِ سودانِ العراق وثوّارِهم، الذي تحدّى جبروت إمبراطورية العباسيين. في سطرٍ واحدٍ يكشف لنا الحكيمُ كيف **أصبحت البطولةُ عنده طريقةً للعيش**.

في سطرٍ واحد ترى الحكيمَ سليلاً لخطّ التصوّف المشاعيّ الشرقيّ المناضل وفلسفتِه الاجتماعيّة، التي ينبغي أن نستعيدَها في صراعنا الحالي، وخصوصاً شقّها المتعلّق بالنضال من أجل الفقراء ضدّ الدولةِ ورجالِها، والدينِ ورجاله، والمالِ وأصحابِه. فالمشاعيّة، أو الروح المشاعيّة، كما كتب هادي العلوي، هي «من نسيج الشرق، وقد تأصّلت في تراثه، كما في بيئاته الحضاريّة، واتّصلت بالعصر الحديث»[29]. **هكذا تصبح مفردةُ «الحكيم» صفةً ملازمةً ومناسبةً تماماً لشخص جورج حبش، لا مجرّدَ توصيفٍ لمهنة**. فأكثرُ «حكماء الشرق مشاعيّون»، كما يذكّرنا هادي العلوي في **مداراته الصوفيّة**، فيما «أكثرُ ساسته إقطاعيون». والحكماء يتبادلون المعرفة مع الخلق، والسياسيون يتبادلون الأخذَ والعطاءَ مع المالكين.

في سطرٍ واحدٍ تكتشف قلبَ الحكيم الاستثنائيّ، وتعرف لماذا لم يخسرْه لحظةً واحدة، ولهذا لم يخسرْ نفسَه أبداً، ولم يخسرْ روحَه أبداً، فتعرفُ سرَّ الاستثنائيّة الثوريّة التي لم يعرفْها ولا يعرفُها ـ وربما لن يعرفَها ـ أيُّ قائد فلسطينيٍّ آخر. تقرأ عبارة الحكيم، فيتراءى لك خيالُ إبراهيم بن أدهم، وخيالُ رابعة العدوية، سليلَي مشيعةِ الإسلام والشرق. فالأوّل كان يتجنّب مصافحةَ مَن له علاقةٌ بالدولة أو برجالِها، فضلاً عن عدائه المطلق لأصحاب المال ورجال الدين؛ أما الثانية، فيُحكى أنها فقدتْ قلبَها لأنّها أصلحتْ فتقاً في ثوبٍ لها في ضوء مشاعلِ السلطان، وقد بقيتْ على تلك

(29) هادي العلوي، في الإسلام المعاصر، ص 9،

الحال زمناً حتى تذكّرتْ فعلتَها، ففتقت الثوبَ ليعود لها قلبُها! لقد كانت المشاعيّةُ موقفاً وجدانيّاً أصيلاً عند الحكيم عَكَسَ حقيقةَ روحه وطهارةَ قلبه، ولم تكن مجرّد خيارٍ فكريّ أو ثقافيّ تطوّرَ عنده مع الأيّام.

وحين يُعَرِّفُ الحكيم نفسه في اللقاء نفسه بأنّه «مسيحيّ اشتراكيّ ماركسيّ»[30]، يتبادر إلى ذهن تلامذة التاريخ السيّدُ المسيح، الذي أحبّه الصوفيّون، فكان أقربَ الأنبياء إلى قلوبهم؛ السيّدُ المسيح الذي لم يملكْ يوماً ما يزيد على قوته، وعاش حياتَه القصيرةَ وهو يدعو إلى إنصاف الفقراء ويندّد بالأغنياء. تقرأ الحكيم، فتتبادر إلى ذهنك قصّةُ حواريّي السيّد المسيح الذين حاولوا تأسيسَ تجمّعات مشاعيّة للفقراء؛ كما فهموا حقيقةَ رسالة المسيح الأولى، قبل أن يصطدموا بعنف الإمبراطوريّة الرومانيّة. ويتبادر إلى الذهن أيضاً ما فعله حمدان بن الأشعث، نصيرُ المضطهَدين في العراق، وأتباعُه، قبل أن تسحقهم إمبراطوريّةُ العبّاسيين وتغرقهم في دمائهم. فالمسيح هو نبيّ المشاعيّة عند أغلب سليلي متصوّفي الشرق، ويقابله لاوتسه عند أهل الصين والشرق، وعليّ بن أبي طالب (وتلامذتُه أمثال أبي ذرّ الغفاري وسلمان الفارسي) عند المسلمين.

تقرأ جوابَ الحكيم عن سؤال «لقاء الملك»، فيخيّل إليك أنه انتفض رعباً من الفكرة نفسها؛ فالتشدّدُ في مقاطعة الدولة ليس ميزةَ المشاعيّين الأساسيّة فقط، بل طريقتهم في التحريض عليها أيضاً. صحيح أنّ متصوّفي بلادنا ومتصوّفي الشرق عموماً ومشاعيّيه لم يكرّروا تجربةَ الاصطدام بالدولة بعد تجربة الحلاّج الدامية (باستثناء تجربة عبد القادر الجيلي في العراق)، إلّا أنّهم لم يتوقّفوا عن الدعوة إلى معارضتها المطلقة، لتبقى الدولةُ ورجالُها عندهم جبهةَ المعارضة الأولى، بتكاملها مع جبهتيْ أصحاب المال ورجال الدين (ومثل ذلك قصة بشر الحافي الذي رد هدية (سلة من العنب) جاءته من امرأة لأنها سقت كرمها من ماء نهر حفره

(30) حبش، المصدر نفسه، ص 253.

طاهر بن الحسين ضمن مشروعات الري التي تولتها الدولة. فعنده الماء مشاع ولا يؤخذ منه بأجرة، وحفر نهر طاهر بن الحسين استعملت فيه أعمال السخرة التي يرفضها المشاعيون، هذا عدى عن كون هذا النهر مرفق من مرافق الدولة). للحكيم الحقُّ، إذن، في أن يستفزَّه ذلك السؤالُ، وكلُّ سؤالٍ يربطه بالسلطة. فهكذا فقط يمكنه أن يحافظ على روحه المتمرّدة نقيّةً، وهكذا فقط يمكنه أن يحمي قلبَه الطاهر ليظلّ صافياً حتى النهاية.

بكاء الصوفيّ

يفاجئني الصديقُ والرفيق العزيز فضل النقيب، رفيقُ الحكيم منذ أيّام «حركة القوميين العرب»، في حديثنا الدائم بالكثير ممّا لا أعرفه عن الحكيم، فيؤكّد قناعتي بتلك الروح المتمرّدة، واللقاحيّة، والمشاعيّة، والمتصوِّفة، التي ميّزته من كلّ قادة الثورة الفلسطينيّة الآخرين. لكنه أكّد قناعتي هذه أكثر لاحقاً في ما كتبه في «زمن الحكيم»:

«في إحدى الأمسيات، كنتُ في المكتب وحيداً، أراجع بعضَ موادّ الصفحة العاشرة، وكان الحكيم في الغرفة الأخرى يكتب المقالةَ الافتتاحيّة للعدد الجديد من المجلة. دخلتُ عليه لأرى إذا ما كان قد انتهى من كتابة المقالة كي أرسلَها إلى المطبعة في طريق عودتي إلى البيت، فوجدتُه يمسح دموعَه بإصابعِ يده. وعندما لاحظ أنّي رأيتُ ذلك ابتسم وقال إنّ من عادته أن تدمعَ عيناه عندما يكون منفعلاً من شيءٍ ما. ثم تابع الكتابة. وبعد يومين صدر عددُ **الرأي** الجديد، وفيه افتتاحيّةٌ عن المجازر التي ارتكبتْها إسرائيلُ بحقّ الشعب الفلسطينيّ»[31].

كنتُ أقرأ **زمن الحكيم**، فاتذكر ما قاله عبد المنعم حنفي في أنواع البكاء في «معجم مصطلحات الصوفية»، فأعرف أن هذا «بكاء الوجدان»، وهو

---

(31) فضل النقيب، «زمن الحكيم،» موقع الدكتور جورج حبش، <http://alhakimhabash.blogspot.com/2012/04/2.html>.

أعز رتبة بين كل أنواع البكاء (البكاء خوفاً أو شوقاً أو فرحاً). كنت أقرأ زمن الحكيم وأراه يبكي، فأتخيّل بكاءَ محمد بن طباطبا لمشهد المرأة التي كانت تلتقط الرطبَ المتساقطَ من أحماله حتى تتقوّت به، هي وبناتُها. بكى ابنُ طباطبا حقّاً لما رآه، ثم بلّغ تلك المرأةَ في تلك اللحظة بالذات بعزمه على الثورة. تقرأ عن بكاء الحكيم لمعاناة شعبه، فتتذكّر قولَ المتمرّد المتصوّف عبد القادر الجيلي: «إبكِ له، وإبكِ منه، وإبكِ عليه»؛ فتعرف أنّها روحُ الحكيم الفريدة التي تبكي، وقلبُه الصافي الذي يدمع؛ لكنك تعرف أنّ هذا البكاء أيضاً هو من تلك الحكمة الشرقيّة الثوريّة المشاعيّة: «مَن يزددْ علماً يزددْ وجعاً»، كما يخبرنا أبو الدرداء، في تكرارٍ لما جاء في سِفر الجامعة في **الكتاب المقدّس**: «في كثرة الحكمة كثرةُ الغمّ، والذي يزيد علماً يزيد حزناً»[32].

«كان في أحاديثه السياسية دوماً شيئاً أكبر من السياسة»، كتب فضل النقيب عن جورج حبش، فأكد قناعتي ورؤيتي بانتسابه إلى خط أنبياء الثورة مع المسيح وعلي ومزدك وأبو ذر وإبراهيم وحمدان والحلاج. فبرغم كون أقطاب التصوُّف ومشيعة الشرق كلهم بلا استثناء تقريباً من المثقفين الفريدين في كل عصر، وبرغم مقارعتهم للسلطة ومؤسساتها بلا ملل وبلا وجل، لم تكن رسالتهم ثقافية معرفية أو سياسية فقط، بل كانت اجتماعية أساساً يفترض الصمود عليها أن يمتلك الثائر روح الحلاج وقلب إبراهيم بن أدهم وعقل محيي الدين بن عربي. هذه عندي سر استثنائية الحكيم وفرادته التي ربما لن نرى في فلسطين مثلها بعده أبداً.

سلامٌ له وسلامٌ عليه

ربما لذلك حين كتبتُ عن الحكيم في ذكرى رحيله قبل سنين، وجدتُ نفسي أقتبس، وبلا قصدٍ مسبّقٍ أو تعمّد، الإمامَ عليّاً في وصف مالك

---

(32) العلوي، **مدارات صوفيّة**، ص 110.

الأشتر: «لا أرى مثلَه بعدَه أبداً»[33]. فمثلَ كلّ رفاق الأرض المحتلة الذين لم تسمح لهم ظروفُهم بلقاء الحكيم، كان الرفيق جورج حبش بالنسبة إلينا أكثرَ كثيراً من مجرّد أمينٍ عامّ، أو قائدٍ ثوريّ فذّ، أو حتى زعيم قوميٍّ استثنائيّ. كان، كذلك، النبيَّ الذي يرشدنا في مجاهل الحقّ والخلق ومتاهات حياتنا في كلّ يوم، وكلّ أمر. كان نبيَّنا الذي كنّا نظنّ ـ لطهارة روحه المتمرّدة ـ أنّه يوشك أن يتذاهن مع السماء ليقودَنا إلى الخلاص. فسلامٌ له، وسلامٌ عليه، و«سلامٌ على أهل الحقّ أينما كانوا، وبأيّ لسانٍ نطقوا، وسلامٌ على الخلق وأصدقاءِ الخلق، وسلامٌ على الماضين والآتين من ضنائن الله وأوتاد الأرض، الذين يُقَوِّمون زيغَها ويحفظونها من الفساد»[34].

---

(33) سيف دعنا، «شكراً جورج حبش،» الأخبار، 2014/1/24، <http://www.al-akhbar.com/node/199303>.

(34) العلوي، المصدر نفسه.

المقدمة

أقدم إلى القارئ العربي هذه الصفحات الثمينة والقيّمة لإلقاء الضوء على مرحلة مشرقة من تاريخ الثورة الفلسطينية المعاصر، كما عاشها الحكيم إلى جانب شعبه بإرادة حديدية وصمود أسطوري في مواجهة جميع التحديات. وفي زمن انقلبت فيه المقاييس والمفاهيم وأصبح النضال الوطني التحرري عمـلاً إرهابياً، تعرض الحكيم لعدد من محاولات الاختطاف والاغتيال والاعتقالات والملاحقات الأمنية من قبل القوى المعادية للثورة الفلسطينية.

شاء القدر أن يقترن اسمي باسم هذا القائد الكبير ويرتبط مصيري بمصيره كرفيقة درب عايشت الأحداث التاريخية إلى جانبه من كثب في مسيرة نضالية طويلة، شاقة وشائكة.

وجدت نفسي أمام عظمة هذا الثائر الكبير الذي كرّس حياته وقدم عمره لرفع الظلم والقهر والمعاناة عن شعبه وعمل جاهداً لإعادة حقوقه الوطنية في الحرية والاستقلال والعودة إلى دياره التي هُجر منها قسراً. لقد اندفعت بكل قوة وإيمان لأكون عوناً له في رحلته الصعبة والمعقدة؛ أشاركه قسوة الحياة وشظف العيش وحياة المنافي والشتات والملاحقات الأمنية من قبل العدو الصهيوني وجميع القوى العاتية المعادية لشعبنا. رافقته في حله وترحاله، فانصهرنا معاً في أتون النضال الدؤوب والصراع المرير

في مواجهة عدو عنصري استيطاني بغيض صادر حقنا في حياة حرة كريمة فوق تراب وطننا الغالي.

كيف لا، وأنا ابنة القدس، عشت تداعيات النكبة بكل مرارتها وكآبتها وانعكاس ذلك على النفوس؛ فأزيز الرصاص والانفجارات ما زال يطن في أذني، ومشهد الجنود المدججين بالسلاح وهم يعتلون أسوار القدس لا يغيب عن مخيلتي، وذلك الشريط الشائك الذي كان يقسّم مدينتنا بين قدس شرقية وقدس غربية، والاشتباكات عند باب العمود وسقوط الشهداء من المناضلين ومن المواطنين الأبرياء الذين كانوا يحاولون التسلل للعودة إلى ديارهم وبيوتهم التي هجروا منها.

مشاهد مؤلمة ستظل محفورة في الذاكرة وفي الوجدان. لقد وطأت أقدامنا الأرض المقدسة منذ الطفولة قبل أن تدنسها أقدام الغزاة الصهاينة. إن القدس كانت وستبقى عربية بتاريخها المجيد وحضارتها وشعبها العريق وأسوارها ومبانيها وشوارعها وأزقتها، كل ذلك يشهد على عراقة هذه المدينة المقدسة بأماكنها الدينية التاريخية؛ وستبقى القدس عاصمة أبدية لفلسطين التاريخية مهد الديانات السماوية ومنبع الحضارات.

أستعيد شريط الذكريات لأستذكر رفاق درب أعزاء غادرونا باكراً وهم في مقتبل العمر، وضحّوا بالغالي والنفيس في سبيل الدفاع عن أرضنا ومقدساتنا وعن مبادئهم وقناعاتهم ومعتقداتهم. أستذكر الشهداء الأحباء الذين ترك رحيلهم في الحلق غصة، ومنهم وديع حداد، وغسان كنفاني، وباسل الكبيسي، وخالد أبو عيشة، ومحمد اليماني، ورفيق عساف، ومحمد الأسود (غيفارا غزة)... والقائمة تطول وتضم آلاف الشهداء الشرفاء الذين سقطوا على درب الكفاح، لكنهم ما زالوا يحتلون مكانة خاصة في قلوبنا ووجداننا. كان الحكيم يودع الشهداء بدموع ممزوجة بالإصرار والتصميم على مواصلة المسيرة مهما كانت الصعوبات وغلت التضحيات، وكان يؤمن بأن المقاومة هي الطريق الوحيد لاستعادة كرامتنا ورفع الظلم عن شعبنا وأمتنا العربية.

كل هذه السنوات الطويلة من النضال المرير والمضني، وهذه المسيرة النضالية المشتركة كما عشتها إلى جانب الحكيم الدكتور جورج حبش،

شريك العمر ورفيق الدرب، بصمود كبير وبمعنويات عالية وإرادة حديدية، التي كانت رحلة كفاح عاصفة بالمخاطر والصعوبات والتحديات عشناها معاً كما عاشها شعبنا على مدى أكثر من نصف قرن من الصراع العربي - الإسرائيلي، الذي استمر من جيل إلى جيل، وهذه التجربة الغنية بالأحداث التاريخية المهمة بكل انتصاراتها وانكساراتها، أنقلها لكم بكل أمانة ومصداقية وضمير حيّ كرفيقة درب شاهدة على مرحلة مهمة من تاريخ الثورة الفلسطينية. لقد وضع الحكيم ثقته بي وكنت مؤتمنة على حياته وأسراره وأمنه، ومؤمنة بمبادئه ومعتقداته وخطه السياسي وأفكاره التحررية.

لذلك أجد نفسي اليوم أمام مسؤولية تاريخية تقع على عاتقي كزوجة وكرفيقة درب لهذا الإنسان الاستثنائي. من هذا المنطلق أود أن أعلن على الملأ أن الحكيم قد ترك أمانة بين أيدينا وهي عبارة عن مشروع مذكرات بدأنا بكتابتها معاً بعد خروجنا من بيروت ببضع سنوات، وقبل أن يقدم استقالته من الأمانة العامة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. أوراق وصفحات مهمة لم تنشر من قبل ولم تكتمل بسبب ظروفه السياسية وانشغاله في هموم العمل اليومي المنهك وقضايا الثورة الشائكة بكل تعقيداتها وأعبائها. من هنا، واحتراماً لرغبته، وتكريماً له في الذكرى الحادية عشرة لرحيله، قررت نشرها لتبقى وثيقة تاريخية تستنير بها الأجيال وتنهل من عصارة التجارب التي خاض غمارها الحكيم بكل شموخ وكبرياء وتفان وإنكار للذات.

لقد نجحت في إقناعه بالكتابة ليدوّن بنفسه تجربته الفريدة في نوعها والغنية بقيّمها ومعانيها، واستطعت بشق الأنفس أن أنتزع الوقت منه انتزاعاً في غمرة الأحداث الساخنة لأسجلها له بخط اليد بعد إلحاح مني ليكتب بنفسه أبرز محطات مسيرته النضالية التي امتدت لستة عقود من الزمن كمؤسس لحركة القوميين العرب وكأمين عام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأحد القادة المؤسسين لمنظمة التحرير الفلسطينية. لقد وضعنا برنامجاً أسبوعياً مدته ساعة تقريباً وكان جهداً منظماً على مدى بضع سنوات. كنت أدون مباشرة ما يمليه علي حرفياً، واستطعنا أن ننجز أكثر من مئتي صفحة على الرغم من ظروفه الصعبة وضغط العمل والأوضاع السياسية المعقدة. كان ذلك في تسعينيات القرن الماضي، أي قبل صدور كتاب **الثوريون**

لا يموتون أبداً بسنوات متعددة، ذلك الكتاب الصادر عن دار فايار الفرنسية، الذي تمت ترجمته إلى العربية كما أوصى الحكيم وصدر عن دار الساقي في بيروت. إن كتاب **الثوريون لا يموتون أبداً** عبارة عن حوار طويل ومتشعب حيث أجرى الحكيم أكثر من مئة ساعة من الحوار مع الصحافي الفرنسي جورج مالبرونو في العام الذي سبق رحيله. أما هذه المذكرات التي بين أيديكم فهي استعادة لشريط الذكريات حيث استرسل الحكيم في سرد الأحداث التاريخية التي خاض غمارها وأبحر وسط أمواجها المتلاطمة، فكتبها بكل تفاصيلها بأسلوب مشوِّق وبشغف بالغ. إلا أنه لا بد من أن نجد جوانب مشتركة بين الكتابين، كونها تتعلق بالأحداث التاريخية نفسها التي عاشها الحكيم بكل تفاصيلها ومحطاتها التاريخية المهمة.

تحدث الحكيم في هذه المذكرات بكل وضوح وشفافية ومصداقية وصراحة وجرأة متناهية عن مسيرة نضال وكفاح طويلة ومضنية. بدأت من تاريخ النكبة الفلسطينية التي كانت نقطة التحول في حياته، وتحدث بإسهاب عن مرحلة تأسيس حركة القوميين العرب، والإعداد للكفاح المسلح والعملَ الفدائي وتشكيل خلايا سرية للقيام بعمليات استطلاعية داخل الوطن المحتل في خمسينيات القرن الماضي، تحدث الحكيم أيضاً عن علاقته الخاصة والاستثنائية بالرئيس عبد الناصر وعن دعمه ومساندته للحركة، وعن دور الحركة في تحرير اليمن الجنوبي من الاستعمار البريطاني، كما استرسل في الحديث عن التناقضات المثيرة للجدل في المواقف المصيرية بين التنظيمات الفلسطينية والخلافات مع الرئيس أبو عمار على قاعدة وحدة ـ صراع ـ وحدة. ثم تحدث عن مرحلة وجود الثورة في الأردن، وخطف الطائرات، والمعارك مع الجيش الأردني، وخروج المقاومة إلى لبنان. تحدث مطولاً عن الاجتياح الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت وصمود المقاومة والتحالف مع الحركة الوطنية اللبنانية وعن التلاحم اللبناني ـ الفلسطيني كما لم يتحدث من قبل. سجل مواقف سياسية مبدئية ومصيرية مهمة لا تحتمل المهادنة ولا الترهل ولا الحلول الوسطية على حساب المبادئ والقضايا التي تمس المصالح والثوابت الوطنية. واعتبر التنازلات المجانية التي قدمتها القيادة الفلسطينية في

اتفاقيات أوسلو المذلة مع العدو الإسرائيلي وإلغاء الميثاق الوطني خطاً أحمر لا يمكن تجاوزه وجريمة بحق الشعب الفلسطيني، إذ إنها لا تلبي الحد الأدنى من طموحات شعبنا.

تحدث الحكيم بإسهاب عن قضايا خاصة وداخلية للجبهة، ووضع النقاط على الحروف، ووثّق للتاريخ كل ما كتبه من نتاجه الفكري والوثائق والتقارير السياسية المهمة للمؤتمرات الوطنية للجبهة الشعبية التي تمثّل معظم أدبيات الجبهة الشعبية. كتبها بعصارة فكره وعرق جبينه وبجهد مضنٍ في ظل ظروف سياسية وعسكرية قاسية ومعقدة، فأثرى بها تاريخ الجبهة وإرثها النضالي، كان أهمها «الاستراتيجية السياسية والتنظيمية» التي كتبها في أغوار الأردن من داخل القواعد العسكرية وقدمها إلى المؤتمر الوطني الثاني للجبهة الذي انعقد في الأردن عام 1969، وكتاب **مهمات المرحلة** من وثائق المؤتمر الثالث للجبهة الذي انعقد في لبنان عام 1972، والنظام الداخلي الذي كتبه الحكيم وكان بمنزلة دستور يتقيد به جميع القيادات والأعضاء في الجبهة. كتب الحكيم كذلك وثائق المؤتمر الرابع عام 1981 والمؤتمر الخامس عام 1993، وكان آخرها وثائق المؤتمر السادس للجبهة الشعبية الذي قدم به استقالته التي أحدثت دوياً هائلاً من ردود الفعل في أوساط الساحتين الفلسطينية والعربية عام 2000. فترك فراغاً كبيراً ما زال تأثيره واضحاً في الساحة الفلسطينية وفي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

أما نحن، فعلينا تقع مسؤولية تجميع هذا الإرث الثري وتوثيقه لنحافظ عليه وعلى الملكية الفكرية للحكيم وكل ما كتبه من مواضيع علمية ونظرية بما فيها وثائق حركة القوميين العرب(*)، فهذا الإرث ليس ملكاً لتنظيم أو عائلة بل هو ملكٌ لشعبنا وللأجيال من بعدنا. هكذا يكون الوفاء لجميع شهداء حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية وللأمين العام والقائد المؤسس جورج حبش لنحميه من خطر القرصنة وتزوير التاريخ وتشويه الحقائق في مثل هذا الزمن الرديء الذي يكثر فيه المتسلقون الذين

(*) أود الإشارة إلى أن هاني الهندي نشر وثائق حركة القوميين العرب بأكملها في خمسة أجزاء من دون علم الحكيم أو الرجوع إليه.

يتطاولون على تاريخ الحكيم وعلى إرثه النضالي بنَفَس انتهازي وصولي لم نشهد له مثيلاً من قبل.

لقد استمتعت بإعادة قراءة هذه الصفحات بعد كل هذه السنوات الطويلة من تدوينها. وأشير هنا إلى أنني أنشر أول مرة بعض الصفحات النادرة، وهي يوميات كتبها الحكيم بخط يده من داخل سجن الشيخ حسن في سورية عام 1968. حقائق مؤلمة لكنها تاريخية ومهمة جداً، ولعل أهمية هذه الأوراق تكمن في أنها نجت من الإتلاف الذي تعرضت له الكثير من الصفحات الشبيهة، لاضطراره إلى ذلك، عند مداهمة عناصر الأمن زنزانته بين الحين والآخر. ستبقى تلك التجارب القاسية نبراساً للأجيال وصفحة مجد في مسيرته النضالية المضيئة.

وقبل أن أنهي هذه الكلمات أدعو كل مواطن عربي حر إلى قراءة هذا الكتاب، لأنه يعبر تعبيراً صادقاً وأميناً عن صاحب التجربة الذي تحدث بكل شجاعة وموضوعية وقال الحقيقة مهما كانت جارحة وقاسية. فقد آمن الحكيم بأن قول الحقيقة كل الحقيقة هي حق للجماهير وواجب عليه. لذلك قال ما له وما عليه من موقع المسؤولية كمؤسس لحركة القوميين العرب وكأمين عام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وكقائد تاريخي للشعب الفلسطيني، وترك لنا وللأجيال وثيقة تاريخية مهمة لا تقدّر بثمن.

سيبقى هذا الثائر الكبير حاضراً بفكره وتعاليمه وأخلاقه الثورية ومبادئه الثابتة وكل ما تركه من إرث نضالي ضخم، الضمير الحيّ للثورة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني ورمزاً للنقاء الثوري ونقطة ضوء وسط كل هذا المشهد القاتم الذي يحيط بنا في هذه الأيام العصيبة.

أخيراً، أود أن أوجّه شكراً خاصاً إلى ابنتي الغالية لمى، التي كان لها مساهمة في إنجاز هذا الكتاب، كما أهدي هذه الصفحات المضيئة إلى شعبنا المقاوم داخل الأرض المحتلة، وإلى جميع الأسرى المعتقلين وإلى أرواح شهدائنا الأبرار.

هيلدا حبش

1 ـ الطفولة في فلسطين ما قبل النكبة

ولـدتُ في مدينة اللد في فلسطين عـام 1925 لأسـرة ميسورة الحال. كانت أسرتي تتألف من تسعة أفراد، وكان أبي نقولا حبش يعمل في تجارة المواد الغذائية، وكانت لتجارته فروع في اللد والقدس ويافا والأردن بعد عام 1948. عند ولادتي، أطلق علي أهلي اسم إلياس، لكنَّ خطأً حصل عند تسجيل الاسـم بعد الـولادة من جانب القابلة القانونية التي كتبت «جورج»؛ وبقي هذا الاسم يلازمني مدى الحياة.

كان بيتنا في اللد متواضعاً، لكنه ترك أثراً كبيراً في نفسي، وبخاصة حديقة المنزل التي كانت تحتوي على أجمل الـورود وأزهـار الياسمين والفل وبعض الأشجار المثمرة. ما زلت أذكر شجرة التوت التي كنت أتسلقها وأستمتع بقطف ثمارها الطيبة، وكذلك أشجار اللوز والجميز. كنا نتلذَّذ بقطف الثمار كل سنة في موسم الصيف؛ وكنا نعيش في حالة انسجام ومحبة وأخوّة مثالية مع الجيران، بعيداً من التعصب الديني والطائفي الذي لم يكن وارداً في قاموسنا في ذلك الوقت.

كانت اللد مدينة تاريخية، بمعنى أنها كانت مأهولة ولها تاريخها من قبل الميلاد، وهي مركزٌ للمواصلات، حيث أُقِيمَ فيها مطارٌ في عام 1936، وقبلَ ذلك كانت توجد فيها سكة حديد تربط مناطق فلسطين المختلفة

بعضها ببعض[1]. كما كانت مدينة زراعية تشتهر بشجر الصبّار، ومن أبرز معالمها قبر القديس مار جورجيوس المسمّى الخضر. وفي باحة الكنيسة الرئيسية كنا ننزل سلّماً داخلياً يقودنا إلى القبر المقدس. وكان المسجد الرئيسي للمدينة ملاصقاً لساحة الكنيسة، إذ لم نكن نشعر في يوم من الأيام بتفرقة دينية بين مسيحي ومسلم. كما كانت تقام سوق تجارية في وسط الأسبوع قرب منزلنا يتبادل فيها أهل القرى المجاورة البضائع المختلفة.

بدأتُ دراستي في المرحلة الابتدائية في المدرسة الإنجيلية في مدينة اللد؛ وكانت تتوافر في المدرسة ثلاثة صفوف من المرحلة الابتدائية: التمهيدي والأول والثاني. المسؤولة عن تلك المدرسة كانت سيدة إنكليزية بينما المدرِّس كان عربياً، اسمه جريس. وما زلت أذكر كيف كان يسكن في الطابق العلوي من المدرسة. وحين بلغت الصف الثالث انتقلت إلى المدرسة الحكومية في المدينة في عام 1936، أي في عام الإضراب في فلسطين، الذي شمل حتى الدراسة؛ وما زلت أذكر أيضاً كيف كان الناس يتلهّفون لسماع الأخبار، فكنا نلتقي في المقاهي في ساعات محددة لسماع آخر الأنباء. كنت أخرج من البيت في الأوقات المحددة لنشرات الأخبار، وأنزل إلى أقرب مقهى لأستمع إلى الأخبار بنفسي، إذ لم يكن جهاز الراديو متوافراً للجميع. وما زلت أذكر فرحتي وفرحة المستمعين حين كانت السلطات البريطانية تعترف بأن قواتها اشتبكت مع الثوار؛ فكانت الحماسة تملأ قلوب الجميع. توقفنا عن الدراسة في حينها مدة ستة أشهر، اتخذت إدارة المدرسة بعدها قراراً بترفيع الطلاب إلى الصف الأعلى، فأصبحت في الصف الابتدائي الخامس حيث تم اختصار الصف الرابع بسبب الظروف آنذاك.

---

(1) اللد هي إحدى أقدم مدن فلسطين التاريخية وأكبرها، أسسها الكنعانيون في الألف الخامس قبل الميلاد. تقع على بعد نحو 38 كيلومتراً شمال غرب القدس و16 كيلومتراً جنوب شرق يافا. لهذا كانت مركز خط سكة الحديد الأولى (القدس ـ يافا) التي أُسست في فلسطين عام 1892.

بين عامي 1936 و1939 كان هناك مد وطني وثورة حقيقية ضد الاحتلال؛ ومن أبرز قادة هذه الثورة كان عبد القادر الحسيني وأبو إبراهيم الكبير (خليل محمد عيسى عجاك). في عام 1939، مع بداية الحرب العالمية الثانية، اختلفت أجواء المنطقة فلم يعد هناك عمل مقاومة بالمعنى اليومي المتواصل. وأذكر كيف كان الناس يتعاطفون مع الألمان لمجرد أنهم أعداء إنكلترا في تلك الحرب.

لم أعد أذكر التواريخ، ولكن ما زالت ترتسم في ذهني بعض المناسبات التي كان الناس يخرجون فيها إلى الشوارع متظاهرين ثم يَصِلون إلى مبنى البلدية حيث يقف بعض الخطباء مطالبين بالحرية والاستقلال ومهاجمين الاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني. كانت التظاهرات تعم الشوارع بين وقت وآخر وكانت الشعارات تقول في ذلك الوقت «يسقط الاستعمار» و«يسقط وعد بلفور»، وكان المتظاهرون يطالبون بالاستقلال، مرددين بيت الشعر القائل «يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما»[2].

كان لثورة 1936 انعكاس كبير على مدينة اللد. وفي أحد الأيام طلب الإنكليز من السكان الخروج من منازلهم والتوجه نحو البيادر حتى يتمكنوا من التفتيش الدقيق للبيوت بحثاً عن سلاح. وحين عدنا إلى بيوتنا كان كل شيء فيها مبعثراً؛ كما كانوا يفرضون منع التجوُّل من وقت إلى آخر ويتعرضون بالضرب وبقسوة لمن يخالف التعليمات ويخرج لأي سبب مهما كان اضطرارياً، حتى إنه في إحدى المرات تعرضوا لأحد أقربائي بالضرب وقد سمعنا صراخه من بعيد من شدّة الألم.

ثمة حادثة تركت أثراً في نفسي ما زلت أتذكرها جيداً. كان يعلمني درس الحساب أستاذ اسمه وصفي الطاهر في اللد. وفي يوم من الأيام

---

(2) بيت من قصيدة الصحافي السوري نجيب الريس الشهيرة «يا ظلام السجن خيّم» التي نظمها أثناء اعتقاله من جانب الانتداب الفرنسي في سجن جزيرة أرواد بالقرب من طرطوس عام 1922.

وأثناء إعطائنا درس الحساب، طلب الأستاذ وصفي من التلاميذ التوقف عن الكتابة والوقوف صامتين، ووقَفَ هو صامتاً ينظر في الساعة وبعد نحو دقيقة من الصمت أشار إلينا بالجلوس، وقال: في هذه اللحظات قام الإنكليز بإعدام ثلاثة من الأبطال الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الوطن (هم الشهداء محمد جمجوم وعطا الزير وفؤاد حجازي). وقد رأيت الدموع في عينيه.

حين أنهيت المرحلة الابتدائية انتقلت لإكمال الدراسة في يافا، فلم يكن في ذلك الوقت في مدينة اللد سوى مدرسة حكومية واحدة للمرحلة الابتدائية فقط وكان مدير مدرستنا في مدينة اللد الأستاذ توفيق أبو السعود قد نصح أخي الكبير بضرورة متابعتي الدراسة نظراً إلى تفوقي. كان لدور المدرسة ومديرها الأستاذ توفيق أبو السعود، الذي كان يلقي كلمة الصباح المفعمة بالحماسة والوطنية، أثر كبير في حياتي.

* * * *

انتقلت إلى يافا عام 1938، وكذلك فعلت عائلتي بسبب توسع تجارة أبي لتشمل يافا والقدس، واستمرت عائلتي في الإقامة هناك حتى عام 1948 حين اضطرّت إلى ترك يافا بسبب الاحتلال الصهيوني للمدينة عائدة إلى اللد من جديد بسبب الأحداث والاضطرابات آنذاك.

في يافا التحقت بكلية يافا الأرثوذكسية وقضيت فيها عامين درست خلالهما الثانوي الأول والثاني. كان لدي أصدقاء كثر، أذكر منهم متري سعادة ويعقوب حنانيا وإلياس مرقس. وأذكر أني كنت متفوقاً في دراستي وأبدي دائماً مشاركة جيدة في الإجابة عن الأسئلة التي كانت تطرح من جانب الأساتذة. كما أذكر في إحدى المرات أنني دفعت ثمناً غالياً لتفوقي في الإجابة، إذ أجبت عن أحد الأسئلة الذي لم يستطع أحد الإجابة عنه، فما كان من ثلاثة من الطلاب إلا أن نصبوا لي كميناً وانهالوا عليّ ضرباً مبرحاً. بقيت أياماً بعد هذه الحادثة تراودني رغبة لا تقاوم في الانتقام؛ فما

كان لي إلا أن انفردت بأحد هؤلاء الثلاثة في أحد الأيام ورددت له الصاع صاعين. كما ما زلت أذكر الأستاذ منح خوري، مدرس اللغة العربية في يافا، وهو من أصل لبناني، وقد تأثرت به كثيراً لأنه كان يحب الشعر والأدب. كذلك كان مدرس اللغة الإنكليزية لبناني الأصل من عائلة خوري أيضاً، وكان مدير المدرسة في يافا لبنانياً بدوره.

وبما أنه لم يكن في كلية يافا الأرثوذكسية صفوف أعلى لإكمال المرحلة الثانوية بأكملها انتقلت إلى القدس لمتابعة دراستي في كلية تراسانطة. ما زلت أتخيّل وجوه المعلمين الذين كانوا يقومون بتدريسي، فمعلم اللغة العربية، الذي كان أصلاً من الضفة الشرقية[3] واسمه أمين أبو الشعر[4]، قد نظم قصيدة هجاء في الملك عبد الله فنُفي في إثرها. وكان معلم الرياضيات لبناني الأصل، وكذلك معلمو التاريخ والكيمياء والجغرافيا. كما أذكر أنه كان في المدرسة آنذاك طلاب من اليهود، أحدهم كان ينافسني في الدراسة. لم نكن نشعر حينها بأي مشاعر حقد تجاه اليهود قبل عام 1948. وكنت خلال فترة إقامتي في القدس أتردد إلى بيت عمي هناك، والد هيلدا، التي أصبحت زوجتي في ما بعد، فكنت أجد في بيت عمي الحفاوة والترحاب والحنان الذي كنت أفتقده بسبب بعدي عن الأهل.

تخرجت من مرحلة الثانوية العامة بتفوق وقدمت امتحان الـ «GCE»، النظام الإنكليزي في ذلك الوقت، وهو ما طرح علي السؤال: «ماذا بعد؟». ترددت كثيراً في الخطوة التالية بعد إكمالي المرحلة الثانوية. كان والدي يريدني أن أعمل معه في التجارة، ويقول إن الفرص المتاحة أمامي في

---

(3) بين عامي 1949 و1967 كانت الضفة الغربية الحالية (أي الضفة الغربية لنهر الأردن) تحت الحكم الأردني، ولهذا يطلق أحياناً على الأردن الضفة الشرقية (لنهر الأردن).

(4) أمين أبو الشعر، سياسي وأديب أردني ولد في الحصن عام 1911 لعائلة معروفة باهتماماتها الثقافية والسياسية. درس في القدس ثم حصل على ليسانس في الآداب من جامعة دمشق، وهو أحد مؤسسي حزب البعث العربي في الأردن.

التجارة أفضل من أي مجال آخر؛ أما والدتي فقد كانت ترغب في أن أتابع دراستي كي أصبح طبيباً. وفي ظل حيرتي هذه وجدت نفسي أمام عرض تقدم به مديري السابق في كلية يافا الأرثوذكسية، إذ طلب مني التدريس في المدرسة التي تخرجت فيها، فقبلت العرض في ذلك العام على أن يبقى باب متابعة الدراسة في الجامعة مفتوحاً أستطيع أن أتابعه في أي وقت. حين بدأت التدريس في يافا كنت في سن السادسة عشرة، وقد أمضيت فيه عامين. كنت مدرِّساً لصفوف المرحلة الابتدائية، الثاني والثالث والرابع، إلى أن أصبح هناك حاجة في المدرسة إلى مدرِّس للمرحلة الثانوية. وبما أن مدير المدرسة الذي أذكر أنه كان لبنانياً لم يجد أستاذاً في حينها، فقد جعلني مدرِّساً للمرحلة الثانوية رغم صغر سني، إذ كنت أدرس طلاباً في سني. وقد شعرت في بعض الأحيان أن الطلاب بدأوا يستغلون تقارب السن فيتضاحكون فيما بينهم، وهو ما جعلني أشعر بأنه علي أن أفرض هيبة المدرس؛ فما كان لي في إحدى المرّات، نتيجة لهذا التراخي، إلا أن أصفع أحد التلاميذ معاقبة له، وهو ما كان له أثر في ضبط الأمور منذ ذلك الحين. كنت أتردد في هذه الفترة على النادي الأرثوذكسي، فأقضي معظم وقتي هناك في القراءة في مكتبة النادي. أذكر أني في حينها كنت أتابع مجلة مصرية أعتقد أنها كانت مجلة **الرسالة**، وكان هناك في ذلك الوقت صحيفتان محليتان في فلسطين هما **فلسطين** و**الدفاع**.

2 ـ الالتحاق بالجامعة الأميركية في بيروت، نكبة 1948، وتشكيل نواة العمل القومي

بعد تجربتي في التدريس في يافا انتقلت إلى متابعة دراستي في الجامعة الأميركية في بيروت، حيث اخترت دراسة الطب. بدأت دراستي هناك عام 1944 وانتهت عام 1951. ذهبت من يافا إلى رأس الناقورة مروراً بحيفا، ومن ثم إلى بيروت، بالسيارة. بانتقالي إلى بيروت للدراسة، شعرت أنني أنتقل إلى جو جديد مختلف تماماً. التقيت هناك بطلاب من جنسيات عربية مختلفة، وكنا نقضي معظم الوقت داخل الحرم الجامعي. ما زلت أذكر مطعم ومقهى فيصل الشهير الذي كان ملتقى الطلاب، حيث أصبح علامة بارزة في الحياة الجامعية وقد بقي هذا المطعم شهيراً ومعروفاً حتى سنوات الحرب اللبنانية، وكم أسفت لإغلاقه في ما بعد بسبب ظروف الحرب. من ضمن الدراسة الجامعية كان هناك مجموعة من المواد الاختيارية المطروحة خارج مجال التخصص، وكان علينا أن ننتقي من هذه المواد بحسب رغبتنا وميولنا، فما كان لي إلا أن اخترت مادة الفلسفة. هنا أذكر أستاذي في هذه المادة البروفسور شارل مالك.

ما زلت أذكر كيف كان يتهكم على فكرة العروبة والقومية العربية، وهو ما كان يشعرني بالألم، لكن علاقتي به كانت ودية رغم الاختلاف في وجهات النظر. وقد أحببت مادة الفلسفة كثيراً حين قمت بدراستها.

ومن أصدقائي المقربين في الجامعة الأميركية كان الدكتور منير شماعة والدكتور منصور أرملي، كما أذكر الدكتور إبراهيم داغر والدكتور زهير ملحس وسعد المعشر والدكتور جمال الشاعر وآخرين كُثراً في مجال الطب، والدكتورة سعاد الأزهري التي كانت الطبيبة الوحيدة التي تخرجت معنا في هذه الدفعة. أما وديع حداد وأحمد الخطيب، فكانا في الدفعة التالية. كما أذكر من أصدقائي القريبين خارج كلية الطب الصديق العزيز علي منكو، رحمه الله، وكذلك نزار جردانة وموسى وحسن حمدان. وأذكر أن أحب الأنشطة إلى قلبي كانت الرياضة والسباحة والقراءة وسماع الموسيقى العربية، محمد عبد الوهاب بوجه خاص، وكذلك الموسيقى الكلاسيكية، والمشاركة في عدد من الأنشطة الطلابية. عام 1947، في 29 تشرين الثاني/نوفمبر، اتخذت هيئة الأمم قراراً بتقسيم فلسطين، وما زلت أذكر تأثير ذلك القرار لا في الطلاب الفلسطينيين فحسب بل في الطلاب العرب كافة. وأصبح هذا الموضوع، الموضوع السياسي والوطني والقومي، موضع اهتمام الجميع وشغلهم الشاغل ليل نهار. قبل ذلك التاريخ لا أذكر أنه كان لي اهتمامات سياسية، وبخاصة أني كنت طالباً جيداً تنحصر أحلامي في أن أصبح طبيباً نموذجياً. وكذلك كنت أمارس في قسم من الوقت السباحة والرياضة كما كنت منخرطاً في الجو الاجتماعي الذي كان الطلاب يعيشونه آنذاك، أقصد بذلك الأنشطة الشبابية والاجتماعية التي يعرفها كل من كان في الجامعة الأميركية في بيروت في ذلك الوقت ومحاضرات ثقافية قيّمة لأهم المفكرين وأساتذة الجامعة. أما بعد قرار التقسيم وسخونة الوضع السياسي الذي ولّده ذلك القرار، فقد تغير كل شيء بالنسبة إلي. في هذه الحقبة كان طلاب الجامعة وطلاب الثانويات في بيروت ولبنان بوجه عام ينطلقون بتظاهرات ضد مشروع التقسيم وينادون بالجهاد، فكانت تلك السنة الدراسية سنة تظاهرات وإضرابات واعتصامات وشتى أنواع الأنشطة الوطنية. أذكر أننا اعتصمنا

يوماً في قاعة «West Hall» في الجامعة الأميركية، مطالبين الحكومات العربية بأن تقوم بتدريبنا وإرسالنا إلى جبهات القتال.

حين بدأت أفواج اللاجئين تصل إلى لبنان من مناطق شمال فلسطين، كان يجن جنوننا ونتابع الخروج بالتظاهرات مطالبين بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين. أذكر أنني انضممت إلى مجموعة كانت تقوم بزيارة أماكن اللاجئين لمعرفة حاجاتهم وللاضطلاع عن قرب على أوضاعهم لتوفير بعض المستلزمات والحاجات الرئيسية لهم، إذ إن أهلنا كانوا قد تركوا مدنهم وقراهم من دون أن يتمكنوا من حمل أي شيء معهم نتيجة الإرهاب الصهيوني ونتيجة الطرد الإجباري وسياسة الاقتلاع التي مورست ضدهم. كم كان يهمني في ذلك الوقت أن أسمع قصصهم وأحاول الدخول إلى نفسياتهم. لم يكن يخطر ببالي صراحة أن يتمكن اليهود بأي شكل من الأشكال من ربح المعركة ضدنا، فهذه الأرض أرضنا والبلد بلدنا وقد نشأنا ونحن ننظر إلى اليهود كجبناء لا يمكن أن يصمدوا أمام العرب. وكان العربي في مخيلتي ذلك الفارس الشجاع المقدام الذي لا يُهزم. لذلك كانت تلك الأحداث بالنسبة إلي لا تصدق وكأنني في كابوس. كنت عاطفياً جداً وأصبحت أمتلك القدرة على الحديث والنقاش والمواجهة، كما كنت أشعر أنني أريد ترك الدراسة فوراً والذهاب إلى ساحات القتال لأقوم بواجبي بأي شكل.

في تلك الفترة اتصل بي زميل جامعي من كلية الآداب اسمه معتوق الأسمر، وحيّا اندفاعي وإخلاصي، وقال لي «إن العمل بالعاطفة وحدها لا يكفي؛ علينا أن ننظم أنفسنا، فالعدو يعتمد على العلم والتنظيم ولا يمكن أن نتغلب عليه إلا بالعلم والتنظيم». بدأنا في النقاش، فاقترح علي الانضمام إلى تنظيم سري عربي من حيث الشمول وليس فلسطينياً فقط. وقال لي إنه لا يعرف قيادة هذا التنظيم ولكنه يعرف فقط المسؤول الذي يتصل به. وقال رداً على أسئلتي الكثيرة إن ما يستطيع فعله هو أن يصلني بهذا المسؤول لأحاول أن أفهم منه كل شيء. لقد عرفنّي إلى

المسؤول الذي كان طالباً في الجامعة أيضاً وهو لبناني الأصل اسمه رامز شحادة، وهو كان رئيس النادي الثقافي العربي في رأس بيروت في ذلك الوقت. قال لي ذلك المسؤول «إننا سننظم مجموعة محاضرات يقدمها الأستاذ قسطنطين زريق، وإن هذه المحاضرات هي أقرب إلى الاجتماعات السرية أو على الأقل غير المعلنة». كانت تعقد تلك الاجتماعات في النادي الثقافي العربي القريب من الجامعة الأميركية في رأس بيروت، وما زلت أذكر الأستاذ قسطنطين زريق وهو يلقي علينا بعض المحاضرات. كان يحضر ومعه رؤوس أقلام، وكانت المحاضرات تتمحور في ذلك الوقت حول القومية العربية وكيف أنها تمثّل الطريق لمواجهة خطر المشروع الصهيوني والنهوض بالأمة العربية كلها واستعادة وتجديد الحضارة العربية المجيدة. ومع أني كنت أواظب على حضور تلك المحاضرات التي كانت تعقد حسبما أذكر مرة في الأسبوع، إلا أنني كنت مشدوداً للتطوع وإعداد نفسي للقتال، وكنت أسأل معتوق ورامز باستمرار «متى سيعد لنا التنظيم فرصة التدرُّب والالتحاق بالثوار؟ وكنت أتمزق حين أجد أن العام الدراسي، 1948، يكاد ينتهي من دون أن نلتحق بالقتال. وحين أتت العطلة الصيفية ـ وأعتقد أن إدارة الجامعة اختصرت فترة الدراسة بسبب الظروف السياسية الملتهبة آنذاك ـ حينها وجدت نفسي غير قادر على البقاء في بيروت وأنني ما لم أتمكن من الالتحاق بالقتال عن طريق التنظيم فسأذهب إلى فلسطين مباشرة إلى أهلي، وهناك أحاول أن أرى ما أستطيع فعله. أذكر أنني أثناء حضوري الندوات المصغرة التي كان يلقيها علينا الأستاذ قسطنطين زريق تعرفت إلى الرفيق هاني الهندي الذي كان يدرس في كلية الآداب في الجامعة الأميركية في ذلك الوقت. وقبل انتهاء العام الدراسي، أي عام 1948، أُجريت انتخابات الهيئة الإدارية لجمعية العروة الوثقى، وكان معتوق ورامز وآخرون من الشبان العرب الذين هم أقدم مني في الجامعة الذين تهيأوا لانتخابات العروة الوثقى وقدموني كنائب رئيس لها، فنجحت قائمتنا وقررنا المباشرة بنشاطنا في العام الدراسي الجديد. كان الرئيسَ

المرشحَ لجمعية العروة الوثقى في ذلك الحين شابٌ سوري اسمه إدمون الباوي (كان من ضمن قائمتنا).

قبل أن تحين العطلة الصيفية، كنت قد تسلمت رسالة من الأهل في فلسطين يطلبون مني البقاء في لبنان بسبب الأحوال المضطربة في بلادنا حينذاك، وأرسلوا لي مبلغاً من المال يكفيني إلى حين انجلاء الوضع العام. لكنني لم أستطع أن أتصور نفسي باقياً في لبنان في الوقت الذي يلتهب الصراع في فلسطين مع أولئك الذين يريدون اقتلاعنا من أوطاننا. لذلك توجهت إلى فلسطين عن طريق الأردن هذه المرة، لأن الطريق الذي اعتدت أن أسافر عبره إلى فلسطين، أي طريق الساحل إلى الناقورة ومن ثم إلى حيفا ويافا، لم يكن سالكاً بسبب سقوط مدينتي حيفا ويافا في ذلك الوقت بيد العدو، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسافر فيها إلى فلسطين عن طريق الأردن. وصلت في ساعة متأخرة من الليل إلى مدينة اللد حيث كان الأهل قد اضطروا إلى الرحيل عن يافا والعودة إلى اللد، المدينة التي ولدت فيها والتي كنا جميعاً نعتبرها مدينتنا الأصلية. وقد فوجئ أهلي بوصولي، إذ كانوا يتوقعون مني البقاء في بيروت. وفي الأيام الأولى من وصولي إلى اللد فكرت في أنه لا بد من عمل أي شيء للدفاع عن الوطن، ولم أكن حينذاك قد تدربت على استعمال أي نوع من السلاح، لهذا قررت أن أعمل في مستوصف في المدينة لتلقي حالات الإسعاف الأولي. وما زلت أذكر أنه في الليالي الأولى من وصولي إلى مدينة اللد كنت أسمع، وأحياناً أرى، الرجال الذين يحملون البنادق ويتوزعون للدفاع عن المدينة وفي بعض الليالي يقومون بالهجوم على بعض المواقع المعادية، تلك التي تقع بين اللد وتل أبيب أو بعض المستوطنات. وبوجه عام كانت معنويات الناس مرتفعة رغم سقوط حيفا ويافا وبعض المدن الأخرى من فلسطين. كان أهل اللد معروفين بشجاعتهم وعنادهم ووطنيتهم، وكان يقال إن اللد هي العاصمة الثامنة بعد العواصم العربية السبع في تلك الحقبة. ولكنْ، يوماً بعد يوم، كنت أشعر، وكذلك يشعر

أهل المدينة، بأن الطوق يشتد عليهم. وكان الناس يعلقون الآمال على الجيوش العربية لإنقاذ الموقف؛ وكان الجيش العربي الأردني قد وصل إلى أطراف مدينة اللد. وبدأ الجو يحتدم بصورة ملحوظة بعد وصولي إلى المدينة ببضعة أسابيع. وفي إحدى الليالي حصلت غارة جوية وأحدثت الفزع في النفوس وبدأت المدينة تعيش حالة اضطراب غير مسبوق.

تكررت مثل هذه الغارة الليلية في الليالي التالية، وما زلت أذكر أنه مع تكرار الغارات من ناحية، وخسارة بعض المعارك التي كان يخوضها المجاهدون من ناحية ثانية، ثم إدراك الناس أن الجيش العربي الأردني الموجود في أطراف المدينة لا يحرك ساكناً، من ناحية ثالثة، بدأت معنويات أهل المدينة تهتز. لكنني ما زلت أذكر أيضاً بعض الأصوات والأشخاص الذين كانوا ينادون بالصمود حتى النهاية ويرون أن هناك طابوراً خامساً للعدو يستهدف إثارة الرعب في نفوس الناس. وكان هذا الفريق الصامد يتصدى لأية محاولة هروب من المدينة، ويقوم بإرجاع أية عائلة هاربة، إلى أن حصل الهجوم الكبير الذي استهدف إسقاط مدينة اللد. ومع اشتداد الهجوم ازدادت البلبلة والإشاعات والحيرة والنقمة على الجيوش العربية التي لم تستطع أن تفعل شيئاً والتي اتهم الناس ملوكها ورؤساءها بأنهم باعوا البلاد. وكانت النقمة كبيرةً على الجيش الأردني وعلى الأمير عبد الله لتهاونهما وعدم القيام بواجبهما في الدفاع عن الأرض. ولما كان المستوصف الذي أعمل فيه يقع في أطراف المدينة فقد اضطررنا إلى أن ننتقل مع طبيب المستوصف، وكان اسمه الدكتور مصطفى زحلان، إلى مستوصف آخر في وسط المدينة على بعد خطوات من كنيستها وجامعها وهو مستوصف للبعثة الإنجيلية التي كانت تعمل في مدينة اللد منذ سنوات.

كانت حالة المستوصف عند اشتداد الهجوم وبدء دخول عصابات الهاغانا إلى المدينة في حالة يرثى لها، من حيث عدم توافر المستلزمات الطبية والعدد الكافي من الأطباء والممرضين والممرضات. كانت كل

الإصابات تنقل إلى هذا المستوصف الضعيف الإمكانيات. وفي القاعة الرئيسية للمستوصف ما زلت أسمع صوت امرأة شابة بدينة أصيبت برصاصات في جسمها ورصاصة في منطقة المعدة، ما زلت اسمعها تنادي «بدي مَيّ يمّا اسقوني مَيّ، دخيلكم!» كذلك ما زلت أرى في تلك القاعة شاباً يافعاً في العشرين من العمر ممدداً بعد أن أسلم الروح؛ أذكره جيداً لأني كنت قبل أيام أراه يسرع وبخطى حثيثة حين كان البلد يتعرض لأي هجوم قبل الهجوم الكبير. شعرت في ذلك الحين وكأننا في يوم القيامة فعلاً.

لم تكن قدراتي الطبية في ذلك الوقت تمكنني من إجراء أية عملية جراحية، فلم يكن بمقدوري إلا تلبية طلبات محددة يطلبها مني الطبيب وأقوم قدر الإمكان برفع معنويات المصابين وأهاليهم ودعوتهم إلى الصبر، إلى أن أدركنا أن الجنود الإسرائيليين أصبحوا على أبواب المستوصف وقد أعلمونا بذلك وطلبوا منّا أن نبقى داخل القاعة المغلقة. ما زلت أذكر ما كنت أقوله بيني وبين نفسي وما كنت أهيئ نفسي لأقوله عند دخول أي جندي أو ضابط إسرائيلي، كنت أريد أن أصرخ في وجوههم، «ماذا تريدون أيها المجرمون؟ هذه بلادنا وسنبقى هنا مهما فعلتم». كلام طويل وخطابات كنت أهيئها بيني وبين نفسي لأقولها بوجه المغتصبين حين يقتحمون المستوصف، وقد طال انتظاري ولم تحصل مثل هذه المواجهة في الليلة الأولى. وفي صباح اليوم التالي أتت إلى المستوصف امرأة مسنة من أقربائي وهي خالة أمي، فأخذتني على انفراد وقالت لي: «إن أختك المريضة قد توفيت!». كانت أختي الكبرى، وكنت أكن لها مشاعر حميمة وخاصة. كانت متزوجة ولديها سبعة أولاد من ذكور وإناث، لذلك كان سماعي خبر وفاتها صدمة كبيرة لي. تركت المستوصف مع قريبتي إلى بيت أختي. كانت أصوات الرصاص قد هدأت نسبياً عما كانت عليه في اليوم السابق، رغم سماع بعض الطلقات بين وقت وآخر. في الطريق رأيت الكثير من الجثث، أذكر منها تحديداً جثة الرجل الذي كان يبيعنا الفول

على باب المدرسة. كانت مشاهد مؤلمة من الصعب تحملها. فحقيقة لم أكن أدري إن كان ذلك حلماً أم كابوساً مخيفاً أم أنها الحقيقة المرّة بعينها. حين وصلت إلى بيت أختي وجدت أن أهلي كانوا قد دفنوا الجثمان في حديقة المنزل لأنه لم يكن بالإمكان دفنها في مقبرة المدينة، نظراً إلى كثافة القصف العشوائي، وكانوا قد حاولوا إقناع الكاهن بالمجيء إلى البيت للقيام بمراسم الصلاة والدفن، لكنه رفض ذلك خوفاً من الرصاص.

بعد ساعات من حضوري إلى البيت جاء الجنود الإسرائيليون مدججين بالسلاح طالبين منا الخروج بسرعة. وحين سألناهم «إلى أين؟» لم يجيبوا، كانوا فقط يصرون على ضرورة إخلاء البيت فوراً وبأسرع وقت وترك كل شيء وعدم أخذ أي شيء معنا أبداً. حين خرجنا من البيت وجدنا أن الجيران وسكان الحارة بأكملها يغادرون بيوتهم ويسيرون باتجاه ما يشير إليه الجنود الإسرائيليون الذين كانوا يقفون على الطريق بمسافات محددة كي يضمنوا توجه الناس في الاتجاه الذي كانوا قد رسموه لخروج جميع أهل المدينة. فوجدنا أنفسنا نسير باتجاه الطريق الذي يؤدي بنا إلى خارج المدينة. كنت أنوي بطبيعة الحال أن أعود إلى الخدمة الطبية في المستوصف، لكن حين أتى الجنود الإسرائيليون وطردونا من البيت رأيت أن أساعد أهلي للعناية بأولاد أختي، حيث كان مرض التيفوئيد قد أخذ ينتشر في ذلك الوقت، وخصوصاً أننا لم نكن ندرك ما هو هدف إخراجنا الجماعي من بيوتنا. كنا نظن على الأرجح أنهم يريدون تجميعنا في البيادر أو في مكان ما ليعطونا التعليمات بشكل جماعي أو ليقوموا بتفتيش بيوتنا من دون أي رقيب ثم نعود بعد ذلك إلى البيوت، إذ لم يكن يخطر ببالنا مطلقاً أن يكون الهدف هو طردنا بالكامل من بيوتنا وأوطاننا واقتلاعنا من الجذور.

حين أوشكنا أن نصبح خارج المدينة، بدأ بعض الجنود الإسرائيليين يقولون: «اذهبوا إلى الملك عبد الله، فهو المسؤول عنكم». وأذكر أنه في المحطة الأخيرة للجنود الإسرائيليين كانوا يُوقفون الناس ويفتشونهم بدقة

ويسلبونهم كل ما يملكون، كما أذكر تحديداً ابن جيراننا أمين حنحن، الذي كانت داره ملاصقة لدارنا، ولدى تفتيشه من جانب الجنود وجدوا معه مبلغاً من المال فحاولوا أن ينتزعوه منه. حينها شدّ أمين يد الضابط في محاولة لاسترداد ماله فما كان من ذلك الأخير إلا أن وجَّه المسدس إلى صدره وقتله على الفور!

وما أذكره أثناء وجودي في المستوصف، بعد احتلال الجنود الإسرائيليين للمدينة، أن عدداً كبيراً من الرجال لجأوا إلى المسجد المجاور. وفجأة سمعنا إطلاق رصاص كثيفاً، علمنا حينها أن أحد الشبان الفلسطينيين قد ألقى قنبلة على سيارة عسكرية فما كان من الجنود الإسرائيليين إلا التوجه إلى المسجد والانتقام من الناس الأبرياء الذين تجمعوا فيه ظناً منهم أنه لا يمكن أن يكون هناك من يجرؤ على قتل الناس وهم في بيت الله.

* * * *

في النهاية، أصبحنا خارج حدود مدينة اللد. كان يوماً حاراً من أيام تموز/يوليو تحديداً، فقد سقطت اللد في الحادي عشر من تموز/يوليو عام 1948، كما سقط فيها خمسمئة شهيد. كنا في شهر رمضان، وكان الرجال الذين يعرفون الطريق يسيرون باتجاه أول محطة يستطيعون الإيواء إليها ليستريحوا فيها. وما زلت أذكر حرارة ذلك اليوم والعطش الشديد الذي بدأ الجميع يشعر به على نحوٍ يصعب علي وصفه. كان الأطفال بوجه خاص يبكون ويصرخون طالبين الماء، وأذكر اسم صديقين كانا يرافقاني أثناء تلك الرحلة الشاقة المضنية، وهما خليل دهمش وعبد الجواد حسونة، الذي كان يتمتع بروح النكتة حتى في مثل هذه الظروف القاهرة! وحين كان يحاول أي إنسان أن يقف ليستريح يجد من أهله من يحثه على متابعة السير إلى حين الوصول إلى أول مكان يمكن التوقف فيه والبقاء فيه ولو مؤقتاً. بعض الشيوخ لم يعودوا قادرين على

متابعة السير بأي حال، وكان بقية أهلهم يضطرون إلى تركهم ومتابعة السير. وما زلت أذكر أن الكثيرين ماتوا أثناء عملية السير هذه، ومن هؤلاء الناس الذين قضوا نحبهم امرأة هي أخت أمين حنحن ابن جيراننا الذي قُتل على يد الضابط الإسرائيلي.

لا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يصف بدقة مقدار المعاناة الإنسانية التي عشناها أثناء خروجنا من اللد. وحين اقترب المغيب، أتى من يقول إننا أصبحنا قريبين من بئر يمكن أن نجد فيها قليلاً من الماء. بدأت ومجموعة من الأصدقاء نركض نحو البئر، وحين بلغناها وجدناها ملأى بالقاذورات، ومع ذلك لم تقوَ إراداتنا على الامتناع عن تناول تلك المياه، فأخذنا نشرب منها رغم قذارتها، وأخرجنا مناديلنا وبللناها بالماء وحملناها إلى أهالينا لكي يطفئوا بها ظمأهم إلى حين وصولهم إلى البئر. بتنا في تلك الليلة في قرية اسمها نعلين، وفي اليوم التالي تابعنا المسيرة إلى أن توقفنا عند بلدة بير زيت، حيث شعرنا أن في إمكاننا البقاء هناك بانتظار ما سيحدث، إذ لم يكن أحد منا يتصور أن الناس سيبقون خارج مدنهم وبلداتهم لمدة طويلة. في تلك الفترة ولبضعة أسابيع كنا نفترش الأرض من دون أي تجهيزات، ثم وجدنا بيتاً في رام الله وسكنّا هناك لفترة من الوقت.

كان الجميع يعتقد أننا سنعود خلال أيام أو أسابيع إلى بيوتنا من جديد، سواء عن طريق الجيوش العربية أو عن طريق هيئة الأمم المتحدة. ولم يتصور أحد في حينها أن الأيام والأسابيع المنتظرة ستتحول إلى رحلة طويلة تجاوزت الستين عاماً لم يتوقف فيها شعبنا يوماً عن تقديم التضحيات الجسيمة. إنها رحلة من العذاب والمعاناة ما زالت مستمرة تطوي بين صفحاتها الشهداء يوماً بعد يوم، وما زالت حرارة ذلك اليوم الشديد القيظ من شهر تموز/يوليو تسكن ذاكرتي، وبيتنا الذي تركته في اللد بالأمس القريب ما زال ينتظر عودة أهل الدار.

بعد مرور سنوات على رحلتنا المأسوية وخروجنا من اللد، قرأت كتاباً لكاتبة بريطانية، قصة اسمها **الطريق إلى بئر السبع**[1]. وكأن هذه الكاتبة كانت معنا في رحلة خروجنا. لا يكفي أن أقول إنني لم أجد أية مبالغة في ما كتبته تلك الروائية البريطانية، بل أستطيع القول إن المأساة كما عشتها كانت أكثر حدة مما أظهرته تلك الرواية.

في رام الله رحت أقصد يومياً مقهى قريباً من مقر إقامتنا لأستمع إلى نشرات الأخبار، لعلي أسمع خبراً يتناول موضوع عودتنا إلى بيوتنا، فلم نكن نتخيل أن نبقى في هذا الوضع إلى وقت طويل. ولا أدري لماذا ما زلت أذكر من تلك الأخبار التي كنت أسمعها في تلك الفترة، خبراً لا يزال ماثلاً في ذهني حتى هذه اللحظة، يقول إن دايفيد بن غوريون، رئيس وزراء إسرائيل في ذلك الوقت، صرّح بأنه يتوقع ويأمل أن يصبح عدد السكان اليهود في «دولة إسرائيل» أربعة ملايين نسمة في عام 1952، أي في غضون أربع سنوات. كان عدد اليهود في فلسطين عام 1948 لا يتجاوز السبعمئة ألف يهودي، لذلك بدا تصريح بن غوريون مذهلاً وغريباً في ذلك الوقت. فكم كان يدل ذلك التصريح على مدى الطموح ومدى الأطماع والمخططات التي كان يضعها قادة الصهيونية منذ ذلك الوقت بل وقبل ذلك كثيراً.

كان السؤال الذي يحيِّرني في تلك الحقبة، أي في صيف عام 1948، هو ماذا عن متابعة دراستي الجامعية؟ إذ لم أكن في وضع يمكنني معه التفكير في متابعة دراسة الطب، ليس لأسباب مادية، إذ كنت قد حصلت على منحة جامعية نتيجة تفوقي في الدراسة من المعهد البريطاني في بيروت، الذي كان يقدم مثل هذه المنح للمتفوقين في الجامعة من الفروع كافة. لكن ترددي وحيرتي كانا ناجمين عن شعوري بعدم قدرتي على الدراسة، فكيف أستطيع متابعة الدراسة؟ هل أستطيع أن أنكبَّ على

(1) Ethal Mannin, *The Road to Beersheba* (London: Hutchinson, 1963).

دراستي ساعات، أو حتى بضع دقائق، كما كنت أفعل في السنة الدراسية السابقة، وأحصل على علامات متفوقة؟ ولكن والدتي وأهلي كانوا يصرون على ضرورة متابعتي الدراسة، ويقولون لي «ما الذي تستطيع أن تفعله إن لم تكمل دراستك الجامعية؟» وبالفعل، لم أكن امتلك جواباً عن هذا السؤال، فلم يكن هناك في تلك الفترة تنظيمٌ أو مؤسسة تمتلك الرد على السؤال الذي كان يحيرني ويحير الآلاف من الشباب الفلسطيني، وهو ما العمل؟ وما الذي نستطيع أن نفعله بعدما أقيمت دولة إسرائيل بالقوة؟

من هنا وجدت نفسي مضطراً إلى السفر إلى بيروت من جديد والالتحاق بالسنة الدراسية في الجامعة الأميركية. وكنت قد انتُخبت في السنة الدراسية السابقة نائباً لرئيس جمعية العروة الوثقى، فرأيت في ذلك ميداناً مفتوحاً أمامي للعمل والتفكير والتعبير عما يدور في نفسي وفي نفوس جميع الشباب الفلسطيني والعربي من شحنات الغضب التي تحرق النفوس.

3 ـ بداية النشاط السياسي في الجامعة الأميركية في بيروت ما بعد النكبة وتأسيس نواة حركة القوميين العرب

كانت جمعية العروة الوثقى حتى ذلك الوقت جمعية ثقافية أدبية بحتة. لكن بعد النكبة لم يكن هناك مفر من تحويلها إلى جمعية سياسية. أهم ما أذكره من الأنشطة التي قمنا بها في تلك السنة التي تلت النكبة تنظيم مجموعة من المحاضرات كان محورها موضوع النكبة وأسبابها وما العمل بعدها. وقد وضعت قائمة بالموضوعات التي فكرنا فيها كهيئة إدارية للجمعية حتى نجد الأشخاص المناسبين للتحدث عنها. وكان من المفترض عرض هذه الموضوعات على الأستاذ قسطنطين زريق بوصفه مستشاراً للهيئة الإدارية لجمعية العروة الوثقى.

ومن المحاضرين الذين دعتهم الجمعية كان الأستاذ كمال جنبلاط، الذي كان شاباً يافعاً في ذلك الوقت، ولم أعد أذكر بالضبط موضوع المحاضرة التي ألقاها، لكني أذكر أنها أعجبتني، إذ لم تكن تقليدية. ومن بين الذين تمت دعوتهم أيضاً كان الشاعر عمر أبو ريشة. لا يمكن أن أنسى تلك الليلة، كان الشاعر قد نظم في إثر النكبة ومن وحيها قصيدة ما زلت أذكر مطلعها:

أُمتي هل لك بين الأمَمِ
منبرٌ للسيفِ أو للقلمِ

كانت القصيدة تصب جام غضبها على الحكام والزعماء العرب في ذلك الوقت، وهو ما جعل القاعة تدوي بالتصفيق المتواصل. كان كل بيت من أبياتها مفعماً بالألم والمرارة. لقد ألقاها الشاعر أبو ريشة بطريقة رائعة، بحيث أحس كل من كان حاضراً في القاعة بأن القصيدة تعبر عن مدى المرارة التي كان يشعر بها كل طالب.

بدأ نشاط العروة الوثقى يستأثر بالشيء الكثير من جهدي، وخصوصاً أني كنت من الناحية العملية المسؤول الأول عن إدارتها في تلك السنة، فقد كان رئيس الجمعية، وهو الأخ إدمون الباوي، يعد لرسالة الماجستير وكان عملياً موكلاً لي بأنشطتها كافة.

في تلك السنة شعرت أن كفاءتي في العمل تتبلور من خلال التجربة، بعدما كنت منطوياً على نفسي بوجه عام قبل تجربتي تلك، وكان إطار أصدقائي محدوداً، إذ كنتُ أصرف اهتماماً خاصاً للدراسة، فكنت، بحسب رأي أساتذتي ووفق النتائج التي كنت أحصلها في الدراسة، طالباً متميزاً. لكن الأمر اختلف بعد النكبة، شعرت أنني أريد أن أخاطب العالم كله وأتحدث عن الظلم الذي لحق بنا كشعب، وكان الميدان المفتوح أمامي عملياً هو النشاط الطلابي، ومن خلال جمعية العروة الوثقى تحديداً. من هنا حصلت عملية الاندماج الكلي والصادق بيني وبين العمل الكلي من أجل قضية شعبي ووطني. تبلورت في تلك السنة مجموعة الأسماء التي كنت أشعر بأن النكبة أثرت فيها بالقدر نفسه الذي كنت أشعر أنها أثّرت فيّ أنا أيضاً. لقد أظهر هؤلاء الأشخاص استعداداً لعمل أي شيء ممكن لخدمة القضية؛ أذكر منهم الدكتور وديع حداد والدكتور أحمد الخطيب وكذلك صالح شبل وهاني الهندي وأشخاصاً آخرين، بعضهم توقف عن متابعة المسيرة فور التخرج من الجامعة، وبعضهم بعد ذلك بسنوات قليلة. وإلى جانب هذه الأنشطة التي كنا نقوم بها من خلال جمعية العروة الوثقى كنت مع هؤلاء الأشخاص نحاول جاهدين وباستمرار تحريك الشارع الطلابي في كل لبنان باتجاه القضايا الوطنية الساخنة في ذلك الوقت.

كانت جماهير الشعب المصري في حالة غليان ضد النظام الملكي وضد الفساد وصفقات السلاح الفاسدة التي أظهرتها معارك فلسطين، وكذلك ضد الوجود البريطاني في مصر وفي قناة السويس. كانت بريطانيا تطرح مجموعة من المشاريع بهدف ربط مصر والمنطقة العربية بمعاهدات ومواثيق واتفاقيات تحفظ لها هيمنتها في المنطقة. كنا من خلال العروة الوثقى ندعو إلى اجتماعات طلابية لننظم التظاهرات العامة ضد المشاريع الاستعمارية وضد المخططات التي تُطرح لتكبيل مصر والوطن العربي، وكذلك ضد المشاريع التي كانت تُطرح لتوطين اللاجئين الفلسطينيين في البلاد العربية. وأستطيع القول إننا أصبحنا نقود الحركة الطلابية في معظم مناطق لبنان. لقد أوجدنا اتصالاً بطلاب بعض الثانويات في بيروت وإن لم تخني ذاكرتي، استطعنا أيضاً أن نقيم علاقة مع طلاب الجامعة اليسوعية، لكن أكثر منطقة تجاوبت معنا كانت منطقة طرابلس، حيث كانت الحركة الطالبية ناشطة وفاعلة تتلقف كل برامجنا وتعمل على أساسها.

في تلك الفترة كانت مجموعة الطلبة الذين أشرت إليهم، وأقصد بذلك النواة التي كانت في الجامعة الأميركية، تنشط من خلال العروة الوثقى والأنشطة الطالبية في لبنان بوجه عام. وقد أقمنا صلة ببعض الصحافيين اللبنانيين الذين تجاوبوا معنا وبدأوا يغطون أنشطتنا، منهم عفيف الطيبي وكامل مروة وزهير عسيران ونسيب المتني، صاحب جريدة **التلغراف**، وكذلك بعض الساسة العروبيين الذين كان يضمهم في ذلك الوقت حزب النداء القومي الذي كان يرأسه كاظم الصلح.

في هذه السنة بالذات، أقصد السنة الدراسية 1948 ـ 1949، تجاوز نشاطنا حدود الحياة الجامعية، حيث أصبحنا نتصل باللاجئين الفلسطينيين في المخيمات، وأصبح نشاطنا يشمل بيروت وصيدا وطرابلس، ورحنا ننظم أنشطة جماهيرية وحماسية تبعث الأمل في النفوس. وفي هذه الفترة تعرفت

إلى الشهيد إبراهيم أبو دية بطل معركة القطمون[1]، الذي أصيب بالشلل بسبب أصابته برصاصة في العمود الفقري. أخذت أزوره بين وقت وآخر، وقد كانت له زوجة رائعة بمعنوياتها وبطلة بالنسبة إلى ما كانت تتحمله. كم كانت روحه المعنوية عالية، يسألنا عن الأخبار ويناقشنا ويسألنا عن أنشطتنا، وكم كان تأثري شديداً يوم وفاته في مستشفى الجامعة الأميركية.

وفي نهاية العام الدراسي خضنا معركة انتخابات الهيئة الإدارية للعروة الوثقى من جديد وكنت هذه المرة مرشحاً لرئاستها، وكان معي في القائمة نفسها الدكتور أحمد الخطيب كنائب للرئيس ووديع حداد ومجموعة أخرى من الشبان. أذكر أننا سمينا قائمتنا في ذلك الوقت «قائمة الشباب العربي»، وكانت هي القائمة المنافسة للشيوعيين التي يترأسها كما أذكر الدكتور منصور أرملي، وكان نائبه في القائمة شابٌ من سورية اسمه عبد الحليم

---

(1) ولد إبراهيم أبو دية عام 1919 في قرية صوريف في قضاء الخليل، وأتمّ الابتدائية في مدرستها، ثم انتقل إلى الخليل للدراسة في مدرستها الثانوية، وحمل السلاح دفاعاً عن فلسطين عام 1936. وكانت تربطه مع الشهيد عبد القادر الحسيني صداقة قوية، فهو رفيق دربه في أكثر معاركه الجهادية في المنطقة الوسطى من فلسطين.

وفي عام 1948، عهد إلى إبراهيم أبو دية حماية حي «القطمون» بالقدس، الذي تعرّض لهجوم عنيف بكل ما توافر للعدو الصهيوني من أسلحة ثقيلة وخفيفة على مدى ثلاثة أيام متواصلة، فتصدى لهم إبراهيم مع رجاله وردّهم مندحرين بعدما أوقع في صفوفهم خسائر فادحة؛ واستمر العدو يحاول لمدة ثلاثة أشهر ولكن من دون جدوى. أخيراً جمع العدو قوات كثيفة من عدة مناطق وبلغ عدد قواته ألفين من الرجال المدربين، فتصدى لهم الشهيد بقواته المتواضعة العدد والعدة، لكن بعدما نفدت الذخيرة من رجاله وفقد منهم الكثير، اضطر إلى الانسحاب إلى بيت لحم لتنظيم قواته من جديد. ثم خاض البطل معركة رامات راحيل جنوب غرب القدس، ومعركة دير البسمان وبيت نتيف. وقد أصيب بجراح بالغة في معركة رامات راحيل في 17 أيار/مايو 1948، وكان ذلك بعد استشهاد القائد عبد القادر الحسيني بأربعين يوماً. وكان من نتائج إصابته البالغة أن أصيب بالشلل، تمّ إسعافه في القدس ثم نقل إلى مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت على نفقة الجامعة العربية. بقي في المستشفى أربع سنوات يكابد ألمه الشديد بإيمانه الكبير بالعودة إلى أرض الوطن. إلا أن إصابته كانت أشد من أن يمكن إنقاذ حياته. ثم ساءت أحواله الصحية وتوفي في المستشفى في 6 آذار/مارس 1952. أعلن نبأ وفاة إبراهيم أبو دية في بيروت، وسرى في الناس سريان النار في الهشيم، فمشى في جنازته ما يزيد على خمسة عشر ألفاً من المواطنين تحية له وتقديراً لبطولاته.

السعدي. كان الشيوعيون في ذلك الوقت يؤيدون التقسيم وينادون بالصلح مع إسرائيل (أيار/مايو 1949)[2]، لكن الرأي العام لم يكن مستعداً لقبول مثل هذه الأطروحات، فكان فارق الأصوات بيننا وبينهم كبيراً. وقد نجحت في الانتخابات وأصبحت رئيساً للعروة الوثقى عام 1949 ـ 1950.

إلى جانب هذا النشاط السياسي، ومن وحي الجو المتوتر الذي كان يسود أوساط الشباب العربي في ذلك الوقت، فهمت من خلال الأخ هاني الهندي أن «هناك مجموعة من الشباب في سورية تنظم نفسها لتأسيس تنظيم سري ينتقم من الحكام العرب المسؤولين عن نكبة فلسطين، ويقوم بتصفية بعض الرموز الخائنة ويتوجه بضرب بعض المصالح والمؤسسات الاستعمارية والصهيونية». من الأسماء التي ذُكرت لي على أنها تعمل في سورية كان حسين توفيق، وهو شاب من مصر اتُّهم باغتيال النقراشي باشا، وشاب مصري آخر اسمه عبد القادر، وشاب من سورية، هو جهاد ضاحي. كان اسم هذا التنظيم كتائب الفداء العربي، انضممت إلى هذا التنظيم، ويومها بدأنا بتنظيم أعمالنا، فوضعنا قائمة بمجموعة عمليات نقوم بها. ولم يمض وقت طويل على هذا العمل حتى انكشف هذا التنظيم. كان السبب في انكشافه إقدام حسين توفيق، من دون موافقة الجميع، على محاولة اغتيال أديب الشيشكلي. كان ذلك عام 1951، وكنت في حينها في السنة النهائية من دراستي الجامعية.

يوم ذاع خبر هذا التنظيم كنت أقوم، كما هي العادة في السنة الخامسة من دراسة الطب، بالعمل في أحد المستشفيات على أساس التدريب. كان المستشفى في طرابلس واسمه مستشفى Bods. وحين قرأت خبر انكشاف التنظيم نزلت إلى بيروت وكان رأي مجموعة الرفاق الذين استشرتهم أن

(2) لا يذكر الدكتور حبش هنا تاريخاً محدداً، وتاريخ أيار/مايو 1949 المذكور أعلاه بين قوسين هو تقدير المحرر اعتماداً على تقويم الجامعة ونظام الفصلين بحسب النظام الأمريكي الذي تتبعه الجامعة يمكن تقدير أن التاريخ هو نهاية أيار/مايو 1949، وهو ما يجعله رئيساً للهيئة الإدارية في العام الدراسي 1949 ـ 1950 كما يشير في الصفحات اللاحقة.

أختفي لمدة من الوقت إلى حين معرفة ما سيحصل في التحقيق. اختفيت في منطقة البسطة في بيروت عند شاب وطني لبناني اسمه منير سنُّو، الذي تعود معرفتي به إلى عام 1949، حين قام بمساعدتنا على الحصول على بعض المتفجرات التي استعملناها في بعض العمليات. عشت مرحلة الاختفاء في بيت منير، وكانت والدته تُعنى بي وتحاول أن توفر لي أفضل إقامة. وقد بقيت مختفياً إلى أن ظهرت نتيجة المحاكمة التي تمت لهذه المجموعة، أي مجموعة كتائب الفداء. ولم يصدر علي أي حكم، لذلك عدت إلى الجامعة لأكمل السنة الدراسية الخامسة والنهائية.

وفي عام 1951، لم أعد رئيس الهيئة الإدارية للعروة كما في عام 1950، بل أصبحت رئيساً للجمعية العامة للعروة. وحين عدت إلى الجامعة بعد مرحلة الاختفاء عقدت اجتماعاً للهيئة العامة للجمعية، فاستقبلني الأعضاء بتصفيق حاد فهمت منه تأييدهم وحماستهم لفكرة العنف الثوري التي مثلتها كتائب الفداء العربي. بعد عودتي إلى الجامعة، تابعت نشاطي في العروة الوثقى من ناحية وفي المجال الطلابي اللبناني بوجه عام من ناحية ثانية. إضافة إلى ذلك، بدأت أفكر جدياً في العمل الوطني بعد تخرجي في الجامعة. لم أكن أفكر وحدي في هذا الموضوع بل كنت أتناوله مع مجموعة الرفاق الأساسيين الذين شكلوا في ما بعد النواة الأساسية لحركة القوميين العرب. في ذلك الوقت طرحنا على أنفسنا السؤال التالي: لمَاذا لا نعمل من خلال الانضمام إلى حزب البعث العربي الاشتراكي؟ وكان عدد من الإخوة الذين يعملون في إطار العروة الوثقى قد انضموا فعلاً إلى حزب البعث. لكن مجموعتنا كانت تشعر أن هذا الحزب تنقصه عدة أمور يمكن الانضمام إليه في حال توافرها.

على سبيل المثال كانت هذه المجموعة تريد أن ترى تأثير أحداث عام 1948 في مسيرة الحزب، أي ما كنا نسميه نكبة العرب. كانت تريد أن ترى ذلك في شعارات الحزب وأساليب عمله وكفاحه والمتطلبات التي يطلبها الحزب من أعضائه وغيرها من الأمور. كنا نرى أنه لا بد من اللجوء إلى

السلاح والقوة لاسترداد فلسطين، وأن يكون موضوع فلسطين شعاراً من شعارات الحزب الأساسية. وكانت تطرح أهمية التدريب العسكري والبناء الجسماني، كما كانت الفكرة أن يهب العضو نفسه كلياً للعمل الثوري ولا يفكر في أي شيء سوى قضية الوطن، وأن يكون مستعداً للتضحية بنفسه تماماً فور أن يطلب منه الحزب ذلك. كانت تلك المجموعة التي أقودها تعتقد أن الحزب يجب أن يُبنى على مبدأ «نفِّذ ثم ناقش» لضمان هيبة التنظيم وقدرته على تنفيذ ما يريد لمصلحة العمل الوطني. كانت تلك المبادئ والمفاهيم التي تتحدث عنها تلك المجموعة من الشباب من وحي ما حصل في فلسطين ومن وحي انتصار العصابات الصهيونية على الشعب الفلسطيني وعلى الأمة العربية بأكملها. من هنا رأت هذه المجموعة أن تقابل الأستاذ ميشيل عفلق، مؤسس حزب البعث، الذي كان يتردد إلى بيروت ويجتمع بأعضاء الحزب في الجامعة الأميركية. وكان اللقاء، وطرحنا عليه ما نفكر فيه، لكننا خرجنا من ذلك اللقاء غير مرتاحين إلى طبيعة الأجوبة التي سمعناها منه. فلم نشعر أن قائد هذا الحزب قد صدمته الأحداث، أي نكبة 1948 كما يجب، وأنه لا يفكر في بناء قوة على رأسها قوة عسكرية تأخذ على عاتقها متابعة معركة التحرير التي فشل فيها الحكام العرب.

من هنا بدأنا نتوجه نحو إقامة تنظيم سياسي يقوم على مبادئ القومية العربية[3]، وفي الوقت نفسه يكون محور عمله الرد على النكبة التي وقعت في فلسطين. هنا سألنا أنفسنا السؤال التالي: هل ننشئ مثل هذا التنظيم السياسي ونعلن عنه؟ وكان جوابنا أنه لا يجوز الإعلان عن مثل هذا التنظيم إلا بعدما نحدد بالضبط الأسس النظرية والسياسية والتنظيمية لمثل هذا الحزب بدقة أكثر من العموميات التي كنا نتحدث بها. ليس هذا فحسب، بل يجب في الوقت نفسه أن نضمن قدرتنا على ترجمة وتجسيد ما نقوله

(3) يبدو أن المقصود هنا المجموعة التي انضمت إلى العروة الوثقى والنادي الثقافي وكتائب الفداء العربي عقب النكبة.

على نحوٍ حسي وملموس. هنا بدأت ورشة العمل السرية التي كان هدفها إرساء هذه الأسس وبلورتها من ناحية واختبار أنفسنا من ناحية ثانية حتى نتأكد أننا بمستوى المسؤولية التي نُعد أنفسنا لتحملها.

كان ذلك عام 1951. بدأنا نجري قراءات منظمة هدفها الاطلاع على تجارب الحركات القومية في العالم للإفادة منها، وكنا نركز في قراءاتنا على تجربة وحدة ألمانيا ووحدة إيطاليا ونضال الهند ضد الإنكليز وثورة أكتوبر الشيوعية في روسيا. كذلك أردنا معرفة تاريخنا وتراثنا، إضافة إلى إجرائنا قراءات متعددة ومتنوعة أخرى. إلى جانب ذلك كنا نطلب من أنفسنا التعود على الكتابة الأدبية والسياسية ونرسل بعض نتاجنا إلى الصحافة اللبنانية، وكنا نعتبر نشاطنا الطلابي في الساحة اللبنانية محكاً لجرأتنا وفعاليتنا واستعدادنا للتضحية.

كان لنا في هذا العام، أي عام 1951، أنشطة في وسط المخيمات الفلسطينية في لبنان: في صيدا وصور والبقاع. كنا نقوم بهذا النشاط أنا ووديع حداد، نقوم بخدمات اجتماعية في المخيمات ونعبئ الجماهير من أجل المطالبة بالعودة. كانت هناك نقمة على حالة العجز العربي.

أذكر في تلك الفترة المعارك التي خضناها ضد إدارة الجامعة الأميركية، التي استهدفت بحزم كل هذه الأنشطة، ولجأت إلى أسلوب الفصل من الدراسة، فلجأنا نحن إلى الإضراب والتوقف عن الدراسة. وفي بعض الأحيان كانت الشرطة اللبنانية تتدخل. وقد اضطرت إدارة الجامعة إلى التراجع أكثر من مرة. أذكر في هذا العام (1951) بعض الأنشطة التي كنا نقوم بها، كالتظاهرات العامة حيث كانت تحصل اصطدامات مع الشرطة، لكننا كنا معبئين بروحية التحدي إلى حدٍ كان يثير الإعجاب والذهول. أذكر أول مرة دخلت فيها السجن في لبنان مع الدكتور وديع حداد في إثر توزيعنا بعض المنشورات التي كانت تهاجم ما يسمى التحالف الرباعي الذي كانت بريطانيا تخطط له مع السلطات المصرية في ذلك الوقت،

وكيف نام الدكتور وديع حداد، رحمه الله، وهو في طريقه إلى السجن، مما يدل على عدم اكتراثنا لأي إجراء يمكن أن تتخذه أية سلطة حينذاك.

ولما كان عام 1951 العام الدراسي الأخير بالنسبة إلي، فقد بدأنا نفكر معاً كيف نتابع عملنا بعد انتهاء دراستي في الجامعة، إذ إن الرفاق كانوا يعتبرونني العنصر المحرّك لهذه المجموعة[4]. وكان السؤال المطروح عليّ وعلى الإخوة الذين كنت أعمل معهم هو: أين أكون موجوداً بعد انتهاء العام الدراسي؟ وكان جوابي وجواب رفاقي أن أبقى في العام القادم في لبنان وفي الجو الطلابي نفسه كي نستمر في عملية الإعداد والتنظيم لفترة أطول. وحين رسا تفكيرنا في هذا الاتجاه كان من الطبيعي أن أكمل عملي في الجامعة الأميركية نفسها. أردت عملاً لا يأخذ كثيراً من وقتي حتى يكون لدي مجال كاف للمطالعة والدراسة ومتابعة نواة العمل التي نعدها لهذا الواجب القومي. ففكرت في العمل بصفة مساعد تدريس في مادة علم الأنسجة (Histology)، وكانت علاماتي في الدراسة تؤهلني لمثل هذا العمل. حين تقدمت بهذا الطلب إلى رئيس كلية الطب، الذي كان البرفسور غنطوس في ذلك الوقت على ما أذكر، تقبلَ طلبي مندهشاً ومسروراً وأعتقد أنه كان يفكر بينه وبين نفسه أن نشاطي الوطني أثناء الدراسة كان شيئاً عابراً وأنني الآن بدأت أفكر في نفسي وفي مستقبلي. كان يأمل أن أبدع في هذه المهمة لأني كنت في السنة الثانية من دراسة الطب، أي قبل نكبة فلسطين ميالاً إلى البحث العلمي. وعملت لمدة عام كامل مساعداً للبروفسور الهولندي Momorts في بعض أبحاثه. ولا أنسى أنه كان معروضاً علي وعلى الخريجين كافة في كلية الطب، العمل في الظهران

(4) يذكر الدكتور جورج حبش في **الثوريون لا يموتون أبداً** ما يلي: «وقد مددت بقائي في الجامعة الأميركية عاماً إضافياً، بعد نيل شهادتي، بهدف القيام بأبحاث علمية في مجال علم الأنسجة. كان ذلك في الواقع غطاءً سمح لي بتأسيس حركة القوميين العرب في تلك السنة 1951 ـ 1952 والقيام بنشاطات سياسية في أوساط الطلاب ومتابعة نشاطي الثقافي والسياسي في العروة الوثقى». انظر: جورج حبش، **الثوريون لا يموتون أبداً** (بيروت: دار الساقي، 2009)، ص 25.

كأطباء في شركة النفط الأمريكية السعودية أرامكو، حيث كانت الرواتب مغرية جداً، وكان يستغرب بعض الذين تخرجوا معي لعدم تقديمي طلباً للعمل في تلك الشركة.

كانت السنة الأخيرة سنة عمل وإعداد للمستقبل، وفي الوقت نفسه سنة نشاط طلابي على صعيد لبنان كله وعلى صعيد الصدامات مع إدارة الجامعة وخصوصاً مع رئيسها الأمريكي الأستاذ ستيفن بنروز (Stephen Penrose)، الذي اختير خصيصاً، كما أعتقد، لملاءمة سياسة الجامعة الأميركية مع أغراض السياسة الأمريكية في المنطقة بعد الحرب العالمية الثانية، وكان الفرق واضحاً كل الوضوح بين رئيس الجامعة الأسبق بايارد دودج (Bayard Dodge)، الذي كان يمثل القيم الأمريكية المجردة وبين الرئيس بنروز، الذي كان يمثل ما تريده الإدارة الأمريكية في المنطقة في ذلك الوقت. ما زلت أذكر حفل التخرج والتصفيق المدوّي الذي حل بقاعة حفل التخرج حين تمت قراءة اسمي بين الخريجين. تأكدت بطبيعة الحال أن عملية التصفيق تلك كان لها علاقة بكتائب الفداء العربي وتشوّق الرأي العام الطلابي في ذلك الوقت إلى أي عمل يهدف إلى استرجاع كرامة الأمة العربية التي هُدِرت في عام 1948. وأذكر أيضاً حضور والدتي وأخي حفل تخرجي. ولم يكن صعباً علي إقناعهما بعدم ذهابي معهما إلى عمان، فقد كانا يدركان أنه من الأفضل لي عدم الذهاب تحاشياً للسلطات الأردنية وما كان يمكن أن تثيره كتائب الفداء العربي لديها، وخصوصاً في ضوء ما ادعاه حسين توفيق في سجون سورية من أن كتائب الفداء كانت تُعد لاغتيال الملك عبد الله.

تابعت بعد تخرجي، وعلى نحو سري هذه المرة، قيادتي للعمل الذي كنا نعد أنفسنا له، أي تأسيس عمل قومي جديد، عمل أو حركة من نوع جديد يتميز عن كل ما هو قائم من قوى وأحزاب موجودة في تلك المرحلة. والإعداد بالنسبة إلينا في ذلك الوقت لم يكن مقتصراً على الدراسة وعملية التأسيس التي أشرت إليها، بل كان يستهدف، إضافة إلى

ذلك، اختبار النواة التأسيسية فرداً فرداً، كما كان يستهدف نجاحنا في الأنشطة الجماهيرية التي كنا نعد لها. كانت الساحة اللبنانية ساحة الاختبار الرئيسية في هذا المضمار. بدأنا نصدر في هذه الفترة أثناء وجودي في بيروت، وقبل ذهابي إلى عمان، نشرة **الثأر** باسم هيئة مقاومة الصلح مع إسرائيل، تلك النشرة التي بدأت تفعل فعلها في التعبئة والتحريض السياسي. نظّمنا أيضاً مجموعة أنشطة طلابية تنم كلها عن نَفَس جديد وروحية جديدة تجعلنا مطمئنين إلى أننا في سياق تجربة جديدة من حيث الروحيّة والفاعلية والتصميم.

أما الحدث الأكبر الذي لا يمكن نسيانه فهو الذي أدى إلى إنهاء عملي في الجامعة واضطراري إلى السفر إلى الأردن. كانت تلك المرحلة كما ذكرت تشهد محاولات ناشطة لربط المنطقة العربية بالأحلاف الاستعمارية، وكان حصل حدث ما أو تصريح لم أعد أذكره فرض علينا التظاهر. اجتمعنا نحن النواة، أي أنا ووديع حداد وأحمد الخطيب وهاني الهندي وصالح شبل، وحامد الجبوري من العراق، وقررنا التظاهر، وما لبث خبر الدعوة إلى التظاهر أن انتشر. وفي اليوم الذي سبق موعد التظاهرة بدأ الإعداد من جانب السلطات اللبنانية وإدارة الجامعة لمنعها. فساد جو من الإرهاب الشديد: إنذارات وتهديدات من جانب إدارة الجامعة وإحاطة مبناها برجال الأمن والدرك وإغلاق البوابات الرئيسية، إلى آخر ما هنالك من وسائل الإرهاب والتهديد. كان واضحاً أن إدارة الجامعة، وكذلك السلطة اللبنانية، كانتا ترميان بثقلهما لمنع حدوث أي تحرك. إزاء ذلك كان واضحاً تماماً أن عدم قيام أي تحرك يعني فشلاً ذريعاً لنا. وقبل ساعات من الوقت المحدد لبدء التظاهرة أحضرت إدارة الجامعة بالاتفاق مع قوات الأمن جنازير حديد لإغلاق البوابة الطبية (Medical Gate)، التي كان مخططاً أن ينطلق المتظاهرون منها. ونظراً إلى مكانتي كمدرس في الجامعة كان من المفروض عليّ ألا أشترك في هذه التظاهرة وأن أبقى أراقب انطلاقتها فقط؛ لكن، أمام التحدي الكبير، وخوفاً من نجاح إجراءات السلطة والجامعة في

تحطيم معنوياتنا، قررت بيني وبين نفسي في اللحظة الأخيرة أن أشارك في التظاهرة، فتقدمت مع الرفاق في الصف الأول الذين كان عليهم أن يحطموا السلسلة الحديد التي كانت تربط دفتي الباب. وبكل قوة وتصميم وعزم استطعنا تحطيمها رغم هراوات الشرطة التي كانت تنهال على أيدينا بالضرب. وحين تحطمت تلك السلسلة الحديد انطلقت جماهير الطلاب بالتظاهرة وتكثف الحشد وتكاثر وأصبحنا وجهاً لوجه أمام الشرطة التي قبضت على البعض منا، بمن فيهم أنا والدكتور وديع حداد، حيث تمكنا من خلال تصادمنا مع الشرطة من إفساح المجال لبقية المتظاهرين للانطلاق إلى الشوارع ثم السير إلى المدارس الثانوية التي كانت تنتظرنا للاشتراك في التظاهرة، التي نجحت رغم كل مساعي إدارة الجامعة والشرطة لإفشالها. هنا لا بد من أن أذكر الدور الذي أدته الأخت أسماء الموقّع[5] في تلك التظاهرة وفي كل الأنشطة التي كنا نقوم بها، إذ كانت تتحلى بروح معنوية عالية وتجسد كل القيّم التي كنا نعتبرها مقياساً للانضمام للعمل الثوري، وقد كانت أسماء زميلةً لنا في الجامعة الأمريكية.

صدرت الصحافة اللبنانية في اليوم التالي بالمانشيتات العريضة تتحدث عن ذلك الحدث الذي كان من الكبر والضخامة بحيث جعل السلطات اللبنانية تضطر إلى إخلاء سبيلي أنا والدكتور وديع والإخوة الموقوفين كافة. كان ذلك انتصاراً كبيراً لنا في حينها، وهو ما زاد من تصميمنا على بدء مواصلة نشاطنا. لكن بعد كل ما حصل لم يكن في الإمكان متابعة عملي في الجامعة. لذلك أخذت المبادرة وقدمت استقالتي إلى الدكتور غنطوس

(5) أسماء أبو الخير الموقّع، إحدى أهم المناضلات العربيات في المشرق ورائدات حركة القوميين العرب. من مواليد دمشق عام 1926 لأسرة ذات ميول قومية. كان والدها، أبو الخير الموقع، من الناشطين والمدافعين عن وحدة سورية الطبيعية وشارك في المؤتمرات السورية الفلسطينية. وأسماء كانت في الصف القيادي في حركة القوميين العرب في الجامعة الأميركية في بيروت. حصلت على شهادة بكالوريوس من كلية الآداب، وتابعت دراستها لنيل درجة الماجستير في الفلسفة من الجامعة نفسها التي قامت بطردها بسبب نشاطها السياسي. التحقت بصفوف الفدائيين.

والبروفسور شانكلِن (Shanklen)، مسؤول قسم علم الأنسجة (Histology). شعرت بأن الدكتور غنطوس كان متألماً لاستقالتي، إذ كان يتوقع لي مستقبلاً مشرقاً في الطب والبحث العلمي، لكن لم يكن أمامه إلا قبول تلك الاستقالة. لم أعد أذكر المدة الزمنية التي قضيتها بين استقالتي من الجامعة الأميركية وبين انتقالي إلى الأردن لبدء مرحلة جديدة، أعتقد أنها بضعة أشهر قضيتها في التفرغ والتركيز على الإعداد لعملنا القومي المقبل: مطالعة واجتماعات وبعض الاتصالات والتحريض وأحياناً الكتابة. كنا في بيروت نعقد اجتماعات للحلقة القيادية الأساسية التي كانت تضم هاني الهندي ووديع حداد وأحمد الخطيب وصالح شبل وحامد الجبوري، وكانت هذه الحلقة القيادية تنشط في تنظيم حلقات أخرى.

في خضم هذا الوضع، وقع حادث كبير وهو اغتيال الملك عبد الله في تموز/يوليو 1951، وهو حدث فتح أمامنا فرصة جديدة لعملنا القومي. فقد تلت اغتيال الملك عبد الله فترة انفراج نسبيّ في الأردن أصبح ممكناً لي من خلالها أن أفكر في العودة إلى عمان حيث المعارف والجمهور الفلسطيني الكبير وفرص العمل القومي مفتوحة.

استقر رأينا في الحلقة القيادية[6] على أن أسافر شخصياً إلى عمان وأُهيىء لاستقبال وديع حداد الذي سيتخرج بعد أشهر، وكذلك حامد الجبوري، على أن يبقى هاني الهندي في سورية. أما الدكتور أحمد الخطيب فيسافر إلى الكويت، وصالح شبل إلى العراق، ويكون المركز القيادي المسؤول في عمان، بحيث نرتب لقاءً دورياً كل بضعة أشهر نستعرض فيه مسيرة التجربة في كل بلد من هذه البلدان. وكان الاتفاق بيننا أن يبقى صالح شبل مسؤولاً عن نواة العمل الذي أقمناه في لبنان قبل أن تأتي فكرة سفره إلى العراق بعد بضعة أشهر.

---

(6) الحلقة القيادية هي المجموعة التي تعرف إليها الدكتور حبش في العروة الوثقى وتضم أحمد الخطيب من الكويت، صالح شبل ووديع حداد من فلسطين، وحامد الجبوري من العراق، وهاني الهندي من سورية.

4 ـ حركة القوميين العرب: امتدادها ونشاطها في الأردن

تمكّنتُ عن طريق الأهل والأصدقاء من حل المشكلة الأمنية التي كانت تواجهني في الأردن، بسبب اتهامي بالإعداد لاغتيال الملك عبد الله. هكذا سافرت إلى الأردن لنبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة من العمل عام 1952. في عمان بدأت أولاً بالإعداد لفتح عيادة أعمل فيها أنا والدكتور وديع بعد تخرجه، ويمكن أن تكون هذه العيادة مكان إقامة لحامد الجبوري الذي كان من المقرر أن يلتحق بنا؛ فضلاً عن جعلها مركزاً لاجتماعاتنا وأنشطتنا؛ وقد حصلت على ترخيص لمزاولة مهنة الطب هناك. وبدأت الاتصال بأصدقاء كانوا معي في الجامعة في فترة النكبة وما تلاها، وتحديداً علي منكو ونزار جردانة وحمد الفرحان، ومن خلالهم بدأت أتعرف إلى مجموعة أوسع من الشباب العربي والشباب الفلسطيني في مدينة عمان وفي الأردن بوجه عام انتظاراً لمجيء وديع وحامد كي نبدأ العمل بصفة جماعية. كما أود أن أذكر أصدقاء لي في الجامعة من الأردن، وخصوصاً الأخ علي منكو ونزار جردانة اللذين كان لهما دور في بداية عملنا في الأردن.

في هذه الأثناء بدأت أمارس مهنة الطب، وفي ضوء محبتي لهذه المهنة، من ناحية، والمستوى الطبي للجامعة الأميركية وتفوقي في الدراسة فيها من ناحية ثانية، نجحت في علاج الكثير من الحالات الصعبة، وهو ما

بنى لي سمعة طيبة. وفي هذه الأثناء كان والدي ووالدتي وأهلي في عمان، وهو ما أتاح لي أن أعيش في جو عائلي نسبياً بعد انقطاع طويل عن مثل هذا الجو.

بعد أشهر قليلة بدأت تجربتنا الجماعية في الأردن، إذ حضر الدكتور وديع وحامد وبدأنا العمل النشط. كنا أولاً نتابع اجتماعاتنا نحن الثلاثة للمطالعة والبحث السياسي واستعراض ما نقوم به من أنشطة تنظيمية وغيرها. وفي الوقت نفسه كنا نعمل في الميدان الجماهيري كالاتصال بالناس ومحاولة تعبئتهم وتجنيدهم للتيار السياسي الذي نؤمن به: القومية العربية، والوحدة العربية، والتحرر، وتحديداً تحرير الأرض الفلسطينية المحتلة. أعتقد أننا قمنا بتجربة خاصة على هذا الصعيد تتمثل بتعبئة الناس من خلال تقديم خدمات إليهم. ساعدنا ذلك في العمل كثيراً، وكنا نقدم عليه بحيوية وحماسة، فذلك يتمشى مع طباعنا وأخلاقياتنا. هنا، على وجه التحديد، أسسنا مدرسة لمكافحة الأمية في نادٍ اجتماعي اسمه «المنتدى العربي» كان قائماً قبل حضورنا إلى الأردن، فانتسبنا إليه عن طريق علي منكو ونزار جردانة، وبدأنا نتخذه مسرحاً لبعض الأنشطة. وإلى جانب مدرسة مكافحة الأمية نظمنا في المنتدى نفسه يوماً للعلاج المجاني. وكنا من خلال العيادة نجتذب الكثير من الناس إلينا من خلال معالجتهم مجاناً ومحاولة الحصول على أدوية مجانية لهم أيضاً، إضافة إلى زيارة المرضى وأهاليهم في بيوتهم.

كنا في غاية السعادة والانسجام ونحن نرى نتائج مثل هذه الأنشطة عن طريق التفاف الناس حولنا، وبسرعة نسجنا علاقات في المخيمات، كمخيم الوحدات، في ضواحي عمّان، ومخيم الحسين. لم يكن المناخ السياسي في تلك الفترة مناخاً قمعياً، وهو ما مكننا من القيام بكل هذه الأنشطة من دون مطاردة أو ملاحقة تجعل الناس يتهيبون من التعاطي معنا. لم يكن حامد قادراً على مشاركتنا بكل هذه الأنشطة نظراً إلى طبيعته، إذ إن العمل بالطب كان هو المدخل لي ولوديع للاتصال بالناس، فلم يكن

حامد قادراً على المشاركة في ذلك لأن دراسته الجامعية كانت في مجال العلوم السياسية.

هذه الدائرة من العمل التي كنت أقودها، والتي تشمل الدكتور وديع وحامد الجبوري، كانت تستهدف تجسيد ما كنا نطمح إليه من إيجاد تنظيم متين وحديدي يختلف عن التنظيمات السياسية القائمة في ذلك الوقت، بما في ذلك حزب البعث، وذلك بجديته ومستوى متطلباته من الأعضاء واستعدادهم للتضحية والسعي للقتال ضد إسرائيل التي اغتصبت أرضنا وأذلت الأمة العربية. لكنْ، إلى جانب هذه الدائرة وجدنا أنفسنا نعمل في الوقت نفسه في دائرة أخرى تنسجم مع الوضع السياسي الذي أصبحت تعيشه ساحة الأردن بعد اغتيال الملك عبد الله. فقد جاء الملك طلال الذي كان انطباع الناس عنه أنه يختلف كثيراً عن والده من حيث كراهيته للمستعمر البريطاني ورغبته في بناء بلد حديث، بحيث كان الانطباع العام لدى الناس حين مرض الملك طلال بأن هذا المرض مؤامرة رتبها رئيس الوزراء توفيق أبو الهدى بالاتفاق مع غلوب باشا، القائد البريطاني للجيش الأردني في ذلك الوقت.

تسلم الملك طلال العرش فترة قصيرة جداً، نحو سنة تقريباً، وبعد ذلك أُعلن عن مرضه رسمياً، ونُصِّب ولي العهد الأمير حسين ملكاً للبلاد. ويبدو أن الحكم كان حريصاً على أن يبدأ الملك حسين عهده بنوع من الديمقراطية الليبرالية التي تبعث الارتياح في النفوس. فجيء برئيس جديد للوزراء هو فوزي المُلقي، وسُمح بالحياة الحزبية والحريات بما في ذلك حرية الصحافة. وفي هذه الأثناء وجدت نفسي، كما أشرت سابقاً، أعمل في دائرة أخرى من النشاط الذي يصب في إطار إيجاد حزبٍ ثوريٍّ عالي المتطلبات. فمن خلال معرفتي بعلي منكو ونزار جردانة تعرفت أيضاً إلى مجموعة من الشباب الأردني والفلسطيني المثقف والوطني الراغب في الإفادة من هذا الوضع السياسي الجديد الذي يعيشه الأردن. ومن بين هؤلاء الأخ حمد الفرحان الذي تعرفت إليه أول مرة في صيدلية نزار

جردانة، وكان في منصب وكيل وزارة الاقتصاد واسمه معروف على مستوى الأردن ولديه من يحبه بقوة، وفي المقابل من يكرهه بشدة. وقد وجدت فيه مع الوقت إنساناً على درجة عالية من الكفاءة والإخلاص ويترك أثراً قوياً في سامعيه. ومن هؤلاء أيضاً محمد طوقان الذي كان قاضياً، وهو صديق حميم لحمد، إلى درجة أنهما لا يفترق أحدهما عن الآخر. ومن خلال حمد تعرفت إلى مجموعة أخرى من الرجال من الأردن، وبخاصة محمد الرشدان، الذي كان يحتل مرتبة عالية في سلك القضاء الأردني، والدكتور أحمد طوالبة، الذي كان يعمل طبيباً في مدينة إربد. إلى جانب هذه المجموعة من الضفة الشرقية كانت هناك مجموعة أخرى من المثقفين الفلسطينيين، منهم الدكتور صلاح العنبتاوي ومحمد العمد وممدوح السخن وآخرون من ذوي الكفاءات والسمعة الطيبة والاستعداد للعمل الوطني.

في هذا الجو العام، وفي ضوء الظرف السياسي الذي أشرت إليه، طرحت بقوة فكرة تأسيس حزب عربي. هنا وجدت نفسي مع وديع حداد في وضع صعب. فهذه المجموعة لا ترتقي إلى مستوى الانضباط والفاعلية والانصهار في العمل والتضحية التي تتجاوز أي تفكير بالذات، لكنها في الوقت نفسه مجموعة وطنية، ومخلصة، ومستعدة إلى حد معين للعمل على مستوى ما كان يؤديه على سبيل المثال قياديو حزب البعث وكوادرهم. وقد وجدت في النهاية أن عملنا، أي أنا ووديع، من خلال هذه المجموعة، يُسهِّل علينا أموراً كثيرة ويوفر لنا إطاراً نستطيع من خلاله أن نسرع في تثبيت وجودنا السياسي ونجد مدخلاً لعملنا على صعيد وطني. كان القرار بيني وبين نفسي، ثم مع وديع وحامد، ألا نترك الإخوة خارج الأردن، أعني اتفقت معهم على عملية التأسيس لتنظيم سياسي جديد، وأقصد هنا هاني الهندي، والدكتور أحمد الخطيب، وصالح شبل. كنت شبه واثق من أنه سيكون بإمكاني إقناعهم بسلامة القرار والخيار الذي اتخذناه نحن في الأردن.

وبالتالي يمكن القول إن عملنا في الأردن قد أصبح في إطار أوسع يضم كل هذه الأسماء الكبيرة التي ذكرتها، إضافة إلى أسماء أخرى مثل الشيخ إبراهيم قطان. في وسط هذه المجموعة طُرحت فكرة إصدار مجلة أسبوعية، فرحبتُ بتلك الفكرة بقوة وشعرتُ أنها تشكل بداية جيدة لعمل سياسي شعبي في الأردن. وقد كان واضحاً أنني، من الناحية العملية، سأكون أنا والدكتور وديع المسؤولين عن هذه المجلة وأنها ستشغل الكثير من وقتي. المعادلة بوجه عام كانت مريحة بالنسبة إلى المشروع الذي جئنا إلى الأردن من أجله. ونتيجةً للجو الليبرالي الذي رافق مجيء الملك حسين إلى الحكم، سُمح لنا بإصدار مثل هذه المجلة، التي أطلقنا عليها اسم **الرأي**، والتي أصدرناها باسم الدكتور أحمد الطوالبة، الذي كان على استعداد للانضمام والمشاركة في العمل الوطني. وراحت افتتاحياتها تلهب المشاعر الوطنية، وشعاراتها تحرير الأردن من السيطرة البريطانية، وهو ما جعل الإقبال عليها رائعاً منذ أعدادها الأولى. بدأت **الرأي** تصدر عام 1953. كانت مجلة أسبوعية تصدر كل يوم إثنين، فأصبح يوم الإثنين حدثاً بالنسبة إلينا وإلى والمحيطين بنا وكذلك بالنسبة إلى الجماهير، أو هكذا كنا نشعر على الأقل. وذكريات مجلة **الرأي** ذكريات حبيبة إلى القلب. ما زلت أذكر الصعوبة التي كان يعانيها علي منكو لدى كتابته موضوعاً للمجلة، ولكن حين ينجز الموضوع أشعر أني أمام إنتاج ممتاز. كذلك أذكر مظهر النابلسي، الذي كان يأتينا بمجموعة من الأخبار المثيرة كانت سبباً في رواج المجلة، كما كان حمد الفرحان يكتب بعض الافتتاحيات بأسلوب جذاب جداً. وما زلت أذكر سهرة ليلة الأحد التي كنا ننجز فيها العدد ونرسل آخر الموضوعات للطباعة. وفي هذه الليالي كنا نسهر حتى الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل، وحين أعود، وبرفقتي الدكتور وديع حداد، إلى العيادة للنوم، كنت أشعر أنني غفوت وأنا ما زلت في طريقي إلى الفراش، لأستيقظ صباحاً وأسأل عن صدور العدد وعن أي تعليقات سريعة من جانب الناس حول المانشيت الرئيسي.

لا أزالُ أحتضن ذكريات هذه الأيام بحب شديد لأنها تثير في نفسي أسعد اللحظات. صداقات حميمة صادقة ومخلصة، جمهور من الناس يقدّر عملنا ويلتف حولنا، ونشاطنا في أوساط الجماهير وحد أدنى من الحياة العائلية، حيث كنت في بعض الأوقات أترك وديع وحده ينام في العيادة وأذهب أنا للنوم في البيت حيث ألقى من والدتي كل العناية والترحاب.

بدأنا نعمل في هذه الفترة ضمن إطارين محددين: إطار أول يتخذ شكل خلايا وحلقات حزبية في أوساط مخيمات النازحين أو الفقراء خارج المخيمات؛ ومثل هذه الحلقات والخلايا كنا نحرص أن نقودها أنا ووديع بأنفسنا، حتى ندربهم على مستوى من الانضباط والاستعداد للتضحية والجرأة في القيام بكل الواجبات المطلوبة. كنا نحرص على أن نعيش معهم ونأكل معهم في حياة تحمل الكثير من المساواة والتفاني. أما الإطار الثاني من العمل، فكان يضم المثقفين والموظفين الكبار والأطباء والصيادلة. كان هذان الإطاران متشابكين ومترابطين حيناً ومتنافرين حيناً آخر. وكانت تقع على عاتقي مهمة التوفيق بين هذين الإطارين، فكنت صلة الوصل بينهما. لم يستطع حامد أن يبقى معنا في هذه التجربة، فقد كان أهله في العراق ينتظرون لحظة تخرجه، فلم يكن من السهل أن يبتعد عن أهله إلى هذا الحد الذي أردناه. يضاف إلى ذلك أنه لم يكن منهمكاً في العمل كما كنا أنا ووديع. بالنسبة إليّ، كانت هناك العيادة والأهل والمعارف والعمل الوطني والتنظيمي، أما بالنسبة إلى حامد، فلم يكن أمامه فرصة للعمل إلا من خلال المطالعة والاجتماعات التي كنا نعقدها، فأصبح هذا ينعكس سلباً على نفسيته. سألته مرة عن الموضوع فصارحني بشعوره وعدم قدرته على الاستمرار؛ فاتفقنا على أن يترك ويعود إلى العراق، إذ إن عملنا في أساسه يقوم على الاختيار الحر لا على الإكراه.

في هذه الفترة نفسها أذكر أننا بدأنا نؤدي دوراً في تحريك الشارع في بعض المناسبات القومية. ففي تظاهرة تضامن، وكانت المناسبة تتعلق

بالاحتلال الفرنسي للمغرب وما كان قائماً هناك بين عامي 1953 و1954، نظمنا تظاهرة تضامن في وسط عمان، اعتقلت في إثرها. لكن اعتقالي لم يزد على يوم أو يومين حسبما أذكر. ففترة الديمقراطية التي كان يعيشها الأردن في ذلك الوقت جعلت بعض المحامين، منهم راتب دروزة، يتطوعون للدفاع عني، فأفرج عني إما بدون محاكمة وإما نتيجة محاكمة حكمت علي ببضعة أيام فقط. في ذلك الوقت الذي أشير إليه كانت هناك ثلاث قوى أساسية تُحرك الشارع في الأردن: حزب البعث، والشيوعيون، ونحن، وكنا نسمي أنفسنا في ذلك الوقت «الشباب القومي العربي».

وفي مناسبة أخرى عام 1954، لم أعد أذكر ما هي بالضبط، وكان قد حصل تغيير حكومي، قُدتُ تظاهرة، فاعتقلنا في إثرها، وكانت حصتي من السجن هذه المرة تزيد على أربعين يوماً، وكان مدير السجن يعاملني بلطف شديد. أذكر بعض الذين سجنوا معي في تلك الفترة وفي المناسبة نفسها[1]. كان يسمح بزيارة المساجين يوم الجمعة؛ فكان يزورني عدد من الأصدقاء. أما وجبات الطعام التي كانت تصلني من مطعم جبري وأحياناً

(1) يذكر الدكتور حبش في **الثوريون لا يموتون أبداً** أن التظاهرة التي أدت إلى اعتقاله كانت للاحتجاج على سياسة حكومة سمير الرفاعي. لم يذكر الحكيم في أي مكان إذا كان أحد من رفاقه تم اعتقاله أيضاً في تلك الفترة، ولهذا يبدو أنه يتحدث عن معتقلين من خارج دائرته. ويذكر منهم المناضل الراحل حمدي مطر، أحد رفاق الدكتور حبش الأوائل في حركة القوميين العرب في الأردن، في نص نشر في جريدة **المجد** القومية التي تصدر في الأردن في عدد 2008/3/23، عن اعتقال آخر للحكيم في تلك الفترة: «وبمناسبة عيد الجيش العربي عام 1954 كتب الدكتور حبش عنواناً عريضاً في هذه الجريدة الرأي قال فيه إن عيد الجيش هو يوم تحرره من الضباط الإنكليز، كما احتوى هذا العدد على تحريض ضد دولة الاحتلال (إسرائيل) عقب ارتكابها عدداً من المجازر كان أبرزها مجزرة قبية. وبعد توزيع الجريدة تم استدعاء الدكتور جورج حبش لمقابلة بشير خير محافظ العاصمة وتحدث إليه المحافظ قائلاً إن موازنة الدولة كلها مرهونة بوجود الضباط الإنكليز في الجيش وإنه لا يمكن التخلي عنهم. فرد عليه الدكتور حبش أن حل الوضع المالي يكمن في الوحدة بين الأردن والعراق وسورية. وبعد نقاش طويل قال المحافظ للدكتور هذه هي قناعتنا وإذا مش عاجبك ارحل، وقد وترت هذه الجملة الجو، وهو ما دفع المحافظ بالضغط على الجرس واستدعاء الحارس وكان رجل شرطة وأمره بتوقيف الدكتور حبش في سجن المحطة وكذلك توقيف الرأي عن الصدور.

من البيت، فكان ينتظرها زملائي من المساجين ممن كانوا معي في الغرفة بشوق ونهم.

إلى جانب هذه الأنشطة السياسية والجماهيرية والتنظيمية، لم أنس ذلك العدو الجاثم على الصدور وضرورة إيجاد عمل مسلح داخل فلسطين المحتلة. فأحضرت صديقاً لي كان يعمل قبل النزوح مع الهيئة العربية العليا والحاج أمين الحسيني، وكنت قد تعرفت إليه في بيروت أثناء اعتنائي بالشهيد إبراهيم أبو دية، وهو يُدعى محمد خليفة، وكنا نسميه أبو عبد الله. حضر محمد إلى عمان ووجد مكاناً للإقامة في العيادة، التي كان يسميها والدي، رحمه الله، «القيادة». كان هذا الصديق يعرف أناساً وطنيين كانوا يتعاملون مع الحاج أمين الحسيني؛ وقد طلبت منه أن يجدد معرفته بهؤلاء الناس وبخاصة الذين يسكنون قرى حدودية أصبحت تفصل بين الضفة الغربية والمناطق الفلسطينية المحتلة عام 1948. وقد بدأت بالتعرف إلى هؤلاء الذين ما زلت أذكر منهم مختاراً من مخاتير قرى رام الله اسمه أبو إسماعيل الذي زار العيادة أكثر من مرة، وأصبحت أتصل به وبأبي عبد الله مباشرة، وأحثه على إيجاد مجموعات قادرة على النزول إلى الأرض المحتلة والقيام بأعمال ضد إسرائيل؛ أذكر منهم أيضاً شاباً اسمه نمر، كان يسكن قرية من قرى نابلس أو في المخيمات القريبة من نابلس. وقد أخذت أبحث معه تلك الفكرة. وفي بداية التجربة كانت هذه المجموعات تنجح في الدخول إلى الأرض المحتلة وتقوم ببعض العمليات البسيطة نسبياً ضد الصهاينة، لكنها، على بساطتها، كانت تنعشنا كثيراً وتشعرنا بأننا نفعل شيئاً ضد العدو الذي اغتصب أرضنا، لكنْ بعد مضي بضعة شهور أصبحت هذه العمليات أصعب وأكثر وتعقيداً، فلم تعد عمليات التسلل إلى المناطق المحتلة عام 1948 سهلة كما كانت في بداية التجربة، وذلك بسبب تشديد الحراسة التي كان يقوم بها الجيش الأردني على تلك المناطق الحدودية. وعند نجاح شخص ما أو مجموعة ما في التسلل إلى داخل مناطق الكيان الصهيوني ونجاحها في توجيه ضربة،

كانت عملية العودة إلى الضفة الغربية أصعب كثيراً مما كانت عليه سابقاً. وهو ما جعلنا نعتقد بأن هناك تنسيقاً بين دولة العدو وقيادة الجيش الأردني، ممثلة بغلوب باشا، بحيث يخبر العدو قيادة الجيش بحدوث عملية ما في منطقة محددة فيتخذ الجيش الأردني الإجراءات المشددة لإلقاء القبض على الفدائيين في طريق عودتهم إلى الأردن[2].

ويوماً بعد يوم ازدادت هذه العمليات تعقيداً، وهو ما عمّق إيماننا بأن تحرير فلسطين لا بد من أن تسبقه عمليات تحررية ووحدوية في الوطن العربي[3]. كنا نكتشف بعد فترة أن البعض ممن يبدون استعدادهم للانخراط في مثل هذا العمل كانت لديهم دوافع نفعية ومادية. وإذ لم نكن نمتلك في تلك الفترة آلاف الدنانير، ولا حتى مئاتها، كانت عشرات الدنانير، بل أقل منها، تغري البعض للعمل لمصلحة نفعية. المهم أن عدم نجاحنا في مثل هذه التجربة بسبب سياسة الأردن الرسمية، وبخاصة قائد الجيش غلوب باشا في ذلك الوقت، جعلنا نركز عملنا على النشاط التنظيمي والجماهيري والسياسي الذي كنا نقوم به بنجاح كبير في عامي 1952 و1953 وبداية عام 1954 في الأردن.

لقد رأيت أن لمصلحة وجودنا وانتشارنا بين أوساط الجماهير ولمصلحة عملنا التنظيمي، كان علينا ألا نبقى أنا ووديع في عمّان معاً؛ فخطرت في بالنا فكرة هي أن يعمل وديع في عيادات الأونروا (وكالة

---

(2) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، انظر: Avi Shlaim, *Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine* (New York: Columbia University Press, 1988).

(3) في الحوار الشامل الذي أجراه محمود سويد مع جورج حبش، يشرح الحكيم سبب عدم انضمامه ورفاقه إلى حزب البعث حينها: «في ذلك الوقت بدأت تتضح معالم رؤيتنا الخاصة للمشروع الصهيوني، قلنا: وحدة، تحرر، ثأر. كان لموضوع فلسطين والموقف من المشروع الصهيوني، بالنسبة إلينا، الأولوية. ربما لأنني رأيت ما رأيت في اللد، وفي ضوء كل ما جرى. البعث آنذاك لم يكن يركز على المشروع الصهيوني، ولم يجعل من موضوع فلسطين الموضوع الأول». انظر: **التجربة النضالية الفلسطينية: حوار شامل مع جورج حبش**، أجرى الحوار محمود سويد، مرجعيات؛ 3 (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، 1998)، ص 13.

الغوث)، حيث اكتظاظ الجماهير وهمومهم ومشاكلهم. وكنا نفضل ألا يكون عمل وديع في الأونروا في عمان لأني موجود فيها. فسعينا ليعمل في عياداتها في الضفة الغربية وعلى وجه التحديد في مخيمات أريحا. كنت أزوره أحياناً وكان يأتي هو إلى عمان كل أسبوع تقريباً لكي ننسق العمل معاً. أخذ عملنا التنظيمي يمتد ويتسع؛ فإضافة إلى وجودنا في عمان، أصبح لدينا امتداد تنظيمي في إربد وقرى الشمال، وكذلك في نابلس وقضائها، وفي طولكرم. وفي الواقع لم أعد أذكر المناطق كافة التي استطعنا الامتداد إليها في ذلك العام، أي عام 1953.

لقد رتبنا أيضاً، إضافة إلى صدور مجلة **الرأي**، وصول نشرة **الثأر** (التي كانت لا تزال تصدر في بيروت إلى ذلك الحين والتي كانت تتناول الموضوع الفلسطيني تحديداً والكيان الصهيوني وتستهدف تحريض الجماهير العربية على ضرورة مقاومة الكيان الصهيوني واقتلاعه، تلك النشرة التي أدت دوراً في الحماسة والتعبئة والتنظيم، وكنت أشعر بعد توقفها عن الصدور في عام 1958 كم كان يتشوق قراؤها إلى إعادة صدورها. في هذه النشرة كنا نتبنى شعار الوحدة طريقاً لتحرير فلسطين (كان هذا الشعار أبرز من شعار الكفاح المسلح)، وكانت **الثأر** تتناول كل قضايا الأمة العربية التحررية، وبخاصة قضايا المغرب وثورة الجزائر. ما زلت أذكر تلك الزوايا في النشرة التي تهدف إلى تعريف القارئ بفلسطين، قراها، ومدنها، وتراثها العربي، وبالمعارك البطولية التي خاضها العرب في تاريخهم. في تلك الأيام كنا نشدد على أن كلَّ يهوديٍّ إنما هو صهيوني، وأن التمييز بين اليهودية والصهيونية خرافة، وأن معركتنا موجهة ضد كل يهود العالم. وكانت لدينا بعض الأرقام والدراسات التي نحاول من خلالها إثبات هذا المفهوم الذي بقي من صلب مفاهيمنا حتى عام 1959، حين طرأ تغيير وتعديل على هذا المفهوم، إذ إنه ليس بالضرورة أن يكون كل يهودي صهيونياً وإن كان أغلبية اليهود يلتفون حول الصهيونية ويؤمنون بها

ويساندونها. إن الدور الذي أدته مجلة **الثأر** هو الذي استوجب مني الحديث عنها ببعض الإسهاب.

رغم انغماسي مع الدكتور وديع في التأسيس لعملنا في ساحة الأردن، إلا أني كنت أصرف قسطاً من الوقت في الاهتمام والاطلاع على سير عملنا في الأقاليم العربية الأخرى، ولا سيما في لبنان، حيث كان يقود التجربة صالح شبل، وفي سورية هاني الهندي، وفي الكويت الدكتور أحمد الخطيب، ولم أعد أذكر بالضبط التاريخ الذي انتقل فيه صالح شبل إلى بغداد (ليبدأ تجربتنا في العراق) بعدما تسلم مسؤولية لبنان الأخ عدنان فرج، رحمه الله.

عقدنا بضعة اجتماعات دورية في عمان للإشراف على فروع عملنا في البلدان العربية، وقد اغتنمت الفرصة في أحد هذه اللقاءات لأذهب مع الدكتور أحمد الخطيب إلى الضفة الغربية، حيث زرنا مدينة القدس، كما زرت أهلي وأقاربي هناك، إذ كان عمي عيسى يسكن ويعمل في مدينة القدس في التجارة، وهو والد هيلدا، التي أصبحت في ما بعد زوجتي وشريكتي في ذلك الدرب الطويل من النضال والتضحيات.

كانت تلك اللقاءات تتناول دوماً ما كنا نسميه البعد النظري والفكري. وكنا دائماً نطرح على أنفسنا أسئلة من نوع: ما هي فلسفتنا، وما هي نظريتنا؟ وهل نرفع الاشتراكية كشعار أم أن هذا الشعار يُرفع بعد مرحلة التحرر الوطني؟ ثمة مجموعة كبيرة من الأسئلة من هذا النوع. وكنا نحدد لأنفسنا برامج مطالعة ننجزها بين وقت وآخر. كما كنا أحياناً في هذه اللقاءات نستعرض كتاباً معيناً ونناقشه. كنا نحث أنفسنا على مطالعة تراثنا وتاريخنا والإلمام بتجارب العالم التحررية والوحدوية. ونظراً إلى أن المانيا وإيطاليا كانتا مجزأتين ومقسمتين إلى دويلات، ثم قامت الوحدة في كل منهما، كنا نرى أن دراسة هاتين التجربتين هي موضوع أساسي من الضروري الإلمام به. وعلى هذا الصعيد كان يتضح لي كفاءة صالح شبل

وهاني الهندي ورغبتهما في تناول هذه الموضوعات النظرية وشعورهما بأهميتها. في المقابل، كان رفاق آخرون يميلون إلى الاهتمام بالجانب العملي الكفاحي والنضالي. في هذه اللقاءات كنا نستعرض كيفية سير تجربتنا التنظيمية في لبنان وسورية والكويت كما نُطلع بقية الإخوة على سير تجربتنا في الأردن. من الجدير بالذكر أن الرفاق الذين كانوا يقودون العمل في المخيمات آنذاك كانوا حمدي مطر وعلي سرحان وأبو علي مصطفى الزبري (مصطفى علي الزبري) وأحمد محمود إبراهيم (أبو عيسى).

كانت تجربتنا في الأردن فريدة في نوعها، تبدو غريبة بالنسبة إلى بقية الإخوة المسؤولين عن الفروع الأخرى للتنظيم. ففي الفروع الأخرى كان معظم عملنا التنظيمي في القطاع الطلابي، إضافة إلى المخيمات الفلسطينية. لقد كان مستوى المتطلبات من العضو عالية جداً، أي كان يتطلب مستوى عالياً من الانضباط. فكنا نستعمل تعبير «تنظيم حديدي»، إذ كان تنظيماً نخبوياً بطبيعة الحال. أما في الأردن فقد توسعنا بسرعة وانضمت إلينا مجموعة من المثقفين والموظفين الكبار كانت مستعدة للعمل وتريد أن تؤسس تنظيماً سياسياً تقوده بنفسها؛ وكان الإخوة الذين يأتون من سورية ولبنان والكويت يشككون في نجاح مثل هذه التجربة وقدرتنا على السيطرة عليها، أو الارتقاء بها إلى مستوى البناء الحزبي الذي اتفقنا عليه حين كنا معاً في بيروت. بينما كنت أنا ووديع نراهن على هذه التجربة ونرى أهميتها وضرورتها في ذلك الوقت. كنا مشدودين إلى ما تفرزه هذه التجربة من امتداد وإمكانيات وفعل وطني بالمعنى العام.

أصبحت المشكلة أن النواة المؤسسة التي عملت معاً في بيروت، قبل أن تتوزع في البلدان العربية، تعتبر نفسها هي التي تشكل القيادة المؤسسة لهذا العمل بمن فيها قيادة تجربة الأردن. وهذا بطبيعة الحال كان رأيي ورأي الدكتور وديع. أما المجموعة التي عملنا معها في الأردن من المثقفين

والموظفين، فكانت تنظر إلى نفسها على أنها هي الأساس وأن العمل القومي العربي القائم في لبنان وسورية والكويت يمكن أن ينضم إليها في المستقبل، كوننا أنا ووديع وهم الأساس لهذا العمل والتنظيم في الأردن وأن العمل القومي في المناطق الأخرى تابع لتجربة الأردن. كان هذا الوضع يسبب نوعاً من الإحراج لي ولوديع، بوجه خاص، ولكننا كنا قادرين على تجاوزه وضبطه.

لم يدم طويلاً شهر عسل الحريات الليبرالية التي عاشتها ساحة الأردن، على مستوى مجلة **الرأي** على الأقل، فلم تعد السلطات قادرة على تحمل موضوعات ومقالات وتحريضات المجلة، فبدأت الدولة بإجراءات من نوع إيقاف عدد من الأعداد، أو إيقاف المجلة لمدة شهر، ومحاكمات ترفعها الدولة على المجلة، وقضايا نرفعها نحن ضد الدولة، إلى أن صدر قرار بمنع **الرأي** من الصدور. كان السبب المباشر لإغلاق المجلة يومها مانشيت يقول «فليعد الجيش إلى ثكناته».

كان هناك إصرار على استمرار صدور **الرأي** نظراً إلى الدور الذي بدأت تؤديه في التعبئة الجماهيرية باتجاه أفكارنا وخطنا السياسي. وكان تأثير المجلة في الساحة الأردنية كبيراً، بل أكبر مما كنا نتوقع، لذلك حرصنا على استمرار صدورها. وحين تم إغلاقها من جانب السلطات الأردنية، كان لا بد من البحث عن سبل أخرى لاستمرارها، فكانت الساحة السورية مهيأة لذلك. فبعد إطاحة نظام الشيشكلي في شباط/فبراير 1954 وعودة هاشم الأتاسي إلى الحكم، توافر جو ليبرالي أفسح مجالاً لعمل الأحزاب. وكانت أحزاب سورية الرئيسية في تلك الفترة هي الحزب الوطني بقيادة صبري العسلي، وحزب الشعب بقيادة رشدي الكيخيا وناظم القدسي، كذلك حزب البعث والحزب الشيوعي. كان النهج السياسي العام للدولة في تلك الفترة، بحكم وجود العسكريين الوطنيين يحمل بذور المعاداة لمشاريع الأحلاف التي كانت تشكل العنوان الرئيسي في تلك المرحلة. فقد كان مطروحاً في ذلك الوقت مشروع حلف بغداد الذي كانت تسعى

بريطانيا من خلاله إلى ضم أكبر عدد ممكن من الدول العربية وغير العربية إليه بهدف منع النفوذ السوفياتي من الامتداد.

انتقلت عام 1954 إلى سورية بعدما رتبت مع الرفاق، ولا سيما الدكتور وديع، كيفية استمرار عملنا في الأردن والشؤون الأخرى كافة، وبذلك استمر إصدار المجلة من سورية باسم **الرأي**؛ وما زلت أذكر كيفية إرسالها إلى الأردن عن طريق التهريب.

5 ـ الظروف السياسية المتقلبة في الأردن وفترات الاختفاء في الخمسينيات

في دمشق تعرفت إلى مجموعة من الشبان الفلسطينيين صغيري السن في تلك الفترة، الذين شقوا طريقهم في ما بعد في الحقل الأدبي والصحافي والعلمي؛ أذكر منهم بوجه خاص عصام النقيب الذي لمست فيه منذ تلك الفترة مواهب فذّة. كان رغم بدايته في كتابة المقالات الصحافية، يكتب بأسلوب رائع، وكنت عادة أرسل ما يكتبه فوراً إلى المطبعة من دون أي تصحيح. وقد تابع دراسته في أمريكا وحصل على الدكتوراه في العلوم النووية. تعرفت أيضاً إلى فضل النقيب والشهيد غسان كنفاني، وهو أغنى من أن يُعرَّف؛ كما تعرفت إلى بلال الحسن، وأحمد خليفة، ومحمود فلاحة، وغيرهم من الشبان الفلسطينيين. وما زلت حتى هذه اللحظة أذكر تلك الأيام بلهفة وحنين، وبخاصة الليالي التي كنت أقضيها قبيل صدور العدد استعداداً لإرساله إلى الأردن. ومع أن الجزء الرئيسي والأساسي من وقتي كان يستغرقه عملي في **الرأي**، إلا أن قسماً من وقتي بطبيعة الحال كان ينصرف لقيادة عمل الحركة بوصفي عملياً المسؤول الأول عن هذا التنظيم؛ فقد كنت بين وقت وآخر أذهب إلى لبنان، واجتمع إلى قيادة العمل في تلك الساحة، وأناقش ما لدي من ملاحظات بالنسبة إلى نشرة **الثأر** التي كان يشرف عليها في الدرجة الأولى الإخوة في لبنان، ولا سيما صالح شبل، وبعده مصطفى بيضون وبعد ذلك محسن إبراهيم. وكنت أراسل الإخوة في الأردن. أما في سورية فقد كان

عمل فرع الحركة محصوراً جداً، وقد يكون ذلك بسبب وجود حزب البعث الذي كان ناشطاً في تلك الفترة، وكذلك وجود الحزب الشيوعي، وكان عددنا في سورية لا يزيد على العشرات. لكنني، رغم كل ذلك، ما زلت أذكر بل من واجبي أن أذكر مجدداً الأخت أسماء الموقّع، التي كانت قد وهبت نفسها كلياً للعمل بصورة رائعة ومثيرة للإعجاب والتقدير. وهذا لم يكن مألوفاً في مجتمعنا في ذلك الوقت.

بعد زيارة الوزير البريطاني تمبلر الأردن في كانون الأول/ديسمبر 1955 وانتفاضة الجماهير ضد مشاريعه التي كانت تستهدف ضم الأردن إلى حلف بغداد، وإفشال هذه المشاريع، وانتصار إرادة الجماهير، وإقالة وزارة هزاع المجالي، ساد الأردن جو ليبرالي بدأ يبشر بانتعاش حركة الجماهير أكثر كثيراً من السابق، وهنا شعرت بأن من واجبي أن أذهب إلى الأردن، وأجتمع إلى القيادة، وأضع البرامج التي تمكننا من الإفادة من تلك اللحظة السياسية.

ذهبت إلى الأردن عن طريق البرّ تهريباً، واجتمعت بالإخوة في ذلك الوقت، واقترحت عليهم أن أبقى في عمان بوضع سري، ولكنهم شددوا على ضرورة عودتي إلى سورية لشعورهم بأن استمرار صدور الرأي يفيد كثيراً في ما يتعلق بالإفادة من الجو الذي نشأ بعد فشل زيارة تمبلر. حينها عدت إلى سورية كي استمر في إصدار المجلة.

بعد بضعة أشهر، أي في 1 آذار/مارس 1956، قامت حركة الضباط الأحرار في الأردن بطرد غلوب باشا[1] قائد الجيش الأردني، ولم يكن الملك حسين بعيداً من هذه الخطوة، فساد جو ديمقراطي عميق في الأردن الذي كنت أعتبره ساحة عملي الرئيسية. ولم يكن الرفاق يعارضون ذلك بعد أن طرد غلوب باشا.

---

(1) جون باغوت غلوب (1897 ـ 1986)، ضابط بريطاني قاد الجيش الأردني بين عامي 1939 و1956 وفق المعاهدة البريطانية ـ الأردنية. أعفي من منصبه عقب قرار تعريب الجيش الأردني عام 1956.

لكننا حرصنا بطبيعة الحال على الاستمرار في إصدار مجلة الرأي وكان الرفيق هاني الهندي قد تولى هذه المسؤولية.

كان الأردن في عام 1956، أي بعد طرد غلوب باشا، ساحة نشاط جماهيري رئيسية، وقد قمت خلالها بأنشطة جماهيرية على صعيد الندوات والمحاضرات والمهرجانات في عمان بالدرجة الأولى، وفي بعض المدن الرئيسية في المملكة في الدرجة الثانية. في هذا العام، كان المسؤولون في الأردن من شبان الحركة قد طرحوا فكرة الاشتراك في البرلمان وخوض غمار الانتخابات. هنا شعرنا نحن، أي حركة القوميين العرب، بأنها فرصة سانحة لخوض هذه الانتخابات. ولم يكن في ذهننا أن نفوز فيها بقدر ما كان في ذهننا أن نكون أمام فرصة للاحتكاك بالناس وتوعيتهم، ووضعهم أمام مسؤولياتهم، والتبشير بشعاراتنا ومفاهيمنا. ما زلت أذكر أنني نزلت في هذه الانتخابات عن دائرة عمان مع الأخ نزار جردانة، كما نزل الدكتور أحمد طوالبة، ورفيق آخر عن إربد، والدكتور صلاح العنبتاوي، ومحمد العمد، عن نابلس. ومع أنني لم أنجح في تلك الانتخابات، إلا أنها كانت تجربة رائعة، فقد حصلت على عدد من الأصوات لم أكن أتوقعه (ما يزيد على ثلاثة آلاف صوت)، مع أننا لاحظنا أن نسبة عالية من الذين صوتوا لي كانوا من أبناء البلد، أي اللد، ومن المسيحيين في عمان. وكان من الطبيعي ألّا أكسب معركة الانتخابات، أولاً بحكم صغر السن، من ناحية، ولعدم معرفة الناس لي على نحوٍ واسع من ناحية ثانية، ولوجود عدد من الزعامات التقليدية وتأثيرها في المجتمع من ناحية ثالثة. كان ذلك في عهد سليمان النابلسي رئيس وزراء الأردن في ذلك الوقت. تم عقد مؤتمر لحركة القوميين العرب سنة 1956 ضم أكثر من 14 عضواً من مختلف الأقطار العربية، منهم: جورج حبش، وديع حداد، محسن إبراهيم، مصطفى بيضون، أحمد ستيتية، ثابت مهاينة، الحكم دروزة، هاني الهندي، عدنان فرج، صالح شبل، أحمد الخطيب وحامد جبوري. وفي هذا المؤتمر تم إطلاق اسم «حركة القوميين العرب» على التنظيم الذي كان يُعرف باسم «الشباب القومي العربي».

وفي 25 نيسان/أبريل 1957 فُرضت الأحكام العرفية في الأردن، فكان هاجسي ضرورة استمرار العمل والتحدي. وفكرت في الاختفاء، فاختفيت فعلاً في عمان. لم يكن لدى الإخوة كافة الاستعدادُ نفسه لتحدي الأحكام العرفية والنظام؛ لكن بعضهم، وبخاصة أبناء المخيمات وبعض الكوادر، كان يلح على ضرورة العمل والنشاط من خلال إصدار بيانات، وتوزيع المنشورات، وبعضهم الآخر كان يفكر بضرورة ممارسة العنف ضد النظام. لكن قيادة العمل في الأردن كانت مترددة جداً إن لم أقل خائفة من ممارسة أي أنشطة عنيفة. وقد حاولت في بداية الأمر أن أصبر قليـلاً، ولكنني وجدت بعد بضعة أسابيع أن استمرار الوضع على هذا النحو، وعدم القيام بأي أنشطة، سيخسرنا قاعدتنا الجماهيرية، وبخاصة في المخيمات. فبدأت بالنشاط، وشكلت قيادة ميدانية لتمارس التحدي. ومع أول الأنشطة التي تجلّت بتوزيع منشورات، جاءتني اعتراضات وانتقادات من بعض الإخوة الذين كانوا مترددين وقالوا: إن هذا سيسيء إلينا كثيراً، وصوروا لي الأمور بأننا سنكون أمام كارثة. ولكنني استمريت في العمل، وبخاصة أن الجماهير كانت تتلقى هذه المنشورات بحماسة شديدة.

كانت سورية في ذلك الوقت تشكل ساحة وطنية، وقد لجأ إليها بعض القادة الوطنيين الأردنيين ليتابعوا معارضة النظام من الخارج. أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: عبد الله الريماوي، ممثل فرع البعث في الأردن، والدكتور عبد الرحمن شقير، وهو صديق حميم لحزب البعث، وغيرَهما كُثُر؛ وكذلك بعض الضباط الأحرار[2] في الأردن الذين لجأوا إلى سورية. لذلك نشأت فكرة تشكيل جبهة وطنية تقود العمل الوطني وتسندها

(2) الضباط الأحرار، تنظيم سلمي من الضباط الأردنيين الوطنيين ذوي الميول القومية العربية، جمعهم استيائهم من الإدارة الإنكليزية للجيش الأردني التي قامت بتحديد عديد الجيش وتسليحه على نحو لا يتناسب والمهمات الجسام كما رآها هؤلاء الضباط. يُعرف منهم شاهر أبو شحوت (رئيس التنظيم)، قاسم الناصر، محمود المعايطة، علي أبو نوار، سعيد السبع، تركي الهنداوي، مشهور حديثة الجازي، ونذير رشيد. كانوا إحدى القوى الدافعة إلى تعريب الجيش الأردني وإلغاء المعاهدة البريطانية ـ الأردنية بتنسيق مع الملك حسين. عقب اتهامهم بمحاولة =

سورية (جبهة معارضة وطنية للنظام الأردني)[3]. وكان عبد الحميد السراج وزير الداخلية آنذاك يدفع بهذا الاتجاه. وكان ممثلنا في هذه الجبهة الرفيق هاني الهندي، إذ لم يغادر أحدنا إلى سورية؛ فالرفيق وديع حداد كان في سجن الجفر، وكنت أنا مختفياً في ظروف معقدة وشديدة الصعوبة لمتابعة النشاط الحزبي، واكتفينا بأن يمثلنا الرفيق هاني رغم أنه ليس أردنياً أو فلسطينياً.

اتخذت القيادة الخلفية لمساندة العمل الوطني، أي تلك الجبهة التي تشكلت في سورية. هنا كان دورنا في الأردن فاعلاً جداً بالمعنى النسبي على الأقل، أي مقارنة بما فعلته التنظيمات الأخرى. إلا أننا، بعد ممارسة بضعة أنشطة عنيفة، تم القبض على إحدى المجموعات، التي كنا نسميها في ما بعد «مجموعة ناديا السلطي»، تلك الفتاة التي نجحنا في تنظيمها في الجامعة الأمريكية مع إسطفان إسطفان خطيبها. ونتيجة التعذيب والضرب والتهديد التي تعرض لها أفراد هذه المجموعة تم إلقاء القبض على مجموعة أخرى من الشباب، أذكر منهم حالياً المرحوم عبد الحميد شرف وأخاه فواز اللذين انضما إلى التنظيم من الجامعة الأمريكية في بيروت. كذلك تم إلقاء القبض على مجموعة من شباب المخيمات، أذكر منهم أحمد عيسى وغيره.

= الانقلاب التي أنكروها، تم اعتقال بعضهم والحكم عليهم ما بين المؤبد والإعدام، بينما هرب البعض الآخر إلى سورية. في عام 1962 أعلن الملك العفو عنهم.

(3) في آذار/مارس 1957 تصاعد التوتر بين الملك حسين ورئيس الحكومة الأردني المنتخب لأول مرة في تاريخ الأردن، سليمان النابلسي. وفي الثامن من نيسان/أبريل تم اتهام مجموعة من الجيش مرتبطة بحركة «الضباط الأحرار» التي قادت حركة تعريب الجيش قبلها بعام وإلغاء المعاهدة البريطانية ـ الأردنية لاحقاً، بمحاولة التمرد على الملك الذي أجبر، في إثر ذلك، رئيس الوزراء المنتخب حينها على الاستقالة وتعيين حكومة بديلة. ونتيجة للاحتجاجات المطالبة بعودة حكومة سليمان النابلسي أعلن الملك حسين في 25 نيسان/أبريل الأحكام العرفية التي شملت إلغاء الأحزاب وتضمنت حملة اعتقالات شملت العديد من المعارضين. نتيجة لذلك هرب عدد من الضباط الأحرار والمعارضين الأردنيين إلى سورية. للمزيد من التفاصيل، انظر: منيب الماضي وسليمان الموسى، **تاريخ الأردن في القرن العشرين 1900 ـ 1959** (عمان: مكتبة المحتسب، 1988). انظر أيضاً: Uriel Dann, *King Hussein and the Challenge of Arab Radicalism* (Oxford: Oxford University Press, 1989).

ونتيجة خوفنا من تتالي الاعتقالات أرسلنا إلى سورية مجموعة من الإخوة الذين كنا نخشى أن يلحقهم الدور في الاعتقالات، ولم أعد أذكر إذا كنا قد أرسلنا الرفاق إلى سورية نتيجة اعتقال نادية ومجموعتها، ولكنني ما زلت أذكر أنه نتيجة مجمل الأنشطة، سواء العنيفة منها أو الجماهيرية، تم إرسال عددٍ كبيرٍ نسبياً من الرفاق أذكر منهم الآن: فايز قدورة، الدكتور أحمد الطوالبة، إبراهيم قبعة، ونايف حواتمة وآخرون.

قلت إن القيادة السابقة في الأردن لم تكن بمستوى التصدي بحكم تكوينها وخصوصيتها، لكنني بعد ذلك شكلت قيادة جديدة أذكر منها في بداية الأمر: محمد ربيع، وأحمد العسعس، وفي ما بعد أضيف إليها حسبما أذكر إبراهيم قبعة ونايف حواتمة.

لقد سجلنا أنشطتنا كافة، سواء الطلابية أو الجماهيرية أو الإعلامية، في كراس بعد مرور عام، لم أعد أذكر اسم ذلك الكراس بالضبط، ولكن المحتوى كان تسجيل الأنشطة كافة التي قمنا بها خلال عام. وكنا نصدر نشرة سرية، أعتقد أننا سمّيناها «ما لا تنشره الصحف». فقد كنا نسجل كل ما تقوم به السلطة من إجراءات قمعية، وكل ما تقوم به الجماهير من أنشطة في هذه النشرة التي كان ينتظرها الناس بشوق. وأعتقد أننا كنا في تلك الفترة الفصيل الوطني الأول في مجمل الأنشطة والتحريض.

أثناء فترة الاختفاء هذه، حدث ما أعتقد أنه أهم حدث سياسي بالنسبة إلى الثورة العربية والنضال العربي، وهو قيام الوحدة بين مصر وسورية في شباط/فبراير 1958، أي قيام دولة عربية جديدة هي الجمهورية العربية المتحدة. وقد أحدث هذا الحدث الكبير والمهمُّ تفاعلات جماهيرية لا توصف، وبخاصة في المشرق العربي.

بدأت أحلام الجماهير العربية تتصور أن دولة الوحدة العربية الشاملة يمكن أن تتم خلال حياة هذا الجيل العربي الراهن. كذلك بدأت جماهيرنا تحلم بإمكان القضاء على إسرائيل، وبغير ذلك من الأحلام الكبيرة. وكان

انعكاس هذا الحدث كبيراً حتى في الساحة الأردنية، سواء لدى السلطة أو لدى الجماهير. فمن ناحية السلطة أقبلت على خطوة توحيدية شكلية من خلال قيام الوحدة بين العراق والأردن، حيث سميت هذه الوحدة بالاتحاد الهاشمي. أما بالنسبة إلى الجماهير، فقد ارتفعت معنوياتها واشتدت مقاومتها للنظام. وما زلت أذكر تلك الأيام السعيدة التي عشتها وعاشتها جماهيرنا كلها ليس في الأردن فقط، بل في أرجاء الوطن العربي كافة، وبخاصة في بلدان المشرق، حيث كانت الجماهير العربية في لبنان تزحف نحو قصر الضيافة في دمشق عند حضور الرئيس عبد الناصر، وكان المنظر كما خُيّل لي مذهلاً. في هذه الأثناء حضر رفيق من دمشق أُرسل من جانب قيادة عملنا، يحمل اقتراحاً بحل «حركة القوميين العرب» ما دام عبد الناصر قد تولى قيادة النضال لتحقيق الأهداف القومية نفسها التي كنا نناضل من أجلها. ورغم تقديري العميق والكبير للقيادة الناصرية، ورغم تفكيري بضرورة التنسيق والعمل المشترك مع هذه القيادة، إلا أنني بصراحة ذُهلت لهذا الاقتراح، ولم أتردد بأي صورة من الصور في رفضه كما طُرح لي من جانب الرفيق مصطفى بيضون.

كنت أدرك أن الوحدة العربية الثابتة والمتطورة يجب أن تقوم على عاتق الجماهير، والقيادة الناصرية كانت تخاطب الجماهير؛ لكن يوجد فرق بين المخاطبة والتعبئة والتنظيم. وما زلت أذكر التعبير الذي استندتُ إليه في تلك الفترة في إبداء وجهة نظري، إذ قلت: إن عبد الناصر يشكل القيادة الرسمية للثورة العربية، أما حركة القوميين العرب فيجب أن تبقى لتشكل القيادة الشعبية للثورة العربية.

تركت الزيارة تأثيراً كبيراً في نفسي، وبدأت أتساءل عن قدرة الرفاق في دمشق على مواجهة تلك المرحلة. فقد كان هناك تيار جارف ضد العمل الحزبي، وعلى رأسه عبد الناصر نفسه، ولم يكن سهلاً أن نصمد في وجه مثل هذا التيار. فبدأت أفكر في الذهاب إلى سورية فترة من الوقت، أو فترة طويلة، كون العمل في ساحة الأردن جزءاً لا يتجزأ من العمل الكبير الذي

نطمح إليه كحركة قوميين عرب. وقد زاد من رغبتي في الانتقال إلى سورية أنني شعرت بأن في الأردن عدداً من الرفاق الذين يمكن الاعتماد عليهم بعدما أثبتوا من خلال التجربة قدرة كافية على تحمل المسؤولية وبالتالي على تولي الأمور القيادية هناك.

وفي ضوء ذهابي إلى سورية بدأت مرحلة جديدة في عملي امتدت من عام 1959 حتى نهاية عام 1963.

تبقى نقطة تتناول حياتي الشخصية أثناء الاختفاء في الأردن. هنا أذكر أنه توافرت لي فرصة جيدة للقراءة، وكان في البيت الذي اختفيت فيه غرفتان فقط، غرفة كنت أشغلها أنا، والغرفة الأخرى لأصحاب البيت. وحين يحضر ضيوف كانت ربة المنزل تقول لهم إنها قامت بتأجير الغرفة الثانية لممرضة تعمل في أحد المستشفيات، وكان علي أن أمنع نفسي عن السعال أو العطس وألا أقوم بأي حركة طوال وجود الضيوف. لكن وجودي عند هذه العائلة كان يخفف عني الكثير، نظراً إلى ما كان يربطني بها من علاقات حميمة. وكان يتردد على البيت عدد قليل من أصدقائي المؤتمنين جداً الذين كانت تربطني بهم علاقات عمل. كانوا صلة الوصل بيني وبين الإخوة في الخارج. من بين الذين زاروا هذا المكان كضيوف كانت هيلدا، الإنسانة التي أصبحت زوجتي في ما بعد، كما سبق أن ذكرت. وكنت أعرفها منذ الصغر، لكنني انقطعت عن رؤيتها فترة طويلة بسبب ظروفي الخاصة. كان أحد أصدقائي قد سألني أثناء وجودي في الأردن خلال إحدى زياراته لي في العيادة: «لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ وأشار إلى هيلدا وقال: عندك ابنة عم جمعت العلم إلى جمال الخُلق، لقد التقيتها صدفة عند أحد الأصدقاء». وحين رأيتها من ثقب الباب أثناء زيارتها لأهل البيت فترة الاختفاء، أدركت أن المرحوم رؤوف حلبي كان على حق، وبدأت منذ ذلك الحين أفكر جدياً في الزواج منها، لكن الظروف السياسية ووضعي الخاص أثناء الاختفاء كانا يحولان دون الاتصال بها.

ومن وقت إلى آخر كنت أشعر أنه يتوجب عليّ أن أغيّر مكان إقامتي لأسباب أمنية، إذ كثُر عدد الرفاق الذين يأتون إلي، فانتقلت إلى بيت آخر مشياً على الأقدام متخفياً. وفي إحدى الليالي أثناء وجودي في ذلك البيت قُرع الباب، وحين فتح أهل البيت دخل رجال الأمن على الفور، ولما لمحت ذلك أدركت أنهم قادمون لإلقاء القبض عليّ، ولم يخطر ببالي أنهم يمكن أن يكونوا قادمين لأي غرض آخر، وبخاصة أننا كنا قد وزعنا منشوراً قبل بضعة أيام ضد النظام. وفي الحال خرجت من الباب الخلفي، وقفزت من على السور وأصبحت خارج نطاق البيت، وبدأت أتدحرج بسرعة فوق الحجارة والأشواك إلى أن وصلت إلى سور مدرسة راهبات الناصرة، حيث مكثت هناك إلى حين رأيت أحد أفراد البيت يطل يبحث عني يميناً ويساراً ليعلمني أن رجال الأمن قد خرجوا. عدت إلى البيت لأجد أن هدف رجال الأمن لم يكن إلقاء القبض علي، إذ إنهم لم يكونوا على علم باختفائي، وإنما كان هدفهم إلقاء القبض على شاب هو ابن صاحب المنزل الذي اقتادوه للتحقيق بتهمة توزيع منشورات ضد النظام.

6 ـ حركة القوميين العرب ومواقفها الأيديولوجية والسياسية والتنظيمية

في أثناء فترة وجودي في سورية بين عامي 1959 و1963، أذكر حضوري مناسبة الاحتفالات بمرور السنة الأولى على قيام الجمهورية العربية المتحدة، وقد حضرت إلى «الإقليم الشمالي»، كما كانت تُدعى سورية في ذلك الوقت. رأيت الرئيس عبد الناصر شخصياً من على شرفة قصر الضيافة لأول مرة، وكانت الجماهير تشكل بحراً هائجاً يمتد من باب قصر الضيافة حتى منطقة المالكي، وقد قيل لي في ذلك الوقت إن الجماهير لدى إعلان الوحدة كانت حاضرة على نحو أكثر كثافة، وإنها كانت تنام في الشوارع، وبعضها يقضي بضعة أيام انتظاراً لرؤية الرئيس عبد الناصر وسماع خطاباته التي كانت تُلهب حماسة الجماهير في ذلك الوقت. وكانت الجماهير اللبنانية والجماهير الفلسطينية التي تسكن في لبنان تجيء في يوم الأحد لترى عبد الناصر. وأذكر تماماً كيف رأيت أبا ماهر اليماني وعبد الكريم حمد في تلك المناسبة وبعد انقطاع طويل.

في تلك الفترة لم تكن علاقاتنا كحركة قوميين عرب مع عبد الناصر شخصياً قد بدأت، إذ إن بدايتها تعود إلى ما بعد فترة الانفصال. ولم تكن قد بدأت من خلالي، إذ إنني كنت في سورية في ذلك الوقت، أناضل في سبيل عودة الوحدة. ولكن العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة كانت تتم من خلال عبد الحميد السراج، وأحياناً من خلال المشير عبد الحكيم

عامر. وقد قابلت عبد الحميد السراج عدة مرات بعضها كان من خلال عبد الحكيم عامر.

على الصعيد التنظيمي، قمت بعمل ذي قيمة كما ظهر في ما بعد؛ فأثناء استعراضنا لعملنا في جامعات مصر، قيل لي إن لدينا رفاقاً سيتخرجون هذا العام، وهم من أقطار ليس فيها فروع للحركة، فماذا نقول لهم؟ فقلت: نأتي بهم إلى سورية ونقيم لهم دورات، ونطالبهم بتأسيس فروع للحركة في أقطارهم. وما زلت أذكر هؤلاء الرفاق، وجوههم وشخصياتهم، والجو الذي عشناه في تلك الفترة، من هؤلاء كان فيصل الشعبي وقحطان الشعبي من جنوب اليمن (أصبح قحطان الشعبي رئيساً للجمهورية اليمنية في ما بعد)، وعبد الملك(*) من شمال اليمن، وعبد الرحمن كمال من البحرين، وعبد السلام وعز الدين من ليبيا، وعبد المنعم من السودان. هيأنا لهم المحاضرات التي كنا سنقدمها بوصفها هي التي تشكل الأساس السياسي والتنظيمي لحركة القوميين العرب. وأهم الموضوعات السياسية والتنظيمية التي كنا نقدمها إلى هؤلاء الرفاق ونشدد عليها كموضوعات مؤسسة لعملهم السياسي والتنظيمي، هي الشعارات السياسية للحركة «وحدة ـ تحرر ـ ثأر»، في حين لم نكن في ذلك الوقت نطرح شعار الاشتراكية، لأن هذا الموضوع كان يثير الجدل بين كوادرنا ورفاقنا في القاعدة الحزبية، وكان جوابنا عنه أننا نمر بمرحلة تحرر وطني، وأن هذه المرحلة تتطلب تجميع كل الطبقات من أجل تحقيق التحرر، وأن من الخطأ إثارة موضوع الصراع الطبقي في هذه المرحلة. وكنا نشدد على الحيثيات التي تدفعنا إلى رفع شعار الثأر، فبغض النظر عن طبيعة هذا الشعار من حيث اللفظ أو التعبير، كنا نجد أن الفكرة الكامنة وراءه هي من أهم ما يميز فكر الحركة السياسي في ذلك الوقت. وكانت

(*) ربما يكون المقصود الدكتور عبد الملك عبد الواحد الأغبري، المسؤول القيادي الأول للحزب الديمقراطي الثوري اليمني أحد الفصائل المكونة للحزب الاشتراكي اليمني وأحد مؤسسيه (المحرر).

هذه القضية من القضايا التي شكلت مبرراً لتأسيس الحركة، وعدم الانضمام إلى حزب البعث، فالحركة كانت تريد أن تزرع في الوعي العربي القومي على صعيد الوطن العربي بأكمله خصوصية الخطر الصهيوني، وبمعنى أدق السرطان الصهيوني، وخصوصية معركة التحرير الفلسطينية بوصفها قضية قومية، لا قضية وطنية فقط. أما في ما يتعلق بموضوع شعار الوحدة فكنا نتميز عن البعث ليس بمجرد رفع هذا الشعار، فهو مشترك بين الحركة وحزب البعث، ولكن الحركة كانت تشدد عليه بوصفه المدخل لتحقيق الشعارات والأهداف الأخرى كافة، وبخاصة موضوع فلسطين والتقدم الاجتماعي.

هذا على الصعيد السياسي، أما على الصعيد التنظيمي، فقد كنا نطرح في تلك الدورة المبادئ التنظيمية التالية:

1 ـ القيادة الجماعية، وهنا كنا نشدد على حيثيات كل مبدأ من هذه المبادئ. ويا ليتني أستطيع الحصول على المادة التثقيفية التي كنا نقدمها إلى الأعضاء في ذلك الوقت، إذ إنها كانت تشرح حيثيات كل مبدأ من مبادئنا التنظيمية.

2 ـ المبدأ الثاني هو القيادة في صف الأعضاء، وأعتقد أن هذا المبدأ قد أدى دوراً كبيراً في سرعة نمو الحركة، سواء في الأردن أو في فروع عملنا كافة مستقبلاً. فالعمل السياسي التقليدي، كما كان ممثلاً بالأحزاب القومية أو الأحزاب السياسية بوجه عام، كان أقرب إلى العمل البيروقراطي. وكنت ألمس أثناء تجربتي في الأردن كيف أن الجماهير والأعضاء كانوا يدهشون ويقدرون وجودنا بينهم، نعيش معهم، ونأكل معهم، ولا يكون هناك أي حاجز بين القيادة والقاعدة. قبل أيام من كتابة هذه المذكرات زارنا السفير الجزائري في سورية. وقد ذكر لنا كيف أن عز الدين الليبي، وهو أحد الذين حضروا الدورة المشار إليها، اختار العمل في حركة القوميين العرب لأنه وجد نوعاً معيناً من القيادة لم

يعرفه من قبل، إذ وجد قيادة تعيش بينهم ولا تضع أي حاجز بينها وبين قاعدتها.

3 ـ المبدأ الثالث هو مبدأ القيادة للأكفأ، والمفروض هنا أن نحدد مقياس الكفاءة لتحديد القيادات، ولكن القيادة في المركز هي التي كانت تحدد الكفاءة، إذ لم يكن معمولاً في تجربة الحركة بمبدأ الانتخابات القاعدية، بسبب الظروف، أي لكون طبيعة الحركة طبيعة ثورية، فهي مطاردة من جانب الأنظمة حيث كان عمل الحركة سرياً في معظم الأقطار العربية، لكنْ بصراحة، لم يكن هذا هو السبب الوحيد، إذ كانت بنية الحركة بوجه عام مبنية على أساس المركزية.

4 ـ المبدأ الرابع، كان يتناول تنظيم العلاقة بين القاعدة والقيادة. وكنا نطلق عليه مبدأ المركزية المرنة. ولفظة المرنة كانت تشير إلى ضرورة إعطاء الفروع والقاعدة بوجه عام نوعاً من المرونة يهدف إلى تشجيع المبادرة وعدم تقييد الكفاءات.

5 ـ مبدأ آخر كانت تشدد الحركة عليه، وكنا نشدد عليه في هذه الدورة، هو مبدأ النقد والنقد الذاتي، وكنا نشدد على الضوابط التي تحكم وتوجه عملية النقد هذه، كي لا تؤدي إلى نتائج سلبية على عكس ما تبغيه عملية النقد.

6 ـ أخيراً، مبدأ «نفّذ ثم ناقش»، وما زلت أذكر كيف أن هذا المبدأ كان موضع تندر في القاعدة، لكنه أدى دوراً أساسياً في تمتين بنية الحركة، والآن أدرك بطبيعة الحال، أن هذا المبدأ هو عبارة عن تطبيق وترجمة لمبدأ المركزية.

أدت هذه الدورة المشار إليها دوراً في انتشار حركة القوميين العرب. ومع أننا لسنا في صدد تقييم ما حصل بالنسبة إلى عملنا في هذه المناطق، أي السودان وليبيا والبحرين واليمن، إلا أنني لا أستطيع إلا أن أسجل أن هذه الدورة كانت النواة في تحرير اليمن الجنوبي، وطرد القوات البريطانية

من هذا الجزء من وطننا. وأعتقد أن هذا كان من أكبر إنجازات حركة القوميين العرب.

أعود بعد ذلك إلى استعراض هذه المرحلة من تاريخ الحركة، مرحلة وجودي في دمشق. في زمن الوحدة إلى أن وقع الانفصال.

كانت قيادة الحركة في هذه الفترة تتألف من جورج حبش وهاني الهندي والحكم دروزة في دمشق، ومحسن إبراهيم ومصطفى بيضون ومحمد الزيات وأحمد ستيتية في لبنان؛ وبين وقت وآخر كان يحضر الدكتور أحمد الخطيب من الكويت. وحين أفرج عن الدكتور وديع كان من الطبيعي أن يلتحق بهذا الوضع القيادي.

في هذه الفترة، كان مطروحاً من جانب بعض الرفاق في الوضع القيادي موضوع تغيير اسم الحركة، وكان الاقتراح أن نعلن أننا حزب سياسي لا مجرد حركة. وكانت تُعطى حيثيات مكثفة حول هذا الموضوع. وكان الرفاق في لبنان أشد المتحمسين لهذه الفكرة، أما أنا شخصياً فكنت ضد هذا التغيير، وكانت أسبابي تتلخص بأننا نريد أن نعبئ كل أبناء الأمة العربية لتحقيق شعارات الحركة، وأن الحركة ليست مجرد حزب يعبئ بعض قطاعات من جماهير الأمة العربية بل هي أكثر شمولية من الحزب. وحين استمر البعض في القيادة في طرح موضوع تغيير اسم الحركة إلى حزب، كان المخرج هو استفتاء القاعدة. وقد أجرينا هذا الاستفتاء فعلاً، وكانت النتيجة الإبقاء على اسم «حركة القوميين العرب».

إضافة إلى موضوع تغيير الاسم، واجهتنا تساؤلات حول الفكر السياسي والشعارات السياسية التي كانت ترفعها الحركة في ذلك الوقت. فقد كنا ألّفنا لجنة فكرية مركزها بيروت تحت مسؤولية الرفيق محسن إبراهيم، ومن أعضائها عبد الحميد شرف وجوزيف مغيزل، لكن لم أعد أذكر أسماء الآخرين. كان جوّ لبنان بوجه خاص جو حوار ونقاش بين المثقفين العرب، وكان مقهى فيصل أحد المراكز التي يدور فيها نقاش

حول مفاهيم البعث والناصرية وحركة القوميين العرب، ومختلف الموضوعات الحيوية التي تواجه الأمة العربية، والنهضة العربية. وكان من الطبيعي جداً أن يتأثر رفاقنا في اللجنة الفكرية بهذه النقاشات، وقد لمست أنا والرفيق أبو محمود (هاني الهندي)، والدكتور أحمد الخطيب، والدكتور وديع حداد، تأثر هؤلاء الرفاق بهذه النقاشات، وبناء على طلبهم من ناحية، وبناء على رغبتنا من ناحية ثانية، وجدنا أنه من الضروري أن نقف أمام مختلف الموضوعات التي تريد اللجنة الفكرية طرحها علينا. وكنت شخصياً أتلمس أن هؤلاء الرفاق لديهم أشياء قد تفيد الحركة، وأن من الخطأ إهمال ما يدور في أذهانهم من موضوعات، وأن الأسلوب الصحيح هو الحوار معهم لاستخراج ما هو صحيح، وما هو مفيد بالنسبة إلى الحركة وفكرها، ومن خلال الحوار يمكن ضبطهم ومنع أي عملية انشقاق داخل الحركة. عقدنا اجتماعات في بيروت، وما زلت أذكر المبنى الذي عقدنا تلك الاجتماعات فيه.

حضر الاجتماع الدكتور أحمد الخطيب وأعضاء القيادة المؤسسين كافة، إضافة إلى أعضاء اللجنة الفكرية. وفي هذا اللقاء طلبنا من أعضاء اللجنة الفكرية أن يطرحوا كل ما لديهم من آراء وأفكار وانتقادات تتعلق بالحركة وفكرها السياسي وشعاراتها.

طرحت اللجنة الفكرية الموضوعات التالية: حذف شعار الثأر واستبداله بشعار استرداد فلسطين، إضافة شعار الاشتراكية. وحول موضوع الفكر السياسي طرحت اللجنة موضوع اليهود، وأنه ليس كل يهودي صهيونياً بالضرورة. وانتقدت موضوع المرحلية، فالنضال من أجل الاشتراكية يجب أن يترابط مع النضال من أجل التحرير والوحدة.

أحدث طرح هذه الموضوعات في الاجتماع الأول نوعاً من التوتر لدى الفريق المؤسس. ولكنني شعرت أن من واجبي أن أحافظ على وحدة الحركة من خلال الحفاظ على الجوّ الهادئ والموضوعي، والبحث

المتأني، وأخذ كل ما هو إيجابي ومفيد من طرح اللجنة الفكرية، مع المحافظة بطبيعة الحال على الخصوصية السياسية التي كانت وراء تأسيس حركة القوميين العرب.

في ما يتعلق بشعار الثأر، كان الاتفاق الذي توصلنا إليه هو المحافظة على خصوصية الفكر السياسي للحركة، في ما يتعلق بخصوصية القضية الفلسطينية، وضرورة تمييزها عن قضايا التحرر العربي بوجه عام، وفي الوقت نفس تمت الموافقة على استبدال شعار الثأر بشعار استرداد فلسطين. وفي موضوع اليهودية والصهيونية توصلنا إلى نتيجة تبرز أن أغلبية اليهود هم صهاينة يدعمون إسرائيل، ولكن ليس إلى حدّ القول إن كل يهودي صهيوني بالمطلق. أما موضوع المرحلية، فقد توصلنا إلى نتيجة تثبت مفهومها على أساس أن التحرر والوحدة يسبقان تحقيق الاشتراكية أو تطبيقها. لكننا في الوقت نفسه توصلنا إلى قناعة بضرورة رفع شعار الاشتراكية كمؤشر للمجتمع العربي الذي نريد أن نبنيه حين ننجز عملية التحرر والتوحيد. وهكذا أصبحت شعارات الحركة بعد هذا الاجتماع هي: الوحدة، والتحرر، والاشتراكية، واسترداد فلسطين. وفي النهاية خرجنا جميعاً مرتاحين إلى نتائج هذا الاجتماع. وأصدرنا في إثر ذلك تعميماً للقاعدة الحزبية[1].

---

(1) في تلك الفترة، أدى تسارع الأحداث إلى الدفع باتجاه إعادة النظر في البنية الفكرية لحركة القوميين العرب التي شهدت مخاضاً من التحولات. أول هذه التحولات كان التأميمات الناصرية الواسعة التي حدثت في عام 1960 والتي أربكت بعض العناصر القومية التي كانت ترى ضرورة فصل المسألة القومية عن المسألة الاجتماعية. أعقب ذلك الانفصال ونهاية تجربة الوحدة السورية ـ المصرية في 28 أيلول/سبتمبر 1961، والانقلاب العسكري في العراق في شباط/فبراير 1963 الذي أطاح حكم الشيوعيين العراقيين، ولحقه انقلاب آذار/مارس في سورية عام 1963 لتعيد جميعها نقاش مسألة الوحدة. كل ذلك عكسته مجلة الحرية في تلك الفترة في مقالاتها ونقاشاتها التي حاولت التصدي للأسئلة الكبرى التي طرحتها المرحلة. ما قد يكون قصده الحكيم هنا هو المؤتمر الاستثنائي لحركة القوميين العرب الذي عقد في عام 1963 لنقاش مسألة الالتزام الأيديولوجي للحركة.

في هذه الفترة أصدرت قيادة الحركة قراراً بانتقال المجلة المركزية الرأي من دمشق إلى بيروت، كون اللجنة الفكرية كان مركزها بيروت، إضافة إلى وجود الرفيق محسن إبراهيم في بيروت أيضاً. وكان تقديري وتقدير قيادة الحركة في تلك الفترة أنه يتمتع بكفاءة تمكنه من أن يكون رئيس تحرير المجلة. وهكذا انتقل مركزها من عمان إلى دمشق ثم إلى بيروت. واتخذت في بيروت اسم مجلة **الحرية** وقد اشترينا امتياز هذا الاسم من مجلة كانت تصدر في ذلك الوقت.

في هذه الفترة، وبعد بضعة أشهر من وجودي في دمشق، حصلت ثورة الشوّاف عام 1959 في العراق، وكانت تهدف إلى ضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة. كان عبد الوهاب الشوّاف مع الوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، لكن الثورة فشلت، وتلا ذلك عملية بطش أصابت التيار العروبي والقومي والناصري والبعثي كله. ولجأ إلى سورية عدد كبير من السياسيين، فتعرفت إلى أعداد كبيرة من الضباط والرموز السياسية العراقية (فضلاً عن بعض كوادرنا وقواعدنا التي كانت تعمل في العراق، أذكر منها، عبد الباري، وزغلول، وغازي الذي كان يلازمني كثيراً). كان موضوع العمل في العراق يستأثر بمعظم نشاط الحركة السياسي والتنظيمي يومذاك. وفي هذه اللحظة أو قبل ذلك بقليل، أرسلنا نايف حواتمة لينضم إلى المجموعة القيادية في العراق، التي كانت تضم الشهيد باسل الكبيسي (الذي استشهد على يد الموساد الإسرائيلي بعد مطاردتهم له في فرنسا في 6 نيسان/أبريل 1973، حيث كان في مهمة نضالية بتكليف من قيادة المجال الخارجي، أي وديع حداد وسلام أحمد وآخرين). وقد أقمنا في سورية محطة لإسناد عملنا في العراق في منطقة البو كمال نستقبل فيها الرفاق الذين يلجأون من العراق إلى سورية بسبب مطاردتهم، وهي تشكل محطة إسناد عسكري أيضاً. وأذكر أننا أوكلنا مسؤوليتها إلى الرفيق صلاح صلاح.

رغم انشغال حركة القوميين العرب بالعملية الوحدوية، وضرورة نموها لتشمل العراق والأردن، إلا أن موضوع فلسطين لم يكن يغيب عن بالنا، إذ إن الحركة في الأساس كانت وليدة نكبة العرب في فلسطين، وضرورة تهيئة الأمة العربية لمواجهة هذا الخطر واسترداد كرامتها.

أذكر أنه عُقد في مدينة شتورة في لبنان اجتماع لجامعة الدول العربية ربما كان المناسبة لمواجهة المخطط الإسرائيلي لتحويل مياه الأردن. وقد أثار هذا الحدث ضرورة وجود قيادة خاصة للعمل الفلسطيني، مثل قيادة فرع الحركة في لبنان للعمل اللبناني، وقيادة فرع الحركة في العراق للعمل العراقي، إذ إن كل اهتمامنا بالقضية الفلسطينية لم يرافقه ترتيب تنظيمي لقيادة العمل الفلسطيني. لذلك شُكلت قيادة لهذا العمل من الدكتور وديع حداد، والدكتور أسامة النقيب وأحمد محمود إبراهيم (أبو عيسى) ورفعت سرحان وزاهي القمحاوي ومني أنا شخصياً وآخرين. غير أن الكوادر والقواعد الفلسطينية، بقيت تعمل ضمن فروع الحركة الأخرى، أي أن الفلسطينيين في لبنان ضمن فرع الحركة اللبناني، والفلسطينيين في سورية ضمن فرع الحركة السوري، والفلسطينيين في الأردن ضمن فرع الحركة الأردني. ولم يقتصر اهتمامنا في هذه الفترة على تشكيل قيادة للعمل الفلسطيني، بل إن علاقتنا الجيدة بالجمهورية العربية المتحدة وعلاقتنا الوثيقة بعبد الحميد السراج تحديداً الذي كان وزيراً للداخلية في الإقليم الشمالي في تلك الفترة، أتاحت لنا إجراء دورات تدريب عسكري بمستوى جيد جداً، إذ كان في ذهننا الإعداد للكفاح المسلح الفلسطيني. ومع أن هذه الدورات كانت تشمل أحياناً بعض الرفاق العرب، إلا أن الأغلبية العظمى منها كانت لقواعدنا الفلسطينية، سواء من مخيمات لبنان أو من مخيمات سورية. وما زلت أذكر أن الدورة الأولى كانت بقيادة الرفيق وديع حداد. أما الدورة الثانية، فكنت أنا المسؤول عنها. وأذكر في إحدى دورات التدريب على المتفجرات، ورغم أننا اتخذنا احتياطات كافية، وأصبحنا بعيدين عن مكان التفجير، إلا أن حجراً من الأحجار، نتيجة التفجير أصاب

ساعدي وكان من القوة بحيث طار صوابي من الألم. وكوني مسؤولاً عن الدورة، تظاهرت بعدم الاكتراث، ولكن المسؤول العسكري عن الدورة، كان الضابط مناف الهندي، الذي أصرّ على أن أجري صورة أشعة، وقد تبين أنه ليس هناك أي كسور، وأن الموضوع هو رضة عنيفة نتيجة الحادث. كان معسكر حرستا في ذلك الوقت يضم كتيبة الفدائيين الفلسطينيين. وفي تلك الفترة تعرفنا أنا والدكتور وديع على عدد من الإخوة الفدائيين، منهم أبو نظام (رفيق عساف)، والجنداوي وغيرهما.

شمل اهتمام الجمهورية العربية المتحدة الوجود الفلسطيني في سورية، فطرحت قيادة عبد الناصر فكرة تنظيم الفلسطينيين في إطار قومي فلسطيني. وأجريت عملية انتخاب لهذا التنظيم اهتممنا بها كثيراً. وكانت النتيجة فوز القائمة التي شكلناها، وكان الرفيق أسامة النقيب على رأس عملنا الفلسطيني في سورية.

اهتممنا كذلك بوجه خاص بتنظيم الفلسطينيين في صفوف الحركة، وأعتقد أننا سجلنا نمواً على هذا الصعيد، وبخاصة في مخيم اليرموك. وكانت العلاقة التي تربط بين الحركة والناصرية تفيدنا في نشاطنا بين جمهورنا الفلسطيني. وفي هذه الفترة أسسنا نادياً للفلسطينيين في دمشق، كان ينظم الندوات والمحاضرات والرحلات، وأعتقد أننا خلقنا جواً خاصاً بين الفلسطينيين في سورية في ذلك الوقت.

كان الدكتور وديع حداد يقوم بالقسط الأوفى من هذا النشاط أي العمل الفلسطيني، بينما كنت أنا منهمكاً أكثر في عملنا القومي، سواء في العراق، أو الأردن، أو لبنان، أو اليمن أو الفروع التي أنشأناها في الجزيرة العربية من ناحية، وفي الساحة العربية الأفريقية من ناحية ثانية.

7 - تجربة الوحدة والانفصال بين مصر وسورية وانعكاسها على حركة القوميين العرب في سورية

في هذه الأثناء تعثر امتداد التجربة الوحدوية سواء باتجاه العراق أو باتجاه الأردن. وبدأت تزداد عملية النقد لهذه التجربة الأولى، أي تجربة الجمهورية العربية المتحدة، وزاد من حدتها أن أغلبية القوى الوطنية والتقدمية في سورية بدأت تعيش حالة نقد لهذه التجربة. فالحزب الشيوعي السوري كان في الأساس ضد هذه الوحدة على النحو الذي تمت به. وقد اتخذ منها موقفاً معادياً، أما قيادة حزب البعث فقد انقلبت على هذه التجربة في ما بعد بسبب موضوع منع الحريات التي من دونها لا يمكن لأي تجربة أن تنجح وتستمر، وبخاصة أن القيادة الناصرية في حينها أرادت حل جميع الأحزاب. أما بالنسبة إلينا في الحركة، فقد كنا نواجه وضعاً صعباً جداً. وكنا مشدودين إلى أهمية هذه التجربة الوحدوية وضرورة بقائها واستمرارها وامتدادها. وفي الوقت نفسه لم نكن قادرين على أن نغمض أعيننا عن الثغرات التي تعيشها وعن عملية التذمر التي بدأنا نلمسها في بعض أوساط الجماهير بسبب عدم وجود الديمقراطية، ومنع الحريات، وكذلك معاداة البرجوازية لها، إذ تضررت مصالحها بسبب سياسة التأميم. وكانت نتيجة الصراع بين هذه العوامل أن أخذت الحركة بخط المصارحة الجريئة للمسؤولين في مجمل الثغرات والأخطاء التي تعيشها التجربة، ولكن من دون الإعلان الواضح والصريح عن ذلك، لأننا لا نريد أن

يتشابك موقفنا السياسي مع موقف القوى الإمبريالية والرجعية التي تتربص بهذه التجربة الوليدة.

لقد كان بعض الرفاق ينادون بضرورة الإعلان النقدي، وكشف الثغرات علناً، ولكنني شخصياً مع بعض الرفاق القياديين، لم نكن مع هذا الخط. وكانت النتيجة الموقف السياسي الذي ذكرته.

في ذلك الحين، قابلت لأول مرة المشير عبد الحكيم عامر، وكان هدف اللقاء مصارحة المشير في الثغرات والهموم التي تعيشها تجربة الجمهورية العربية المتحدة. وضرورة معالجتها على صعيد القيام بواجباتنا كحركة أمام مشكلات التجربة وثغراتها، ومعالجتها لتكون الجمهورية العربية المتحدة نموذجاً يغري أقطاراً عربية أخرى بالانضمام إليها. وكان لنا عضوان في مجلس الأمة هما هاني الهندي وجهاد ضاحية، الذي كنا نعتبره بمثابة عضو، رغم أنه لم يكن عضواً بالمعنى التنظيمي البحت، إضافة إلى عدد آخر من الأصدقاء. كنا نطرح الموضوعات القومية والداخلية التي تجعل من الجمهورية العربية المتحدة نموذجاً يجذب أقطاراً عربية أخرى إلى الانضمام للوحدة.

في هذه الفترة وعلى صعيد شخصي، لم أعد قادراً على تجنب فكرة الزواج. ففي بداية تجربتنا كحركة قوميين عرب، لم يكن يخطر ببالي موضوع الزواج بأي صورة من الصور. وكان هذا هو الوضع نفسه بالنسبة إلى وديع وهاني. ثم لاحقاً أصبحت تراودني فكرة الزواج. ولم يكن ضمن برنامجنا أو قواعدنا التنظيمية منع الآخرين من الأعضاء من الزواج أو التفكير فيه. وهذا ما حصل عملياً بالنسبة إلى الصف القيادي الثاني، منهم محسن إبراهيم، والحكم دروزة، ومصطفى بيضون، وآخرون.

أمام عوامل متعددة، منها العامل الاجتماعي، من ناحية، وعامل الأهل، من ناحية ثانية، والشعور العام بأن الأمة العربية بقيادة الناصرية ستحقق أهدافها في الوحدة والتحرر، من ناحية ثالثة، أصبحت فكرة الارتباط مقبولة

لديّ. هنا، كنت في كثير من الأحيان وقبل نضوج الفكرة، أفكر بين وقت وآخر بالزواج من هيلدا، وأتذكر ما قاله لي صديقي رؤوف حلبي، من ناحية، ورؤيتي لها خلال فترة الاختفاء، من ناحية ثانية. أخيراً رسا تفكيري على الزواج. وحين دعوتها إلى الحضور إلى دمشق لألتقي بها، حضرت من القدس فصارحتها بما أشعر به تجاهها من إعجاب وحب صادق. تجاوبت هيلدا مع مشاعري فكان سروري كبيراً. كنت حريصاً على مصارحتها بخصوصية وضعي، سواء من حيث نمط حياتي والأخطار التي من الممكن أن أتعرض لها، أو من حيث وضعي المعيشي كمتفرغ في الحركة من الصعب أن أوفر لها ما كان متوافراً عند أهلها. وقد تم ذلك خلال جولات ومشاوير متعددة مشيناها معاً على الأقدام في شوارع دمشق وفي ساعات متأخرة من الليل، أي بعد انتهاء ساعات العمل. كان تجاوب هيلدا رائعاً، إذ أبدت استعداداً للتضحية ومواجهة التحديات مهما كانت الصعوبات.

لم تدم فترة الخطوبة طويلاً، ففي 30 تموز/يوليو 1961 عُقدت حفلة زواجنا في كنيسة الروم الأرثوذكس في حي القصاع في دمشق، وكانت مقتصرة على الأهل وبعض الأصدقاء وبعض الرفاق الذين ابتهجوا ورقصوا أمامنا الدبكة الفلسطينية في ساحة الكنيسة. كان زواجنا بعيداً من كل شكليات الاحتفالات التي تتم في مثل هذه المناسبات. أما يسمى شهر العسل، فاقتصر على فترة أسبوع قضيناها في مصيف في منطقة جبلية جميلة جداً في سورية وهي صلنفة في منطقة اللاذقية. قضينا وقتاً ممتعاً بعيداً من هموم العمل السياسي، ومنذ بداية عملي في الحقل الوطني، لا أذكر أنني عرفت الإجازات قط. كان الأسبوع الذي قضيناه معاً في منطقة صلنفة الجبلية أول إجازة عرفتها في حياتي. كذلك زرنا حلب والمناطق الجبلية قرب اللاذقية مثل كسب.

إن الآمال التي كنا نعلقها على عملية الوحدة العربية، التي كنا نكتب عنها في بداية الخمسينيات، اصطدمت بالمسيرة العملية لتجربة الوحدة العربية، الممثلة بتجربة الجمهورية العربية المتحدة. فعملية الوحدة العربية

لم تمتد لتشمل الأقطار العربية الأخرى، كالعراق، بل ترسّخ في العراق حكم عبد الكريم قاسم، الذي كان مناهضاً لفكرة الوحدة العربية وانضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة. وفي ما يتعلق بالموضوع الفلسطيني، لم تستطع الجمهورية العربية المتحدة التصدي الناجح لموضوع تحويل مياه نهر الأردن، حيث بدأت إسرائيل تعمل على تحويل مياه النهر لمصلحتها. وقد اقتصر دورنا في ما يتعلق بهذا الموضوع الحساس على بعض المداخلات التي قدمها أعضاء من الحركة وبعض أصدقائنا في مجلس الأمة. أما في ما يتعلق بموضوع الديمقراطية وتعبئة جماهير الشعب للنضال لتحقيق أهداف الأمة العربية فقد كانت صيغة الاتحاد القومي التي طرحها عبد الناصر، كبديل للحياة السياسية التي كانت سائدة في سورية قبل الوحدة، غير قادرة على تعبئة الجماهير وإطلاق طاقاتها وإمكاناتها للنضال تحقيقاً لأهداف الأمة الكبرى.

في هذه الأثناء، طرح عبد الناصر، بمناسبة ثورة يوليو، حسبما أذكر، موضوع التأميم الذي سمي في ذلك الوقت مجموعة الإجراءات الاشتراكية، وبعض المكاسب للفلاحين والطبقة العاملة. أثار ذلك موجة ارتياح كبير لدى الفقراء، لكنه أثار، في الوقت نفسه، حقد الطبقات البرجوازية، التي بدأت تعمل بدأب على إجهاض الوحدة وانفصال سورية عن مصر.

كانت تجربة الوحدة العربية تشكل خطراً كبيراً على المصالح الإمبريالية والرجعية في المنطقة العربية. وكانت إسرائيل، تخشى على كامل مصيرها، لذا كان التخطيط والعمل المشترك الإمبريالي والصهيوني والعربي الرجعي للتآمر على عبد الناصر والتجربة الوحدوية، مستغلين الأخطاء الذاتية الأساسية في هذه التجربة وأهمها موضوع الديمقراطية وعدم وجود الحياة الحزبية. وفي 28 أيلول/سبتمبر 1961 وقع الانفصال.

* * * *



حفل إكليل جورج وهيلدا حبش من كنيسة الصليب حي القصاع ـ دمشق 1961

في صباح 28 أيلول/سبتمبر 1961، استيقظت على البيان الانقلابي الأول الذي بثته الإذاعة السورية يعلن انفصال الإقليم الشمالي، أي سورية، عن الجمهورية العربية المتحدة، فتوجهت إلى مكتب الحركة لأرى ما يجب علينا عمله. وكنت أتوقع، في ضوء مدى التأييد الجماهيري للوحدة العربية، أن أجد نفسي أمام تظاهرات وحشود تحتج على هذه الفعلة وتطالب بترسيخ الوحدة. ولكني، مع الأسف، لم ألمس سوى إشارات الذهول والحيرة ترتسم على وجوه المواطنين، فكان درساً كبيراً لي حول الشعارات القومية المجردة وعدم فعاليتها أحياناً في تحريك الجماهير، وضرورة الاهتمام بالقضايا الاجتماعية لأنها تشكل الأساس في تحريك الجماهير إلى جانب الموضوع السياسي. فالانفصال لم يحرك كل جماهير سورية، ولكن بعد وقوع الانفصال ببضعة أشهر، وحين اجتمع مجلس النواب السوري لإجراء تعديلات رجعية تمس المكاسب الاشتراكية للعمال، قامت حشود وتظاهرات أمام البرلمان كانت ضخمة ومؤثرة.

وامتدت حتى سوق الحميدية «شارع المحكمة»، وقد شاركنا في هذه التظاهرات على نحو فعّال، لكن تم قمعها من جانب الشرطة. وما زلت أذكر كيف شاركت زوجتي مشاركة فعالة في تلك التظاهرات فكانت تلك أول تجربة نضالية لها، وهو ما أعطاني شعوراً بالاعتزاز، حيث كان البعض يعتقد أنها بعيدة عن أجواء العمل النضالي. ومن الجدير بالذكر هنا الدور الفاعل لمنظمة المرأة في حركة القوميين العرب في تلك التظاهرات.

أعود الآن إلى اليوم الأول لإعلان الانفصال. لقد حاولنا في فترة الصباح الأولى أن نقوم كحركة قوميين عرب بتظاهرة احتجاج متحدِّين كل ما يمكن أن نواجهه من عقبات، ولكن التجمع الذي حشدناه لم يكن كافياً للانطلاق بالمسيرة بحجم معقول. وفي الساعة الواحدة من اليوم نفسه، أُذيع بيان من إذاعة سورية يعلن أن هذا العمل الانقلابي غايته التصحيح، أي تصحيح تجربة الوحدة وأن الضباط الذين قاموا بالانقلاب يتصلون أو ينوون الاتصال بعبد الناصر لإطلاعه على الأخطاء التي يجب أن تصحح. وحين ظهرت علامات انفراج على وجوه المواطنين، استطعنا أن ننظم تظاهرة بحجم معقول، ولكن لم تكن بالمستوى المطلوب والمتناسب مع حجم الكارثة في ما لو تكرس الانفصال.

كان الانقلابيون يتمثلون بتيارين سياسيين مختلفين، لذلك حصل ازدواج في الخط السياسي الذي تبنوه. فبعد البيان الذي أشرت إليه والذي أعلن أن هدف العملية الانقلابية هو التصحيح في إطار الوحدة، صدرت في اليوم نفسه، بيانات أخرى تعلن أن هذه الخطوة تكرس بصورة نهائية انفصال الإقليم الشمالي عن مصر، وهنا بتنا نحن والجماهير كافة، فضلاً عن العالم كله، ننتظر ردود فعل عبد الناصر. وكان تيار كبير يتوقع أن يردّ عبد الناصر على الانقلاب لاسترداد الوحدة بوصفه المسؤول وصاحب الكلمة الفصل.

كانت هناك بعض الحشود العسكرية التي كانت تؤشر إلى استعداد عبد الناصر لاسترداد الإقليم الشمالي وإفشال الانقلاب بالقوة. ولكن بعد يومين أو ثلاثة ألقى عبد الناصر خطاباً قال فيه إنه لن يسمح لنفسه بأن يقاتل الجندي العربي جندياً عربياً آخر، ورأى الجميع أن عبد الناصر قد امتثل في نهاية الأمر لهذا الواقع المرير، على أمل أن يواجهه في ما بعد بأساليب أخرى وبعيداً من الاقتتال الداخلي.

وفي سورية بدأت الأمور بعد خطاب عبد الناصر تسير باتجاه ترتيب كل القضايا لتكريس الانفصال، وعودة سورية ككيان سياسي قائم بذاته. وبدأ يبرز التياران اللذان كانا وراء العملية الانقلابية: تيار مأمون الكزبري ومعروف الدواليبي، أي تيار البرجوازية والرجعية الذي بدأ يرتب الأمور على أساس انتخابات وحكم نيابي، وانتخاب رئيس للجمهورية... إلخ؛ مقابل تيار عبد الكريم النحلاوي ومهيب الهندي، وغيرهما من الضباط الذين بدأوا يشعرون بخطورة الوضع وأنهم كانوا كالمطية للتيار الرجعي، فهم لا يسمحون لأنفسهم أن يكونوا كذلك. فقد قاموا في الأساس بالعملية الانقلابية لتصحيح عملية الوحدة، وهذا التيار بحكم قرابة أحد رموزه، وهو مهيب الهندي، من الرفيق هاني الهندي، اتصل بنا وعرض الاتصال بالرئيس عبد الناصر لشرح الوضع والبحث في إمكان استعادة الوحدة على أساس عملية التصحيح. وذكر أن الرفيق هاني الهندي ذهب إلى بيروت ومنها إلى القاهرة، لبحث هذا الموضوع مع المسؤولين المصريين.

كان الاتفاق على أن يتم اللقاء في القاهرة مع هذه المجموعة لبحث الأمور مباشرة. وقد ذهب وفد ضم زهير عقيل ومحمد منصور وفايز الرفاعي، وقابلوا الرئيس عبد الناصر الذي كان حريصاً على إيضاح موقفه في ما يتعلق باستمرار التجربة حتى لا تحدث مفاجآت جديدة. كما أنه كان واضحاً كل الوضوح بأنه لا يسمح بأن تكون استعادة الوحدة مجرد عملية شكلية، ويكون هو وعملية الوحدة بكاملها مرهونين برضى هذه المجموعة من الضباط. فتوقفت هذه الاتصالات، وبخاصة أن الفريق الآخر، فريق

الدواليبي والكزبري والقدسي، المدعومين عملياً بالبعث والشيوعيين، قد ساروا في العملية الليبرالية وكرسوها كأمر واقع.

وأذكر جيداً الجلسة الأولى للبرلمان السوري، حيث كان معروضاً العودة، أو على الأقل تعديل القوانين التي اتخذها الرئيس عبد الناصر في تموز/يوليو في شأن الإجراءات الاشتراكية.

في ذلك اليوم، تجمع العمال المستفيدون من إجراءات عبد الناصر في حشد كبير وتظاهرات متعددة أمام البرلمان حيث حصلت ردود فعل حقيقية لتيار عبد الناصر الاشتراكي. فكان ذلك أيضاً من العوامل التي عمقت في ذهني أهمية الصراع الطبقي.

كان موضوع شعار الوحدة عزيزاً على الجماهير، كما رأينا ذلك من خلال الحشود الجماهيرية التي كانت تؤم دمشق، وتأتي من لبنان لتحيّي عبد الناصر. لكن هذه الجماهير، مع الأسف، لم تتظاهر بقوة حين وقع الانفصال. غير أن الجماهير الكادحة من العمال حشدوا أنفسهم وتظاهروا وعملوا كل شيء ممكن احتجاجاً على القوانين التي تسلبهم الحقوق التي وفرها لهم نظام عبد الناصر.

حاول النظام الانفصالي الجديد أن ينحو منحى ليبرالياً، أي غير قمعي، وهو ما مكننا كحركة قوميين عرب من أن نستمر في نشاطنا الداخلي على نحو شبه طبيعي، بعد اتخاذ بعض الإجراءات السرية، كما مكّننا من الاستمرار في نشاطنا السياسي والجماهيري تحت شعار محاربة الانفصال واستعادة الوحدة. هذا كان شعارنا، كما أعتقد، أو استعادة الوحدة وتصحيحها.

وعلى صعيد حياتنا الحزبية الداخلية تمكنّا من الاستمرار في العمل من دون أن نغير المركز الذي استمر في دمشق. وما زلت أذكر أننا، بُعيد الانفصال، عقدنا دورة لقيادة الحركة ولم أعد أذكر كل الرفاق الذين حضروها، لكنني متأكد من حضور هاني، ووديع ومحسن، وزاهي

القمحاوي، الذي عقد الاجتماع في شقته. وأعتقد أنه صدر عن تلك الدورة تعميم داخلي نظراً إلى أهمية الموضوعات التي تناولتها. إن خللاً رئيسياً واكب تجربة القوميين العرب، هو عدم اهتمامنا بالتوثيق للاحتفاظ به. لكنني أستطيع أن أستعيد الموضوعات السياسية الرئيسية التي كانت مطروحة في وسط الحركة القيادي في تلك الفترة؛ أذكر منها ثلاثة موضوعات، أولها الشعار المركزي الذي نناضل من أجله، ولم يكن هناك أي صعوبات في تحديد موضوعه وهو «الوحدة العربية»، واستعادة الجمهورية العربية المتحدة بوصفه الشعار الرئيسي والمركزي. ولكن بعد الاتفاق على هذا الشعار، دار بيننا نقاش حول محتوى هذه الوحدة: هل ننادي باستعادة الجمهورية العربية المتحدة كما كانت من عام 1958 إلى عام 1961؟ أم ننادي بضرورة استعادة الوحدة على أسس تضمن تصحيح التجربة؟ هنا يبرز تلقائياً السؤال التالي: ما هي أسس هذا التصحيح؟ كان الاجتماع يؤيد بالإجماع ضرورة استعادة الوحدة على أسس مستفيدة من التجربة السابقة.

لم يكن هناك أي رأي يقول بالاكتفاء بشعار استعادة الوحدة من دون ربطها بأسس استعادتها. فقد كان هناك اتفاق على أن العنوان الأساسي لاستعادة الوحدة هو استعادتها على أسس ديمقراطية، ولم يكن هناك أي خلاف حول هذا العنوان؛ ولكن الخلاف تركز حول فهمنا للديمقراطية التي نريد استعادة الوحدة على أساسها. فقد كان هناك رأي أقرب إلى الفهم الليبرالي للديمقراطية، مقابل وجهة نظر تعطي الديمقراطية للقوى الطبقية والأحزاب التقدمية التي لها المصلحة في الاشتراكية. وقد كنت من أصحاب وجهة النظر هذه، كما كنت حريصاً على تمييز النضال من أجل الوحدة، واستعادة وحدة الجمهورية العربية المتحدة، واعتباره الشعار الأول من دون أن أقلل من أهمية محتوى هذه الوحدة.

هناك موضوع آخر بُحث في هذا الاجتماع القيادي هو موضوع الصراع الطبقي في ضوء حادث الانفصال، وما أفرزه هذا الحادث من موضوعات نظرية. لقد كان موضوع الصراع الطبقي موضع نقاش بين وقت وآخر داخل

صفوف الحركة. كنت أتبنّى وجهة النظر التي تأخذ في الحسبان موضوع الصراع الطبقي كعامل من العوامل، ولكنه ليس العامل الوحيد. وكانت الأحداث قبل الانفصال تمكنني بوجه عام من الدفاع عن وجهة نظري هذه. ومن المعروف أنني كنت أتميز بالقدرة على النقد الذاتي، وكذلك بالقدرة على أخذ التطورات المستجدة في الحسبان، وهذا ما مكنني من قيادة العمل في الحركة ومواجهة كثيرٍ من التطورات والتحديات.

لقد سجلنا في هذه الدورة أن موضوع الصراع الطبقي يمثل العامل الأساسي في دفع حركة التاريخ.

كان الموضوع الفلسطيني موضوعاً أساسياً آخر ناقشناه في هذه الدورة وفي الاجتماعات القيادية التي تلتها؛ فقد تلت الانفصال حالة فلسطينية تبلورت على نحوٍ لم نشهده من قبل. وأدى حادث الانفصال إلى طرح تساؤل كبير لدى الفلسطينيين يقول: ماذا عن قضية التحرير، والعودة، واسترداد فلسطين، بعد أن تعطلت تجربة الوحدة؟ ولم يعد الاستمرار في طرح شعار الوحدة كطريق لتحرير فلسطين شعاراً يجتذب الجماهير الفلسطينية. ونمت ظاهرة تعدد المنظمات الفلسطينية في تلك الفترة. أذكر مرة أن الإحصاءات كانت تظهر أن عدد المنظمات الفلسطينية كان في حدود ثمانية وثلاثين تقريباً[1]. وحين اعتُقلت في سورية بسبب نشاطي القومي ضد الانفصال، والعمل على استعادة الوحدة، التقيت بشاب صغير في ذلك الوقت من تنظيم جبهة التحرير الفلسطينية. ومن خلال الحديث

(1) لم يشهد مطلع الستينيات حدث الانفصال بين مصر وسورية فقط، بل شهد كذلك انتصار الثورة الجزائرية وانطلاقة ثورة اليمن، وهو ما انعكس على الحياة السياسية الفلسطينية، التي شهدت بدايات حركة جديدة ونشطة من أجل إعادة تنظيم شعب فلسطين، وإيجاد قواعد ومؤسسات تنظيمية جديدة، قدرها البعض بنحو أربعين منظمة وجبهة وحركة، تراوح عدد أعضائها ما بين عدة مئات وعضوَين فقط. وعلى الرغم من عدم وجود إحصاءات ومعلومات وافية عن هذه التنظيمات، فإن عددها، حتى بداية الستينيات، قد تجاوز المئة. للتفصيل انظر: صقر أبو فخر، **الحركة الوطنية الفلسطينية: من النضال المسلح إلى دولة منزوعة السلاح** (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2003).

الذي دار بيننا شعرت أني منهمك في العمل العربي بعيداً أكثر مما يجب عن هموم العمل الفلسطيني.

شهدت هذه الفترة نمواً على صعيد وجودنا الجماهيري في الساحة السورية في ظل ظروف لم تُتحْ لنا من قبل لأسباب متعددة. ففي بداية تأسيس الحركة، أقصد في الخمسينيات، كان هناك حزب البعث والحزب الشيوعي السوري، اللذان يمثلان قوى جماهيرية تلتفّ حولها الجماهير لأن هذين الحزبين كانا يعبران في حينها عن الأهداف الوطنية والاجتماعية لهذه الجماهير. وفي ظل الوحدة، لم نكن على استعداد لعمل جماهيري متميّز ومستقل عن الصيغة التي طرحها عبد الناصر، أي صيغة الاتحاد القومي. أما بعد الانفصال، فقد كانت الظروف تنادينا للعمل، وأصبحنا نشعر بأننا القوة الأولى التي تقع على عاتقها هذه المسؤولية، إضافة إلى الوحدويين الاشتراكيين وبعض القوى الناصرية المنظمة. وكان التيار الجماهيري والمناخ الجماهيري مؤاتياً جداً في ذلك الوقت. فالجماهير بحكم مصالحها، من ناحية، وحبها لعبد الناصر بوصفه القائد الذي يمثل أماني الجماهير العربية والقومية، من ناحية ثانية، كانت تلتف حول التنظيمات التي ترفع شعار استعادة الوحدة. هنا أذكر أنه أصبح لدينا امتداد في المحافظات السورية، مع أن نشاطنا كان يتمركز في الجامعة السورية كمجال نعبر من خلاله عن مواقفنا. وهذا يقودني إلى الفترة التي سُجنت فيها في سجن المزة. لقد ألقي القبض علي وأنا خارج المنزل، وهو اعتقال لم يكن ممكناً تجنبه، لأن بيتنا كان مراقباً من جانب السلطات الأمنية وكان متوقعاً مداهمته في أي لحظة. جاء الاعتقال نتيجة أنشطتنا في الجامعات، وما نقوم به من تظاهرات ونشر بيانات وغير ذلك؛ ففي إثر توزيع بيان من البيانات، حرصت سلطات الأمن يومها على تقصي آثاره، وتركزت أنظارها على أعضاء منظمتنا في الجامعة؛ وأثناء مروري برفقة زوجتي، والنزول لتفقد بعض الشباب في مكان إقامتهم، فإذا بهم يحاصرون البيت. صعدت

لتفقد الشباب ولم أعد فقد ألقي القبض عليّ وكان الوقت في منتصف الليل.

حاولت هيلدا الاصطدام مع رجال الأمن ومقاومتهم دفاعاً عني، رغم أنها كانت في الشهر التاسع من حملها، ورفضت العودة إلى البيت من دوني، لكنني أخذتها جانباً وطلبت منها العودة إلى البيت فوراً من أجل إخفاء الوثائق الموجودة فيه والأوراق والبيانات كافة التي تتعلق بنشاطي والتي قد تشكل إدانة لي عند السلطات. كان في البيت آنذاك مجموعة وثائق مهمة تحدد موقفنا وخططنا إزاء مواجهة الانفصال. توجهت هيلدا إلى البيت وكانت الساعة تجاوزت منتصف الليل، ولم يكن مألوفاً في ذلك الوقت أن تنتقل امرأة بواسطة تكسي بعد منتصف الليل. وقد نجحت هِيلدا في إخفاء هذه الوثائق المهمة إخفاءً تاماً.

بعد أقل من ساعة من إلقاء القبض عليّ وصلت قوات الأمن إلى البيت بمرافقتي للتفتيش، ولم تجد أي وثيقة يمكن أن تدينني، رغم وجود الكثير من الوثائق والبيانات التي نجحت هيلدا في إخفائها تماماً وبسرعة هائلة. كانت هذه التجربة رائعة لزوجتي شعرت يومها بالفخر والاعتزاز بها وشعرت كيف أنني أستطيع الاعتماد عليها في الكثير من المهمات الصعبة.

بعد أقل من شهرين من حادثة الاعتقال هذه، وفي أثناء وجودي في السجن، تعرفت إلى رموز وطنية سورية ناصرية، فتوثقت علاقتي بهم في فترة السجن، وبقيت على علاقة ببعضهم في ما بعد. وفي سجن المزة المشهور والشائع الصيت في سورية، زارتني هيلدا بعد أسبوعين من إنجابها لطفلتنا ميساء في أثناء غيابي. كانت تحملها لي في يومها الخامس عشر رغم حرارة تموز/يوليو، التي تصل في دمشق إلى أربعين درجة مئوية، لأتعرف إليها. وكم كانت فرحتي كبيرة وأنا أحمل ابنتي بيدي، وقد تأثرت لعدم تمكني من أن أكون إلى جانب هيلدا أثناء الوضع.

بعد خروجي من السجن، بقيت في سورية أتابع عملي بنشاطٍ ضد الانفصال. وعلى مستوى الساحة العربية كان عملنا قائماً في المشرق تحديداً، وبخاصة في العراق والأردن والجزيرة العربية حيث قامت ثورة 26 أيلول/سبتمبر 1962، وكذلك في الساحة الليبية التي صدر عليّ وعلى الرفاق هاني الهندي، ومحسن ابراهيم، ووديع حداد فيها أحكام بالسجن لاكتشاف خلايا تعمل ضد النظام الملكي الرجعي في ليبيا في ذلك الوقت.

كانت هذه الفترة فترة نشاط مكثفة انتهت بثورة 8 آذار/مارس 1963 في سورية التي حصل فيها انقلاب عسكري قام به الضباط البعثيون بالتعاون مع الضباط الناصريين أيضاً. وقد قوبل هذا الوضع الجديد بارتياح جماهيري نتيجة اتضاح طبيعة النظام الذي ساد بعد الانفصال، بوصفه نظاماً رجعياً سلب العمال والفلاحين المكاسب التي وفرها لهم نظام عبد الناصر.

في الحكومة التي تشكلت نتيجة ثورة 8 آذار/مارس، تسلم الأخ هاني الهندي وزارة التخطيط والأخ جهاد ضاحي وزارة المواصلات واعتبرنا أنفسنا جزءاً من هذا الوضع الجديد. وكان قد سبق هذا الحدث الكبير في سورية انقلاب في العراق في شباط/فبراير عام 1963 أيضاً، فعاشت الجماهير في سورية والعراق والمشرق العربي بوجه خاص، وجماهير الأمة العربية بوجه عام، فترة انتعاش كبير رأت فيها فرصة ممكنة لتعويض الخسارة الكبيرة التي لحقت بها من جراء الانفصال.

كنا نحن بوجه خاص، ومعنا بطبيعة الحال التيار الناصري الكبير في الوطن العربي، نشعر بأن المهمة المطروحة أمام العمل القومي تتمثل بإقامة وحدة ثلاثية تضم مصر وسورية والعراق، وكانت أحلامنا تدور حول إقامة دولة عربية تستعيد مجد العرب والعروبة، وتهيئ نفسها جدياً لاسترداد فلسطين.

لكن البعثيين، وهم القوة الأساسية في سورية والعراق، كانت لهم رؤيتهم الخاصة في المهمة المطروحة عليهم، رغم أنهم لم يكن في استطاعتهم، بطبيعة الحال، أن يقفوا ضد الوحدة، كونها التيار الجارف في صفوف الجماهير. وفي رأيي أنهم كانوا يريدون توحيد هذه الأقطار الثلاثة لكنهم في الوقت نفسه كانوا يريدون أن تتم الوحدة على أساس الاحتفاظ بحصتهم ودورهم الأساسي في سورية والعراق. هذه المشكلة هي التي عطلت الأحلام الكبيرة والفرصة الثمينة التي كانت متاحة أمام الأمة العربية.

بدأت في القاهرة[2] محادثات رسمية بين وفود من سورية والعراق ومصر، وكنا كحركة ممثلين فيها بقوةٍ. وهذه المحادثات مسجلة في وثائق نشرتها مصر على ما أعتقد حرصاً منها على أن تكون وجهة نظرها مفهومة من جانب الجماهير العربية[3]. ولا شك في أن وجهة النظر المصرية كانت تحمل نقطة قوة أساسية خاصة، حين كان عبد الناصر يوجه من خلال النقاش أسئلة أساسية للوفدين السوري والعراقي من نوع: كيف تفهمون الاشتراكية، وما هي الاشتراكية، وماهي الديمقراطية، وماذا لو حصل خلاف في الرأي بين وجهات النظر حول هذه الموضوعات، وكيف تحسم الأمور لو حصلت خلافات في الرأي؟ ومن الذي يضمن عدم حدوث انقلابات تهدد مصير الوحدة؟

كان عبد الناصر يستند إلى تجربة الانفصال لدعم وجهة نظره في ما يقول، بمعنى أنه رغم حماستنا جميعاً للوحدة وضرورة إنجازها، إلا أننا لا نستطيع أن نقرها ونتبناها رسمياً تجنباً لأي مخاطر. وكنا في الوقت نفسه كحركة قوميين عرب، نتفهم جوهر الفكرة التي تتحدث بها وفود البعثيين

---

(2) عقد اللقاء في القاهرة بين وفود مصر وسورية والعراق يوم السبت الموافق للسادس من نيسان/أبريل 1963 واستمرت حتى يوم الأربعاء الموافق للسادس عشر من ذلك نيسان/أبريل 1963 وصدر عنها بيان إعلان «الوحدة الاتحادية بين الأقطار الثلاث».

(3) ما يقصده الدكتور حبش هنا هو: **الوثائق العربية، 1963** (القاهرة: مصلحة الاستعلامات، 1963)، رقم 68، ص 486 ـ 500.

في سورية والعراق، والتي تتعلق بموضوع الديمقراطية، وضرورة إفساح المجال أمام الحياة الحزبية في تجربة الوحدة الجديدة. إن أي دراسة معمقة لتجربة الانفصال، تطرح موضوع الديمقراطية والحياة الحزبية.

من هنا تحدد موقفنا من هذه المفاوضات. وهذا الموقف كنا نمارسه كقيادة ليس من خلال المداخلات العلنية، التي كانت قليلة ونادرة، بل من خلال الأنشطة والاتصالات التي كنا نقوم بها مع الأطراف كافة، وبخاصة مع الوفد المصري والرئيس عبد الناصر بالذات. أذكر أنه كان هناك لقاء شبه ليلي بيننا في محاولة لإنجاح هذه المحادثات رغم الصعوبات التي بدأت تتبلور بوضوح. وأعتقد أن واجبي كان أن نحدد بوضوح أننا لم نكن حياديين في ما يتعلق بهذا الخلاف، فقد كنا نرى أن عبد الناصر هو الرمز القيادي الوحيد الذي يستطيع قيادة هذه المرحلة التوحيدية المقبلة بما تحمله من آمالٍ كبار. لكننا في الوقت نفسه كنا نحاول أن نطرح في لقائنا مع عبد الناصر ضرورة إعادة النظر في تجربة الانفصال، وما تحمله هذه التجربة من دروس، والثغرة الأساسية التي كانت تحملها في صيغة الاتحاد القومي والاتحاد الاشتراكي التي لم تنجح في تعبئة الجماهير وإشراكهم في هذه التجربة. وكذلك كان لا بد رؤية جديدة للإضراب والحياة الحزبية تختلف عن الرؤية التي تشكلت لدى عبد الناصر من خلال مواكبته الحياة الحزبية في مصر في عهد الملكية.

لقد حرصنا على أن تكون علاقتنا بعبد الناصر صريحة جداً ومبدئية، وفي الوقت نفسه كنا نطرح انتقاداتنا أمامه بروحية رفاقية يتحسّس من خلالها عمق احترامنا له، وعمق حماستنا للأهداف القومية التي تشكل قواسم مشتركة بينه وبيننا. وقد عبر عبد الناصر في لقاءاتنا معه عن تقديره لهذا النمط من العلاقة، وسجّل في الوقت نفسه نفوره من نمط العلاقات التي يلمسها مع قوى أخرى تبدو في اللقاءات متفقة معه على كل شيء، ولكنه يلمس في ما بعد من خلال الصحف، أو من خلال التقارير، وأحياناً من خلال المواقف، أنها ليست صادقة في علاقاتها به.

وأثناء محادثات الوحدة الثلاثية تلك، فوجئنا بأن عبد الناصر يذكر ذلك علنا، وبحضور الأطراف كافة، وقد اعتبرنا ذلك إطراء سعدنا به سعادة كبيرة.

لكن، مع الأسف الشديد، لم تتوصل محادثات الوحدة الثلاثية إلى نتائج ملموسة، أي إلى قيام وحدة تضم مصر وسورية والعراق. وفي هذه الأثناء وفي يوم 18 تموز/يوليو تحديداً من العام نفسه، أي عام 1963، حدث انقلاب ناصري في سورية قاده الضابط جاسم العلوان من دير الزور، وقامت كتيبة الفدائيين الفلسطينيين بدور أساسي في هذا الانقلاب. ولدى فشله، واجهت سورية حمامات دم. فعشنا على مستوى أمة وعلى مستوى شخصي أحلك لحظات حياتنا، إذ انتصبت المشانق، وأذيعت البيانات، وصدرت قائمة احتوت على أسماء نحو خمسين شخصاً، كان اسمي من بينها، لتنفيذ حكم الإعدام بهم!

في الحقيقة، لم يكن هذا الانقلاب من صنع حركة القوميين العرب، ولم تكن الحركة شريكاً أساسياً فيه. صحيح أننا، كقوةٍ سياسية موجودة في سورية وفي الوطن العربي، كنا على علم ببعض الانقلابات العسكرية التي كان يفكر فيها البعض، ولكن يوجد فرق كبير بين أن يكون انقلاب معين من صنعنا وتخطيطنا، أو أن نكون من المشاركين فيه، وبين أن نكون على علم به. فقد شهدت الساحة السورية في 18 تموز/يوليو غلياناً شديداً. وكان تعثّر محادثات الوحدة الثلاثية يوحي بأن الناصريين من الجيش السوري لا يمكن إلا أن يتحركوا لتلمسهم بأن الجماهير تؤيدهم، فكنا نتوقع هذا الانقلاب.

إن فشل الانقلاب، والجو القمعي الذي ساد بعده، فرض علينا أجواء داخلية صعبة. فالبعض من كوادرنا الفلسطينية والسورية اعتقل في سجن المزة، وأصبح يعاني الصعوبات التي عاناها المعتقلون كافة في ذلك الوقت. وفوجئت بذهاب بعض القياديين المركزيين، مثل هاني الهندي

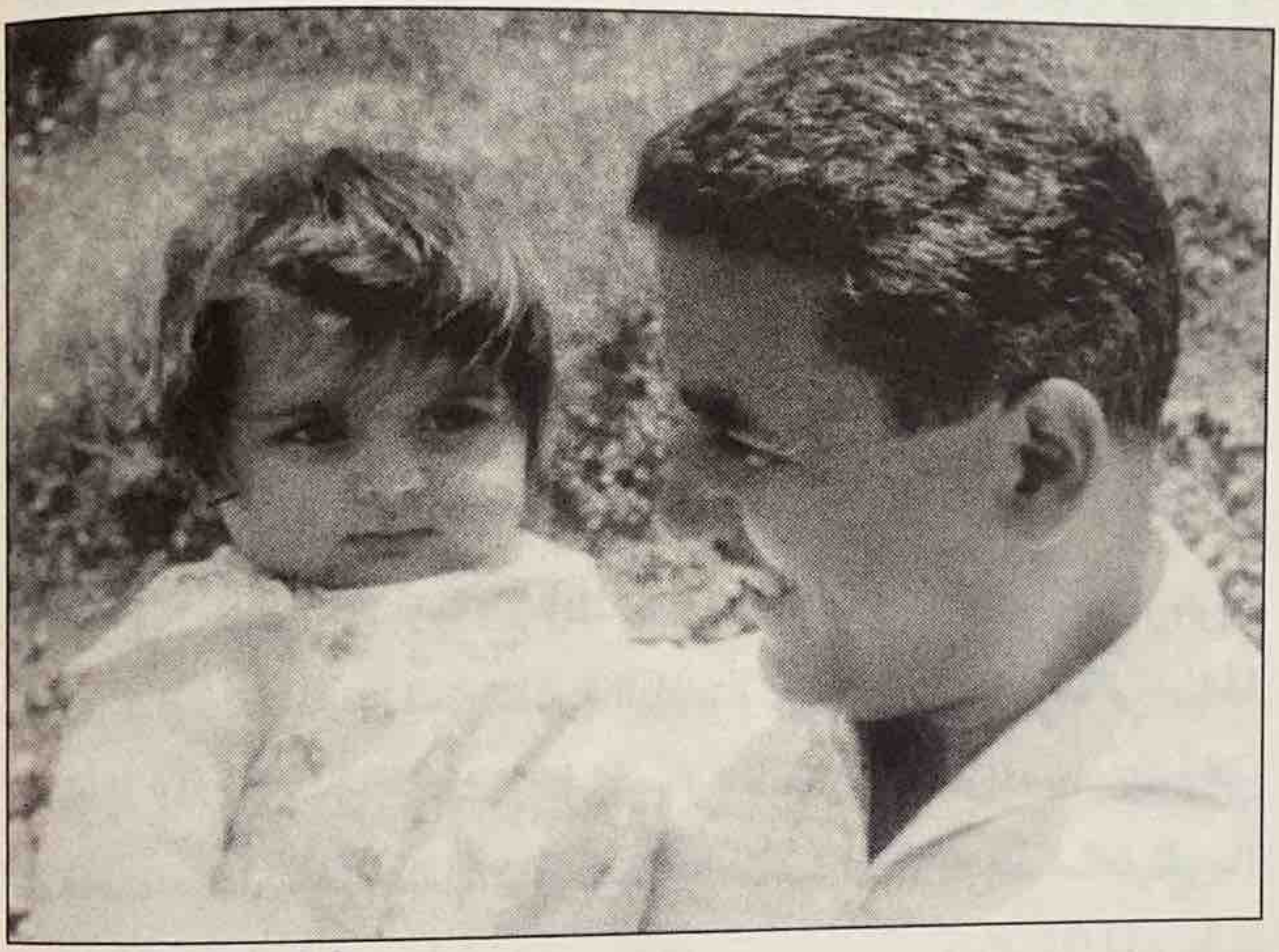
والحكم دروزة، إلى بيروت من دون إعلامي بذلك؛ أما أنا فقد اختفيت في ظروف صعبة جداً منذ 18 تموز/يوليو 1963 حتى نهاية شباط/فبراير 1964 ثم انتقلت بعد ذلك إلى لبنان. ما زلت أذكر شاباً وسيماً من حماه من قيادة الحركة بقي على اتصال بي رغم الظروف الخطرة اسمه غسان برازي، وهو من الرفاق الأوفياء ومن القلة القليلة الموثوق بها. كان يتردد علي وشكّل صلة وصل بيني وبين الرفاق الآخرين في تلك الظروف الصعبة. ما زلت أشعر بالأسف لوفاة هذا الرفيق العزيز لاحقاً في الكويت وهو في ريعان الشباب في نوبة قلبية مفاجئة.

كانت فترة الاختفاء فترة صعبة في حياتي، سواء على الصعيد الشخصي أو على صعيد بعض المعارف الذين لا يمكن أن أنساهم، أو على صعيد العمل ومسؤولياتي الحزبية في تلك الفترة.

على الصعيد العائلي، كانت لهذه الفترة من الاختفاء خصوصيتها، لأني قمت بالاختفاء في البناء نفسه الذي كنت أسكن فيه أساساً مع عائلتي، وهذا الظرف مكنني من أن أرى زوجتي وابنتي ميساء يومياً تقريباً. لكن المشكلة التي برزت هي أن ميساء أصبحت تعرف مكان اختفائي، وهو ما جعل وجودي مهدداً بالانكشاف. وقد وجدنا ضرورة حل هذه المشكلة عن طريق تجنّب إحضارها مع والدتها والقول لها إن بابا لم يعد موجوداً. وكنت أكتفي بمشاهدتها من خلف النافذة (من خلال الأباجور) في ساحة قريبة، إذ كانت زوجتي تتمشى كل يوم في الحديقة المحيطة بالمنزل وهي تصطحب ميساء وهي طفلة في عربتها الصغيرة لمدة نصف ساعة تقريباً. وبهذه الطريقة فقط كنت أرى ابنتي آنذاك.

كانت زوجتي تواجه صعوبات كبيرةً لتأمين كل متطلباتي الأساسية، بما فيها استمرار الاتصالات الحزبية وبخاصة في ظروف بالغة الصعوبة، ولا سيما أن المبنى كان مطوّقاً من جانب قوات الأمن التي كانت تفرض حصاراً عليه لتشديد المراقبة. كنت أشعر دائماً بالعبء الكبير الملقى على

عاتق هيلدا وهي تقف وحدها من دون مساندة وسط هذا الجو المتلبد بالمخاطر، فقد كانت هي صلة الوصل الأساسية بيني وبين الرفاق والعالم الخارجي. غير أن المهمة التي كانت تثقل علينا جميعاً، وعلى زوجتي بوجه خاص، هي مهمة الأمن؛ فأنا مطلوب للإعدام، وأي خلل في شأن الإجراءات الأمنية كان يمكن يؤدي إلى كارثة بالنسبة إليها. ذلك أنه كان عليها أن تراقب بحذر شديد أي تحركات تثير الشبهة، كما كان عليها أن تراقب تصرفات ميساء الصغيرة التي كان لها من العمر سنة واحدة تقريباً عند بداية الاختفاء، وبدأت مع الوقت تدرك مكان إقامتي، وأصبحت تنادي أمها لتأخذها عند «بابا» وأصبحت تعرف أن «البابا» قريب منها ولا تستوعب كيف أنها لا تستطيع أن تراه متى تشاء.



الحكيم مع ابنته ميساء

لعل أكثر المواقف حرجاً مما واجهناه خلال هذه الفترة هو يوم فوجئنا جميعاً بتطويق قوى الأمن للمبنى، وبكثافة عدد هذه القوات، وكان من الطبيعي جداً لزوجتي وللجيران الذين كنت أقيم في شقتهم، أن يظنوا أنني

أنا المعني بالأمر. لقد كانت لحظات عصيبة جداً. وتبين لنا في ما بعد أن قوى الأمن كانت تبحث عن ضابط ناصري كان متهماً بالعملية الانقلابية التي حصلت في 18 تموز/يوليو. وكانت المفاجأة حين اكتشفنا أن هذا الضابط الذي كانت تبحث عنه قوى الأمن هو جارنا الذي يسكن في الشقة المجاورة لنا وفي الطابق نفسه. لكنهم لم ينجحوا في إلقاء القبض عليه رغم أنهم كمنوا له داخل منزله بضعة أيام، هو ما زاد في تعقيد أمورنا الأمنية، إذ إنهم أخذوا يفتشون كل من يصعد إلى المبنى، وبوجه خاص إلى الطابق الذي كنت أختفي فيه.

هذا الحادث لم يكن الوحيد، فقد سبقه في بداية الأحداث عملية تطويق المبنى لإلقاء القبض عليّ شخصياً، وكانت تصرفاتهم استفزازية، حيث تم تفتيش المنزل تفتيشاً دقيقاً وبأسلوب همجي، لكنهم فشلوا في نيل مطلبهم بالحصول على أي وثائق. ولا بد هنا من ذكر حالة المواطنين بوجه عام؛ فقد كانوا مؤيدين لعبد الناصر وللشعارات والأهداف التي يرمز إليها، فلم تكن حادثة ترحيب جيراننا باستقبالي حالة فريدة في نوعها. فما زلت أذكر القصة التالية التي روتها لي زوجتي: في العمارة نفسها كانت تسكن امرأة لها سبع بنات شابات، وصبي واحد صغير السن، وهي عائلة محافظة تضع الحجاب. هذه المرأة أتت لزيارتنا بهدف عرض مساعدة علينا، وقالت لزوجتي بالحرف الواحد: إنني أعتبر الدكتور بمثابة أخي وأقدر دوره النضالي وموقفه من الانفصال، وعليّ أن أحميه، وبخاصة أن ظروف البيت عندي لا تثير أي شبهات، وسيكون في أمان...

وهناك حادثة أخرى كذلك شبيهة بتلك، وهي أن أغلبية الجيران تعاونوا معنا، وبعضهم كان على علم بوجودي، فكان لهم دور كبير في تغطية تحركات زوجتي حين كانت تؤمن لي الحاجيات الأساسية، وبوجه خاص الاتصالات مع الرفاق، إذ كان الرفاق في لبنان يؤمّنون الاتصال بي بواسطة بعض الفتيات العضوات اللواتي كان مجيئهن وذهابهن إلى سورية لا يثير الانتباه كما هي الحال بالنسبة إلى الرفاق الآخرين.

في هذه الفترة توثقت صلتي ببعض الرفاق الذين تسلموا مسؤولية العمل في سورية، وكذلك بعض الرفاق الذين كانوا يؤمّنون لي هذه الاتصالات المحلية. لا أريد هنا أن أعدد الأسماء، لكنني لا أستطيع إلا ان أمر على ذكر الرفيق خالد أبو عيشة، الذي توثقت علاقتي به أكثر ما يكون في هذه الفترة بالذات، فهو الشهيد الأول لشباب «الثأر»، التنظيم الذي يشكل العمود الفقري لحركة القوميين العرب فرع فلسطين، وكان ذلك عام 1964، أي قبل الانطلاق الرسمي للثورة الفلسطينية.

خالد أبو عيشة من قرية في شمال فلسطين[4]، تفاعل مع الفترة الناصرية وما أثارته تلك الفترة في نفوس الجيل العربي الفلسطيني الناشئ في منطقة الـ48 من فلسطين. وقد دفعته تلك المشاعر بحكم صغر سنه إلى محاولة الالتحاق بجيش عبد الناصر الذي يستهدف تحرير فلسطين، كما كان يعتقد. وحين وصل مُتسللاً إلى منطقة جنوب لبنان، اكتشفه شباب الحركة، فانتقل من خلالهم إلى سورية، وكانت قيادة سورية الفرع الفلسطيني، قد وضعته تحت تصرف مركز الحركة في دمشق حيث التقيت به؛ فوجدت نفسي أمام إنسان في غاية الصدق والحماسة والإخلاص والنبل، والرغبة الجارفة في العمل. وقد توثقت علاقتي به كثيراً حتى أصبح جزءاً من العائلة ومن أحب الناس إلى قلوبنا جميعاً.

---

(4) ولد الشهيد خالد أبو عيشة عام 1941 في قرية السكر قضاء عكا. انضم مبكراً إلى منظمة «شباب الثأر»، واستشهد في الثاني من تشرين الثاني/نوفمبر 1964 وهو يعد الشهيد الأول لحركة القوميين العرب.

8 - ثورة اليمن والعلاقة مع الرئيس جمال عبد الناصر

في ذلك الحين، أصبح من الطبيعي أن ينتقل مركز عمل حركة القوميين العرب إلى بيروت، فقد أصبح فيها هاني، والحكم، ووديع، إضافة إلى محسن إبراهيم، ومحمد كشلي، ونايف حواتمة، وهذان الشخصان الأخيران، أي محمد كشلي ونايف حواتمة، كانا قد انتقلا إلى القيادة المركزية في الفترة الأخيرة، وكذلك غسان برازي على ما أعتقد.

ومن خلال الرسائل التي كانت تصل من بيروت، وصلني أن هناك بين أعضاء قياديين في الحركة مداولات تدور حول قضايا أساسية أثارها خطاب عبد الناصر حول وحدة أداة الثورة. وتذكرت حينها طبيعة النقاش الذي دار في المركز في دمشق، أثناء وجودي في الأردن حول حل الحركة، كون عبد الناصر يمثّل قيادة القومية العربية، وبالتالي لا مبرر لوجود الحركة ما دام عبد الناصر أخذ على عاتقه تحقيق الأهداف التي قامت الحركة من أجلها.

في ضوء ذلك، وفي ضوء دوري كمؤسس للحركة، أصبح من الطبيعي أن أقوم بترتيب عملية انتقالي إلى بيروت، وأذكر أن ذلك قد تم في الأشهر الأولى من عام 1964، لأنني أذكر جيداً أنني قضيت عيد الميلاد، 25 كانون الأول/ديسمبر 1963، مع عائلتي في بيتنا في دمشق، رغم ما حمله ذلك من مغامرة أمنية وخطر.

ما زلت أذكر الطريق الجبلي الوعر الذي سلكته تهريباً إلى لبنان في فصل الشتاء القارس، حيث كانت الثلوج تغطي الجبال. وكان عليّ أن أشق طريقي بصعوبة وسط الثلوج المتراكمة، وكانت تلك السنة من السنوات التي تراكمت فيها الثلوج أكثر من المعتاد. لكن شعرت بالراحة حين قال لي الرفاق الذين رافقوني في هذه الرحلة إنني اجتزت الخطر وأصبحت الآن على الأرض اللبنانية.

بقيت زوجتي مع ابنتنا ميساء في دمشق إلى حين اطمأنت إلى وصولي، وبعد ذلك بدأت بترتيب أمورها للانتقال والالتحاق بي في لبنان.

كانت تربطني بالدكتور وديع حداد علاقة خاصة، وقد فهمت منه بعد تفاعلي معه منذ وصولي، أنه غير مرتاح للأوضاع العامة في الحركة. فهو عملي جداً، ومشدود دائماً إلى العمل النضالي، كما هو مشدود إلى نموّ الحركة، وبوجه خاص إلى الفرع الفلسطيني فيها. وكان على رأس اهتماماته التدريب وبدء التفكير في إرسال دوريات استطلاعية من لبنان إلى منطقة الجليل في فلسطين. كما كان يبدو في غاية الضيق حين يجد أن بعض الرفاق القياديين ينصبّ تفكيرهم واهتمامهم على ما كان يعتبره مجرد كلام. ما زلت أذكر بوضوح الاجتماع القيادي الأول الذي حضرته بعد وصولي إلى بيروت؛ فقد طرح الرفيق محسن إبراهيم في ذلك الاجتماع موضوع شعار الحركة العربية الواحدة الذي طرحه عبد الناصر، كون التجربة قد دلّت على أهمية هذا الشعار وضرورته، لأن نضالنا من أجل الوحدة يتطلب وحدة الأداة التي تناضل من أجل تحقيق هذه الوحدة. وهذا الموضوع، كما ذكر الرفيق محسن، يتطلب وجودي كون المؤسسة لا يمكن أن يُحسم مصيرها في غياب مؤسسها.

لم تكن هناك أي خلافات حول شعار الحركة العربية الواحدة، وأهميتها وضرورة العمل على توجيه جهود القوى القومية كافة لتحقيقها؛ كما أنه لم يكن هناك أي خلافات حول دور عبد الناصر القيادي في تحقيق وحدة أداة

الثورة، رغم أي ثغرات يمكن أن نثيرها نحن في ما يتعلق بهذه التجربة. لكن الخلاف تركز، من وجهة نظري على الأقل، حول تقييم دور حركة القوميين العرب؛ إذ إن الفريق الآخر، فريق الرفيق محسن، كان يطرح، ربما لتبرير وجهة نظره، تقييماً في غاية السلبية لدور الحركة. ولعل أبرز مثل على ذلك تقييم دور الحركة في اليمن وجنوبه المحتل تحديداً؛ إذ كان فريق الرفيق محسن يرى أن الحركة الوطنية التحررية في جنوب اليمن تتمثل بحزب عبد الله الأصنج وقتذاك أي جبهة التحرير، بينما تمثّل حركة القوميين العرب في ذلك الجزء من وطننا دوراً هامشياً وثانوياً، وقس على ذلك بالنسبة إلى فروع الحركة كافة كما كان يعتقد الرفيق محسن ومجموعته. كان هذا التقييم مفاجئاً لي، إذ إن النقاش والحوار الذي دار في عام 1959 وتناول خلافات في وجهات النظر داخل الصف القيادي للحركة ناقش الشعارات المرحلية والموقف من اليهودية والصهيونية، ومجموع القضايا الأخرى التي تطرقت إليها سابقاً. ليس هذا فحسب، بل إنني أذكر كذلك مشروع التقرير الذي كتبه الرفيق محسن بنفسه حول حركة القوميين العرب، وتطرق في جانب منه إلى التقييم الإيجابي الذي تمثله الحركة، وبوجه خاص قيادتها، وهكذا تركز محور الخلاف من وجهة نظري على الأقل حول هذه النقطة، من دون التقليل بطبيعة الحال من إعادة تقييم بعض النقاط التي طرحها هذا الفريق حول الناصرية.

وما زاد الأمور تعقيداً، ما كان يطرح خارج الاجتماعات من قضايا وتقييمات، إذ أُشيع في بعض الأوساط في لبنان أن الحركة منقسمة بين يمين ويسار، اليمين يمثله الفريق المؤسس، واليسار يمثله الرفيق محسن ورفاقه. وفي هذه اللقاءات التي عقدت فور وبعيد خروجي من دمشق، لم نصل إلى نتيجة. وكان الاتفاق الذي انتهينا إليه هو ضرورة عقد مؤتمر للوقوف أمام كل هذه الموضوعات. في هذه الأثناء، حضر من جنوب اليمن المحتل ثلاثة رفاق منهم قحطان الشعبي، ليطرحوا على قيادتهم، أي قيادة الحركة، نضج الظروف لبدء الكفاح المسلح ضد القوات البريطانية،

وكان بعض القبائل قد بدأ هذا الكفاح. فكان تجاوبي مع هذا الموضوع سريعاً وعن قناعة تامة. وحين بحثنا الموضوع في قيادة الحركة، اتخذنا قراراً بالموافقة والإسناد، وضرورة بحث هذا الموضوع مع قيادة عبد الناصر وفق رغبة هؤلاء الرفاق، إذ إنهم كانوا يشعرون بأن وجود القوات المصرية في اليمن الشمالي يمثّل قاعدة الإسناد المادية لهم في نضالهم من أجل طرد القوات البريطانية. وكان الرفاق الذين حضروا من اليمن قد أعدوا تصوراً لهذه العملية، ومشروعاً وبرنامجاً لها واسماً هو «الجبهة القومية»، فأقرّت الحركة هذا التوجه، وبهذا اتُخذت بادرة الكفاح المسلح التي بدأت في ردفان في تشرين الأول/أكتوبر 1963 بشكل عفوي، وبشكلها المنظم عام 1964، بينما كان تقييم الفريق الآخر، أي الرفيق محسن إبراهيم ومجموعته، سلبياً تجاه الكفاح المسلح وكانوا يرون أن عبد الله الأصنج هو من يمثل الحركة الوطنية في جنوب اليمن.

بعد مرور بضعة أشهر على وجودي في بيروت، وبعدما رتّبت زوجتي أمور انتقالنا النهائي إليها، شعرنا معاً بضرورة الذهاب إلى القاهرة لقضاء إجازة، وبخاصة بعد مرحلة ما بعد الانفصال التي عشناها في سورية وظروفها المعقدة، من اعتقالات وملاحقات وظروف اختفاء، شعرنا بعدها أننا بحاجة ملحة إلى قضاء بعض الوقت للراحة بعد فترة من العناء الشديد.

* * * *

ذهبنا إلى القاهرة بعدما أجرى الترتيبات لهذه الزيارة السيد محمد نسيم، مدير محطة الاستخبارات المصرية في لبنان، ورغم أنني شخصياً لم أتصل مباشرة بالمسؤولين في مصر، إلا أنني وزوجتي لقينا استقبالاً حافلاً، حيث تم استضافتنا في فندق الهيلتون على النيل. ورغم شوقي الشديد للقاء عبد الناصر مباشرة، فإنني فضلت أن أذكر لسكرتير الرئيس السيد سامي شرف الموضوعات التي أفكر فيها شخصياً لإخراج الثورة الناصرية من أزمتها، وتركت له تقدير هذه الموضوعات في ضوء معرفته بظروف

السيد الرئيس وأوقاته ومشاغله. وما أذكره هو أنني فور رجوعي إلى الفندق اتصل بي السيد سامي شرف وأخبرني أن السيد الرئيس يريد أن يستقبلني، وذلك في ضوء العلاقة المتينة التي أصبحت تربط حركة القوميين العرب بالجمهورية العربية المتحدة. كانت تلك الزيارة دعوة من الرئيس بمناسبة تحويل مجرى نهر النيل وإقامة السد العالي، حيث قمنا بزيارة أسوان.

كان هذا هو اللقاء الأول بيني وبين عبد الناصر. ذهبت إلى منشية البكري حيث يقيم الرئيس، وكان مكتب السيد سامي شرف ملاصقاً له. وبعد وصولي بدقائق رن الهاتف وأشار لي السيد سامي بالتوجه نحو بيت الرئيس. وحين فُتح الباب وجدت الرئيس جمال عبد الناصر يتمشى في الحديقة مع زوجته، كان بسيط الهندام بصورة تلفت النظر، وقد استقبلني بودّ وبساطة وشعرت معها فوراً بأني مع صديق قديم أعرفه منذ زمن طويل بعيداً من البروتوكول والمجاملة.

استهل الرئيس حديثه بالترحيب بي، والاستفسار عن صحتي، ثم سألني: ما هي الأخبار؟ وحين ذكرت له أنني كنت في سورية قبل مدة قصيرة، بدأ يستفسر عن أحوال الناس هناك، فذكرت له بعض التفاصيل التي تدل على تعلق الجماهير به وبقيادته. ذكرت له بعض القصص والروايات التي شاهدتها وسمعتها بنفسي، فلاحظت حينها أنه تأثر كثيراً وذكر لي أنه فكر في اللحظات الأولى من الانفصال أن يسترد الإقليم الشمالي، بإرسال قوة عسكرية إلى سورية، وتذكر قسمه بالحفاظ على وحدة الإقليمين وأنه يعرف مدى تعلق الجماهير السورية بالوحدة العربية. لكنه، في نهاية الأمر، شعر أنه لا يستطيع أن يرى عملية التصادم التي يمكن أن تحدث بين جيشين عربيين، فقرر التسليم بالأمر الواقع، لأنه على قناعة بأن الوحدة العربية لا يجوز أن تتم بالقوة، وأن الموضوع لا بدّ من أن يُترك للناس وقناعاتهم، وهو لم يقبل بعملية الوحدة ولم يُقدم عليها إلا بعدما تأكد أن الأغلبية الساحقة من الناس تريدها، وأن هذا الموضوع قد تجلّى لدى قيام الوحدة بوجه خاص.

وحين أخذت الحديث تطرقت إلى الموضوعات التي كانت في ذهني، بدأت بموضوع اليمن الجنوبي، فذكرت له موضوع ثورة 26 أيلول/سبتمبر في اليمن الشمالي، ودخول القوات المصرية لحماية الجمهورية اليمنية، وما أثارته هذه الخطوة التاريخية من تفاعلات في جنوب اليمن المحتل، وقد بلغت هذه التفاعلات حدّ أن رفاقنا بدأوا كفاحاً مسلحاً في منطقة ردفان، وهم يفكرون الآن بتطوير هذه الخطوة إلى ثورة مسلحة تستهدف تحرير اليمن الجنوبي بكامله، كما حصل في الجزائر. وفي تصورهم أن هذه الثورة لكي تنجح، لا بد من الاستناد إلى قاعدة تتمثل باليمن الشمالي والقوات المصرية هناك. وتناولت مع عبد الناصر تقديرات رفاقنا حول هذا الموضوع بأكمله، أي قضية الجبهة القومية وتشكيلها، وتصوراتهم حوله، فالموضوع لم يكن بالبساطة التي يمكن أن تبدو لنا الآن. أذكر أنني قرأت قبل لقائي مع عبد الناصر تصريحاً تذكر فيه بريطانيا أنها تنظر إلى عدن كقاعدة استراتيجية لها في المنطقة كمدخل إلى باب المندب والمحيط الهندي... إلخ. أذكر ما قاله الرئيس بهذا الخصوص، حيث ذكر أن بريطانيا تساند القوات الملكية في اليمن الشمالي، وأن من المفيد التلويح لهم بأننا نستطيع أن نزعجهم ونعرقل مخططاتهم التي تستهدف القضاء على مصر وما تمثله.

لم أشعر أن الرئيس قد وافق كلياً في ذلك الوقت على رؤية الحركة بأكملها لهذا الموضوع. ولكن شعرت أنه وافق على الفكرة بوجه عام وقال بما معناه: فلنبدأ ونرَ كيف تسير الأمور، وأحال الموضوع إلى الأجهزة المعنية للمتابعة.

بعد ذلك انتقلت في حديثي إلى الموضوع الفلسطيني، الذي كان يهمني جداً ويهم قاعدتنا الحزبية وفرعنا الفلسطيني الذي بدأ يتشكل. وأذكر أنني طرحت على الرئيس في ذلك الوقت موضوع مسيرة الوحدة التي تعقدت بسبب الاستنفار الذي حصل ضدّ هذه الفكرة، وبخاصة بعدما اتضح أن محتواها هو المجتمع الاشتراكي، فأصبحت البرجوازية تقف ضد هذا التوجه، وكذلك موقف البعثيين والشيوعيين، الذين أصبحوا يعارضون الوحدة

كما يتصورها عبد الناصر. كما طرحت معه موضوع الخطر الصهيوني الذي تشعر به جماهير الأمة العربية ويهددها بالفعل. لذلك، أرى أن يصبح اهتمام عبد الناصر وتوجه القيادة الناصرية نحو التصدي لهذا الخطر الذي تمثله إسرائيل. وذكرت له أن لدينا تنظيماً في الساحة الفلسطينية، ونقوم باستطلاعات في منطقة الجليل، فلماذا لا يُعدّ هذا العمل هو الحلقة المركزية لنا ولكم في ساحة المشرق العربي؟ فكان جواب عبد الناصر أنه يدرك حساسية وثقل الموضوع الفلسطيني على الجماهير العربية كلها. ولكن موضوع إسرائيل موضوع معقد على نحو أكبر كثيراً مما يظن الكثيرون. وهو حين ذكر في كلام سابق علني أن ليس لديه مخطط محدد في هذه المرحلة للتصدي لإسرائيل، كان يعني ذلك فعلاً، ولم يكن من باب المناورة، وقال: إن التصدي لإسرائيل معناه التصدي للولايات المتحدة الأمريكية، ودور إسرائيل في المنطقة العربية بالنسبة إلى الإمبريالية دور مركزي وأساسي، وهذا الموضوع يختلف كلياً عن موضوع اليمن أو موضوع الجزائر، وهو قد نظر إلى إسرائيل باستمرار في ضوء هذه القناعة والرؤية.

كان طبيعياً ألّا أستسلم لهذا الطرح، لذلك استمر النقاش وكانت النتيجة التي توصلنا إليها هي الاتفاق على متابعة موضوع الإعداد والاستطلاع في مناطق الـ 48 وتحديد أهداف معيَّنة، على أن يؤجل البدء بالإعلان أو بالقيام بعمليات في الداخل إلى لقاءات أخرى، في ضوء متابعة النقاشات في هذا الموضوع الخطير وفي ضوء الأوضاع العربية والعالمية بوجه عام.

وفي نهاية هذا اللقاء الأول مع الرئيس عبد الناصر، وبعدما طال النقاش لساعات طويلة، دعاني إلى العشاء في تلك الليلة وكان الطعام عادياً نظراً إلى أنه كان ينظر إليّ كصديق مقرب من دون تكليف، وطلب مني أن آكل المانجا، وحين وجدت صعوبة في أكلها نظراً إلى أننا لم نألفها في فلسطين، ابتسم وأخذها مني وساعدني على تقطيعها بطريقة خاصة، أي على الطريقة المصرية. أذكر تلك الحادثة لأني شعرت يومها كم كان هذا القائد العظيم إنساناً عفوياً وبسيطاً.

وفي هذه الزيارة للقاهرة وجه الرئيس عبد الناصر لي ولزوجتي دعوة من خلال مدير مكتبه السيد سامي شرف إلى زيارة السد العالي في أسوان قبل تحويل مجرى نهر النيل إلى بحيرة أسوان ببضعة أيام، وتجولنا داخل الأنفاق الضخمة فكان المنظر رائعاً ومثيراً، حيث رأينا العمال والخبراء السوفيات. وصادف أن رافقنا في الرحلة نفسها الصديق صدّيق شنشل من العراق، والشهيد غسان كنفاني، وعدد آخر من المدعوين. وقد تمت الرحلة بالقطار السريع المجهز للرحلات الطويلة، وكان في غاية الراحة. ما زلت أذكر أنا وزوجتي تلك الزيارة التي كانت بالنسبة إلينا زيارة تاريخية.

وقد دعاني الرئيس عبد الناصر فيما بعد في عام 1966 لحضور حفل زفاف كريمته هدى والذي اقتصر على عدد محدود من المدعوين، أذكر كان من ضمنهم السيدة أم كلثوم والمطرب عبد الحليم حافظ.

لم تطل الفترة بين لقائي الأول ولقائي الثاني مع عبد الناصر. فبعد أشهر قليلة، أي ما بين شهرين وثلاثة، جاء رفاقنا في اليمن الجنوبي، وكانوا يحملون معهم أنباء انتشار ظاهرة الكفاح المسلح في الجنوب. فبعد بدء الكفاح المسلح في منطقة ردفان، أصبحت هذه الظاهرة ممتدة إلى منطقتي الضالع ويافع بأسرهما، وإلى مناطق أخرى، بحيث أصبحوا يحلمون بامتداد هذه الثورة لتشمل مناطق الجنوب كافة في ذلك الوقت، لتؤدي إلى طرد كامل للقوات البريطانية في ذلك الجزء من اليمن. وهذا كان يتطلب زيادة الدعم التسليحي من القوات المصرية، كما كان يتطلب زيادة عملية التنسيق السياسي والعملي.

وكان لنا تنظيم في منطقة عُمان، وتحديداً في ظفار، في تلك السلطنة التي كان يحكمها سعيد بن تيمور والد السلطان قابوس... وكانت السلطنة في ذلك الوقت تقع تحت حكم جائر. وكنا حين يروي لنا رفاقنا قصص النظام والحكم نندهش ونستغرب كيف يمكن أن يكون هناك أناس يعيشون

في ظل هذه الأوضاع في القرن العشرين[1]. وكان مسؤول منطقتنا في ظفار في ذلك الوقت محمد الغساني، الذي كان يعمل في الكويت، فنُظم من خلال رفاقنا هناك. وحين بدأت الثورة في جنوب اليمن شعر ورفاقه الذين يعملون في منطقة عُمان وظفار أن الظروف قد نضجت كذلك لبدء الكفاح المسلح في السلطنة. على هذا الأساس كان لقاؤنا مع عبد الناصر يستهدف بحث تطورات مسيرة الكفاح المسلح في جنوب اليمن، وكذلك فكرة بداية الكفاح المسلح في منطقة عُمان، وتحديداً في ظفار، حيث تم تأسيس «الجبهة الشعبية لتحرير ظفار»[2]. في هذا اللقاء لم أكن وحدي، بل كان معي الرفيق هاني الهندي والرفيق محسن إبراهيم.

لم أعد أذكر بالضبط الموضوعات التي نوقشت بيننا في هذا اللقاء، ولكن ما أذكره أن عبد الناصر أبدى ارتياحه لنمو ظاهرة الكفاح المسلح وأحال التفاصيل العملية إلى الجهات المعنية. أما بالنسبة إلى موضوع ظفار فقد طلب إلينا أن نبحث فيه مع السيد زكريا محيي الدين، فذهب الرفيق محسن مع محمد الغساني الذي كان يرافقنا للقاء السيد زكريا محيي الدين، نائب رئيس الجمهورية في ذلك الوقت. فتم الاتفاق على بدء إسناد العمل المسلح في هذه المنطقة، ولكن بشيء من عدم الحماسة والمراهنة على إمكان نجاح هذا الموضوع.

* * * *

(1) تقدير الدكتور حبش هذا عن حالة عُمان حينها يتفق مع أهم الدراسات الأكاديمية وورد توصيف مشابه في بيان إعلان الثورة في ظفار في التاسع من حزيران/يونيو 1965. انظر مثلاً: Fred Halliday, *Arabia Without Sultans* (London: Penguin, 1974).

(2) أعلن بيان بداية الثورة وتأسيس «الجبهة الشعبية لتحرير ظفار» في التاسع من حزيران/يونيو 1965 عقب اجتماع شعبي. وظفار هي جيب استوائي على السواحل الجنوبية للجزيرة العربية ضمن وجزء من عمان التي كانت مستقلة اسميا حينها بسبب الاستعمار البريطاني. لهذا كان نضال الجبهة الشعبية ضد الاستعمار الإنكليزي إضافة إلى النظام القائم. انظر: المصدر نفسه.

ولعل أبرز ما أتذكره بالنسبة إلى عام 1964 هو الاجتماع الموسع الذي عقده كوادر الحركة لبحث الأزمة، حيث كان محسن إبراهيم ونايف حواتمة ومحمد كشلي ورفاق آخرون يدعون إلى حل حركة القوميين العرب والانضمام إلى الاتحاد القومي. وقد حضر بعض الرفاق من مختلف أرجاء الوطن العربي، من ليبيا، وشمال اليمن وجنوبه، والبعض الآخر من منطقة الخليج، وكذلك من سورية والعراق ولبنان والأردن وفلسطين. وقد أعددت يومها هيكـلاً ملخصاً لوجهة نظري في الموضوعات المطروحة. وكان الرفيق محسن قد أعدّ كذلك وجهة النظر الأخرى. وفي الحقيقة، وبالقدر الـذي أردت فيه أن أكـون واضـحاً وحاسـماً بالنسبة إلى الموضوعات المطروحة، كنت في الوقت نفسه أريد للحركة أن تحافظ على وحدتها، كما سبق أن أشرت. وأذكر كيف كان بعض الرفاق الأساسيين وغيرهم الكثيرون ممن يقفون إلى جانبي ويتبنون وجهة نظري، شديدي النقد إزاء الفريق الآخر، وكيف كانوا ينظرون إليه جاحداً لنضالات الحركة، ومسيئاً لها، وظالما في تقييمها. وفي الوقت نفسه ينظرون إلى تقييم هذا الفريق للناصرية على أنه مبالغ فيه، وتنقصه ركيزة أساسية، وهي افتقار التجربة الناصرية إلى التنظيم وإلى الصيغة الديمقراطية المناسبة. لكنني، بيني وبين نفسي، كنت مصمماً على إعادة اللحمة بين وجهتي النظر، وكنت أشعر أن ذلك ممكن. لذلك ركز الهيكل الذي قدمته على إبراز دور الحركة من دون مبالغات، وعلى إبراز نواقص التجربة الناصرية، مع الإقرار بأنها تشكل المجرى الأساسي للحركة العربية الواحدة، وبأن حركة القوميين العرب هي مجرد رافد من روافد القومية العربية بقيادة عبد الناصر. شعرت في هذا الاجتماع بأن بعض الرفاق بدأوا يعملون على شق صفوف الحركة، وهذا ما حصل فعلاً في ما بعد، فتلك كانت الشرارة الأولى للانشقاق.

انتهى هذا اللقاء القيادي بتأليف لجنة قيادية أوكل إليها الإعداد لمؤتمر قـادم يضع المؤتمرين أمام وثيقة تشدد على الناصرية كمجرى رئيسي للحركة العربية الواحدة، ولكنها في الوقت نفسه تبرز الثغرة التي عاشتها

التجربة الناصرية، وضرورة معالجتها من خلال التنظيم والاهتمام بالنواحي التنظيمية، وتحديد الدور الذي تستطيع الحركة أن تقوم به في هذا الصدد. وأذكر أن اللجنة القيادية التي أُلِّفت لبحث هذه الوثيقة وإقرارها، تمهيداً لعرضها أمام المؤتمر، كانت تضم كلاً من هاني، ومحسن، والحكم، ومني شخصياً ومن شخص خامس لم أعد أذكر اسمه.

عقد المؤتمر الذي أقرّ هذا التوجه الجديد، وكان من الطبيعي أن نتوجه إلى عبد الناصر نفسه لنطرح عليه رؤيتنا لشعار الحركة العربية الواحدة الذي نادى به، ورؤيتنا التطبيقية. وبعد ذلك توجهنا إلى القاهرة، هاني ومحسن وأنا، لنعرض هذا الموضوع. فماذا كانت النتيجة؟

استمع عبد الناصر إلينا باهتمام، وقد بدت على ملامحه معالم الإعجاب والارتياح؛ لكنه لم يناقشنا كثيراً في الموضوع الذي طرحناه، بل اكتفى بالقول: إن هذا الموضوع مهم وأساسي، لكنه يفضل أن يستمع بعضُ الإخوة في القيادة المصرية، لهذا الطرح الذي تقدمنا به، وحدّد يوما آخر للقاء، وكان ذلك اليوم يوم جمعة. كما حدد أسماء المشير عبد الحكيم عامر، وعلي صبري، وزكريا محيي الدين، لكي يحضروا ويناقشوا ويستفسروا قبل اتخاذ أي قرار.

وفي اليوم المحدّد لم يحضر إلى هذا اللقاء سوى الأخ زكريا محيي الدين؛ فقد لفت نظرنا غياب المشير وعلي صبري، مع أن سكرتير الرئيس سامي شرف ذكر لنا أن علي صبري تغيب بسبب وعكة بسيطة ألمت به، وأن المشير عبد الحكيم عامر قد تغيب بسبب طبيعة مهماته، غير أن الشك بدأ يساورنا في الجديّة التي ينظر بها هؤلاء الأشخاص إلى المشروع الذي طرحناه. ولكن، كان عزاؤنا هو ما لمسناه من اهتمام الرئيس عبد الناصر بالموضوع، وشعورنا بارتياحه إلى ما طرحناه. لم أعد أذكر بطبيعة الحال النقاش الذي دار بيننا، ولكنني أذكر الصورة العامة التي كانت وهي استمرار عبد الناصر في الإصغاء. أما السيد زكريا محيي الدين، فما أذكره أنه كان

يوجه إلينا أسئلة يحاول من خلالها أن يتأكد أنه ليس أمام مشروع تريد الحركة منه الإفادة من عبد الناصر وشعبيته؛ أي، بعبارة أخرى، محاولة تجنب تكرار تجربة مصر مع حزب البعث.

في نهاية اللقاء، ذكر لنا الرئيس أنهم سيتابعون بحث الموضوع، ولكنني أذكر بوضوح أن الحديث الذي دار بيننا، هاني ومحسن وأنا، بعد هذا اللقاء والمقارنة بالفارق الكبير بين الانطباع الذي خرجنا به بعد لقائنا الأول مع الرئيس، والانطباع الذي خرجنا به بعد ذلك اللقاء. صحيح أن الموضوع بقي معلقاً وقابـلاً للمتابعة، ولكننا شعرنا أن أغلبية القادة المصريين، باستثناء السيد الرئيس، يشككون في صدق نياتنا وتوجهاتنا إزاء علاقتنا بمصر، وبالقيادة الناصرية. ومع ذلك، حرصنا على بقاء هذه العلاقات مع مصر ومع عبد الناصر تحديداً.

كنا نتابع اللقاءات لبحث الأوضـاع العربية، وبخاصة في المشرق العربي. وكان ذلك يتم بناء على رغبتنا في بعض الأحيان وبناء على طلب من عبد الناصر حين يشعر أن هناك أمراً أو قضية يريد أن يبحث فيها أو يستمع إلى الرأي فيها، أو يستفسر عنها، كما أن موضوع جنوب اليمن المحتل كان يشكل قضية مشتركة تتطلب المتابعة بين وقت وآخر، وكذلك موضوع الصراع العربي ـ الإسرائيلي، الذي كان يهمنا نحن باستمرار.

لم تتعرض علاقتنا بالرئيس عبد الناصر للاهتزاز إلّا حين قامت أجهزة الاستخبارات المصرية بترتيب انقلاب ضد الجبهة القومية في اليمن الجنوبي. إنني أذكر يوم 13 كانون الثاني/يناير 1966، حين سمعت من الـ «بي بي سي» (BBC) خبر اندماج الجبهة القومية مع منظمة التحرير وتشكيل جبهة تحرير الجنوب اليمني المحتل ـ بقيادة المكاوي والأصنج.

وقع الخبر عليّ كالصاعقة. وفجأة توجهت إلى مكتب الحركة السري في ذلك الوقت، حيث تقابلت والرفيق هاني ومحسن وقررنا فوراً السفر إلى القاهرة لاستجلاء سرّ هذا الحدث المفاجئ.

وللإنصاف أذكر أن عبد الناصر كان قد بحث مع قيادة الحركة فكرة ظهور قوى جديدة في عدن تتصل بالأجهزة، وتطرح عليها فكرة القتال ضد البريطانيين، وأن من واجب الجبهة القومية أن تستوعب هذه القوى. لم يكن جوابنا سلبياً، بل كان يتلخص بضرورة توحيد القوى كافة التي يمكن أن تجمع على شعار التحرر ومحاربة الإنكليز، مع ضرورة التمييز بين القوى الأصلية التي بدأت الثورة، أي الجبهة القومية، وبين القوى الانتهازية التي تريد أن تلتحق بالثورة بعدما أثبتت الثورة وجودها. وكنا نذكر أن رفاقنا في اليمن الجنوبي لا يستهدفون استقلالاً شكلياً، بل استقلالاً سياسياً واقتصادياً واجتماعياً قريباً من التوجهات الاجتماعية والاقتصادية التي تنادي بها الجمهورية العربية المتحدة.

حين وصلنا إلى القاهرة، طلبنا فوراً مقابلة الرئيس، وذكرنا لسكرتيره الخاص السيد سامي شرف الموضوع الذي نريد بحثه مع السيد الرئيس. وفي ضوء الصداقة والمحبة التي كانت تربطنا بالرئيس، تعودنا أن ندخل عليه ونحن مبتسمون مسرورون. أما في هذه المرة فلم نكن فعلاً قادرين على إخفاء امتعاضنا مما حصل. وأعتقد أن ذلك كان بادياً على وجوهنا جميعاً، وبخاصة أننا علمنا أن الأجهزة قد أصبحت تمنع الرفيق قحطان الشعبي، وبعد ذلك فيصل الشعبي، من الخروج أو من مغادرة الجمهورية العربية المتحدة؛ أي فُرضت عليهما الإقامة الجبرية.

استفسرنا من السيد الرئيس عما حصل بالنسبة إلى الجبهة القومية، واستبدالها بجبهة التحرير، فكان جوابه أنه كان قد أشار لنا إلى هذا الموضوع سابقاً، وأنه فهم من عزت سليمان، نائب مدير الاستخبارات المصرية، والمسؤول عن هذه المهمة، أن رفاقنا أنفسهم في الجنوب قد وافقوا على هذا الموضوع، وأن قلة بسيطة منهم يقودها قحطان وفيصل تعارض. وفي ضوء كل ذلك، وافق على هذه الخطوة. وإذ لم يكن يعرف أننا ضد هذه الخطوة، فوجئ بموضوع الاستياء الذي نبديه، فاقترح حلاً للموضوع أن نلتقي بالسيد عزت سليمان، ونفهم منه التفاصيل، وإذا لزم

الأمر في إمكاننا أن نتوجه إلى اليمن، ونرى الأمور على حقيقتها، وبعد ذلك نعود ونفكر معاً في كيفية ترتيب ومتابعة أمور هذه الساحة.

بعد لقائنا بالرئيس، التقينا فوراً عزت سليمان، الذي ذكر لنا أسماء الرفاق القياديين الذين اتفقوا معهم على هذه الخطوة. وكان هؤلاء الرفاق هم علي السّلامي وطه مقبل، ورفيق ثالث لا أذكر أسمه. هؤلاء الرفاق كانوا بالفعل أعضاء قياديين في الجبهة القومية، ولكنهم لم يكونوا العمود الفقري في قيادة الجبهة القومية؛ فالعمود الفقري كان فيصل الشعبي في الدرجة الأولى (أي الدينامو) ثم الرفيق قحطان، كوجه سياسي معروف ومناضل بارز. وكان تقديرنا أن العملية هي من صنع الاستخبارات المصرية وأن هؤلاء الرفاق الثلاثة: علي السلامي وطه مقبل والرفيق الثالث هم الواجهة التي أبرزتها الاستخبارات المصرية للادعاء بأن العملية قد تمت بموافقة قيادة الجبهة القومية. في ضوء ذلك، طلبنا إلى الرئيس وجهاز الاستخبارات أن نذهب إلى اليمن لنشاهد الأمور على الأرض ميدانياً. وحين حطت الطائرة في مطار صنعاء، دهشت للمستوى المعيشي وطريقة الحياة البدائية. بعد ذلك أرسلنا الضباط المصريون إلى فندق هو بطبيعة الحال الأفضل في العاصمة، ولكنه لم يكن بمقياس فنادق القاهرة، بل في غاية التواضع.

منذ اللحظة الأولى لوصولنا واحتكاكنا بشباب الجبهة القومية، تأكدنا أن العملية قد تمت على نحو انقلابي. كان الرفاق الذين يحملون البنادق والذين يأتون من مختلف مناطق اليمن الجنوبي لاستجلاء ما حصل، في غاية الغضب وما زلت أذكر وجوه علي ناصر وصالح مصلح وهيثم، وسالم البيض.

كان الجو في غاية التوتر القابل للانفجار، والرفاق يطرحون شتى المقترحات للرد على خطوة الاستخبارات. أما علي السلامي، وطه مقبل والشخص الثالث، فلم يكونوا طبعاً موجودين بل متوارين عن الأنظار.

أذكر أننا اجتمعنا بهم في مكان آخر حيث شرحوا لنا وجهة نظرهم التي تتلخص بضرورة وحدة القوى كافة التي تريد أن تقاتل البريطانيين. لكنهم لم يجيبوا عن السؤال المحدد الذي كان يجب أن يجيبوا عنه، وهو: لماذا أقدموا على هذه الخطوة على هذا النحو، ومن دون أن تتم هذه الخطوة بالطرق التنظيمية بحيث يضمنون الإجماع أو الأغلبية؟

بعد ذلك، رتبت الاستخبارات المصرية التي كانت تعمل في صنعاء، تظاهرات ضد وفد الحركة، فكانت هناك هتافات للمتظاهرين ضد الحركة وضد جورج حبش وهتافات أخرى متعددة.

كان كل شيء واضحاً جداً لا يحتاج إلى أي دليل. وأعتقد أننا أدركنا في ذلك الوقت أكثر من أي وقت مضى، صعوبة التعاون أو الانسجام بين العمل الحزبي والجماهيري من ناحية وعمل الاستخبارات وأجهزتها من ناحية ثانية.

حين كنا نلتقي في داخل الغرف نحن الثلاثة: هاني، ومحسن وأنا، لم نكن نستطيع إلا أن نعبّر عن مدى امتعاضنا من هذه الصورة، وعن دور أجهزة الاستخبارات المصرية في تدمير التجربة الناصرية، وكذلك عن موضوع التيار الناصري وما يضم من تناقضات، فهو يضم قوى جماهيرية وطليعية وثورية، ويقابله تيار قوى يمينية عفنة بيروقراطية، يمكن أن تؤدي دوراً مؤثراً في تدمير التجربة الرائدة التي يقودها هذا القائد الكبير جمال عبد الناصر. كنا نعرف أن أجهزة الاستخبارات لا بد أن تكون قد زرعت أجهزة للتنصت لرصد ما نقوله حين نختلي نحن الثلاثة. وقد تأكدنا من ذلك حين عدنا إلى القاهرة، ولمّح لنا عبد الناصر بأنه قد عرف من خلال الأجهزة حقيقة الآراء والمواقف التي تمثل موقفنا. ومع ذلك لم يكن في إمكاننا إلا التحدث عن حقيقة ما حصل، والمؤامرة التي حاكتها الاستخبارات المصرية وعن طبيعة هذه الأجهزة.

لقد كنا في وضع في غاية الصعوبة، وكان علينا أن نجيب عن سؤال: ما العمل في ضوء هذا الوضع المعقد؟ فنحن نعرف طبيعة ومقدار تدخل أجهزة الاستخبارات في تقرير الأمور، وقد لمسنا أن عملية دمج الجبهة القومية في جبهة التحرير، قد أصبحت أمراً واقعاً وبدأنا نتصور ما سيكون عليه حالنا إذا اتُخذ قرار برفض الانصياع للأمر الواقع ورفض صيغة جبهة التحرير، والتمسك بالجبهة القومية. كان تصورنا يقودنا إلى شبه الصدام أو القطيعة مع عبد الناصر في ساحة المشرق، كما حصل بالنسبة إلى تجربة حزب البعث.

أما على صعيد اليمن وعلاقة فرعنا في جنوبه، فقد كان التصور يقودنا إلى أن ضرب حصار حول هذا الفرع يهدد بانقطاع كل الإمدادات التي تمكّننا من أن نؤدي دوراً فعالاً في مقارعة الاستعمار البريطاني. فوق ذلك كله، كان تفكيرنا يقود إلى التنافر والتناقض الذي سيحصل بين الجبهة القومية وجبهة التحرير، والذي ستستفيد منه بريطانيا فقط فتقضي على الثورة. فتوصلنا إلى قرار بالإجماع بالتعامل مع ما حصل بالنسبة إلى عملية الدمج بوصفه أمراً واقعاً واجتمعنا مع الرفاق القياديين في الجبهة القومية للتباحث معهم في هذا الرأي، وقد كانوا في غاية الضيق. ولكنهم لم يكونوا قادرين على مخالفة ما توصلنا إليه.

وعُقد لقاء قاعدي حضره عشرات من المقاتلين، حيث تحدثت أنا والرفيق محسن عن ضرورة التوجه نحو القتال ضد البريطانيين وخطورة الغرق في التناقضات الثانوية.

عدنا إلى القاهرة والتقينا بالرئيس عبد الناصر وبلغناه أنه ليس لدينا اعتراض على الصيغة الجديدة، أي عملية الدمج، ولكننا نريد أن تتم هذه العملية على نحو ديمقراطي. كما أننا نترك لقيادة الجبهة القومية تحديد حجم المشاركة والتفاصيل الأخرى كافة. بقيت الأمور على هذا الوضع إلى يوم ذكرى احتلال عدن. حينها اغتنم الرفاق في الجبهة القومية الذين

لم يكونوا مرتاحين بأي صورة من الصور إلى قرار الدمج، اغتنموا الفرصة وأصدروا بياناً باسم الجبهة القومية يدعو المواطنين إلى الإضراب. وجنّدت جبهة التحرير قواها الإعلامية كافة، وبخاصة إذاعات الجمهورية العربية المتحدة، لحث الناس على عدم التجاوب مع الدعوة إلى الإضراب. ولكن الإضراب حصل ونجح نجاحاً كبيراً. كان هذا حدثاً كبيراً وبارزاً غيّر مجرى الأمور في ساحة جنوب اليمن. وكان مثار تعليق إذاعات متعددة غربية. وبدأ ميزان القوى في الجنوب يختل لمصلحة الجبهة القومية. وقد حصل هذا الموضوع بإشراف فيصل الشعبي الذي استطاع أن يصل إلى عدن ويكون على رأس العمل، بعدما سافر إلى عدن بطريقة سرية فاجأت الاستخبارات المصرية.

أدرك الرئيس عبد الناصر بذكائه هذه المتغيرات وضرورة أخذها في الحسبان. فزرت القاهرة وحصل لقاء بيني وبين عبد الناصر استقبلني فيه مبتسماً، وقال لي ما معناه: إنني لم أكن أدرك أن شبابكم أو رفاقكم بمثل هذه القوة والتأثير. وبعدها عادت الأمور لتأخذ مجراها الطبيعي، حيث حصلت اليمن على الاستقلال وعادت الأمور إلى ما يشبه العلاقات الطبيعية بين الجبهة القومية وعبد الناصر. ومن المعروف أن أول رئيس لجمهورية اليمن الشعبية كان قحطان الشعبي الذي احتجزته أجهزة الاستخبارات المصرية لمصلحة المكاوي وعبد الله الأصنج.

لم يكن في إمكان مركز حركة القوميين العرب عدم تحديد موقف أثناء الفترة الاستثنائية التي أقرت فيها الحركة بقبول عملية الاندماج. لقد اتخذت حركة القوميين العرب موقفاً إعلامياً مؤيداً لخطوة الدمج. ومع أن هذا الموقف قد اتخذ بالاتفاق مع الرفاق الأساسيين كافة بمن فيهم قحطان وفيصل وعبد الفتاح وآخرون، إلا أننا جميعاً كنا نشعر بأن هذا الموضوع قد شكل عملية قهر بالنسبة إلينا. وبعد الاستقلال كان بعض الرفاق اليمنيين يأخذون على مركز حركة القوميين العرب هذا الموقف، حيث رأى بعضهم

أنه يشكل عملياً تخلياً عنهم لمصلحة استمرار علاقتنا بعبد الناصر، إلا أنهم جميعاً كانوا يحتفظون للحركة ولي شخصياً بالاحترام والتقدير.

إن موضوع اليمن وأحزاب اليمن بيّن نجاح تجربة الجبهة القومية وحركة القوميين العرب بالنسبة إلى العلاقة مع عبد الناصر، وهذا الموضوع يختلف عن تجربة البعث، فحركة القوميين العرب والجبهة القومية استطاعتا أن تميزا بين عبد الناصر من ناحية والأجهزة الأمنية من ناحية أخرى، وهذا موضوع أساسي أود إبرازه بقوة في هذه المذكرات، ذلك بأنّ تجربة البعث لم تفصل بين عبد الناصر وأجهزة الاستخبارات المحيطة به.

* * * *

مرة ثانية، تعرّضت علاقتنا بالرئيس عبد الناصر للاهتزاز ولم أعد أذكر بالضبط تاريخها. إما في عام 1966 وإما بداية عام 1967.

والسبب في ذلك كان يعود إلى فرع تنظيمنا في مصر، الذي لم يتمدد جماهيرياً، بل بقي محصوراً في القطاع الطلابي وقطاع الجامعات بوجه خاص.

وأثناء مقاومتنا حلف بغداد، تعرّض عدد من رفاقنا في الجامعة الأميركية في بيروت لإجراءات الفصل في عام 1954، وكانت مصر تقود على الصعيد العربي الحملة على الحلف المذكور. فاستقبلت جامعاتها رفاقنا المفصولين من الجامعة الأميركية في بيروت. هنا بدأ فرع الحركة بالنشاط في أوساط العرب من ناحية وفي أوساط الطلبة المصريين من ناحية ثانية. وبقي فرعنا محصوراً في إطار الجامعات. وقد وقفنا أثناء بحثنا عن شعار الحركة العربية الواحدة أمام مصير هذا الفرع واتخذنا قراراً مركزياً بتوجيه رفاقنا المصريين إلى الاندماج بالاتحاد الاشتراكي وحلّ تنظيمهم في مصر. أما بالنسبة إلى علاقتهم بمركز الحركة، فقد اعتبرناها منتهية، وبقيت الصلة بهم مثل الصلة بأي من المثقفين اليساريين المصريين الذين لم يكونوا في تنظيم الحركة أصلاً. ارتبطت هذه الخطوة بالتحليل الذي قدمته الحركة

للناصرية، وكونها المجرى الرئيسي للثورة ولأهمية التنظيم، وافتقار الناصرية إليه. وكان في الإمكان أن يسدّ هؤلاء الرفاق هذا النقص في التجربة الناصرية. وقد اتخذ هذا القرار قبل هذا التوتر في العلاقة بيننا وبين عبد الناصر.

نعود الآن إلى قصة هذا التوتر لأذكر أننا ذات يوم تلقينا من السفارة المصرية في لبنان ما مفاده ضرورة توجهنا، أنا جورج، وهاني ومحسن، إلى القاهرة لأن الرئيس يريدنا لأمر مهم. ومن عادة الرئيس أن يرسل لنا من خلال سامي شرف أنه يريد أحدنا من دون تحديد، ولكن الرسالة هذه المرة كانت تقول إنهم يريدوننا نحن الثلاثة، وبأسرع وقت، وإذا أمكن في اليوم نفسه.

ذهبنا إلى القاهرة، ولم يخطر في بالنا أننا أمام أي وضع استثنائي. وحين وصلنا إلى القاهرة، قادونا نحن الثلاثة، إلى فندق هيلتون النيل، بينما كانوا يستضيفوننا دائماً في فندق عمر الخيام (الماريوت حالياً). وتوقعنا كالعادة أن نقابل الرئيس في اليوم التالي، لكن مضت بضعة أيام من دون تحديد أي موعد للمقابلة، ولاحظنا أن سامي شرف لم يقابلنا كعادته، ولمسنا أنه يتهرب من الإجابة علينا هاتفياً. عندها بدأنا نستغرب ونتساءل عما نلمس ونرى في ضوء العلاقة الحميمة التي كانت تربط بين قيادة الحركة والقيادة الناصرية عام 1966 والرئيس تحديداً.

بعد أيام، أتى من يرافقنا لمقابلة الرئيس، وحين دخلنا استقبلنا بنوع من الفتور والرسمية، وهو ما لم نعتد عليه من الرئيس من قبل. وبعدها قال لنا ما خلاصته: إن رفاقكم المصريين الذين كانوا يعملون في الحركة سابقاً والذين اتخذتم قراراً بتوجيههم إلى العمل في الاتحاد الاشتراكي، توافرت لدينا معلومات أنهم يحاولون أن يثيروا مشاكل ونزاعات داخل الاتحاد. وبصراحة كنا نخشى أن تكون قيادة الحركة طرفاً في هذا العمل، وبقاؤكم في الفندق حتى هذه اللحظة وقبل المقابلة، كان يستهدف استجلاء هذا

الموضوع بالذات، ونحن نتقابل الآن لأننا وجدنا أنه ليس لكم علاقة بهذا الشأن. ولكن لكي أكون صريحاً معكم هناك شيء من الريبة والشك سيبقيان مؤثرين في العلاقة بيننا. وهذا الموضوع نتركه للمستقبل.

فهمنا من خلال وجودنا في القاهرة أثناء هذه الزيارة وفي ما بعد، أن أجهزة الاستخبارات قد أخذت من رفيق معيّن اعترافات بالقوة بأن قيادة الحركة هي التي تدير هذا الأمر وأن الرئيس في ضوء معرفته التاريخية بالحركة وشخوصها المخلصين قد كلّف أحد أعوانه بالتحقيق في الموضوع، وهنا ظهرت الحقيقة حيث اتضح أن الموضوع بأكمله قد أخذ بالضغط والقوة.

كنا نحرص دائماً، بعد أي هزة من هذه الهزات، أن نعود ونستعيد الصورة الكاملة للوضع الثوري في المنطقة، بعيداً من أي انفعالات. كانت تظهر معالم الصورة بوضوح: الرئيس جمال عبد الناصر، بوجوده وبخطه السياسي وفعله في الداخل، وفي الساحة العربية، يشكل حالة ثورية تاريخية تلتف حولها كل الجماهير العربية، ونحن كحركة جماهيرية لا يمكن إلّا أن نكون جزءاً من هذه الحالة.

9 ـ نكسة عام 1967 وتأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

خلال عامي 1965 و1966 والنصف الأول من عام 1967، وبخاصة بعد ما يشبه انسداد الأفق أمام عملية الوحدة العربية، وكذلك بعد الانفراج النسبي في الأزمة الداخلية داخل الحركة، بدأت أصرف جزءاً من جهدي للعمل الفلسطيني، وشكلنا في هذه الفترة نخبة تضم عدداً من المفكرين الفلسطينيين نتحدث معهم في الرؤية الاستراتيجية للعمل الفلسطيني والنضال الفلسطيني. وكان من بين هؤلاء وليد الخالدي وبرهان دجاني، وما زلت أذكر فائدة اللقاء مع مثل هؤلاء الأشخاص. كذلك ما زلت أذكر أنهما أثارا في اجتماع من تلك الاجتماعات التي كنا نعقدها من وقت إلى آخر موضوع القنبلة الذرية التي تمتلكها إسرائيل أو تسعى لامتلاكها. وكان هذا الموضوع بالذات موضع تفاعل بين قيادة الحركة والرئيس عبد الناصر.

كما أذكر أنني سمعت منهما تحليلاً يقوم على أساس أن حرب الـ48 قد ربحتها الحركة الصهيونية ميدانياً وعلى الأرض، ليس فقط من خلال العمل السياسي والدبلوماسي؛ فقد ذكروا أرقاماً عن قوة الهاغاناه ومقارنتها بقوة الجيوش العربية لم أكن مطلعاً عليها من قبل.

لم يقتصر اهتمامنا على العمل الفلسطيني على الصعيد السياسي والتنظيمي والثقافي فقط، بل تناول أيضاً مجلة فلسطين التي كان يرأس تحريرها غسان كنفاني، إضافة إلى اهتمامنا بالوقوف أمام قضايا منظمة

التحرير الفلسطينية وتحديد المواقف منها، وعنايتنا بالفرع الفلسطيني الذي أخذ يتبلور كفرع تنظيمي خاص. وركزنا اهتمامنا أيضاً على العمل العسكري، سواء من حيث التدريب أو من حيث الاستطلاع. وحين استشهد الرفاق، رفيق عساف، ومحمد اليماني، وسعيد العبد الله، وأُسر سكران سكران، كنت في تلك الفترة في القاهرة وظننت أن من المناسب إعادة طرح موضوع الكفاح المسلح على الرئيس عبد الناصر من جديد. ولم أعد أذكر تفاصيل ما حصل.

لكن عبد الناصر بقي عند رأيه حول تعقيدات الموضوع الفلسطيني والكفاح المسلح الفلسطيني وأن هذه الفكرة التي نطرحها تحتاج إلى وضع عربي أفضل كثيراً من الوضع القائم.

وحين طالب عبد الناصر بانسحاب القوات الدولية من مصر وسيناء، لم أكن شخصياً متخوفاً من الملابسات التي يمكن أن تحدث. كانت ثقتي بالرئيس عبد الناصر عميقة وكبيرة. وكنت أقدر إدراكه العميق لإسرائيل وقوتها. وفي ضوء التقدير الذي كان يعطى للقوات العسكرية للجمهورية العربية المتحدة، كان المرء لا يخشى أن تحدث الحرب إذا ما فشلت الوساطات السياسية والدبلوماسية الدولية كافة.

في صباح 5 حزيران/يونيو 1967 وقعت الحرب، ولم تشر البيانات العسكرية الصادرة من الجانب العربي بأي إشارة إلى نكسة أو هزيمة؛ وفي اليوم الثاني بدأت بعض الإشارات التي تُظهر أننا قد نكون على أبواب نكسة عسكرية خطيرة. وفي اليومين الثالث والرابع تأكد لدينا أننا أصبحنا أمام مصيبة كبيرة. وما زلت أذكر بوضوح البرقية التي وصلتني من سامي شرف بواسطة السفارة المصرية في بيروت والتي تشير علينا بمحاولة ضرب أي أهداف نستطيع ضربها داخل إسرائيل، فأجبته بأننا سنحاول بطبيعة الحال، رغم إدراكي أن ما نستطيع فعله هو أقل من القليل، لأننا كنا في بداية الإعداد للكفاح المسلح والعمل العسكري داخل فلسطين.

كانت تلك الأيام صعبة جداً، وأعادتني إلى المشاعر التي عشتها في عام 1948. حين سقطت القدس، كنت أول ما سمعت الخبر من إذاعة إسرائيل. فكان لهذا الحدث الكبير المفجع وقع الصاعقة عليّ وعلى زوجتي هيلدا، التي كانت قلقة على أهلها في القدس الذين لم نكن نعرف شيئاً عن مصيرهم ومصير شعبنا الذي أصبح تحت الاحتلال الإسرائيلي. وبهذا تمت السيطرة الإسرائيلية على الأراضي الفلسطينية كافة.

لكنني شعرت بأقصى درجات الألم في يوم السبت في 10 حزيران/ يونيو حين أعلن عبد الناصر تنحّيه عن أي منصب رسمي أو دور سياسي واستقالته من رئاسة الجمهورية. فقد كنت كعشرات الملايين من المواطنين العرب الذين يريدونه أن يبقى رئيساً ويتحدى، ويتعامل مع ذلك بوصفه هزيمة في معركة، لا نهاية للحرب.

هزيمة حزيران/يونيو 1967 وضعتنا أمام واقع جديد، سواء على صعيد الحركة أو على صعيد العمل الفلسطيني. فعلى صعيد الحركة، دعوت إلى اجتماع قيادي طرحت فيه أهم النتائج التي يمكن أن نستخلصها من هذه النكسة الكبيرة للنضال العربي.

ومن أهم الخلاصات التي سجلتها لأطرحها على قيادة الحركة، أن الجماهير وحدها هي القوة الأساسية التي تصنع التاريخ، لقد كان احترامي للرئيس عبد الناصر كبيراً وعميقاً، لكن ذلك لم يمنعني من التمييز بين احترامي لقيادته، وبين التأكيد أن الجماهير هي الأساس والقوة القادرة على الوقوف في وجه الإمبريالية وإسرائيل ومخططاتهما. وقد آلمني في تلك الفترة صدور مقال في مجلتنا المركزية التي كان يرأس تحريرها الرفيق محسن إبراهيم، عنوانه أو محتواه أن عبد الناصر لم يهزم، بدلاً من تسليط الأضواء على الاعتراف بالنكسة وتبيان أسبابها العميقة، والخروج بخلاصات أساسية تنير أمام جماهيرنا طريق النضال المستقبلي. والاستخلاص الثاني الذي كان واضحاً وحاداً في ذهني،

يتناول موضوع الكفاح المسلح الفلسطيني المستند إلى طاقات الجماهير.

لم أُلغِ دور الجيوش العربية في تحقيق أهداف الأمة العربية، ولكن الأساس في المواجهة يجب أن يستند إلى الجماهير المسلحة والمنظمة، أي حرب التحرير الشعبية، استناداً إلى التجارب العربية المتمثلة بثورة الجزائر وثورة جنوب اليمن إضافة إلى التجارب العالمية وعلى رأسها التجربة الفيتنامية.

والاستخلاص الثالث هو أهمية العمل القطري في إطار العمل القومي. فالعمل الوطني الفلسطيني أساسي جداً، إذ إن أي شعب عربي لا يستطيع أن يحقق أهدافه في التحرر والتقدم، ما لم يستند إلى المشروع الحضاري القومي الوحدوي. لكن كل ذلك لا يجوز أن يكون على حساب التركيز على العمل الوطني الفلسطيني المرتبط جدلياً بالعمل القومي، لهذا كان التشديد على أهمية العمل الفلسطيني المسلح.

وفي ضوء تحليلنا أيضاً للنكسة وأسبابها، كان واضحاً في ذهننا دور البيروقراطية في أجهزة الدولة، ونموّ شرائح برجوازية تحاول استعادة نفوذها وقوتها في المجتمع. في ضوء كل ذلك، كان المنطلق الأول والأساسي لوقفة تحليلية شاملة أمام الوضع بمجمله، وكان هناك التزام بأيديولوجيا الطبقة العاملة التي تعد الهدف الأيديولوجي الذي تنطلق منه كل هذه الخلاصات. ونظراً إلى أهمية هذه الوقفة، كان قرارنا في قيادة الحركة أن نسجل كل هذه النتائج والخلاصات في كراس جماهيري.

* * * *

هذه الخلاصات جعلتني أنتقل إلى تركيز عملي وجهدي على العمل الوطني الفلسطيني، الذي أصبح الأساس بالنسبة إليّ، من دون أن أهمل الحد الأدنى من الجهد للعمل القومي. وعلى صعيد العمل الوطني الفلسطيني، كان أول نشاط مهم قمت به هو عقد مؤتمر للكوادر الأساسية

التي يمكن أن تقوم بهذه المهمة بإيمان وحيوية وكفاءة[1]. فكان الرفاق وديع حداد، وأحمد اليماني، وعبد الكريم حمد وشخص آخر في طرابلس شمال لبنان هم النواة في هذا العمل، إضافة إلى الرفاق الفلسطينيين الذين جاءوا من مصر وأقطار عربية أخرى. في هذا اللقاء، سجّلنا أمام الرفاق الخلاصات التي قامت بها قيادة الحركة، وهي تؤكد أهمية العمل القطري الفلسطيني وضرورة تصدّي الشعب الفلسطيني لقضيته بنفسه من دون إهمال ارتباط العمل الوطني بالعمل القومي، والكفاح المسلح، والاعتماد على الشعب والجماهير بوصفها القوة الأساسية لإنجاز عملية التحرير. وقد شددنا في هذا المؤتمر، إلى جانب هذه الخلاصات، على أهمية العمل الجبهوي، أي أن تنبري القوى والتنظيمات الفلسطينية كافة لتأسيس جبهة، كما حصل في الجزائر وفي جنوب اليمن، وفي تجارب عالمية أخرى.

كان انتصار رفاقنا في اليمن الجنوبي (الجبهة القومية) على الاستعمار البريطاني حافزاً يدعونا إلى التفاؤل.

وعلى هذا، توجه الدكتور وديع كما أذكر إلى دمشق للاتصال بالتنظيمات الفلسطينية المؤمنة بالكفاح المسلح، الموجودة في سورية في ذلك الوقت. ولم يكن يوجد حينها من تنظيمات سوى فتح، وجبهة التحرير الفلسطينية، التي كان يتزعمها أحمد جبريل، إضافة إلى الصاعقة، فرع حزب البعث، الذي كان له في ذلك الوقت اسمٌ آخر، وقيادة فرع حركة القوميين العرب «شباب الثأر»[2]، وجماعة الحاج فايز «أبطال العودة».

(1) يذكر الدكتور حبش هذه الاجتماعات في أكثر من مكان، ويمكن الاعتقاد أن زمانها كان مباشرة عقب النكسة، أي في حزيران/يونيو وتموز/يوليو 1967. لكن فكرة التركيز على الساحة الفلسطينية وتأسيس فرع فلسطين بديلاً للجنة القيادية للعمل الفلسطيني كان قد بدأ في عام 1964. انظر: فؤاد مطر، **حكيم الثورة: سيرة جورج حبش ونضاله** (بيروت: دار النهار، 2008). تجدر الإشارة إلى أن فؤاد مطر أصدر هذا الكتاب بعد إجراء بعض المقابلات مع الحكيم لم تكتمل ونشرها من دون مراجعة الحكيم للنص النهائي.

(2) فرع فلسطين في حركة القوميين العرب.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية قائمة في ذلك الوقت، فاتخذت بقيادة الشقيري موقفاً سياسياً صلباً يدعو إلى عدم الانصياع للهزيمة، ولكنها كانت تركّز على العمل السياسي في المقام الأول رغم تأسيسها جيش التحرير الفلسطيني، ورغم دعمها لمجموعة أبطال العودة مادياً بهدف احتوائها. لكن تقييمنا العام لها كان أنها لم تكن من ضمن القوى الفاعلة في ثورة تستند إلى الكفاح المسلح، وكنا نعتبرها جزءاً من النظام العربي الرسمي الذي لا تستطيع أن تخرج كلياً عن إرادته.

كانت نتائج الاتصالات والمحادثات التي قام بها الرفيق وديع حداد جيدة في بداية الأمر. وعقب كل لقاء له في دمشق مع هذه الفصائل، كان يعود إلى بيروت لنستعرض معاً نتائج هذه الاتصالات. وحدث مرة أن لاحظنا محاولة من قائد الجيش الفلسطيني في ذلك الوقت، بإيعاز من الشقيري، لاحتواء شباب الثأر ومجموعة الحاج فايز لقاء مساعدة مالية. فلمست بوضوح مغزاها السياسي بوصفها محاولة لإنعاش منظمة التحرير الفلسطينية، ووقوفها في مواجهة فتح من ناحية، والفصائل الأخرى من ناحية ثانية، ومحاولة الشقيري أيضاً احتواءَ محاولتنا لتجميع الفصائل الفلسطينية المسلحة كافة في جبهة واسعة بعيدة من تدخل الأنظمة الرسمية ومن الوجوه التقليدية الممثلة برمز الشقيري. وكان من الطبيعي أن نرفض هذه المحاولة رغم حاجتنا الماسة إلى المال في تلك الفترة.

استمرت محاولتنا تأسيس هذه الجبهة التي كنا نُعدّها لبدء الكفاح المسلح في داخل فلسطين، بعد إكمال ما يمكن اعتباره برنامجاً لمثل هذه الجبهة، والأسس التي تقوم عليها من الناحية التنظيمية، وبعد استكمالنا للحد الأدنى من الاستعداد لإيجاد قواعد لهذه الجبهة داخل فلسطين، ولم يكن في حسابنا أن تطول فترة الإعداد هذه وقتاً يزيد على بضعة أشهر. حينها فوجئنا بانقطاع ممثل فتح عن حضور هذه اللقاءات في دمشق، كما فوجئنا ببلاغات عسكرية مذيّلة باسم فتح تعلن عن بدئها الكفاح المسلح داخل فلسطين، وكان صدورها في شهر أيلول/سبتمبر عام 1967.

حين راجعنا مندوبي فتح في دمشق، وكانت محادثات الدكتور وديع في دمشق مع الأخ هاني الحسن، كان جواب الإخوة في فتح أن الوحدة الفلسطينية يجب أن تتم في الميدان لا في دمشق، فكان واضحاً لنا أن الهدف كان إقامة جبهة مسلحة تخوض الكفاح المسلح ميدانياً في فلسطين وعلى نحوٍ موحد.

كان لهذه الخطوة من جانب إخوتنا في فتح آثار سلبية مع الأسف في العمل الفلسطيني مستقبلاً؛ فقد أدت هذه الخطوة، التي كان مبعثها استئثار فتح بالقيادة، إلى التأثير السلبي في الوحدة الوطنية الفلسطينية الصلبة التي كنا نعتبرها ركناً أساسياً للانتصار. وبسبب ذلك إنني أُحمِّل، ومن منطلق أخوي، قيادة فتح مسؤولية الانقسام الذي عاشته الساحة الفلسطينية طوال هذه الفترة؛ والآن نستطيع أن ندرك الآثار السلبية التي تعيشها الساحة الفلسطينية بسبب ذلك حتى هذه اللحظة.

لقد أدى هذا التسرع من جانب قيادة فتح، إلى الضربة السريعة التي استطاعت إسرائيل أن توجهها إلى بدايات العمل الفلسطيني المسلح في داخل فلسطين، الذي كان بالإمكان أن ننظمه على قواعد أمتن وأصلب.

****

كان من الطبيعي أن ينعكس هذا التطور على عملنا في قيادة شباب الثأر حيث كثفنا تفاعلنا مع جبهة التحرير الفلسطينية، وجماعة الحاج فايز «أبطال العودة» ومجموعة من المستقلين الفلسطينيين لتأسيس «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»[3] التي أُعلن بيانها التأسيسي الأول في 11 كانون الأول/ديسمبر 1967.

(3) يمكن مراجعة البيان التأسيسي للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين على الصفحة الرسمية للجبهة: <https://bit.ly/2rZO4CO>.

البيان التأسيسي الاول للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين 1967/12/11(*)

يا جماهير أمتنا العربية

ياجماهير شعبنا الفلسطيني

منذ خمسين عاماً وجماهير شعبنا تواجه سلسلة متواصلة من تآمر الصهيونية والإستعمار على هذا الوطن وحق أهله في الحرية والحياة.

خمسون عاماً وقوى الصهيونية والإمبريالية العالمية تحيك المؤامرات والإعتداءات والحروب بهدف تثبيت فكرة كيان الدولة الإسرائيلية.

وفي كل يوم من هذه الحقبة التاريخية الشاقة وجماهير شعبنا تكافح ضد كل هذه المخططات ، ولقد شهدت السنوات السابقة من حياة شعبنا الفلسطيني إستمرار لهذا الكفاح عبر عن نفسه بثورات وإنتفاضات عديدة بلورت نفسها في الفترة الأخيرة (بالعمل الفدائي) الذي مارسته طلائع هذا الشعب على الأرض المغتصبة والذي مثل رفض شعبنا الرضوخ والإستسلام والتسويات والأشكال غير الجدية من أساليب العمل السياسي ، كما مثل في الوقت نفسه تصميم جماهير الشعب الفلسطيني على أخذ زمام المبادرة لشق طريق التحرر الكامل والتي هي في الوقت نفسه طريق مسؤولية الجماهير العربية كلها.

ياجماهير شعبنا المناضل...

لقد كانت الهزيمة العسكرية التي لحقت بالجيوش العربية بداية مرحلة جديدة من العمل الثوري تباشر فيه الجماهير دورها القيادي المسؤول في مقارعة قوى الإمبريالية والصهيونية بالسلاح الذي أثبت التاريخ أنه أفعل الأسلحة لسحق كافة أشكال العدوان الإستعماري ولإعطاء المبادرة للجماهير الشعبية حتى تصوغ مستقبلها وفق إرادتها ومصالحها ، هذا السلاح الوحيد الذي بقي للجماهير حتى تعيد التاريخ ومجراه الحقيقي وحتى تستنزف إمكانات أعدائها وتهزمهم على المدى الطويل ، سلاح العنف الثوري في مجابهة العنف الصهيوني والرجعي ، والذي لم يعد هناك أمام جماهير أمتنا العربية خيار في إتخاذ خطر آخر غيره وهي تواجه عدواً شرساً يريد منها الإستسلام بلا قيد أو شرط ، إن الجماهير العربية وفوق الإراضي المحتلة إذ ترقب اليوم كافة الظروف التي أحاطت بالعمل العربي والفلسطيني قبل يوم الخامس من حزيران ، وبعده ترى إدراكاً منها لطبيعة المرحلة التي تمر بها أن الظروف الموضوعية قد نضجت إلى الحد الذي يفسح المجال لرفع شعار الكفاح الشعبي المسلح وممارسته حتى أخر مدى له في معركة طويلة وقاسية لابد أن تتحقق في نهايتها إرادة الجماهير وأمانيها.

(*) المصدر: مأخوذة من موقع الوثائق التاريخية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين: <http://pflp-documents.org/documents/PFLP-FoundingStatementArabic1967.pdf>.

إن جموع شعبنا الفلسطيني تعيش اليوم ولاول مرة منذ نكبة 1948 على الأرض الفلسطينية المحتلة بكملها وفي مواجهة عدوها المغتصب وجها لوجه ، وإننا بهذا لواجه التحدي حتى نهايته وعلينا أن نقبله أو نستسلم لمطامع العدو والإذلاله اليومي لشعبنا وامتصاصه لمقدرات حياتنا.

إن فترة التشريد خلال العشرين عاماً الماضية لم تشهد ظرفاً تقف فيه أمام غزاة الصهيونية بحيث أصبح مصير شعبنا وقضيتنا وكل إنسان فلسطيني رهن بتصميمه على قتال الغزاة من أجل الحفاظ على كرامة الإرض والإنسان.

ياجماهير شعبنا الفلسطيني النازحون في مخيمات التشريد والعزلة...

أيها الفلاحون فوق الأرض الملتهبة : أيها الفقراء الصامدون في مدننا وقرانا في معسكرات البؤس. لا طريق أمامكم غير المقاومة ولا اختيار ، ليس هناك شعار نحمله ونردده بعد اليوم سوى المقاومة المسلحة ، وليس هناك حياة لنا على أرضنا إلا من أجل الكفاح الشعبي المسلح وفي خدمة أهدافه وقتاله اليومي.

إن المقاومة المسلحة هي الإسلوب الوحيد والفعال الذي لابد أن تلجأ إليه الجماهير الشعبية في تصديها للعدو الصهيوني وكل مصالحه وتواجده ، فالجماهير هي مادة المقاومة وقيادتها القادرة من خلالها على تحقيق النصر في النهاية وتجنيد إمكانيات الجماهير الشعبية وتعبئة قواها الفاعلة لا يمكن أن تتم إلا من خلال التنظيم الثوري الشعبي ، الذي يتصدى للكفاح المسلح بقوى الجماهير المسلحة وبوعيها الكامل لأبعاد المعركة ومراحلها وبالتجنيد المستمر لكل القوى البشرية التي ترتبط بالعمل المسلحة من خلال التنظيم الثوري وبقيادته تصبح أكثر قدرة على ممارسة المقاومة والإستمرار فيها رغم كل الصعاب والعقبات ، ولذا ومن أجل توحيد قوى وطاقات الجماهير الفلسطينية على الأرض المحتلة فقد تم اللقاء الكامل بين التنظيمات الفلسطينية التالية:

منظمة أبطال العودة ، جبهة التحرير الفلسطينية بفرقها (فرقة الشهيد عبد اللطيف شرورو – فرقة الشهيد عز الدين القسام – فرقة الشهيد عبد القادر الحسيني) – الجبهة القومية لتحرير فلسطين (منظمة شباب الثأر) ، وعدة مجموعات فلسطينية أخرى على ارض الوطن ، وقد اتفقت هذه التنظيمات فيما بينها على أن توحد إمكانياتها تحت لواء (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) والتي قامت لتحقيق الوحدة المصيرية بين كل هذه القوى إدراكاً منها أن طبيعة المعركة وأبعادها أو القوى المعادية فيها تحتم تكتيل كل الجهود والصفوف الثورية لشعبنا في نضاله المرير والطويل ضد أعدائه.

إن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، وقد قامت بمبادرة فريق أساسي من القوى الثورية تتوجه في الوقت ذاته بنداء مفتوح إلى كافة القوى والفئات الفلسطينية للإلتقاء الوطني الثوري العريض من أجل الوصول إلى وحدة وطنية راسخة بين سائر فصائل العمل الفلسطيني المسلح ، إن وحدة كل المناضلين هي المطلب الحقيقي لجماهيرنا ، فالمعركة طويلة وقاسية ولا تحتمل تمزقاً في صفوف الحركة الوطنية ، ولذا فإن الجبهة الشعبية الحريصة كلياً على هذا المطلب لأنها قد قامت على

أساسه ، تقف اليوم وهي تدق بعنف أبواب المقاومة المسلحة ، ومؤمنة بأن إلتفاف الجماهير حول العمل المسلح وقواه الموحدة هو الضمان الوحيد لصمود هذا الكفاح وتصاعده حتى يصل إلى مستوى الثورة الفلسطينية بكل أبعادها ومضامينها.

ياجماهير شعبنا المناضل...

إن اللغة الوحيدة التي يفهمها العدو هي لغة العنف الثوري ، إن الكفاح المسلح هو المنهج الرئيسي الذي سيجعل من أرضنا ميداناً أساسياً للصراع الطويل الذي نخوضه ضد الإحتلال ومحاولاته لتصفية قضيتنا سواء بمحاولة تشكيل نظام حكم تابع له أو محاولات الإستيطان التي بدأها مجدداً في عدة مناطق عربية أو أستماتته في فرض حل مشين باحتلاله بعض الأجزاء من الأرض العربية ، إن القتال العنيف ضد العدو في كل أرض تطؤها أقدام جنوده هو النهج التاريخي الذي نسير فيه حتى نصل إلى مرحلة نفتح فيها أوسع جبهة ضد العدو وتتحول إلى جحيم يحترق الغزاه بنيرانه فالكفاح المسلح لا يعرف له حدوداً ، إن المقاومة المسلحة لا يجب أن تقتصر على المناضلين وحدهم ، بل أن لكل إنسان فلسطيني دروه في مقاومة العدو وعلى كل مستوى ، فلا تعامل مع العدو بل مقاطعة تامة لكل مؤسساته الإقتصادية أو المدنية أو السياسية التي يحاول خلقها ، إن شعار كل الجماهير يجب أن يكون الصمود حتى النصر ، لترسخ أقدامنا في الأرض وتمتد جذورها إلى أعماقها ، فنحن باقون على أرضنا ولن نخرج.

إن الجبهة الشعبية ومعها كل الجماهير تهتف اليوم (نموت ولا نهاجر) فهذا هو النداء الذي يجب أن نردده كل يوم ومع إنطلاقة كل رصاصة وسقوط كل شهيد ، إن الأرض الفلسطينية هي اليوم ملك لكل الجماهير ، فكل رقعة من أرضنا ملك لكل من يدافع عنها ويحررها من الوجود الغاصب ، الإنسان الفلسطيني سينشب أظافره في أرضه وصخورها ولن يتخلى عن شبر واحد منها لأنها ملك لجموع الفقراء والجائعين والنازحين ومن أجل تحرير هذه الأرض ومن أجل حق الجموع فيها يسقط اليوم مناضلونا ورؤوسهم مرفوعة.

إن الجماهير يا أبناء شعبنا البطل – هي الرئة التي يتنفس منها المقاتل ، وإنخراط الجماهير في المعركة يضمن لها النصر على المدى الطويل ، أن المساندة الشعبية للمناضلين وعلى كافة المستويات وفي كل أرض تشكل الأساس الحقيقي والراسخ لصمود قتالنا وتصاعده حتى يتم سحق العدو وتحطيم قواعده وآماله غير المشروعة ، فهذا القتال المسلح يقوم على أرض الجماهير ويدعم منها أما المتعاونون والخونة وأعداء الشعب فإن مصيرهم سيكون كمصير العدو المحتل السحق التام.

إن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وهي تقوم بدورها في تمزيق ستار الإنتظار والركود على الأرض المحتلة وتعلن تصميمها على رفض المذلة والمهانة والتسويات ، لتقف اليوم أمام جماهيرنا الشعبية واعدة إياها بأن تقدم لها الحقيقة كل الحقيقة ، في كل ما يتعلق بنضالها ومنجزاتها والعقبات الحقيقة التي تعترض العمل المسلح ، فالحقيقة يجب أن تكون ملكاً للجماهير لأننا لا نشعر بأننا أكثر غيرة من الجماهير على مصالحها وقضيتها.

إن الجماهير يجب أن تعي بشكل كامل منجزات الكفاح المسلح ومشاكله دون مبالغة أو تهويل لأنها هي الأمينة على أهداف هذا الكفاح وأمانيه وهي التي ستقدم لهذا الكفاح كل ما تملكه حتى دماء مناضليها ، إن المقاتلين على الأرض الفلسطينية يختطون اليوم طريقاً جديدة للعمل السياسي والتعامل مع الجماهير طابعه المصارحة الكاملة (وكل الحقيقة للجماهير.)

ياجماهير أمتنا العربية...

إن معركتنا هذه طويلة وقاسية ، والمقاومة المسلحة اليوم هي طليعة القتال الصامد على امتداد الجبهة العربية ، إن كل إنسان عربي مطالب اليوم بتقديم دعمه وتأييده الكامل لمسيرة القتال المسلح وحركته الضاربة على كافة المستويات فقتال الجماهير الفلسطينية فوق الأراضي المحتلة هو جزء فاعل من مسيرة الثورة العربية ضد الإمبريالية العميلة وقواها العملية، إننا في مواجهتنا لتحالف الصهيونية والإستعمار بحاجة إلى إرتباط عضوي بين كفاح شعبنا الفلسطيني وكفاح جماهير الشعب العربي في مواجهتها نفس الخطر ونفس الخصم ونفس المخططات ، ولذا فإن العمل الفلسطيني المسلح يحدد موقفه عربياً مع من يقف إلى جانب نضاله ضد من يعاديه ، كما أن كفاح الشعب الفلسطيني مرتبط مع كفاح قوى الثورة والتقدم في العالم ، فإن صيغة التحالف الذي نواجهه يتطلب تحالفاً مقابلاً تنتظم فيه كافة القوى المعادية للإمبريالية في كل جزء من العالم.

أيها المناضلون في كل مكان على الأرض الفلسطينية..

أيها العمال والفلاحون ..يا فقراء شعبنا ونازحيه .. أيها الطلاب المثقفون .. أيها الموظفون والتجار

هذه هي البداية ترفع فيها جبهتكم الشعبية رايات الفداء والصمود والتحدي . ونحن من على أرض الكفاح المسلح لا نعدكم بالأحلام الوردية ، ولكن بمزيد من القتال ، من الصمود ، من التعبئة السياسية ، من الدفاع عن الجماهير العزلاء ضد الإنتقام بكل طاقاته فالقتال الذي نخوض خطواته اليوم طويل وقاسي ومرير ، وأنتم قيادته ومادته وأصحاب الفعل الحقيقي فيه ، إن معركتنا هذه ليست بالمعركة السهلة أو السريعة ولكنها معركة مصير ووجود تحتاج إلى نفس طويل وقدرة على الإستمرار والصمود.

عاشت أمتنا العربية الصامدة

عاش شعبنا الفلسطيني المكافح

عاشت وحدة المناضلين على الأرض الفلسطينية

إننا لمنتصرون

بدأ تركيزنا على العمل العسكري بوجه خاص، لكن على الحدود الأردنية بقي مشدوداً إلى عملية تهريب الأسلحة وترتيب الحد الأدنى من الأوضاع التنظيمية، وبخاصة أن وجودنا كحركة قوميين عرب في الضفة الغربية، كان يساعدنا على ترتيب أوضاعنا التنظيمية، وعلى أن يكون هذا التنظيم نواة الجبهة الشعبية الجديدة. أذكر أن قيادة فرع حركة القوميين العرب «شباب الثأر» أرسل ثلاثة رفاق أساسيين يمكن أن يكونوا نواة للتأسيس، وهم أسعد عبد الرحمن، وتيسير قبعة، وأحمد خليفة. ولكن هؤلاء الرفاق لم يتمكنوا من العمل فترة طويلة، فقد ألقت سلطات الأمن الإسرائيلية القبض عليهم قبل فترة وجيزة من القيام بهذا العمل.

في قطاع غزة، كان وجودنا كفرع حركة القوميين العرب وجوداً ذا تأثير فعّال، إذ كان تحالفنا مع الناصرية قد ساعدنا على مثل هذا الوجود الكبير والفاعل. لذلك، باشر فرع الحركة في العمل السري والعسكري مع بداية الاحتلال. فأسس رفاقنا في القطاع جبهة للعمل العسكري وبدأوا عملهم العسكري متحالفين مع بقايا جيش التحرير الفلسطيني في القطاع.

أذكر أن تحالفنا مع جبهة التحرير الفلسطينية، التي كانت تركز بالدرجة الأولى على العمل العسكري، مكننا من توجيه ضربات للاحتلال في مناطق الـ67 ومناطق الـ48، ومنها العملية التي كانت في مطار اللد في تلك الفترة، لكننا لم نتمكن حينذاك من عملية التأسيس الصلب لعمل قادر على الاستمرار، فقد خسرنا في محاولاتنا تلك عدداً من الكوادر العسكرية، كما خسرنا عدداً كبيراً من الرفاق الذين أسرتهم إسرائيل، مثل عدنان جابر ورسمية عودة وعددٍ من الرفاق والرفيقات الذين اضطروا إلى الخروج مثل وداد قمري وآخرين.

كان هدفنا أن نمارس الكفاح المسلح من الجبهة السورية (الجولان)، وقد كان لدينا من الإخوة الرفاق والأصدقاء الذين يعرفون طبوغرافية المنطقة، إضافة إلى معرفة إخوتنا في جبهة التحرير الفلسطينية لهذه

المنطقة، وقدرتهم على الفعل من خلال هذه الجبهة. وقد نجحنا في بداية تأسيس الجبهة في شن مجموعة عمليات ضد الجيش الإسرائيلي من الحدود السورية. أما أنا فلم أذهب إلى الساحة الأردنية، بل اكتفيت بكتابة الرسائل للرفاق المسؤولين عن العمل القيادي في الساحة الأردنية.

كان من الضروري أن أبقى في لبنان وأتردد بين حين وآخر على الساحة السورية لأتابع مع الرفيق وديع الموضوع السياسي. فقد كان مطروحاً في تلك الفترة موضوع منظمة التحرير الفلسطينية، وعلاقتها بظاهرة الكفاح المسلح، وفصائل الكفاح المسلح التي شكلت ظاهرة جديدة تبشر بالأمل. ولم تكن قيادات العمل المسلح ترضى بأن تحتويها قيادة الشقيري. فدار نقاش طويل في تلك الفترة حول العلاقة التي يمكن أن تقوم بين القيادة الرسمية (قيادة الشقيري) وقيادة الفصائل. وقد انتهى الاتفاق إلى أن يتشكل المجلس الوطني المقبل بنسبة 50 بالمئة من الفصائل، مقابل 50 بالمئة من المستقلين. وكانت الفصائل في تلك الفترة تعتبر نفسها في جبهة واحدة تريد أن تنجح في تثبيت قيمة الكفاح المسلح ومساهمة الفصائل فيه من دون الغوص في موضوع نسبة تمثيل كل فصيل من الفصائل في المجلس الوطني حيث برزت قضية نسبة كل فصيل من الفصائل في ما بعد.

استقال الشقيري بسبب الوضع الفلسطيني الذي لم يكن يتحمل قيادة بعيدة من الكفاح المسلح، ثم تشكلت قيادة جديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية. أذكر حينها أن أسامة النقيب وبهجت أبو غربية كانا عضوين في اللجنة التنفيذية.

10 ـ تجربة السجن في سورية عام 1968

حصل مرة، في أثناء ترددي على سورية في تلك الفترة، أي بداية عام 1968، أن دعاني عبد الكريم الجندي ـ مدير الاستخبارات، فخطر لي أنه يحمل لي أنباءً سارة في شأن تسهيل عملية السلاح وإرساله إلى الأردن، أو في شأن التنسيق بيننا لتسهيل العمل الفدائي، ولم يخطر ببالي قط أن يحدث ما حدث. ذهبت إلى مكتب عبد الكريم الجندي، برفقة الرفيق فايز قدورة، وقد فوجئنا بانتظار طويل في غرفة الانتظار. وحين هممنا بالخروج احتجاجاً على ذلك، وإذ بهم يقودوننا إلى السجن. كانت تلك الحادثة مفاجأة كبيرة لي. لم أكن قادراً على فهمها في ظل الوضع السياسي الذي تلا هزيمة حزيران/يونيو، تلك الهزيمة التي كانت تفرض على الأنظمة في ذلك الوقت أن تخجل من نفسها، وأن تحاول استرضاء فصائل الحركة الوطنية والقومية، وأن تعمل على التنسيق مع فصائل الكفاح المسلح، لتعوّض من هزيمتها النكراء. وكنت أتساءل بيني وبين نفسي: ما الذي يمكن أن يكون وراء هذا الإجراء؟

كان المكان الذي سجنت فيه هذه المرة هو سجن الشيخ حسن، وهو سجن شهير بأنه أسوأ كثيراً من سجن المزة، وبقية السجون السياسية في سورية. وقد وُضعت وحدي في زنزانة انفرادية، وبقيت فيها طوال فترة السجن التي امتدت من آذار/مارس إلى تشرين الثاني/نوفمبر من العام

نفسه. وهذا يعني أنني بقيت في هذه الزنزانة ما يزيد على تسعة أشهر. وكان واضحاً من طريقة التعامل معي تحديداً أنهم يريدون تحطيم أعصابي. وكان من الطبيعي أن أقرر بيني وبين نفسي الصمود في وجه كل التصرفات التي تستهدف تحطيم معنوياتي، حيث منعت عني الكتب، وفرصة استنشاق الهواء الطلق المقر بها دولياً لجميع السجناء. وكان الملازم الذي يقف على نافذة الزنازين ينظر إلي بغضب شديد من دون أن ينبس ببنت شفة. كل ذلك زاد من تصميمي على الصمود. كان بعض السجناء في الزنازين المجاورة يطلبون يومياً وبرجاء شديد نقلهم إلى المهاجع، فيستجاب لطلبهم. ولكنني لم أطلب نقلي إلى المهاجع في أي يوم من الأيام طوال تلك الفترة.

كان أهمَّ ما يقلقني أمران: الأول انقطاعي عن تطور أخبار النضال الفلسطيني، وتتبع أخبار الوضع العربي بعد هزيمة حزيران/يونيو من ناحية، وموضوع زوجتي وابنتيَّ من ناحية ثانية. وكانت الجبهة في بداية عملها، وأنا حريص على القيام بواجباتي إزاء عملها في مرحلة التأسيس، إذ كنت أدرك ما ستواجهه من إشكالات كبيرة، وبخاصة على صعيد العلاقات بين أطرافها الأربعة: «شباب الثأر»، و«أبطال العودة»، و«جبهة التحرير»، و«المستقلين الناصريين»، كما كنت حريصاً كذلك على تحديد المواقف السليمة التي ستتخذها على صعيد العلاقات الفلسطينية الوطنية، حيث عملت فتح بعد تأسيس الجبهة على إقامة جبهة أخرى تتألف من فتح ومجموعة تنظيمات فلسطينية صغيرة، فهمت من هذا أنها خطوة في مواجهة خطوة الجبهة في حشد الجهد الفلسطيني، أي مشروعنا للتركيز على الوحدة الوطنية وأهميتها في مواجهة الاحتلال.

كان أهم ما يقلقني في تلك الفترة الحساسة تتبع أخبار النضال الفلسطيني.. وكنت حين أستلقي في زاوية الزنزانة، يساورني قلق شديد على أم ميساء، وميساء، ولمى، وبخاصة أنني ذهبت إلى سورية على أن أعود في نفس اليوم أو بعد بضعة أيام على الأكثر، ولم تكن طرق الاتصال

متوافرة لفترة طويلة. وفي أول فرصة توافرت لي للاتصال، كتبت رسالة حارة جداً لأم ميساء، ما زلت أذكرها جيداً، وقد احتفظت بها زوجتي حتى هذه اللحظة.

أما في ما يتعلق بتتبعي الأخبار، فقد حُلت هذه المشكلة بعد فترة من الوقت، إذ إن بعض الإخوة والرفاق المساجين حيث كان هذا السجن مخصصاً للسياسيين، كان لديهم أجهزة راديو حصلوا عليها عن طريق التهريب.

أذكر أنني سمعت خبر معركة الكرامة بعد فترة قصيرة من دخولي السجن، كما أنني أذكر الفرحة التي عمّت السجناء والمعتقلين كافة حين سمعوا بأول خبر لخطف الطائرة الإسرائيلية على يد الجبهة الشعبية، وإجبارها على الهبوط في مطار الجزائر.

في فترة السجن هذه تعرفت إلى عدد من السجناء السياسيين، ومنهم السيد عصام المحايري، إذ كان بعض المعتقلين من جماعة أكرم الحوراني وبعثيين من المناهضين للحكم القائم في ذلك الوقت. أما الأمر الذي لا يمكن أن أنساه، فهو طريقة معاملة المعتقلين من جانب الضابط المسؤول عن التحقيق في ذلك الوقت، وكان اسمه يوسف من دير الزور، وما يكيله لهم من شتائم وضرب حيث كنت أسمع آهات وأنين الذين كانوا يتعرضون للتعذيب. كنت أقول في نفسي: كيف يمكن أن ينحط أي إنسان إلى هذا المستوى من القسوة والبطش. لم أتعرض شخصياً لمثل هذا التعذيب، كما أنني لم أتعرض لأي تحقيق، بل اكتفوا بأسلوب التحطيم النفسي، إذ إنهم أجبروني على الوقوف ليلاً نهاراً لتسعة أيام متواصلة من دون السماح لي بالنوم مع مراقبة شديدة للتأكد من تنفيذ هذا العقاب!

لقد نشأ بيني وبين المسؤولين عن إدارة السجن مع الوقت مودة واحترام، كانوا يشعرونني بأنهم يقدّرونني ويعرفون مكانتي، ويعربون عن تعاطفهم مع القضية الفلسطينية والعمل الفدائي. ومع الوقت بدأت أشعر أنني أستطيع أن أعتمد على بعضهم في تبادل الرسائل بيني وبين رفاقي في الخارج.

بعدما استطعت الحصول على الكتب، بدأت أشعر بالراحة النفسية التامة، إذ كنت عطشاً جداً للمطالعة. وكانت مطالعاتي تنصب على النظرية الماركسية، إذ كانت ظروفي السابقة لا تمكّني من التركيز بعمق على مثل هذه القراءات. فاستطعت الحصول على مؤلفات لينين وبعض مؤلفات ماركس وأنغلز. وما زلت أذكر تأثير كتاب لينين وعنوانه **خطتا الاشتراكية الديمقراطية**، وكتاب **ضد دوهرنغ** لأنغلز. وكان لمثل هذه المطالعات تأثير في الكتابات التي قمت بها بعد خروجي من السجن. فقد ترك المناخ العام الذي ولدته تلك المطالعات أثره في كتاباتي في تلك الفترة، وما زلت ألمس مثل هذا التأثير في التقرير السياسي الذي كتبته وقدمته إلى المؤتمر الثاني للجبهة الشعبية وتحت عنوان «الاستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين»[1].

في يوم من الأيام، وصلتني رسالة شخصية من الدكتور وديع حداد بواسطة أحد حراس السجن. وما زلت أذكر اسمه جيداً، وكان محبوباً من جانب المساجين، ويتعامل معهم بإنسانية ولطف.

حين قرأت هذه الرسالة، شعرت أن رفاقي يرتبون طريقة لخطفي من السجن، عن طريق الادعاء بأن أقربائي يطلبون زيارتي. وترتيب الزيارة كان يتم عادة خارج السجن، في أحد مكاتب الاستخبارات. ذلك للسجناء بوجه عام، أما أنا فكانوا يمنعون عني الزيارة تماماً. ولأول مرة تمت الموافقة على زيارتي بواسطة رفيقات ادّعين أنهن قريباتي، وتمت الزيارة على نحوٍ طبيعي جداً. وفي طريق عودتي إلى السجن، نجح الرفاق في اعتراض السيارة العسكرية التي كانت تقلّني مع الحرس الخاص، وكان الرفاق يتخفون باللباس العسكري وقد حاول بعض الحراس المقاومة، لكن الرفاق انتزعوني بنجاح من بينهم، رغم أنني كنت أتعاطف مع هؤلاء الحراس الذين كانوا يتعاملون معي بلطف شديد أثناء وجودي في السجن.

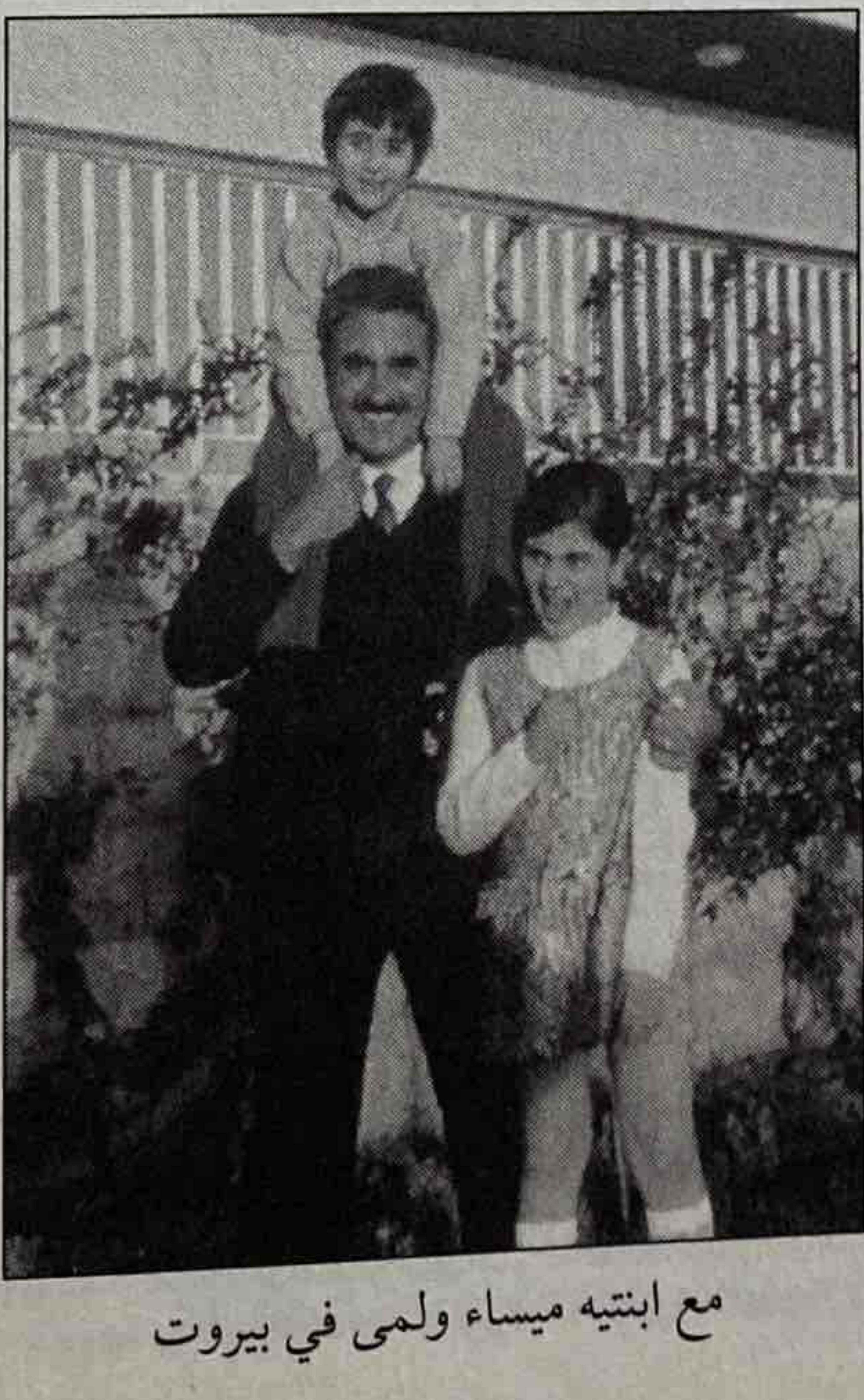
---

(1) تعدّ «الاستراتيجية السياسية والتنظيمية» للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الوثائق التأسيسية للجبهة الشعبية وقد تم إقرارها في المؤتمر الوطني الثاني للجبهة في عام 1969. يمكن مراجعة الوثيقة على الصفحة الرسمية للجبهة: <http://pflp-documents.org/documents/PFLP_StrategyforLiberationArabic1969.pdf>.

نجحنا جميعاً في اجتياز الحدود السورية ـ اللبنانية آنذاك. وما زلت أذكر لقائي الأول مع زوجتي في بيت الدكتور وديع، حيث كان يعج بالرفاق الذين كانوا ينتظرونني بشوق شديد حتى مطلع الفجر.

كنا نعرف أن ردود فعل أجهزة الاستخبارات السورية ستكون عنيفة، إذ إن المسؤول عن هذه الأجهزة كان عبد الكريم الجندي. وقد عرفت في ما بعد حين راجعه بعض الرموز الوطنية العربية في ضرورة الإفراج عني قال بالحرف الواحد: إنه لو نزلت السماء على الأرض، لن يخرج جورج حبش من السجن!

كان من السهل اجتياز الحدود السورية ـ اللبنانية. وعلى هذا الأساس كنا متفقين أنا والرفاق على عدم البقاء في لبنان فترة طويلة؛ فقد كنا نخشى أن يعملوا على اختطافي حفاظاً على هيبة الاستخبارات السورية. وبالفعل هددوا بخطفي من بيروت وإعادتي إلى السجن من جديد. لهذا تم الترتيب للسفر مع عائلتي إلى القاهرة. واقتصر عملي في الفترة القصيرة التي بقيت فيها في لبنان على تفاعلاتي مع بعض الرفاق القياديين الذين التقيتهم في بيروت لمتابعة موضوعين اثنين: أولاً، المستجدات المتعلقة بالجبهة الشعبية، وثانياً: مستجدات أوضاع حركة القوميين العرب.



مع ابنتيه ميساء ولمى في بيروت

11 ـ اللقاء مع عبد الناصر بعد نكسة عام 1967

مثّل الهروب من السجن، في تقديري وتقدير الرفاق، ضربة معنوية كبيرة لمدير الاستخبارات السورية في ذلك الوقت، عبد الكريم الجندي، الذي كان ـ كما قلتُ أعلاه ـ قد قال، في أثناء مطالبة بعض القوى السياسية من الأردن وخارج الأردن بالإفراج عني، «من المستحيل الإفراج عن الدكتور جورج حبش حتى لو نزلت السماء على الأرض». وكان توقعنا أنه سيبذل المستحيل لتجنيد إمكانياته للقبض عليّ من جديد. وكان يعرف بطبيعة الحال أن الطريق الذي سلكناه بعد الاختطاف كان باتجاه لبنان.

من الجدير بالذكر هنا أنه بعد فترة وجيزة من عملية تحريري من السجن أعلنت السلطات السورية عن انتحار عبد الكريم الجندي.

لهذا رتبنا أمورنا، كما ذكرت، للذهاب إلى مصر في أسرع وقت، ليس لتجنُّب إمكان الملاحقة من جديد فقط، بل رغبة مني في لقاء الرئيس عبد الناصر، الذي كنت حريصاً جداً على اللقاء به لبحث مجمل الأوضاع العربية والفلسطينية بعد هزيمة 1967 وما أسفرت عنه من مستجدات نوعية، وبروز العامل الجديد متمثلاً بالثورة الفلسطينية والعمل القومي، وفي الوقت نفسه بحث موضوع الإسناد الذي يمكن أن تقدمه الجمهورية العربية المتحدة إلى الجبهة الشعبية، وكذلك لجلاء بعض سوء الفهم الذي حصل نتيجة مقالات **الحرية**، مجلة القوميين العرب، بعد أحداث حزيران/يونيو 1967.

في الأيام المعدودة التي قضيتها في بيروت استعداداً للذهاب إلى القاهرة، كنت مشدوداً في الدرجة الأولى إلى تتبع أخبار الجبهة بعد فترة الانقطاع نتيجة السجن. وكانت أوضاع الحركة بوجه عام لا تشجعني على الاهتمام والتركيز عليها، لأني شعرت أن مشكلاتها في ذلك الوقت كبيرة، وتناقضاتها ومعضلاتها أكبر مما أستطيع معالجته خلال أيام محدودة، وأن اهتمامي بهذا الموضوع سيكون على حساب تركيز الاهتمام على العمل الوطني الفلسطيني من خلال تركيز اهتمامي بالجبهة الشعبية.

رافقتني في رحلتي إلى القاهرة زوجتي أم ميساء وابنتانا ميساء ولمى، حيث كنت أفكر في إبقاء العائلة في القاهرة فترة من الوقت تمهيداً لإمكان الانتقال إلى عمان لمتابعة مسؤولياتي في قيادة الجبهة الشعبية.

حين حطت الطائرة في مطار القاهرة، أعربت للجهات المعنية التي كانت في استقبالنا عن رغبتي في لقاء الرئيس عبد الناصر في أسرع وقت، فتم اللقاء فعلاً بأسرع مما كنت متوقعاً، إذ كنت أتساءل فعلاً إذا كان عبد الناصر سيستقبلني بنفس السرعة، وبنفس الحفاوة والمحبة التي كنت ألقاها في لقاءاتي السابقة به. وحين تم اللقاء كنت أريد أن أعرف مدى تأثير النكسة فيه، وفي نفسيته، كما كنت راغباً في معرفة كيف يفكر الرئيس عبد الناصر في مواجهة هذا الوضع الجديد.

استقبلني الرئيس بنفس الحرارة والترحيب، ولكنني لمست في ملامحه معالم الألم العميق. وحين بدأ كلامه ذكر كيف كان مصمماً على الاستقالة، ولكن التظاهرات الجماهيرية العارمة التي قامت في تلك الفترة جعلته يعيد النظر في القرار الذي اتخذه في خطابه التاريخي الذي أعلن فيه عن ضرورة تنحيه عن مسؤولياته. وأذكر في هذا اللقاء أنه تعرض لموضوع الهزيمة العسكرية وشرحها لي. وأذكر جيداً أنه لم يُعفِ نفسه من المسؤولية، لكنه كان واضحاً أنه يتحمل المسؤولية المعنوية. أما المسؤولية الفعلية، فهي مسؤولية القادة العسكريين أنفسهم. ولمست منه كذلك تصميمه على

الإفادة الكاملة من دروس ما حصل، كما تلمست، من دون الخوض في التفاصيل، أنه يُعدُّ لمواجهة العدوان واسترداد الأرض المسلوبة.

تعبيراً عن الآلام التي كان يعيشها في تلك الفترة، أذكر قوله إنه في أوقات الجمعة، حيث يتيح لنفسه قسطاً محدوداً من الراحة، كان يستمع إلى بعض الإذاعات، ويسمع الرسائل الصوتية المتبادلة بين الأهل في الأرض المحتلة، نتيجة العدوان مع أهاليهم في الخارج، فيغص بالألم والمرارة، ويشعر أنه يتحمّل قسطاً من هذه المسؤولية الكبيرة، فشعرت يومها كم هو كبير هذا الإنسان بالنسبة إلى شعوره بالمسؤولية إزاء شعبه، وإزاء جماهير الأمة العربية.

في هذا اللقاء الأول مع الرئيس بعد نكسة 1967، شعرت أنه من الضروري أن أوضح وجهة نظري في الانتقادات التي كانت تكتبها مجلة **الحرية** عن الجمهورية العربية المتحدة وطبيعة نظامها. وهنا ذكرت له أن المقصود من الانتقادات طبيعة بنية النظام، وليس قيادة عبد الناصر وشخصه، وأننا نحمل للرئيس أعمق مشاعر الاحترام والتقدير. وكان جواب عبد الناصر أنه لا يعير أهمية للانتقادات التي توجه إليه عادة من الأعداء ومن الصحافة بوجه عام، ولكنه يتألم فعلاً حين تأتي هذه الانتقادات من الأصدقاء. أما في هذه الفترة، فلا يعير كل هذه الأمور أي قيمة، وهو منصرف تماماً إلى الإعداد لإزالة آثار العدوان وإعادة بناء القوات المسلحة.

كان هذا مدخلي لطرح إعادة العلاقة بيننا وبينه، فذكرت أنني أُعدّ نفسي للسفر إلى الأردن، وطلبت منه المساعدة بالسلاح، فاستجاب لهذا الطلب، وأعتقد أن أول دفعة من السلاح وصلت إلى الجبهة الشعبية، كانت من الرئيس عبد الناصر.

في أثناء وجودي في القاهرة، كان لا بدّ من لقاء الرفاق أعضاء حركة القوميين العرب سابقاً من المصريين، أي أعضاء الجبهة الشعبية حالياً، إذ إن من عادتي باستمرار أن ألتقي بالرفاق أعضاء الجبهة، وعدم الاكتفاء

باللقاءات السياسية. وأذكر أن الرفاق في ذلك اللقاء سجلوا تخوفهم من أي انشقاق يمكن أن تعيشه الجبهة في تلك الفترة. وكنت أعرف أن مثل هذه المخاطر واردة وأن ما دفع الرفاق في الأردن، والدكتور وديع حداد بوجه خاص، إلى اختطافي من السجن، هو السبب الرئيسي لمساعدتهم في مواجهة هذا الوضع الصعب.

هنا ذكرت لهؤلاء الرفاق أنّ في إمكانهم أن يطمئنوا لشعوري العميق بالمسؤولية، وسأعالج الموضوع ببذل كل محاولة لمنع الانشقاق، وعدم السماح باستمرار حالة الإرباك والانشغال في القضايا الداخلية التي تشلّ فاعلية الجبهة الشعبية العسكرية والسياسية بدلاً من التصدي للعدو الرئيسي في هذه اللحظة الحساسة التي تعيشها الثورة.

كان لا بدّ من بعض اللقاءات مع الأصدقاء السياسيين الذين أعرفهم منذ فترة طويلة، وتقوم بيني وبينهم صداقة وعلاقات حميمة. فالأحداث التي حصلت بين 67 ونهاية 68 فيها الكثير من المستجدات التي كنت أرغب في استجلاء رأيهم فيها. هذه اللقاءات كانت تستغرق مني كل الوقت أثناء وجودي في القاهرة، حتى إني أذكر أن لقاء من هذه اللقاءات تم تحديده في الواحدة بعد منتصف الليل وكان مع الأستاذ محمد حسنين هيكل. وهنا لم أعد أسيطر على وقتي ولم أكن قادراً على أن أعطي أي وقت لأم ميساء والبنات وأن أفي بوعودي لهن، بعدما كنت قد وعدت هيلدا بعد فترة السجن الطويلة، أنني بعد الانتهاء من اللقاء مع الرئيس عبد الناصر سأكرس كل وقتي لها ولابنتينا. ولامتصاص ثورتها قلت لها: إننا رتبنا باكراً سفرنا إلى الاسكندرية حيث لا لقاءات ولا مواعيد هناك...

في الاسكندرية نزلنا في شقة أحد الأصدقاء، وكان تقديري أننا سنجد في هذه الشقة ما يريحنا تماماً، ولكننا وجدنا أن الشقة مهجورة منذ مدة طويلة، وأن أمورنا غير مرتبة، وهو ما زاد من التوتر الذي عشناه في القاهرة نتيجة اللقاءات والمواعيد المكثفة. وانتظرنا حتى الصباح حيث توقعت أن

نقضي بضعة أيام بحيث ترتاح فيها أعصابنا. وكان أول ما قمنا به هو زيارة قصر المنتزه، فشعرنا أن الإجازة قد بدأت وغمرنا شعور بالراحة، وبخاصة أن من يعرف قصر المنتزه وحديقته وموقعه على البحر، يعرف تماماً مدى جمال هذا المكان. وهنا تأتي المفاجأة من جديد، حيث فاجأنا أثناء خروجنا من القصر بعض أفراد الشرطة المسؤولة عن أمن القصر بالسؤال: أأنت الدكتور جورج حبش؟ فقلت: نعم، فقالوا إن الرئاسة في القاهرة تطلب منك الاتصال بها. وحين اتصلت بالرئاسة، قالو لي إنهم رتبوا لي بعض المواعيد الأخرى، إذ كانوا يريدونني أن ألتقي بعض المسؤولين، ولا أكتفي باللقاءات التي تتم مع الرئيس فقط، وطلبوا عودتي بأسرع وقت.

هنا أدركت كما أدركت زوجتي أنه لا راحة لنا ولا إجازة بأي شكل من الأشكال. فسلمنا أمرنا إلى الله، وبدأت أفكر بترتيبات السفر والعودة من جديد إلى القاهرة. كان ذلك في نهاية كانون الأول/ديسمبر 1968، وبقيت هيلدا مع ميساء ولمى لمدة سنة للدراسة في القاهرة إلى حين الانتقال إلى عمّان، وقد زاد الطين بلة أنها كانت تريدني أن أبقى معها لنحتفل معاً بأعياد الميلاد ورأس السنة، لكنني اضطررت إلى السفر بحكم حدة الأحداث، بالرغم من الضغط النفسي الذي كنا نعيشه أنا وزوجتي بسبب هذا التقطع والانقطاع الكبير في حياتنا الزوجية.

12 ـ الجبهة الشعبية وتجربة الانشقاق

كان التوجّه أن أسافر إلى العراق، وكان الرفاق في عمّان قد أقاموا علاقات جيدة مع القيادة السياسية لثورة تموز/يوليو 1968 في العراق، ومن خلال وجود القوات العراقية في المفرق ـ الأردن كانت هذه القوات تساعدهم في التنقل، وفي بعض المتطلبات التي كان باستطاعة هذه القوات العراقية القيام بها. لقيت في العراق ترحيباً كبيراً واستعداداً لإسناد الجبهة. وبحثنا معاً رغبة القيادة القومية للبعث في إيجاد فصيل مسلح يساهم في الثورة الفلسطينية لإعطاء الثورة طابعاً عربياً.

في تلك الزيارة، قابلت الرئيس أحمد حسن البكر ونائبه في ذلك الوقت صالح عماش، وأعضاء آخرين من القيادة القومية. أتذكر جيداً تفاصيل هذه الرحلة بين بغداد وعمان مروراً بالمفرق. عجباً، كيف يتذكر الإنسان بعض الأمور جيداً وبالتفاصيل، في حين أن أموراً أخرى أساسية أخرى تغيب عن البال. أتذكر أن هذه الرحلة كانت بسيارة فولكس فاغن صغيرة، وأن سائقها كان يسوق بسرعة تفوق 140 كلم في الساعة، إلى أن وصلنا إلى عمان. كما أذكر ترحيب قائد القوات العراقية في ذلك الوقت. أود أن أشير هنا إلى أنني لم أستطع السفر بالطائرة من بغداد إلى عمان مباشرة وذلك يعود إلى أنني كنت مطلوباً لدى السلطات الأردنية، وبالتالي ممنوعاً من دخول الأردن.

كان أول ما واجهته لدى وصولي إلى عمان حالة الانشقاق الضمني التي كانت تعيشها الجبهة، وهو لم يكن الانشقاق الأول مع الأسف، إذ سبق ذلك انشقاق حصل أثناء فترة وجودي في السجن. وهو انشقاق كان بين تنظيم الجبهة الأساسي وبين مجموعة أحمد جبريل ومجموعة الضباط الناصريين. وتحليلي أنه كان بسبب الطبيعة العسكرية لمجموعة أحمد جبريل والضباط الناصريين في علاقاتهم مع المقاتلين وطبيعة خططهم ومتطلباتهم العسكرية، إذ كانت هذه الخطط توضع على أساس كلاسيكي، بينما كان الرفاق المقاتلون في جسم الجبهة، وكذلك الكوادر، يضعون تصوراتهم على أساس آخر. وكانوا يريدون الإسراع في العمل ولو لم تتوافر كل المتطلبات بالضرورة. وأعتقد أن العامل العربي الرسمي قد أدى دوراً في هذا الانشقاق، إذ كانت الجبهة تريد أن تتحرك عسكرياً من الجبهات كافة، وبخاصة من سورية، إضافة إلى الأردن. لكن النظام السوري لم يكن ممكناً أن يسمح آنذاك بمثل هذا التحرك. وهنا لا أعفي قيادة الجبهة من تحمل قسط من المسؤولية أيضاً في هذا الانشقاق، ولكنني أرى أن العاملَين السابقَين هما الأساس في هذا الموضوع.

كان هذا الانشقاق، يختلف نوعياً عن الانشقاق الثاني الذي واجهته فور وصولي إلى عمان؛ فالأول كان انشقاقاً جبهوياً، أي بين تنظيمين مختلفين، فرع حركة القوميين العرب، وجبهة التحرير الفلسطينية. بينما الانشقاق الذي أصبحنا في صدده لدى عودتي إلى عمان فكان انشقاقاً داخل تنظيم واحد، هو تنظيم فرع الجبهة الفلسطيني. فقد عقد الرفاق الأساسيون في قيادة الجبهة، بمن في ذلك الفريق المنشق، المؤتمر الأول للجبهة الشعبية وكان الفريق المنشق قد أخذ زمام المبادرة بالنسبة إلى التقرير السياسي، الذي كان هناك إجماع عليه. ولدى اطلاعي عليه، شعرت أنه يحمل بعض المراهقات السياسية، لكنني قبلت به كأساس يمكن تطويره من خلال مؤتمراتنا القادمة. كانت المشكلة تتعلق بالانتخابات التي تمت في هذا المؤتمر، والنتائج التي أسفرت عنها، والاتصالات التي

سبقت عملية الانتخابات للتحكم في النتائج التي لم تكن مقبولة من جانب الرفاق الأساسيين الذين كانوا يشكلون تنظيم الجبهة فرع حركة القوميين العرب في الأردن قبل تأسيس الجبهة الشعبية. وكان لديهم من وجهة نظرهم إثباتات على كل هذه الاتصالات غير التنظيمية وغير المبدئية التي سبقت الانتخابات.

ما زلت أذكر القصص المتعددة التي كانوا يروونها حول هذا الموضوع، ورغم كل ذلك، كان موقفي هو إجراء محاولة جادة وصادقة لمنع الانشقاق. وهذه القضية بتفاصيلها قمت بكتابتها في كراس خرج باسم الجبهة عنوانه «الجبهة وقضية الانشقاق»[1]. ويستطيع أي مؤرخ أن يعود إلى هذا الكراس لاستخلاص وجهة نظر الفريق الذي استمر يحمل اسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

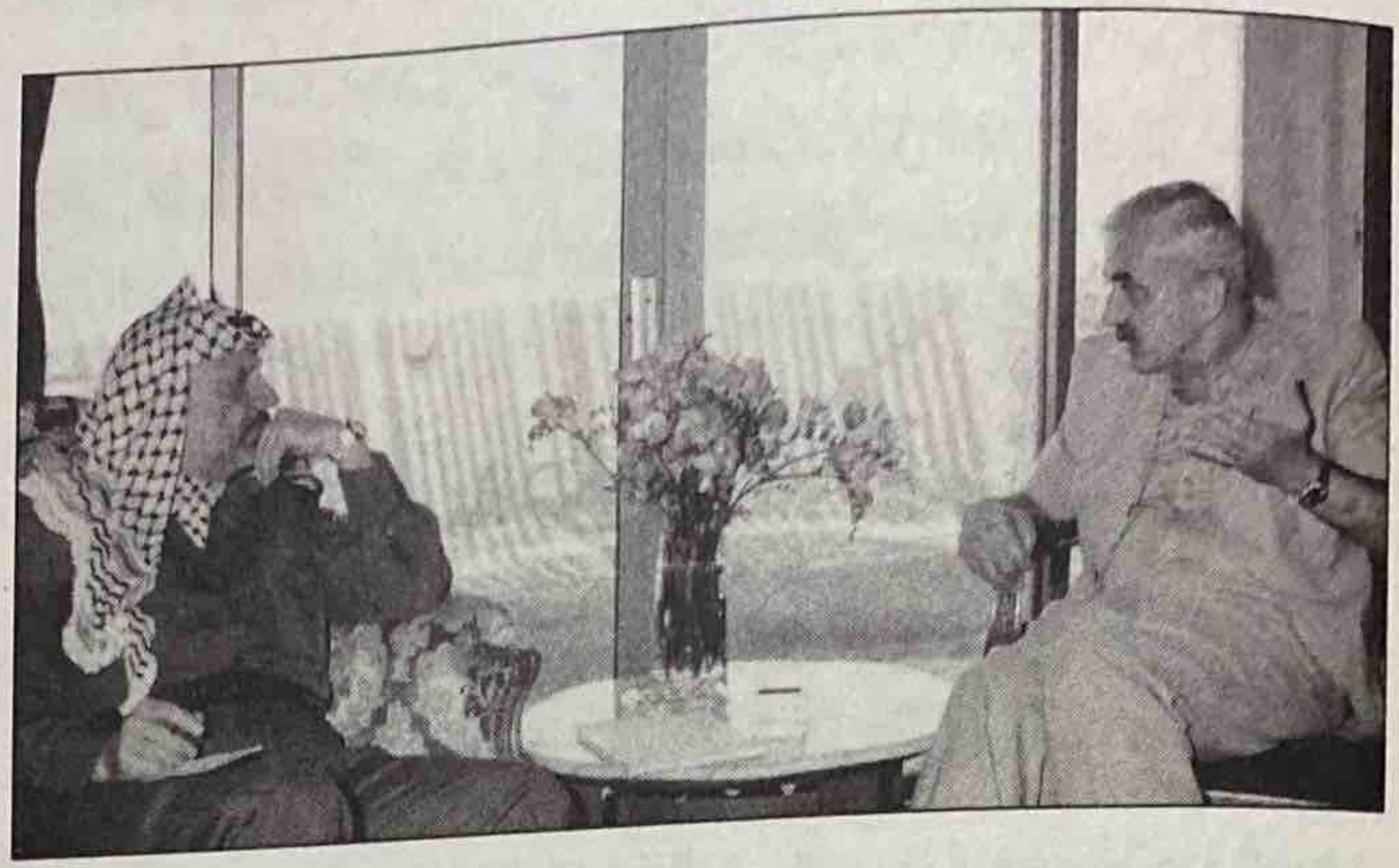
رافق هذا الخلافَ وحالة الانشقاق وما بعده بعضُ الصدامات والاشتباكات التي كنت حريصاً على الحد منها بقدر الإمكان. وكانت وجهة نظر بعض الرفاق أن يحسموا هذا الموضوع عن طريق العنف كونهم يمثلون الجسم الرئيسي للجبهة وكون الفريق المنشق يسيء إلى الجبهة كل الإساءة ويحدّ من دورها. وباستثناء موافقتي على حالة معيّنة من حالات الاعتقال، كنت حريصاً أشدّ الحرص على وضع حدّ لحسم الأمور عن هذا الطريق، أي عدم استعمال العنف. لقد أدى هذا الانشقاق، الذي كان وراءه ياسر عرفات والصاعقة وبعض الأنظمة، دوراً سلبياً في تحديد مستقبل اليسار الفلسطيني تاريخياً.

وكالعادة، في مثل هذه الحالات، استمر النزاع حول الاسم، وكان من الطبيعي ألّا يجرؤ الفريق المنشق على القول إنه هو الذي يمثل الجبهة. لكنه عرض اسما يثير الالتباس بين التنظيمين، هو اسم الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين بقيادة نايف حواتمة. ورغم معارضتنا لهذا

---

(1) النص الكامل صدر عن الجبهة الشعبية في كتيب عام 1970.

الموضوع في بداية الأمر، إلّا أننا منعاً لاستمرار حالة الخلاف، وما يمكن أن ينتج منها من مناوشات، ونظراً إلى مساندة قيادة فتح والصاعقة للفريق المنشق، قبلنا بهذه التسوية.



الحكيم مع ياسر عرفات

كان الفريق المنشق يدرك رصيد الجبهة الشعبية في أوساط الجماهير ويريد أن يكون له قسط من هذا الرصيد، حتى إنهم استمروا يجمعون التبرعات باسم الجبهة الشعبية «جورج حبش» نظراً إلى التعاطف الكبير والاحترام الجماهيري للجبهة في الأردن في ذلك الوقت.

الآن وأنا أكتب هذه المذكرات وقد مضى عقود على هذا الحدث (22 شباط/فبراير 1969) أستطيع ان أسجل العوامل التي كانت وراء الانشقاق:

كان هناك، من وجهة نظري على الأقل، عامل نظري سياسي. أما من وجهة نظر الفريق المنشق، فكانت الجبهة في نظرهم تشكل فصيلاً يمينياً! لكنْ، من وجهة نظري أنا، كان الفريق المنشق يطرح أفكاراً يسارية مراهقة. وكانت الجبهة تمثل يسار الثورة الفلسطينية بالمعنى الحقيقي. هذا أولاً؛ ثانياً كانت هناك قوى فلسطينية وعربية يهمها إضعاف الجبهة وتفكيكها باستمرار. فقد كانت قيادة فتح، وبخاصة في تلك الفترة، تدرك ما يمكن أن

يكون للجبهة من نفوذ متنام في الساحة الأردنية. والعامل الثالث هو العامل الذاتي لبعض الأشخاص الذين أدوا دوراً في تسعير الانشقاق وعدم الاحتكام إلى القوانين الحزبية.

على أي حال، مضى على الحادث عقود من الزمن، وأصبح في إمكان الناس أن يحاكموا الموضوع بطريقة علمية. فهل مثلت الجبهة الديمقراطية يسار الثورة الحقيقي وحدها كما كانت تدعي؟ وهل مثلت الجبهة الشعبية اليمين فعلاً؟!

أترك ذلك للقارئ وللتاريخ، وأشدّد على هذه النقطة، لأنني أرى أن هذا الموضوع أدى دوراً سلبياً بالنسبة إلى الثورة الفلسطينية بوجه عام، وإلى اليسار الفلسطيني بوجه خاص، فلو عالجت قوى اليسار القضايا والعلاقات في ما بينها بطريقة سليمة، لما كانت أمور الثورة وأوضاعها كما هي الآن.

بعد كل هذه المشاكل الداخلية التي مرّت بها الجبهة الشعبية أصبحت في وضع صعب، وشعرت أنني أمام تحدّ كبير. فالفريق المنشق يتهمني بأنني على رأس اليمين، ويهزأ من قدرة الجبهة على تحقيق الطموحات التي كانت تنادي بها في بداية تأسيسها. في المقابل، كان الاطلاع على كتب أتيحت لي في السجن، مثل كتب لينين وماو تسي تونغ، يثير في نفسي طموحات لا حدّ لها. وكانت الظروف الموضوعية مؤاتية. هذا الوضع جعلني أشعر بأني أمام مشروع تأسيسي كبير. هنا أدركت أنني أؤسس للجبهة من جديد، رغم أن تاريخ انطلاقتها كان في 11 كانون الأول/ ديسمبر 1967. والمؤتمر الأول للجبهة الذي لم أحضره عقد في آب/ أغسطس 1968 حين كنت في السجن. ولكنْ، بالنسبة إلي، بدأت مسؤوليتي عن الجبهة بالمعنى الفعلي بعد الانتهاء من موضوع الانشقاق الثاني في بداية عام 1969، وبدء مسيرة الجبهة بعد ذلك.

كانت مهمتي الأولى هي عقد المؤتمر الثاني للجبهة الذي أعتبره من جديد المؤتمر الأول الذي كان هدفه تحديد الخط الأيديولوجي. طرحت

موضوع الماركسية وضرورة تبنيها. وكانت ظروف الجبهة الشعبية الذاتية تجعلني أميل إلى ذلك الطرح؛ إذ إن الفريق المنشق كان يتهمني ويتهم الرفاق الأساسيين في الجبهة بأنهم معادون للماركسية. وهذا بطبيعة الحال غير صحيح، إذ كانت قناعتي بصحة الماركسية كنهج في تحليل التاريخ قد ازدادت مع الوقت وفي ضوء التطور الذي حصل في منطقتنا العربية.

تعمقت هذه القناعة من خلال مطالعاتي النظرية في السجن، وتم تبنّي النظرية الماركسية في المؤتمر الثاني للجبهة في ما يشبه الإجماع، فلم يعارضه أحد، كما أذكر، سوى رفيق واحد. ما ساعد الجبهة على تبني الماركسية في هذا المؤتمر هو موضوع العامل الطبقي، إذ إن الرفاق المناضلين الأساسيين في الجبهة، كانوا في أغلبيتهم من أبناء المخيمات والعمال. وقد انتخب المؤتمر لجنة مركزية، أو ما كنا نسميه في ذلك الوقت «قيادة سياسية»، أي «مكتباً سياسيّاً». تشكلت هذه القيادة من مجموعة من الرفاق بينهم وديع حداد، وأحمد يماني، ومصطفى الزبري (أبو علي مصطفى)، وحمدي مطر، وأبو عيسى، وأبو نضال مسلمة، وزكريا أبو سنينة، وعزمي الخواجة؛ هذه هي الأسماء التي أذكرها. أما في ما يتعلق بأعضاء اللجنة المركزية، فقد كانت كما أذكر تتكون من عشرين رفيقاً.

شعرت بالارتياح لنجاح المؤتمر الذي عقد في شباط/فبراير 1969؛ وبعد ذلك كانت مهمتي الأساسية كتابة التقرير السياسي والتنظيمي الذي أقره المؤتمر، إذ إنني قدمت الأفكار الأساسية لهذا التقرير بصيغة هيكل، لا بصيغة مكتوب. وما زلت أذكر جيداً الفترة التي قضيتها في كتابته، واتخذ عنوان: «الاستراتيجية السياسية والتنظيمية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين». وأذكر أني كتبت هذا التقرير في قاعدة عسكرية في الأغوار حيث كان بعض الرفاق المقاتلين يقومون بالحراسة. كما أذكر أنني كنت أتابع كتابة التقرير السياسي حين أعود إلى عمان في البيت الذي كنت أقيم فيه بمخيم الوحدات.

في هذا التقرير السياسي والتنظيمي سجلت رؤيتي السياسية للثورة الفلسطينية في إطارها الوطني والعربي والدولي، ولكن تركيزي على المؤتمر الثاني التأسيسي النظري والسياسي والتنظيمي للجبهة، لم يمنعني من التركيز الأساسي على الموضوع العسكري، إذ كنت مشدوداً بقوة إلى دور الجبهة العسكري، وكنت في أعماقي أعرف أن كل التميز النظري والسياسي للجبهة الشعبية لا يمكّنها من تحديد هويتها وتمايزها، ما لم تستند إلى فاعلية عسكرية.

كنت فور عودتي إلى عمان، في بداية عام 1969، أنزل إلى القواعد العسكرية باستمرار، وأحياناً بمعدل أربع أو خمس مرات في الأسبوع، وأتفاعل مع المقاتلين في قواعد الأغوار. لم أكن قائداً عسكرياً، ولكن وجودي بين كوادر المقاتلين وقواعدهم كان مفيداً بالنسبة إلي وإليهم.

كان الخط العسكري لكل فصائل الثورة في ذلك الوقت، هو القتال من خلال دوريات الحدود. وحين أخذت إسرائيل احتياطاتها الأمنية، كانت نتائج الاستمرار في هذا الخط في غير مصلحة الثورة، إلا أن الاستمرار فيه يعني تقديم المزيد من التضحيات مقابل إيقاع القليل من الخسائر في صفوف العدو، رغم مبالغة فصائل الثورة في تصوير إنجازاتها العسكرية المضخمة، إذ كانت تدعي أنها قامت بعمليات عسكرية كبيرة جداً وأنها ألحقت خسائر كبيرة بالعدو وصورت بعض العمليات بأنها عمليات كبيرة ونوعية ولكنها مع الأسف كانت وهمية!

لم يكن تركيزي على الموضوع العسكري تركيزاً على القتال فقط ضد العدو الإسرائيلي من خلال الحدود الأردنية، بل إن موضوع توجيه الضربات للعدو الإسرائيلي داخل إسرائيل نفسها وفي مناطق الاحتلال كان يشغل بالي وبال قيادة الجبهة كثيراً. وقد بذلت الجبهة كل جهد لتثبيت هذا الخط، فنجحنا نسبياً وكان لنا شهداء ومعتقلون. ركّزنا كذلك على موضوع خطف الطائرات وتوجيه الضربات ضد مصالح العدو الصهيوني

والإمبريالي، كضرب خط التابلاين (Tapline) وضربات في أوروبا، وعمليات خطف للطيران سبقت عملية الخطف التي حصلت في أيلول/ سبتمبر عام 1970. كان هدفنا في هذا التوجه يتمثل بموضوع إثارة القضية الفلسطينية على الصعيد العالمي، وقد سمعت من بعض المغتربين والأجانب والصحافيين رأيهم بأن خطف الطائرات، وضرب المصالح الإمبريالية قد طرح القضية الفلسطينية على الصعيد العالمي أكثر من أي نشاط عسكري أو سياسي أو دبلوماسي قامت به الثورة في ذلك الوقت.

كان هذا الخط يعبّر عن ثورة جماهيرنا ضد العذابات التي عانتها من جراء الاقتلاع من الأرض. لذا كان هذا التوجه يلقى كل التأييد في أوساط الجماهير الفلسطينية والعربية، بغض النظر عن أي انتقادات كانت توجه إليه في أوساط بعض القوى. وفي هذه الفترة، فترة انعقاد المؤتمر الوطني الثاني للجبهة في شباط/فبراير 1969، عقد المجلس الوطني الفلسطيني دورته قبيل موعد انعقاد المؤتمر أو بعده قليلاً، وأذكر جيداً أن الجبهة لم تشارك فيها، وأصدرت بياناً سياسياً موجهاً إلى الجماهير تتحدث فيه عن أسباب عدم مشاركتها في هذه الدورة. وأذكر كذلك طبيعة الأسباب السياسية التي دعتها إلى عدم المشاركة أو المشاركة رمزياً على الأقل. إضافة إلى الأسباب السياسية والتنظيمية التي ذكرها البيان، كان هناك سبب رئيسي دعاني والجبهة إلى عدم الاشتراك في هذا المجلس، هو أن الجبهة كانت في وضع ضعيف بسبب الانشقاق، وأنها كانت تريد أن تعبر عن استيائها من الأطراف الأساسية التي ساهمت بصورة غير مباشرة في عملية الانشقاق. وهذا يدل على أن الجبهة كانت منذ البداية وحتى نهاية الستينيات والسبعينيات تتصدى لقيادة عرفات وتحاول إبراز سلبيات وأخطاء هذا النمط من القيادة الفردية[2].

---

(2) عقدت دورة المجلس الوطني الخامسة في القاهرة في 4 شباط/فبراير 1969 وشهدت هذه الدورة انسحاب الجبهة الشعبية بسبب الخلافات السياسية ومحاولة الاستئثار بأغلبية أعضاء المجلس من قبل حركة فتح (38 عضواً) في مقابل 12 عضواً فقط للجبهة الشعبية. انظر: =

بعد كتابة التقرير السياسي ونشره والشعور بالارتياح من جانب الرفاق الذين أبدوا آراءهم الإيجابية به، وبخاصة أن عدداً من الرفاق المثقفين الذين كانوا مترددين في أثناء فترة الانشقاق عادوا وانضموا إلى الجبهة الشعبية، شعرت أني أريد أن أسافر إلى القاهرة لسببين: الأول أن أطمئن إلى أوضاع زوجتي وابنتَيّ ميساء ولمى، إذ إني تركتهن بعد فترة انقطاع طويلة قضيتها في السجن، ولم تتوافر لي أي فرصة للإجازة ولو لبضعة أيام. والسبب الثاني أنني أريد أن أواصل العلاقة مع الرئيس عبد الناصر والاطمئنان إلى دعمه لنا، وكذلك الاطمئنان إلى أن الصلة التي كانت وثيقة على الصعيدين الشخصي والعام ستستمر وتتعمق.

وكانت المفاجأة عدم تحقق هذا الهدف الثاني. لقد طلبت فور وصولي لقاءً مع الرئيس، ولكن ذلك لم يحصل رغم مرور بضعة أيام. وقد صدمت لذلك، وفهمت من بعض الأصدقاء الذين كانوا يحبونني ويحبون الرئيس عبد الناصر، ويرون أهمية توثيق الصلة بين الجبهة وبين القيادة في مصر، أن جهاز الاستخبارات كان قد بعث بتقرير للرئيس يسجل فيه أن الجبهة عقدت مؤتمراً، وأصدرت تقريراً سياسياً سجلت فيه نقداً لتجربة الجمهورية العربية المتحدة. لا أعرف بالضبط طبيعة التقرير الذي أرسلته الاستخبارات للرئيس، ولكني أعرف بالضبط ما سجله تقريرنا السياسي الصادر عن المؤتمر الوطني الثاني، وهذا مثل آخر على دور الاستخبارات والأجهزة في تعقيد الصلة بيننا وبين الرئيس عبد الناصر.

لقد سجل تقريرنا تقييماً لتجربة الأنظمة الوطنية في ذلك الوقت، أي أنظمة البرجوازية الصغيرة، كما سجل القاعدة التي تقوم عليها سياستنا إزاء هذه الأنظمة، قاعدة التحالف والتعارض في آن واحد، ولم يحمل ذلك التقرير أي نقد لشخص عبد الناصر الذي كنا نحترمه ونقدر إنجازاته الكبيرة على الصعيد الوطني والقومي.

= Amal Jamal, *The Palestinian National Movement Politics of Contention 1967-2005* (Bloomington, IN: Indiana University Press, 2005), p. 19.

ورغم أنني تألمت كثيراً لعدم مقابلتي الرئيس، إلا أنني في هذه الزيارة حققت على الأقل الهدف العائلي منها، إذ إنني قضيت بعض الوقت مع زوجتي وابنتَيّ ولاحظت أن ميساء ولمى بدأتا تعرفانني عن قرب، وأخذت لمى تتعلق بي، رغم أنها كانت طفلة، لكن وجودي داخل البيت كان حدثاً كبيراً بالنسبة إليها. وكانت فترة وجودي مع العائلة في مصر، لا تتعدى بضعة أيام فقط، عدت بعدها إلى عمان حيث كان يتم سفري منها إلى أي بلد آخر عن طريق بغداد. ولا أذكر أنني استعملت يوماً مطار عمان في تلك الفترة، لأسباب أمنية وسياسية، إذ لم تكن لنا أية علاقة إيجابية مع النظام في الأردن في ذلك الوقت. وجردت من جواز السفر آنذاك أنا وعائلتي.

كنت من خلال ترددي على بغداد أواصل وأثبت العلاقة مع النظام العراقي وكنت أقابل المسؤولين على أعلى المستويات، وكان وجود الجيش العراقي في الأردن يعطينا أملاً في إسناد الثورة وحمايتها.

بعد عودتي من القاهرة إلى عمان تركّز عملي على تفعيل الجبهة وبلورة صورتها نظرياً وسياسياً وعسكرياً. وفي هذه الفترة بالذات، أي بعد المؤتمر الوطني الثاني حتى نهاية عام 1969، تبلورت الجبهة كقطب سياسي فعّال مقابل تنظيم فتح. وكان الشعار الذي ما زال ماثلاً في ذهني، وأقرأه على جدران عمان: «نريد وحدة وطنية، فتح وجبهة شعبية». فعلى الصعيد السياسي كنت حريصاً على إبراز الصوت السياسي للجبهة الشعبية ومحاولة تغلغله في أوساط الجماهير. وكانت قيادة فتح، التي كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، تصر على أن يكون لمنظمة التحرير الفلسطينية صوت واحد فقط، وأن أي وجهات نظر أخرى يمكن أن تطرح في الاجتماعات المغلقة. أما بالنسبة إلى الصوت السياسي لمنظمة التحرير فيجب أن يكون صوتاً واحداً، ولا مجال لصوت أي تنظيم آخر.

هنا خاضت الجبهة معركة أساسية لتثبيت حقها في إبراز صوتها جماهيرياً، فكسبنا هذه الجولة من خلال الممارسة الفعلية لمثل هذا الحق.

وحين يتحدث بعض قادة فتح بموضوع الديمقراطية الفلسطينية، وميزة الديمقراطية الفلسطينية، كنت أقول لنفسي: «إن مثل هذه الديمقراطية لم تمنح لنا هبة، بل أخذتها الجبهة بقوة عزمها وتصميمها».

وكانت الجبهة على الصعيد السياسي تصنف الرجعية العربية[3] في معسكر الخصم. وعلى هذا الأساس تحددت نظرتها إلى النظام الأردني، ولكنها لم تعتبر معركتها هي مع هذا النظام، كما كانت تشيع بعض الأوساط المعادية، بل إن الجبهة كانت تحذّر الجماهير والثورة من مخططات النظام لضرب الثورة وإجهاضها.

كان هذا الموقف السياسي يلقى تأييداً من الجماهير في الأردن التي عرفت النظام من خلال مسيرته التاريخية. وهذه نقطة إيجابية جداً لمصلحة الجبهة الشعبية كانت وراء احترام الجماهير لها.

على الصعيد النظري والتنظيمي كنت مشدوداً إلى بناء كادر واعٍ، وكان في ذهني أن أقول للفريق المنشق: «إن الجبهة ليست كما تظنون وتقولون»، أي مجرد أناس مشدودين إلى القتال من دون رؤية عميقة للثورة وأهدافها وأبعادها، بل كانت الجبهة تتسلح بنظرية علمية ثورية ورؤية واضحة للوضع العالمي والعربي والفلسطيني في ذلك الوقت.

وفي هذا العام أنشأنا مدرسة عسكرية وتنظيمية وسياسية للكادر. وكنت ألقي بعض المحاضرات فيها. لكن الرفيق الذي كان مسؤولاً بالدرجة الأولى عنها من الناحية السياسية هو هاشم علي محسن (أبو عدنان)، والمسؤول العسكري هو أبو همّام «هيثم الأيوبي» وأبو بشار «أكرم الصفدي».

---

(3) حسب وثيقة «الاستراتيجية السياسية والتنظيمية» للجبهة الصادرة عن المؤتمر الثاني يضم معسكر الأعداء القوى التالية: «إسرائيل»، الحركة الصهيونية العالمية، الإمبريالية العالمية، والرجعية العربية.

بدأت أفكر في موضوع صوت الجبهة الإعلامي، وكان الفضل الأول بالإلحاح على أهمية هذا الموضوع يعود إلى الرفيق الشهيد غسان كنفاني. وأذكر أني في ذلك العام زارني في المعسكر أكثرَ من مرة لبحث موضوع المجلة المركزية التي صدرت باسم **الهدف** عام 1969.

رغم اهتمامي بالموضوع السياسي والنظري والإعلامي، كان الاهتمام الأول والأساسي هو الموضوع العسكري. وبدأت أشرف بصورة مباشرة على بعض الدوريات عند نزولها على الحدود ومتابعة التحركات أولاً بأول عند الاشتباك مع العدو. وما زلت أتذكر أسماء الشهداء الذين قضوا أثناء المواجهات مع الدوريات الإسرائيلية وكانوا من خيرة المقاتلين الأبطال، ومنهم خالد الحاج أبو عيشة 1964 ولاحقاً عام 1966 محمد اليماني ورفيق عساف وسعيد العبد. كما أذكر أَسرَ سكران سكران.

بعد مرور بضعة أشهر على عودتي من القاهرة، حضرت زوجتي هيلدا وابنتاي ميساء ولمى إلى عمّان من القاهرة عن طريق المطار، إذ كانت الثورة قد فرضت وجودها في الأردن، وهو ما مكّن الرفاق من ترتيب خروجهن من المطار قبل إنجاز الإجراءات الروتينية، إذ كانت هيلدا ممنوعة من الدخول لأنها تجاوزت القانون في عام 1966، حيث اضطرت إلى الخروج من عمان إلى بيروت عن طريق التهريب، بعدما صادرت السلطات جواز سفرها ومنعتها هي والبنات من الخروج من الأردن. وكان وجودهن في عمان يشكل بالنسبة إلي راحة نفسية كبيرة، إذ إني رغم انشغالي تاريخياً بالعمل القومي والوطني، كنت مشدوداً دائماً إلى العائلة، رغم عدم قدرتي على القيام بواجباتي نحوها كزوج وكأب.

كنت أسكن في مخيم الوحدات، وكانت زوجتي وابنتاي يسكنّ مع أهلي في البيت نفسه، لعدم تمكننا من السكن معاً نتيجة الظروف الأمنية وانتقالي المتواصل ليلاً ونهاراً ونظراً إلى وجودي بين المقاتلين في المواقع الأمامية. لكن وجودهن في عمان كان يريحني، إذ كنت أزورهن من وقت

إلى آخر، كما كنّ يزرنني في القواعد العسكرية وفي المخيمات حين يتأكدن من أنني أستطيع أن أمضي بعض الوقت معهنّ.

في هذا العام، 1969، بعدما شعرت بأن أوضاع الجبهة بدأت تستقر وتنمو وتثبت وجودها، بدأ اهتمامي بأوضاع حركة القوميين العرب، ولا سيما في الفروع التي كانت تؤكد خط الجبهة الشعبية. وكان في العراق بعض الرفاق القياديين من فرع الحركة، من بينهم الرفيق أبو عدنان وأبو أنمار، قد أتوا إلى عمان ليبحثوا في أوضاع فرع الحركة في العراق. وكانوا يؤيدون الجبهة، ويدينون الانشقاق. فرحبت بهم وأبديت اهتمامي وقناعتي بضرورة الربط بين العمل الوطني الفلسطيني والعمل القومي، وهذا أمر كان واضحاً في التقرير السياسي الذي أقره المؤتمر الوطني الثاني للجبهة. اتفقت مع أبو عدنان على أن يقوم بمهمة الاتصال ببقية فروع الحركة. فسافر إلى الكويت ثم إلى اليمن لاستكشاف أوضاع الجبهة القومية، وكيف تنظر إلى علاقتها بمركز حركة القوميين العرب. لكن أثناء وجود أبو عدنان في عدن حصل تغيير في السلطة، إذ انتقلت من الرفيق قحطان وفيصل الشعبي، إلى الفريق الذي كان يمثله عبد الفتاح إسماعيل.

أما في ما يتعلق بفرع الحركة في الكويت، فكان رأي الدكتور أحمد الخطيب والرفاق الآخرين في قيادة فرع الحركة هناك، الاكتفاء بعلاقات إيجابية، وعلاقات تنسيق وعدم القبول بمركزة العمل القومي بالنسبة إليهم. أما الرفاق في سورية، فكان قسم منهم وبخاصة في حلب، متحمسين جداً للعمل القومي على أسس جديدة، وكانوا مؤمنين ومتحمسين للعمل في إطار حركة القوميين العرب ببنيتها الفكرية والسياسية الجديدة، وباسمها الجديد: «حزب العمل الاشتراكي العربي». لكن هذا الوضع لم يدم طويلاً، لأن بعضهم اتجه نحو الفريق المنشق. وأبرز الرفاق الذين أذكر أسماءهم: أبو علي حلب، وأبو ربيع. وما انطبق على فرعي الحركة في العراق وسورية انطبق على فرعها في لبنان. وأبرز الرفاق الذين كانوا كان مؤمنين ومتحمسين لهذا العمل في صيغته الجديدة، الرفيق منيف فرج من

مدينة صور جنوب لبنان، إلى جانب رفاق آخرين. أما بالنسبة إلى بقية فروع الحركة، كليبيا مثلاً، فكان رأينا أن نتركها تنمّي العمل القومي وامتداداته الجديدة.

بعد انشقاق جبهة التحرير الفلسطينية ومجموعة الضباط الناصريين الذين شكلوا معاً «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة»، وبعد انشقاق اليسار المراهق الذي شكل في ما بعد الجبهة الشعبية الديمقراطية، التي سميت في مرحلة لاحقة «الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين»، رسمت الجبهة قيادتها وكوادرها بقيادة ما كنا نعتبره اليسار الفلسطيني الحقيقي، أي «الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» سياساتها وأيديولوجيتها. وبقيت بعد ذلك مشكلة فرعية ليست بحجم المشكلات التنظيمية التي واجهناها سابقاً، وهي مشكلة تنظيم أبطال العودة الذي كان لقيادته ارتباط وثيق بالدكتور وديع، وبي شخصياً، وهو ما مكننا من احتوائه ضمن تنظيم الجبهة. وفي خريف 1969، عقدت اللجنة المركزية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين دورة هدفها ضم تنظيم أبطال العودة من خلال توسيع اللجنة المركزية للجبهة. فتم ذلك من دون إشكالات كبيرة.

في عام 1969، قامت «ثورة الفاتح» في 1 أيلول/سبتمبر، فشعرت بضرورة الاهتمام بتحالفاتنا الرسمية الوطنية العربية. وقد أتاحت ثورة الفاتح هذه الفرصة أمامنا. فسافرت مع الرفيق أبو ماهر إلى طرابلس الغرب لإجراء أول اتصال بالمسؤولين الليبيين، وتم الاتصال ببعض المسؤولين في قيادة الثورة. ولكننا لم ننجح في الاتصال بالرئيس معمّر نفسه. وفي ما يتعلق بالموضوع السياسي، كانت وجهة نظر المسؤولين الليبيين الذين اتصلنا بهم، تعبّر عن تأييدهم منظمة التحرير وفتح.

في عام 1969 أيضاً توفي والدي، وكنت في اجتماع لقيادة الجبهة، وكان والدي قبل وفاته بساعات قد طلب رؤيتي، ولكنني لم أتمكن من تلبية رغبته بسبب انهماكي بالاجتماعات المكثفة. بعد ذلك ببضعِ ساعات،

أتى رفيق ليخبرني بأنه قد فارق الحياة، فتألمت كثيراً لعدم تمكني من رؤيته قبل الوفاة. أجريت مراسم الجنازة في عمان وقد حضرها عدد كبير جداً من المشيعين، فاعتبرت ذلك تأييداً للجبهة ولي شخصياً، كما اعتبرت ذلك تعويضاً من إهمالي للوالد والعائلة، إذ كنت نادراً ما أقوم بالحد الأدنى من الواجبات العائلية.

وفي أثناء المواجهات التي تمت مع السلطة والاستخبارات والوحدات الخاصة في الأردن، أخبرنا أحد الذين اعتقلتهم الجبهة من القوات الخاصة، أن بعض أجهزة السلطة أو «الاستخبارات» قد خططت لاغتيالي أثناء جنازة والدي، ولكن هذا المخطط قد ألغي في اللحظة الأخيرة لسبب ما!

13 ـ أحداث أيلول الأسود في الأردن عام 1970

في 10 شباط/فبراير 1970، ذهبت إلى بيتنا في جبل الحسين لتناول الغداء، وفي الساعة الثانية استمعت إلى بيان من الإذاعة الأردنية يتضمن مطالبة المنظمات الفدائية باتخاذ إجراءات وترتيبات بإشراف السلطة الأردنية. فهمت فوراً، بطبيعة الحال، الهدف من هذه الإجراءات وهو الضغط على المنظمات الفدائية، إذ إنهم لا يريدون أي نشاط علني لهذه المنظمات. وفي حال نجاح السلطة في هذه الخطوة، سيكون من الطبيعي أن يتلوها خطوات أخرى تستهدف القضاء على ظاهرة الكفاح المسلح العلنية. أي، بعبارة أخرى، محاولة جديدة بعدما فشلت المحاولة التي أجرتها السلطات الأردنية في 4 تشرين الثاني/نوفمبر 1968. كانت السلطات الأردنية تريد إنهاء ظاهرة الكفاح المسلح قبل نموها وكانت المواجهة الأساسية في مخيم الوحدات وكان لرفاقنا دورٌ أساسيٌّ في إجهاض تلك المحاولة[1].

تناولت وجبة الغداء مع العائلة، وذهبت فوراً إلى مخيم الوحدات مقر قيادة الجبهة، ودعوت إلى اجتماع للمكتب السياسي ـ وكنا نسميه في ذلك

(1) يذكر الشهيد غسان كنفاني في تقييمه لتلك المرحلة أن رأس «المقاومة كان مطلوباً» كمقدمة لمشروع روجرز حينها لتسوية القضية الفلسطينية وأن المقاومة الفلسطينية (الجبهة الشعبية تحديداً) كانت تحاول استباق مفاعيل الاستهداف لإفشاله. انظر لقاء غسان كنفاني عن تلك المرحلة في لقاء على صفحات نيو لفت ريفيو: Ghassan Kanafani, «On the PFLP and the September Crisis,» *New Left Review*, vol. 1, no. 67 (May-June 1971).

الوقت القيادة السياسية ـ للبحث في هذا البيان واستهدافاته، وتحديد الموقف منه وإجراء الترتيبات ورسم برنامج المواجهة. وكان من ضمن برنامج المواجهة إصدار بيان، ثمَّ عقد ندوات في مختلف المخيمات والأحياء، لتوضيح أهداف السلطة من هذه الخطوة، والإعلان عن أن الجبهة سوف تتخذ خطوات لمنع السلطة من تنفيذ الإجراءات التي تضمنها بيانها. وأثناء انعقاد بعض الندوات، بادرت بعض الفصائل التابعة للجبهة إلى اعتقال بعض أفراد الشرطة ظنّاً منهم أن الشرطة تستهدف بداية تنفيذ إجراءاتها. ولكنني استقبلت هذه المجموعات الصغيرة من الشرطة وشرحت لهم موقفنا وأن عدونا الأساسي هو إسرائيل، وبعد ذلك أطلق سراحها بشكل ودّي.

في هذه الأثناء، كان أبو عمار خارج الأردن، فاجتمعت القيادة الفلسطينية التي كانت تتألّف بالدرجة الأولى من الجبهة، وفتح، والصاعقة، والديمقراطية، ودُعينا إلى حضور الاجتماع فطرحنا تحليلنا ووجهة نظرنا في الرجعية التي تُعدّ في معسكر أعداء الثورة[2]، رغم أن عدونا الأساسي في تلك اللحظة هو إسرائيل. اتفقنا يومها على نقاط عرفت بـ «النقاط الخمس» واقترحنا عقد المجلس الوطني لإقرار ذلك، وكانت هناك فرصة لتوحيد الموقف الفلسطيني على أساس هذه النقاط، واعتبرنا ذلك انتصاراً كبيراً للجبهة وخطها السياسي. وفي الوقت نفسه كنا نحرص على موضوع الوحدة الوطنية على أساس خط سياسي واضح، أساسه النقاط الخمس. لكن أبو عمار، الذي حضر المجلس الوطني، لم يقبل بهذه النقاط، معترضاً أساساً على النقطة المتعلقة بتحديد القوى الرجعية ضمن معسكر الأعداء. فوقفت الجبهة أيضاً موقفاً حازماً إزاء هذه النقطة، ورأت أن التراجع عنها يعني أن الانتصار الذي حققته المقاومة في معركة شباط/فبراير 1970 أصبح لاغياً، لكن الجبهة قبلت في النهاية بصيغة لا تذكر الرجعية بالاسم، ولكنها

---

(2) انظر «الاستراتيجية السياسة والتنظيمية» للجبهة الشعبية وتصنيفها لمعسكر الأعداء والأصدقاء.

تشير إلى ما يُفهم منه أن المقصود هو الرجعية العربية. وعلى هذا الأساس اشتركت الجبهة في المجلس الوطني الذي عقد في ربيع عام 1970 وكانت تشعر أنها تشترك في هذا المجلس من موقع جيد ومن الموقع الذي كانت قيادة الجبهة تريده لنفسها.

ثم ما لبثت حكومة رئيس وزراء الأردن بهجت التلهوني أن تراجعت عن بيانها، وعبّرت عن ذلك رسمياً. وبذلك شعرت جماهيرنا وقيادة الجبهة وأعضاؤها، ومقاتلوها بوجه خاص، بالانتصار الذي حققناه في هذه الجولة.

بعد ذلك تكررت محاولات النظام الأردني ضرب المقاومة وظاهرة الكفاح المسلح في المخيمات الفلسطينية؛ وكانت المحاولة التالية في حزيران/يونيو من العام نفسه. هنا أيضاً أدت الجبهة دوراً أساسياً في الصمود والمواجهة العسكرية. ولا بد أن أذكر هنا التظاهرات التي نظمناها كجبهة شعبية احتجاجاً على مواقف النظام التي تستهدف ضرب الوجود المسلح للمقاومة[3]. كما أذكر كيف شاركت زوجتي بفاعلية وحماسة في تلك التظاهرات. وقد كنا في القيادة نخشى أن تنجح السلطة في تحقيق هدفها وهو إنهاء ظاهرة الكفاح المسلح في العاصمة، فشعرنا أن في يدنا ورقة قوة يمكن أن تمنع السلطة من تنفيذ مخططها، وهي وجود عدد كبير من الصحافيين الأجانب في فندق الأردن. لذلك صممت الجبهة على استعمال هذه الورقة، فطوقت الفندق وهددت السلطة بنسفه ما لم تُوقف هجماتها على المقاومة.

نجحت الجبهة في إيقاف هجمة السلطة، وتوقف القتال. وأذكر حين توجهت إلى الفندق صباحاً مرتجلاً كلمة باللغة الإنكليزية شرحت فيها مأساة الشعب الفلسطيني، والحيثيات التي تضطرنا آسفين إلى مثل هذا النمط من العمليات، كما شرحت هدف السلطة من منع قتالنا ضد

---

(3) انظر: Kanafani, Ibid.

الاحتلال الإسرائيلي الذي انتزع أرضنا في فلسطين. وأعتقد أن دائرة الإعلام في الجبهة قد نشرت هذا الخطاب باللغة الإنكليزية. وقد دفعت هذه المواجهةُ الجبهةَ إلى القمة وأصبحت هي العنوان الأول في صدّ هجوم السلطة على ظاهرة الكفاح المسلح. هنا أيضاً شعرنا بأن علينا أن نستفيد سياسياً من هذا الانتصار، فرفعنا شعار إقالة قائد الجيش الشريف ناصر، خال الملك، كونه المحرك الأساسي لتكرار المحاولات التي تستهدف القضاء على المقاومة المسلحة.

جمع الملك قادة المقاومة، وعلى رأسهم أبو عمار، لإعلان انتهاء الاقتتال، واعتباره قتالاً بين الإخوة... إلخ. لكن الجبهة رأت في ذلك مجرد كلام، فالموضوع لا ينتهي إلا بإقالة الشريف ناصر. وفي اليوم التالي، رغم الاجتماع في قصر الحمّر، وصدور البيان الذي أُعلن عبره انتهاء الاقتتال، كان القتال لا يزال مستمراً فعلاً بمشاركة المقاتلين من التنظيمات كافة. وكان واضحاً أن البيان الذي صدر في قصر الحمّر بموافقة الجميع، باستثناء الجبهة، لم ينهِ هذا القتال، إذ أصرّت الجبهة على موقفها بضرورة إقالة الشريف ناصر، إلى أن أعلن القصر إقالته، فأعلنت الجبهة وقف القتال.

ساد جوّ من القلق عقب صدامات حزيران/يونيو التي أدت إلى إقالة الشريف ناصر. وهذا ما دعا السلطة وقيادة الجيش بوجه خاص إلى التأكد من توقف القتال. فدعت قيادة الجيش الفصائل الفلسطينية إلى اجتماع في قيادة الأركان في العبدلي، حاولتُ التغيّب عنه، ولكن يبدو أن قيادة الأركان قد أصرّت على حضوري شخصياً. وقد وجدت نفسي أمام إلحاح من وزير الدفاع العراقي في ذلك الوقت السيد صالح عماش، راجياً مني ألا أعقّد الأمور بعدم حضوري، مبدياً لي توفير الضمانات الأمنية كافة لسلامتي أثناء وجودي في هذا الاجتماع. كان تحالفنا مع العراق متيناً في ذلك الوقت، وكان وجود الجيش العراقي في الأردن سنداً للمقاومة الفلسطينية ضد محاولات النظام القضاءَ على ظاهرة الكفاح المسلح في الأردن. لهذا

ذهبت إلى قيادة الأركان مع وزير الدفاع العراقي، وحين دخلت بوابة القيادة كان بعض الجنود ينظرون إليّ بشراسة وحقد. وعند دخولي إلى القاعة توقف السيد مشهور حديثة الجازي، رئيس الأركان في ذلك الوقت، عن الكلام، وقال: إن الدكتور جورج قد حضر الآن، وأنا أريد فقط أن أطمئنكم من خلاله إلى وقف الاقتتال. هنا ثار أبو عمار معترضاً على كلام مشهور حديثة كونه هو (أي عرفات) من يقرر الأمور، لا أي شخص آخر.

لم أُرِدْ يومها إعطاء السلطة فرصة لاستغلال هذا التناقض بين فصائل المقاومة، وقلت: إننا موحّدون ونحن جميعاً ملتزمون بالقيادة التي على رأسها الأخ أبو عمار.

لقد توقف القتال فعلاً في الأيام أو الأسابيع القليلة التي تلت ذلك الاجتماع، لكن النظام الأردني بدأ يستعين بالجامعة العربية لمساعدته على درء الخطر الذي كانت تشكله المقاومة الفلسطينية على سيادته وأمنه حسبما كان يدعي[4]. فأرسلت الجامعة لجنة لتقصي الحقائق والاطلاع على الأوضاع، ومحاولة ترتيب المصالحة بين المقاومة والنظام. زار وفد من الجامعة العربية برئاسة الباغي الأدهم الأردن وأدى دوراً في المفاوضات بين السلطة الأردنية والمقاومة الفلسطينية أثناء معارك أيلول/سبتمبر وبعدها، وتم ترتيب الأوضاع على أساس خروج المقاومة من عمان وحصر وجودها فقط في مناطق جبلية بين جرش وعجلون. فالتقيت ببعض المندوبين بناء على طلبهم، ولم أكن في ذلك الوقت أعطي لمثل هذه اللقاءات أو الاجتماعات الرسمية الكثير من الاهتمام، لسببين أساسيين: أولهما أن تكوين الجامعة العربية بأغلبيتها هو إلى جانب النظام، وهو ما كان يجعل المقاومة غير فعّالة في قتالها ضد إسرائيل، وفي تعبئة الجماهير الفلسطينية للقتال في سبيل أهدافها. والسبب الثاني أنني كنت على يقين

(4) انعقدت القمة العربية في القاهرة في 23 أيلول/سبتمبر من أجل وقف القتال، وقد قاطعته سورية (التي اشتبكت قواتها مع الجيش الأردني) والعراق والجزائر حلفاء المقاومة الفلسطينية الأساسيين حينها.

بأن النظام يخطط بالتأكيد لضرب المقاومة وإنهاء هذه الازدواجية التي تعيشها الساحة الأردنية لمصلحة النظام الأردني[5]. غير أنني بين وقت آخر، كنت أعطي لبعض هذه اللقاءات السياسية الاهتمام الكافي الذي يفيد عملنا وعمل الجبهة، فالتقيت يومها مستشار الرئيس عبد الناصرِ كي أشرح له سوء الفهم الذي حصل بيننا والسبب في عدم اللقاء بالرئيس عبد الناصر في زيارتي الأخيرة للقاهرة. وقد شعرت أنه كان متجاوباً كليا معي، ووعد بأن ينقل إلى الرئيس وجهة نظري بكاملها. وقد فرحت فعلاً متوقعاً أن تعود العلاقة بين الجبهة والقيادة المصرية إلى سابق عهدها.

هذا هو اللقاء الأساسي الذي أذكره عن وفد الجامعة العربية. لكنني أذكر أيضاً أن بعض المسؤولين العرب كانوا قد أشاروا في ما بعد إلى لقائي بهم في تلك المناسبة وبعضهم توطدت علاقتي بهم مثل السيد الأخضر الإبراهيمي وآخرين.

في هذه الفترة طرحت الإدارة الأمريكية «مشروع روجرز» لتسوية الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وكانت المقاومة في ذلك الوقت في أوج قوتها وعنفوانها وتحلم بتحرير التراب الفلسطيني بكامله والقيام بالرد العربي الثوري على هزيمة حزيران/يونيو، وكانت تحلم بتحرير كامل المنطقة العربية أيضاً.

كان رد الفعل على قبول عبد الناصر بمبادرة روجرز عنيفاً، وانطلقت تظاهرات في جميع المخيمات، وكان لهذا الموضوع تأثير سلبي كبير في العلاقات بين الثورة الفلسطينية وعبد الناصر، وبوجه خاص بين اليسار الفلسطيني والرئيس عبد الناصر. وفي ما بعد علمت كيف كان الرئيس عبد الناصر يتحدث بمرارة عن هذه الحادثة، وعن التظاهرات والشعارات التي رفعتها المقاومة في ذلك الوقت حيث اشتركت فصائل المقاومة كافة في التظاهرات ورفضت المبادرة باستثناء فصيل ثانوي بقيادة عصام

(5) هذا ما حدث فعلاً لاحقاً في جرش.

الصرطاوي. وكان رأي بعض الرفاق أن يتم القضاء على هذه المجموعة لصغرها من ناحية، ومعارضتها بفجاجة للمزاج الجماهيري في ذلك الوقت من ناحية ثانية. وتصوَّرنا أنه في الإمكان القضاء عليها خلال ساعات. وافقت على هذا القرار، لكن الأمور لم تسر وفق تصوُّرنا، وتعقدت الأمور وأدت إلى اشتباكات في مخيم البقعة، فخشيت من امتدادها وتشابكها مع قوى أخرى، واتخذت قراراً بإيقافها بأسرع وقت. وكان هذا درساً بالنسبة إلي في ما يتعلق بخطورة الاقتتال المسلح، ودرساً بضرورة التروي وعدم الأخذ في رأي البعض من الرفاق المتهورين.

في النصف الأول من عام 1970، بدا لي ولقسم كبير من الجماهير في الأردن، أن الجبهة ستتمكن من المشاركة الحقيقية في قيادة المقاومة، ومشاركة فتح في هذه القيادة مشاركة فعلية، بحيث لا تستطيع فتح بأي شكل من الأشكال، أن تقود الأمور وحدها كما تريد. ظهر هذا بوضوح بعد أحداث شباط/فبراير من ناحية، وبعد أحداث حزيران/يونيو من ناحية ثانية.

* * * *

كان تركيزي الأساسي في تلك المرحلة على الندوات والاتصال بالجماهير، والاهتمام بالتنظيم، وصرف قسم كبير من وقتي للإشراف على فاعليتنا العسكرية سواء في داخل فلسطين، أو على الحدود الأردنية ـ الفلسطينية. وكنت كذلك أخصص قسماً من وقتي خلال هذه الفترة للعمل السياسي، فكنت أرحب بالاتصالات التي تأتينا من جانب فصائل قوى التحرر الوطني العربية، وأصرف قسماً من الوقت للإعلام الخارجي الدولي. أما على صعيد النشاط السياسي الدولي، فلم تكن الجبهة قد شقت طريقها في هذا الميدان. بل على العكس، كانت عمليات الطائرات قد أعطت صورة سلبيةً وانطباعاً خاصاً عن الجبهة، إذ اعتبرتها الدول الاشتراكية عمليات تسيء للقضية الفلسطينية، فلم تكن تحبّذ أي صلة خاصة بالجبهة الشعبية. كانت أول دعوة للجبهة إلى زيارة بلد اشتراكي هي

من كوريا الشمالية، قد تمت من خلال سفارة كوريا الشمالية في عدن. كان مندوبنا هناك، محمود السمان، كادراً نشطاً نجح في إقامة علاقات بالسفارة الكورية، بحيث تمت دعوة قيادة الجبهة إلى زيارة بيونغ يانغ. كان من الطبيعي أن أوافق على هذه الدعوة بحماسة شديدة، لأن هذه الزيارة قد تشكل مدخلاً لإقامة علاقات تدريجية بدول المعسكر الاشتراكي. وقد تشكل وفد الجبهة من أربعة رفاق: اثنان منهم الآن خارج إطار الجبهة واستشهد الثالث وهو الحاج فايز في عملية مطار عنتيبي الشهيرة. وكنت أنا على رأس هذا الوفد، وتمت الزيارة في آب/أغسطس 1970.

كنت أرغب في أن يضم الوفد رفيق سوري الجنسية هو الرفيق سمير البيطار، وهو شاب ذكي جداً كنت أتوقع له مستقبلاً باهراً، وكان في تلك الفترة يعمل مدير مكتب لي، لكنه اسُتبدل برفيق آخر. أما بالنسبة إلى الرفيق سمير البيطار، فقد علمت بعد عودتي من رحلة كوريا والصين أنه استشهد في معارك أيلول/سبتمبر، وما زلت أتذكر باستمرار ذلك الرفيق الذي أكن له كل المودة والتقدير.

كان موضوع خروجي من الأردن يتم عن طريق التسهيلات التي كان يوفرها لي وجود الجيش العراقي في المفرق كما سبق أن ذكرت، ومن بعد المفرق أواصل الرحلة إلى بغداد، ومن هناك أنتقل جواً إلى المكان الذي أقصده.

في طريقي إلى بيونغ يانغ توقفنا في موسكو مؤقتاً، حيث قابلني شخص لم أعد أذكر اسمه ولكنني عرفت أنه علم بوجودي من خلال سفارته في بيروت. لقد كانت قضية سفري تتم عادة على مراحل بسبب الظروف الأمنية. وأعتقد أنني قبل موسكو، مررت ببيروت حيث رتب لي الدكتور وديع موضوع السفر، وترتيب موضوع التوقف في موسكو تحديداً. أما الشخص السوفياتي الذي قابلته في موسكو، فقد قام بتحديد موعد لقاء

لي أثناء عودتي من كوريا، فقلت في نفسي: إن هذه الرحلة ستشق طريقنا نحو علاقات بموسكو وبقية البلدان الاشتراكية.

استقبلنا في العاصمة الكورية بيونغ يانغ ممثلو وزارة الخارجية ولجنة التضامن. وقد أقمنا في قصر للضيافة ما زلت أذكر ضخامته وحسن الضيافة، وأكثر ما لفت نظري في تلك الرحلة، تقديس الزعيم كيم إيل سونغ والألقاب التي يطلقونها عليه. وما زلت أذكر الأماكن التي وضعوها لوفدنا في برنامج الزيارة. فهذه هي المدينة التي ولد فيها الزعيم، وهذا قبر والدة الزعيم، وهذه... إلخ، كل ما يتعلق بالزعيم. وكان هناك بند آخر هو زيارة حضانة أطفالٍ وقفوا ينشدون للزعيم كيم إيل سونغ بطريقة تشبه التأليه، وكان ذلك يتكرر عند كل زيارة لوفدنا للمصانع والمؤسسات.

التقى وفدنا بعدد كبير من المسؤولين على أعلى المستويات، باستثناء الرفيق كيم إيل سونغ، فقد كان يقال لنا إنه يعدّ لوثائق مؤتمر الحزب في ذلك الوقت. لقد كانوا حريصين على تعداد الإنجازات التي حققها نظامهم الاشتراكي، وقد زرنا بعض هذه الإنجازات، وشعرنا فعلاً بكثرتها وأهميتها.

كنا نشرح لهم في أثناء المفاوضات تاريخ القضية الفلسطينية، وأوضاع الثورة الفلسطينية الحالية، والمؤامرات التي تواجهها. ولكنني كنت ألاحظ أن اهتمامهم بما نطرحه لم يكن عميقاً، بل كانوا يكتفون بالتأييد الشكلي في بعض الحفلات التي أقيمت بمناسبات وطنية لهم، قُدم وفدنا فيها على أنه ضيف الشرف، وما زلت أذكر اهتمام بعض السفراء العرب والأجانب بنا. وفي إحدى المناسبات شق طريقه نحوي شخص هندي، ربما كان صحافياً، وذكر لي بلهجة حماسية أنه سعيد جداً بالتعرف بي، وأنه سيذكر أنه ألتقى بي، وأخذ يعرّفني إلى كثير من زملائه. وما كنت أعلم أن الجبهة الشعبية أصبحت معروفة على هذا المستوى العالمي إلى الحد الذي أوحى لي به هذا الصحافي.

في أثناء زيارتي كوريا حصلت أحداث السابع عشر من أيلول/سبتمبر وكنت أعرف أن معركة حزيران/يونيو والمناوشات التي تلتها في آب/أغسطس، لن تكون الأخيرة. لكنني لم أكن أتوقع أن يكون شهر أيلول/سبتمبر هو الشهر الذي يخطط له النظام لخوض معركته الحاسمة ضد المقاومة الفلسطينية في الأردن.

وحين علمت باندلاع القتال، اتصلت بالمترجم وطلبت منه لقاءً بالمسؤولين عن الزيارة. وحين تم هذا اللقاء شرحت لهم خطورة الأنباء التي سمعتها، وأنني لا أستطيع أن أستمر في الزيارة وفق البرنامج المرسوم. وطلبت منهم ترتيب إجراءات سفري فوراً.

كان رد فعل المسؤولين إزاء طلبي اختصار الرحلة وترتيب السفر يتسم بالبرودة. فقد قالوا إن برنامج الزيارة الموضوع يتطلب أسبوعين لكي نطلع على إنجازاتهم كافة، وأشاروا إلى تقيدهم ببرنامج رحلات الطيران الكوري. لكن كنا مصرين على قطع الزيارة والعودة فوراً. وبما أن برنامج رحلات الطيران الكوري محدد، اتصلنا بالسفارة الصينية سعياً لإيجاد رحلة طيران بديلة وبهدف إجراء اتصال سياسي سريع مع بكين في الوقت نفسه. ومع أننا لم نكن نتوقع الجواب الإيجابي حول هذا الطلب، إلا أننا فوجئنا وسررنا بأن بكين ترحب بنا، فتم ترتيب إجراءات السفر فوراً.

قبل أن أنهي حديثي عن زيارة كوريا، لا بد من أن أذكر أننا حصلنا، إضافة إلى الاهتمام المعنوي، على مساعدة عسكرية (500 كلاشينكوف) كانت بالنسبة إلينا هدية ثمينة، كما قُدمت إليّ هدية شخصية ما زلت أحتفظ بها في بيتنا، وهي لوحة لامرأة كورية تعمل في الحقل وفي الوقت نفسه تحمل بيدها بندقية كلاشينكوف. وهذا تعبير عن اهتمامهم بالدفاع عن الوطن وبناء مجتمعهم الاشتراكي في آن معاً. وقيمة هذه اللوحة أنها مشغولة باليد، أي أنها تطريز يدوي وأنها هدية من الزعيم كيم إيل سونغ، ما زالت زوجتي تعلقها على الجدار في غرفة الضيوف باعتزاز شديد.

في مطار بكين كان الاستقبال جيداً، ضمّ مجموعة كبيرة من الرفاق الصينيين، فهمت في ما بعد أنهم من لجنة التضامن، التي كانت في ذلك الوقت تُدعى «لجنة التضامن مع الشعوب»، إضافة إلى ممثلين عن وزارة الدفاع، وكذلك وزارة الخارجية. كنا مشدودين جداً إلى ضرورة السفر بأسرع وقت، ولهذا رجونا الإخوة الصينيين أن يرتبوا لنا موضوع السفر إلى العراق أو لبنان في طريقنا إلى الأردن.

لكننا بطبيعة الحال اعتبرنا هذه الزيارة زيارة رسمية، وكذلك اعتبرها الصينيون. وكان الموقف الصيني في تلك الفترة موقفاً يتجاوز الموقف السوفياتي بالنسبة إلى قضايا التحرر الوطني في العالم، وقضايا التحرر الوطني العربي، وبالتالي بالنسبة إلى الثورة الفلسطينية. وما زلت أذكر بقوة موقف أحد المسؤولين الصينيين تجاه إسرائيل، بوصفها قاعدة إمبريالية صهيونية رجعية عنصرية في المنطقة، لا بد من اجتثاثها، ولا يمكن للصين أن تعترف بها بأي شكل من الأشكال، حتى لو استمر وجودها ألف عام.

الموضوع السياسي والعسكري الذي كان موضع نقاش بين وفدنا وبين الإخوة الصينيين هو موضوع اختطاف الطائرات، فشرحت لهم حيثيات موقفنا في الخط العسكري، وأن هذا التوجه يفيدنا في هذه اللحظة التاريخية نظراً إلى إهمال الرأي العام العالمي القضية الفلسطينية، وأن هدفنا من موضوع خطف الطائرات، هو أن نلفت نظر العالم كله إلى وجود شعب مظلوم اقتُلع من أرضه وشُرِّد، لذا فهو يناضل من أجل العودة إلى أرضه ووطنه، وبالتالي من واجب دول العالم كافة أن تؤيده في نضاله. قدر الصينيون طبعاً الحيثيات التي طرحناها تفسيراً وتبريراً لهذا التوجه، ولكنهم بقوا عند رأيهم بأن هناك وسائل أخرى للدفاع عن قضيتنا، وأن هذا الخط يؤثر سلباً من ناحية التعاطف العالمي مع القضية الفلسطينية.

كانت زيارتنا للصين قصيرة جداً، والبرنامج الذي وُضع لتلك الزيارة كان ذا شقين: شق سياسي حيث شرحنا لهم رؤيتنا للثورة الفلسطينية،

واستمعنا إلى رؤيتهم للوضع العالمي. والشق الآخر كان عسكرياً حيث زرنا بعض القواعد واستمعنا إلى تجاربهم العسكرية وأنشطة الجيش الشعبي الصيني، وما يقوم به من مهمات متعددة ومتنوعة.

كان لي أمنية أن ألتقي بالزعيم الصيني الأول ماو تسي تونغ، لكنني لم أسجل مثل هذه الرغبة، نظراً إلى أني كنت أشعر بصعوبة هذا الطلب وما قد يحتاج إليه من وقت.

في تلك الفترة السياسية، كنت أميل بيني وبين نفسي إلى الخط السياسي لدولة الصين، وأشعر بأن الصين أكثر تجاوباً مع قضايا التحرر الوطني من الاتحاد السوفياتي، وكنت مرتاحاً لوضوح موقفهم إزاء الصراع مع الكيان الصهيوني، ونظرتهم إلى إسرائيل، وعدم اعترافهم بها. ولكن كنا في الجبهة الشعبية نسجل في أدبياتنا في تلك الفترة أهمية وضرورة وحدة المعسكر الاشتراكي.

عدنا إلى المنطقة عن طريق موسكو. وكنت أتوقع أن يتم اللقاء السياسي الذي كان متفقاً عليه بيننا وبين المسؤولين السوفيات بعد عودتنا من الصين. ولكن مثل هذا اللقاء لم يتم، كان هناك ترتيبات أمنية لنا، ولقاء سريع مع شخص واحد فقط، هو نفسه الذي التقينا به في طريقنا إلى كوريا. وقد أخبرنا أن سبب عدم اللقاء السياسي هو موضوع خطف الطائرات الثلاث التي حطت في مطار الثورة. وقد لمسنا أن هذا الموضوع قد أحدث دوياً عالمياً كبيراً، وهو ما اعتبرته السلطات الأردنية أحد تبريراتها لأحداث أيلول/سبتمبر.

تحدث هذا المسؤول السوفياتي عن موقف موسكو السلبي من خطف الطائرات. وكان معظم حديثه ينصب على ضرورة إقلاعنا عن اتباع هذا النهج في عملنا العسكري.

ومن موسكو انتقلنا بالطائرة إلى بيروت. وكانت عملية ترتيب التنقل عملية شائكة ومعقدة أحياناً. كنت أريد التوجه بأسرع وقت إلى الأردن،

ولكن كان الانتقال بالطائرة من موسكو إلى مطار عمان غير معقول، فلا بد من أن أستعين دائماً بتحالفنا مع العراق، ومساعدة الجيش العراقي الموجود في المفرق. فأقلتنا الطائرة من موسكو إلى بيروت في طريقنا إلى بغداد فالأردن. وقد علمنا أن المعارك هناك قد انتهت، وأن الجامعة العربية رتبت لقاء في القاهرة لحل الإشكالات الناجمة عن الوجود المسلح للثورة الفلسطينية في عمان.

كنت راغباً في أن أسلك الطريق إلى بغداد عن طريق بيروت، وكانت عائلتي في تلك الفترة في زيارة للبنان. ومرة أخرى شعرت بضرورة تسجيل عمق ارتباطي بزوجتي وابنتيّ. فرغم انشغالي الشديد المرهق بمهمات العمل النضالي بأشكاله المختلفة في ذلك الوقت لم أكن قادراً على نسيان الحد الأدنى من واجباتي إزاء عائلتي، ولم يكن هذا الموضوع قائماً على أساس الشعور بالواجب فقط. لكن كنت أشعر أنني لا أستطيع أن أبتعد عن عائلتي، لذلك كنت أغتنم أي فرصة للقاء بها. وكانت هيلدا تتفهم أوضاعي جيداً كما كانت هي التي تقوم بكل الواجبات تجاه ابنتينا، وهو ما كان يخفف من شعوري بالتقصير نحوهما.

كان سبب وجود عائلتي في بيروت أنني وزوجتي شعرنا بضرورة استقرار دراسة ميساء ولمى في السنة المقبلة، إذ كانت دراسة ميساء متقطعة في أكثر من بلد: لبنان فمصر، ثم الأردن، فشعرنا بأننا نريد لابنتنا لمى أن تستقر في دراستها وفق نهج معين منذ البداية؛ وكان رأينا، أنا وزوجتي، أن تدرس ميساء أيضاً في بيروت، وهذا كان سبب انتقال عائلتي إليها إلى حين خروج المقاومة من لبنان عام 1982 في إثر الاجتياح الإسرائيلي.

في بيروت اطلعت من خلال رفيق الدرب الدكتور وديع حداد على تفاصيل ما حصل في الأردن أثناء أحداث أيلول/سبتمبر، فسرّني أن المقاومة كانت موحّدة أثناء هذه المعارك، وهو ما جعلني أكتب لأبو عمار رسالة أمتدح موقفه أثناء القتال. كما سرّني دور جبهتنا، وبخاصة في مخيم

الوحدات. وقد تألمت حين علمت أن الرفيق سمير البيطار الذي كنت أود أن يرافقني في رحلتي إلى كوريا، قد استشهد أثناء تلك المعارك.

إن معركة أيلول/سبتمبر في الأردن هي من الأحداث التي حدّدت موقفي وموقف الجبهة حين كانت تتعرض الثورة الفلسطينية لهجوم معاد. كان الموقف بالنسبة إلى الوحدة الوطنية والعلاقة بين الجبهة من ناحية، وقيادة المنظمة وفتح من ناحية أخرى، تتحدد في ضوء قانون الوحدة والصراع: نتحد حين نواجه هجوماً يستهدف الثورة، بكل فصائلها، ونختلف حين تكون لنا مواقف مختلفة في كيفية المواجهة. وهذا قانون اتبعناه وكنت أدافع عنه باستمرار طوال مسيرة الثورة الفلسطينية.

في أثناء وجودي في بيروت، وقبل الانتقال إلى الأردن عن طريق العراق، صُدمنا بنبأ وفاة الرئيس عبد الناصر، وما زلت أذكر جيداً كيف كان رد فعل الجماهير اللبنانية حين أذيع الخبر، وكيف انطلقت التظاهرات تلقائياً في أماكن متعددة في لبنان، وكيف انهمرت دموعي أثناء رؤيتي هذه التظاهرات، وسماع الهتافات التي كانت تطلقها الجماهير بصورة عفوية. وتذكرت كذلك اللقاءات التي تمت بيني وبين هذا القائد الفذّ، الشجاع العظيم، الذي يجب أن يسجل التاريخ أنه مثّل حقبة نهوض قومي بالنسبة إلى الأمة العربية ووفاته شكلت انتكاسة كبيرة لمسيرة النضال القومي العربي.

أما ما كان يحدث بين حركة القوميين العرب والجبهة الشعبية من ناحية، وبين عبد الناصر من ناحية ثانية، من تباين في وجهات النظر أو خلافات، فهي تعارضات ثانوية قياساً على طبيعة العلاقات التي كانت تربطنا بهذا القائد الكبير.

كان وديع حداد وغسان كنفاني موجودين في لبنان في ذلك الوقت. كان غسان يمثل الصوت الإعلامي للجبهة والمسؤول عن الهدف، المجلة المركزية للجبهة الشعبية، والرفيق وديع المسؤول عن جوانب معينة من

العمل العسكري والمجال الخارجي للجبهة، وكذلك عن النواحي المالية. وكان من الطبيعي أن أغتنم فرصة وجودي في بيروت لألتقي بهؤلاء الرفاق، ولنبحث معاً في مسؤولياتهم من ناحية، وفي الوضع الفلسطيني والعربي العام من ناحية ثانية.

كان واضحاً أن أحداث أيلول/سبتمبر شكلت ضربة قاسية للثورة الفلسطينية، وهو ما جعل استمرارها في الساحة الأردنية موضع تساؤل: تبقى أم لا تبقى؟ وكنت أعلم أنني حين أعود إلى الأردن، سأواجه وضعاً صعباً، وبخاصة أنني كنت أشعر بالمرارة بسبب عدم وجودي في الساحة الأردنية أثناء تلك المعركة المصيرية.

بعد ذلك توجهت إلى العراق، ومنه انتقلت سراً إلى الأردن، إذ كانت العلاقة مع النظام السوري على حالها من التوتر بعد عملية خطفي وتهريبي من السجن في عام 1968، وبالتالي لم يكن ممكناً العودة إلى الأردن عن طريق سورية.

عند عودتي إلى الأردن لم أعد بطبيعة الحال إلى عمان وإلى مخيم الوحدات، المقرّ الرئيسي لعملي قبل معارك أيلول/سبتمبر، بل عدت إلى جرش حيث انتقلت قوى المقاومة الفلسطينية المسلحة إلى منطقة الجبال والأحراش والمغر، بحسب الاتفاق الذي تم بين النظام والمقاومة الفلسطينية بإشراف وتحكيم الجامعة العربية.

وجدت نفسي أمام وضع جديد من نواح متعددة. كان الأعضاء القياديون لدينا في الأردن قد تفرّقوا إلى قسمين أساسيين: قسم بقي في عمان، وقسم آخر انتقل إلى منطقة جرش، إضافة إلى القسم الثالث الذي أتيت على ذكره، وهو القسم القيادي الموجود في لبنان. وحين بدأ تفاعلي مع الرفاق القياديين في تلك الفترة، وجدت حصول تغيير في الهيئة القيادية الأولى في أثناء غيابي (أبو علي مصطفى، أبو عيسى، أبو عدنان). لم أكن راضياً عن ذلك. وقد فسّرت حدوث هذا التغيير بتحريض من بعض الرفاق

الذين كانوا يعارضون الخط السياسي الذي كنت أدفع به، ولكنني كنت واثقاً بأن هذا الإجراء لن يؤثر في قدرتي على التحكم بالوضع القيادي في الجبهة. ولا بد من أن أذكر بصراحة أن غيابي عن معارك أيلول/سبتمبر، قد أثر في مدى قدرتي على التحكم في أوضاع الجبهة، سواء من حيث الخط السياسي وصياغته، أو من حيث قدرتي على التحكم بالأوضاع القيادية وترتيبها. ولكنني كنت قادراً، استناداً إلى تاريخي النضالي في حركة القوميين العرب، واستناداً إلى قدرتي على حسم أوضاع الجبهة بكاملها في المراحل السابقة، وكذلك استناداً إلى ثقة الرفاق التاريخيين بي، على دفع الأمور بالاتجاه الذي رسمته في ذهني لمواجهة المرحلة الجديدة الناتجة من خسارة معارك المخيمات في عمان التي أعتبرها زلزالاً كبيراً ألمّ بالشعب الفلسطيني والمقاومة الفلسطينية آنذاك.

كانت مهمتي الأولى هي دعوة اللجنة المركزية للجبهة لتحديد الخط السياسي والعسكري والتنظيمي في ضوء الإرباك القائم في الصف القيادي والكادر والضربة النوعية التي أصابت المقاومة من جرّاء معارك أيلول/سبتمبر.

هناك مثل شعبي يقول: إن الهزيمة يتيمة، أي إنها لا تجد من يتحمل مسؤوليتها. وهذا كان ينطبق على وضع الجبهة. فالكل يتهرب من تحمل المسؤولية ويلقيها على غيره. ولكنني بحكم مسؤوليتي كنت في كل هذه المناسبات السابقة واللاحقة، أقف لتحديد المسؤولية التي أتحملها، وأدفع هيئاتنا المركزية لتحديد الأخطاء والإعلان عنها للناس، وأقوم ببحث التناقضات بين الرفاق القياديين على أساسٍ رفاقيٍّ وديمقراطيّ قدر الإمكان.

لم تكن صعوبة الأوضاع الجديدة بعد أحداث أيلول/سبتمبر ناجمة عن أوضاع الجبهة الذاتية فقط، بل كانت هناك ظروف موضوعية جديدة ونوعية، لا بد من أخذها في الحسبان عند تحديد الخط العسكري

والسياسي. فالنظام الأردني استعاد قدرته العسكرية من خلال إعادة تنظيم جيشه وتسليحه من حيث العدد والعدّة. وكذلك استعاد ترتيب جهازه الأمني. أضف إلى ذلك أن إسرائيل اتخذت كل الإجراءات الأمنية على الحدود الفاصلة بين الأردن وفلسطين المحتلة، وهو ما جعل القتال ضد الجيش الإسرائيلي أمراً في غاية الصعوبة. وفي الوقت نفسه لم تنجح الثورة الفلسطينية في الداخل في تثبيت وزرع قواعد لها داخل فلسطين. وقد ظهر من خلال أحداث أيلول/سبتمبر تصميم الإدارة الأمريكية على دعم النظام الأردني في القضاء الكامل على الظاهرة التي مثلتها الثورة الفلسطينية، خوفاً من امتدادها إلى كامل المنطقة، الأمر الذي يهدد مصالحها الاستراتيجية في الوطن العربي ومنطقة الشرق الأوسط. ظهر ذلك من خلال المواقف الأمريكية في ذلك الوقت، كما بدا في مذكرات نيكسون وكيسنجر. في المقابل كان موقف الاتحاد السوفياتي مؤيداً لمنظمة التحرير سياسياً، لكنه لم يكن مستعداً بأي صورة من الصور لأن يساندها في حماية نفسها من المخطط الذي يستهدف القضاء على وجودها العسكري في الساحة الأردنية.

كل هذه الأمور كانت واضحة ومتوقعة قبل أحداث أيلول/سبتمبر. لكن الموقف غير المتوقع كان موقفا النظام العراقي والنظام السوري. وفي رأيي أن الموقف الرسمي لكل من هذين النظامين ساهم في فوز المعسكر المعادي لهذه للمقاومة في هذه المعركة. كان النظام العراقي يعلن رسمياً قبل أحداث أيلول/سبتمبر بأيام، أنه لن يسمح بأي شكل من الأشكال بالقضاء على الثورة الفلسطينية والمقاومة المسلحة في الساحة الأردنية، وأنه سيقف إلى جانب المقاومة إذا تعرضت لأي اعتداء يستهدف القضاء عليها. ولكن حين حصلت المذبحة، لم يعكس موقف الجيش العراقي هذا الادعاء، بل اتخذ موقف المتفرج واكتفى بالموقف السياسي والإعلامي فقط.

أما الموقف السوري الذي كان ينادي قبل معارك أيلول/سبتمبر بحرب التحرير الشعبية، فقد خاض بعض المعارك المساندة للمقاومة في منطقة الشمال، لكنه بعد وقت قصير جداً استجاب للضغوط التي مارستها الإدارة الأمريكية عليه. وبالتالي كان علينا أن نأخذ هذا الواقع الجديد على الصعيد الدولي وعلى الصعيد الرسمي العربي في الحسبان.

علاوة على ذلك كان الموقف الموحد لكل فصائل المقاومة، الذي كان عاملاً أساسياً في الصمود خلال أحداث أيلول/سبتمبر، قد طرأ عليه شيء جديد، نتيجة الضغوط الرسمية العربية من أطراف الجامعة العربية كافة، إذ بدأ أبو عمار يتجاوب مع الضغوط التي كانت تمارس عليه للتجاوب مع المقترحات التي كان يطرحها النظام الأردني على اللجنة المكلفة من جانب الجامعة العربية بتطبيق ما اتفق عليه حين توقف الاقتتال بين المقاومة والجيش. هذا هو الوضع الصعب الذي كان علينا أن ندركه ونحدد خطنا السياسي والعسكري بعد معارك أيلول/سبتمبر على أساسه.

ورغم هذا الوضع الصعب كله كنت مشدوداً إلى أهمية ساحة الأردن في نضالنا لتحرير فلسطين. كما كنت مشدوداً جداً إلى أهمية المحافظة على ظاهرة الكفاح المسلح في الساحة الأردنية وكنت أتساءل بيني وبين نفسي: ما الذي سيحدث للثورة الفلسطينية الحديثة إذا خسرنا الساحة الأردنية؟ لم تكن الساحة اللبنانية في ذلك الوقت قاعدة متبلورة على نحوٍ يضمن احتواء ظاهرة الكفاح المسلح الفلسطيني. وعلى هذا الأساس، شعرت أنه لا بد من القتال المستميت للحفاظ على الثورة الفلسطينية المسلحة في الأردن. وشعرت أيضاً أن السبيل إلى ذلك هو أخذ موقف الهجوم لا الدفاع. وكنت أدرك بطبيعة الحال أن هذا الموقف يحمل في طياته نوعاً من المغامرة. لكن هذه المغامرة أفضل من الموقف السياسي التنازلي الذي يؤدي تدريجاً إلى الرضوخ لمطالب النظام الأردني التي كانت ستؤدي إلى انتهاء ظاهرة الكفاح المسلح في الأردن.

لم يكن غير مرتاح لهذا الموقف سوى قيادي واحد شعر بأنه لا يستطيع الوقوف في وجه الموقف الجماعي المتحمس لهذا الخط. ولكنه طلب مني لقاء خاصاً لإبداء رأيه الذي يتلخص بحصر اهتمامنا ونضالنا في ساحة الداخل. وقد كان هذا الرفيق متألماً جداً، وحاولت أن أهدئ من خاطره، ولكنني لم أقتنع بوجهة نظره.

كنت دائماً مقتنعاً بأن مواجهة المشروع الصهيوني لا يمكن أن تتمَّ إلا بمشروع قومي مرتبط جدلياً بالمشروع الوطني الفلسطيني.

إضافة إلى الموضوع السياسي، كان على جدول أعمال اجتماع اللجنة المركزية الذي عُقد في جرش في تشرين الثاني/نوفمبر 1970، موضوعات أخرى. وما أذكره في تلك الدورة أنه أثير موضوع ضرورة الإسراع بإنجاز مشروع النظام الداخلي للجبهة، بعدما اتخذت منحى حزب ماركسي لينيني. وقد كُلفت بتقديم مشروع لدورة قادمة للجنة المركزية في أسرع وقت ممكن. أعتقد أنني نجحت في لملمة أوضاع الجبهة رغم ما أحدثته أحداث أيلول/سبتمبر من اجتهادات متعددة وانتقادات مختلفة، كادت تترك آثارها السلبية في أوضاع الجبهة.

بعد الانتهاء من دورة اللجنة المركزية، بدأنا نخوض معركة الدفاع عن النفس بالنسبة إلى قواعدنا في الجبل. وأحياناً كانت عملية الدفاع عن النفس تأخذ شكل الهجوم على بعض قواعد الجيش الأردني. وأذكر أنه في أحد الأيام، دافع الرفاق عن أنفسهم بشكل جيد جداً، وهو ما مكنهم من الهجوم على بعض قواعد الجيش الأردني. وما زلت أذكر الفرحة التي غمرت المقاتلين في ذلك الوقت من جرّاء ذلك الانتصار التكتيكي المؤقت. لكنني أذكر جيداً أنني توقعت هجوماً مضاداً تقوم به وحدات الجيش الأردني في أسرع وقت ممكن. وسجلت هذه الواقعة في مذكراتي التي كنت حريصاً عليها مذ قدمت إلى الأردن، ولكنني فقدتها مع الأسف الشديد بعد الاجتياح الكامل الذي قام به الجيش الأردني في

صيف 1971، وما توقعته بالنسبة إلى الهجوم المضاد للجيش الأردني حدث فعلاً. وكانت النتيجة صدمة كبيرة للمقاتلين واحتلال مواقع جديدة من مواقع وقواعد المقاومة في جرش والمناطق الجبلية المحيطة بها.

كانت اللجنة العربية لتسوية الأوضاع العسكرية في عمان وفي الجبل منحازة بصورة واضحة، من وجهة نظرنا، للجانب الأردني. وكان أبو عمار يتخذ موقف المسايرة والرضوخ لمتطلبات اللجنة، وأذكر جيداً أن أبو عمار دعا في أحد الأيام إلى اجتماع لفصائل المقاومة الموجودة في الجبل، فحضرت ذلك الاجتماع، وفي ذهني أن تتخذ المقاومة الفلسطينية المسلحة موقفاً جماعياً يكفل الدفاع الجيد عن النفس، كون المقاومة ما زالت تملك قدراً من القوة يمكن أن يشكل قضية كبيرة بالنسبة إلى النظام. لكن ما حصل كان عكس ذلك تماماً، فقد فوجئت بموقف أبو عمار يهددني ويهدد كل الذين لا يتقيدون بتعليماته وتعليمات اللجنة العربية. وإلى جانب ذلك كان أبو الزعيم يقول، بمنتهى الوضوح، إنه مستعد لاستعمال السلاح إذا لزم الأمر لكبح جماح من يخرج عن أوامر أبو عمار. وبلحظة أيضاً أغلقت بعض الأبواب في القاعة، وفي هذه اللحظة قمت بحركة حاولت فيها دفع الطاولة من أمامي في إشارة إلى أنني سأقاوم، وأنني لن أتقيد بالتعليمات. وأشرت إلى المرافقين الذين كانوا معي على قلتهم، أن يدافعوا عني وعن أنفسهم إذا لزم الأمر، وبعد ذلك خرجت من القاعة، ولم يجرؤ أحد على الاعتداء عليّ، أو على أحد من الرفاق الآخرين الذين كانوا إلى جانبي. فذهبت فوراً إلى مقري في الجبل

كان ذلك الاجتماع يحمل إشارة واضحة إلى أن المقاومة بمجملها لن تتخذ الموقف الذي تريده الجبهة. وفي الوقت نفسه كان واضحاً أن أبو عمار سائر في خط الرضوخ لمتطلبات النظام واللجنة العربية العليا للجامعة العربية.

بعد ذلك، بدأ الجيش الأردني بمهاجمة قواعد الثورة في الجبل، وأصبحنا في موقف الدفاع بدلاً من الهجوم. وذات يوم بدأ الجيش الأردني بالهجوم على قاعدة لنا في الجبل، وكانت بعض القذائف تستهدفنا مباشرة، فسقطت قذيفة بالقرب من موقعي الخاص فحاول بعض الرفاق المسؤولين عن حمايتي أن يحموني بأجسادهم. وحين اشتدت الهجمات اليومية، وأصبح الرفاق معرضين للهجوم بشكل خطير، فقد بعض الرفاق القدرة على الصمود، وحاول بعضهم التملص من جبهة القتال والعودة إلى المدينة. فجمعت الرفاق كلهم وخاطبتهم بما أذكره جيداً: إن الوضع أصبح صعباً جداً، ومن يريد أن يبقى ويدافع عن الثورة فنحن نرحب به، والقيادة ستقدر له هذا الموقف، أما من يشعر بأن الوضع قد أصبح خطيراً، وأنه لا يستطيع الصمود والمواجهة فنحن لن نلومه، وسنسهل له طريق العودة إلى عمان.

في النتيجة، صمد قسم من الرفاق وصمموا على مواصلة المواجهة لحماية الثورة، أما القسم الآخر فاختار طريق العودة إلى المدينة. ورغم صعوبة الوضع، وبخاصة بعد مواصلة هجمات الجيش الأردني المتتابعة، كان بعض الرفاق يتمتعون بأعلى المعنويات. وأذكر جيداً كيف كان الرفيق أبو سمير، حمدي مطر، يستيقظ في الصباح وهو ينشد الأناشيد الوطنية والأغنيات، ويمازح الرفاق باستمرار. حتى في اليوم الذي كان الجيش الأردني يقصف قاعدة قيادتنا، كان أبو سمير وبعض الرفاق على المستوى نفسه من الصمود والتحدي.

في تلك الأيام كنت أقضي بعض الوقت في القراءة وفي الإعداد لمشروع النظام الداخلي الذي كانت اللجنة المركزية قد كلفتني بكتابته للدورة القادمة، كما كنت أكثّف القراءة باستمرار.

كانت زوجتي هيلدا ترسل لي الرسائل وتتذكرني دائماً، وأذكر أنها قبل عيد الميلاد، أرسلت لي بعض الأسطوانات والأشرطة لأم كلثوم التي كانت

تعرف أنني أطرب جداً لسماعها. وما زلت أذكر منها أغنية «بعيد عنك» وأغنية «اسأل روحك». كما كانت باستمرار تزودني بالحلويات والمأكولات الشهية وزجاجات العطر، وهذا كان يرفع من روحي المعنوية كثيراً ويزيد من تقديري لها ويشعرني بأنها كانت كبيرة وعلى مستوى الأحداث الجسام.

كانت هذه اللمسات تسعدني، وتشعرني بأني في جو عائلي يذكرني بالجو الذي كنت أعيشه باستمرار مع هيلدا وابنتينا ميساء ولمى. وكنت أعرف مدى قلقها لبعدها عني وخوفها علي، وكان الوضع ينبئ بسيطرة النظام على الوضع والتمكن من إنهاء وجود المقاومة المسلحة. وما زلت أذكر ليلة رأس السنة حيث سهرنا مع المجموعة بطرب وغناء، رغم كل التطويق والحصار وخطورة الوضع في ذلك الوقت.

كنت أقوم بكل واجباتي تجاه التنظيم، ليس في الجبل فحسب، بل في عمان والأردن بوجه عام، وكذلك في الساحة اللبنانية. وكنت أقوم بواجبي القيادي في كل فروع عملنا، كما كنت أقوم بجولات على القواعد في الجبل حيث كنت أحرص على رفع معنويات الشباب وتلمس مشاكلهم. وكان بعض الرفاق القياديين يأتون من عمان لنبحث معاً مشكلات عملنا في الساحة الأردنية. وزارني مرة واحدة على الأقل الرفيق أبو ماهر اليماني لبحث مشاكل الساحة اللبنانية والساحات الخارجية الأخرى.

وأعود بالذاكرة إلى اجتماع الدورة المركزية في أواخر عام 1970 حين اقترح عليّ أحد الرفاق القادمين من سورية أن أرسل رسالة للرئيس السوري حافظ الأسد الذي كان قد تسلم السلطة حديثاً في ذلك الوقت. فوافقت على ذلك، ولكن في ضوء هذه التطورات السلبية التي حصلت للثورة، لم يكن لهذه الرسالة أي نتيجة بعد توجيه تلك الضربة لنا.

أثناء تجوالي على قواعد الجبهة العسكرية في الجبل رأيت شاباً مقاتلاً بدا لي من ملامحه أنه أجنبي، فكان من الطبيعي أن أسأل عنه، فعرفت أنه من أمريكا اللاتينية، وأنه محب للثورة الفلسطينية، ويريد أن يكون مقاتلاً

من مقاتليها. كان صغيراً في ذلك الوقت ربما لم يتجاوز العشرين من عمره، وكان الدكتور وديع يفتش عن بعض المقاتلين الأجانب لبعض العمليات الخارجية، فكان هذا الرفيق أحد المقاتلين الذين تم اختيارهم لتلك العمليات، إذ اتضح فيما بعد أنه الرفيق كارلوس الذي أصبح معروفاً ومشهوراً، فهو أحد هؤلاء الذين قاموا بالعمليات الخارجية الكبيرة للجبهة.

وأثناء وجودي في الأردن منذ بداية عام 1969 لم يكن اهتمامي مقتصراً على عمل المقاومة، بل كنت مهتماً بالعمل العربي أيضاً، وبخاصة أنني كنت مسؤولاً عن عمل حركة القوميين العرب بكل فروعها في الوطن العربي.

صحيح أن الانشقاق كان قد أثر في هذه الحركة إلى حد كبير، لكن بعض الفروع وبعض الرموز كانت تريد متابعة العمل القومي، آخذة في الحسبان المستجدات التي نجمت عن حرب حزيران/يونيو، وما أحدثته من متغيرات. وكان خروجي من السجن في سورية حافزاً لبعض الرموز الذين أتوا إلى الأردن للاتصال بي، كما كان حافزاً لي للاتصال بهم. من هذه الرموز والأسماء أذكر الرفيق أبو عدنان والرفيق أبو نوار من العراق، وأبو علي من حلب، وشخصاً قيادياً آخر من سورية، والرفيق منيف فرج من لبنان. كان أبو عدنان يمثل حالة خاصة من النشاط والكفاءة، لذلك رأيت فيه الرفيق الذي يمكن أن يكون المساعد الأول لي في إعادة هيكلة حركة القوميين العرب واتخاذها الاسم الجديد، والتكوين الجديد، والهيكلية الجديدة، والبرنامج السياسي والنظري الجديد، في ضوء المستجدات والمتغيرات التي حصلت للحركة في إثر انهيار ما كنا نسميه تجربة البرجوازية الصغيرة في قيادة النضال القومي.

ذهب الرفيق أبو عدنان إلى الكويت للتباحث مع فرع حركة القوميين العرب هناك، وإلى الخليج بوجه عام، لمحاورة الرفاق في الاشتراك في التجربة الجديدة. لكنهم فضلوا الاكتفاء بنوع من التنسيق فقط، لا بالمشاركة

الحزبية. وذهب أبو عدنان إلى عدن للمهمة نفسها ولكن حدث في الوقت نفسه الانقلاب على قحطان الشعبي وفيصل الشعبي، فعاد من دون بلوغ أي مستوى من التنسيق. فاقتصر عملنا على تأسيس تجربة حركة القوميين العرب الجديدة مع الفروع الأربعة (فلسطين، لبنان، العراق، سورية). لكن هذه التجربة سميت باسم جديد هو «حزب العمل الاشتراكي العربي». وأصدرنا مجلة جديدة للحزب ساهمتُ فيها، إضافة إلى الافتتاحية، بموضوع أساسي حول أسس التجربة الجديدة.



جورج يخطب في إحدى مناسبات حزب العمل الاشتراكي العربي

14 ـ الثورة الفلسطينية: مرحلة لبنان وبداية الحرب الأهلية

في ربيع عام 1971 غادرت الجبل، أي أحراش جرش في الأردن، إلى بيروت عن طريق بغداد لعقد اجتماع للجنة المركزية بهدف إقرار مشروع النظام الداخلي ومن ثم أعود إلى الأردن، ولكن التطورات التي حصلت في منطقة الجبل هناك تتالت بسرعة، وهو ما جعل عودتي غير ممكنة أو شبه مستحيلة. وبذلك أصبح عملي متركزاً في الساحة اللبنانية منذ ذلك الوقت.

بعد بضعة أشهر انتهى الوجود الفلسطيني المسلح في الأردن وانتهت معه قواعد الثورة والجبهة كافة، وانتقل إلى بيروت بعض قيادات الجبهة وكوادرها عن طريق جيش التحرير الفلسطيني ولم يبق في الساحة الأردنية من قيادة الجبهة سوى عزمي الخواجة في عمان، وأبو سمير «حمدي مطر» في سجن الجفر وآخرين.

في الفترة التي عملت فيها في الساحة اللبنانية وقبل إغلاق مراكز الثورة في الأردن، وهي فترة بضعة أشهر، ركزت على دورة النظام الداخلي وأنهينا هذا الموضوع، كما ركزت على المركز القيادي في الساحة اللبنانية، وعلى التفاعل مع بعض الكوادر. لم يكن نمط عملي في الساحة اللبنانية كما كان في الساحة الأردنية، إذ كان أكثر من نصف عملي في الساحة الأردنية في القواعد العسكرية والتفاعل الجماهيري العام، وهو أمر يختلف عن

الوضع في لبنان، حيث المجال فيه متاحاً لعقد بعض اللقاءات مع الأصدقاء الفلسطينيين واللبنانيين، الذين كانوا يعرفونني وأعرفهم منذ فترة الدراسة في الجامعة الأمريكية، وكانوا يريدون مساندة الثورة الفلسطينية والعمل الفلسطيني، وبخاصة قبل الضربة التي حصلت للثورة في ساحة الأردن.

في هذه الفترة بلبنان، وبخاصة في ظل وضعنا العائلي الخاص الناتج من بعدي من زوجتي وابنتيّ، كنت أشعر بشوق شديد لمثل هذه اللقاءات العائلية التي كنت قد افتقدتها لفترة طويلة. لكن لم تكن الظروف الأمنية تسمح لي بأن أكون في وسطهن دائماً. بل كان في استطاعتي أن أزورهن باستمرار وألقاهن، فأشعر بأنني في جو عائلي. وكنت ألمس الفرحة في أعين ميساء ولمى. أما زوجتي الغالية هيلدا، فإضافة إلى اهتمامها بي في كل النواحي، واهتمامها الشديد بالموضوع الأمني الحساس بالنسبة إليها، واهتمامها العالي بكل ما يتعلق بي، فهي التي كانت تتابع النواحي الصحية والأمنية، فكانت تتسلح بالوعي والشجاعة واليقظة الدائمة بحيث كنت أشعر أحياناً أنها تحتاط أمنياً أكثر كثيراً مما يجب.

كان لدينا وضع أمني خاص، في ضوء خطف الطائرات من ناحية والمجال الخارجي[1] من ناحية ثانية، وتنفيذ بعض العمليات العسكرية

---

(1) قام «المجال الخارجي»، التابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بقيادة الدكتور وديع حداد، بتخطيط وتنفيذ سلسلة من عمليات اختطاف الطائرات للفت النظر إلى معاناة الشعب الفلسطيني. أولى هذه العمليات كانت اختطاف طائرة «إل عال» الرحلة الرقم 426 في 23 تموز/يوليو 1968 وهي متجهة من لندن إلى فلسطين المحتلة عبر روما. بعدها تم اختطاف الرحلة 840 المتجهة من لوس أنجلوس ـ كاليفورنيا إلى فلسطين المحتلة عبر روما في التاسع من آب/أغسطس 1969. وفي 6 أيلول/سبتمبر 1970، قامت الجبهة بعملية مركبة انتهت إلى خطف أربع طائرات وتحويلها إلى حقل داوسون في الأردن، وهو ما شكل مقدمة الصراع بين الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية.

في الأراضي المحتلة من ناحية ثالثة، وهو ما جعلني على رأس قائمة المطلوبين لدى إسرائيل. كان هذا الوضع يفرض علينا عدم إهمال الجانب الأمني الذي لم أكن أهتم به كما يجب، لكن زوجتي كانت ذات حاسة أمنية حادة، وهي التي كانت تأخذ على عاتقها الاهتمام بهذا الجانب. وقد كنا على صعيد العائلة نغيّر مكان إقامتنا بصورة دائمة ومستمرة، ونتردد على أكثر من بيت في وقت واحد، ونستعمل أسماء مستعارة مختلفة، مع كل مكان إقامة جديد، وكان على ابنتيَّ الطفلتين أن تحفظا الاسم المستعار في كل مكان جديد ننتقل إليه، كما لم يكن باستطاعتهما إقامة أي علاقة صداقة لتجنب أي زيارات متبادلة، لأن مكان البيت كان دائماً محاطاً بالسرية التامة، وهو ما فرض عليهما حالة من العزلة التامة وحالة دائمة من الخوف والقلق؛ فقد كان يستدعي الوضع أحياناً نقلهما ليلاً وفي أثناء النوم إلى بيت آخر، فتستيقظ ابنتي الصغرى في صباح اليوم التالي لتجد نفسها في مكان آخر، فتتفقد أغراضها الحميمة وأشياءها ولا تجدها، فتنفجر غضباً وسخطاً بسبب تلك الظروف التي حرمتها طفولتها الطبيعية والجميلة كباقي الأطفال. وما زاد على هذا الوضع الخاص والصعب صعوبة هو بداية الحرب الأهلية في لبنان عام 1975، حيث عاشت أسرتي كل سنوات الحرب حتى عام 1982 في وسط المناطق السكنية المستهدفة من بيروت الغربية[2]، وفي وسط الأحداث، وهو ما زاد من قلق هذه الطفولة بسبب الوضعين العام والخاص. أعتقد جازماً أن أسرتي دفعت ثمناً غالياً بكل ما في الكلمة من معنى.

كان معظم قادة المقاومة في الساحة اللبنانية يهتمون بالجانب الأمني من خلال تكثيف الحراسات وحشد أكبر عدد من المرافقين عند كل تحرك

---

(2) كانت بيروت الغربية هي منطقة إقامة ونشاط قيادة المقاومة الفلسطينية، لذلك كانت عرضة للاستهداف الإسرائيلي الدائم، وخصوصاً في أثناء غزو عام 1982 حيث تعرضت بيروت الغربية للحصار والقصف المتواصل لأكثر من ثمانين يوماً.

لهم. أما بالنسبة إلينا فكان اعتمادنا على سرعة الحركة وتغيير أماكن الإقامة باستمرار والتنكر والاختفاء والابتعاد من الحياة الروتينية والاجتماعية المألوفة واتباع طرائق عديدة للتخفي، حتى إن بعض الأصدقاء لم يكن في إمكانهم التعرف إلينا حينما نمر بهم ونحن في السيارة أو في أي مكان. وجدنا أن هذا النمط في الحماية، بالرغم من صعوبة تطبيقه الكبيرة على المستوى العملي، كان أفضل طريقة للتمويه والحماية. ففي معظم تحركاتي كانت هيلدا تقود السيارة ونكون وحدنا من دون مرافقة، رغم مطاردة العدو وملاحقته لي في ذلك الوقت، حيث كنا نعتمد على التنكر وتغيير شكلنا الخارجي بطرائق مختلفة.

كانت فترة الخروج من الساحة الأردنية، وخسارة القاعدة الأساسية للثورة في الأردن من أصعب الفترات في حياتي السياسية. فالهزيمة تثير دائماً البلبلة والإرباك في صفوف الكثيرين، وما كان عليّ إلا الصمود بشجاعة.

كان من الطبيعي في هذه الحال أن نطرح ضرورة عقد مؤتمر جديد للجبهة لتحليل الهزيمة من ناحية، ولاستقراء الوضع الجديد من ناحية ثانية، إضافة إلى إقرار مشروع النظام الداخلي، وإقرار وضع قيادي جديد للمرحلة الجديدة.

لم يكن صعباً تحليل أسباب هزيمة الثورة في الأردن ورسم المهمات للمرحلة الجديدة. لكن الصعوبة كانت في تحليل التناقضات الداخلية «داخل الحزب» ـ تحديد الوضع القيادي. هذه الموضوعات كادت تفجر أوضاع الجبهة، وتضعنا أمام انشقاق جديد.

قدمتُ إلى المكتب السياسي مسوّدة طرحتُ فيها تحليلاً للهزيمة في الأردن ورسم مهمات المرحلة الجديدة، فأخذت طريقها إلى التوثيق وأقرها المؤتمر الثالث للجبهة الشعبية الذي عقد في آذار/مارس 1972. أما في ما يتعلق بتناقضات الجبهة والوضع القيادي الجديد، فقد كان هذا الشغل

الشاغل الذي انهمكت فيه طوال الوقت، أي منذ خروج قاعدة الثورة من الأردن إلى حين انعقاد المؤتمر وما بعده لفترة طويلة.

كانت لي رؤية خاصة لتناقضات الجبهة لم يقرها عدد كبير من أعضائها القياديين في المكتب السياسي واللجنة المركزية، وبالتالي في المؤتمر. كانت هذه الرؤية تتمثّل بوجود ثلاثة تيارات داخل الجبهة، هي التيار اليميني، والتيار المناضل، والتيار الذي كان مشدوداً بطبيعة الحال إلى البنية النظرية لحركة القوميين العرب سابقاً وهي البنية المثالية. وكنت أعتقد أن هذا التيار بأغلبيته يمكن أن يتحول إلى الفكر الجدلي المادي، أي الماركسية، من خلال التثقيف وإحاطته بجو رفاقي، وعدم استفزازه.

هذا هو الموضوع الذي أطلقنا عليه اسم التحول، أي تحول تنظيم برجوازي صغير إلى حزب ماركسي، استناداً إلى ظروف موضوعية وعوامل ذاتية سجلتها في وثيقة عرضتها على المكتب السياسي واللجنة المركزية، تمهيداً لطرحها في المؤتمر بغية إقرارها بصفة رسمية ونهائية.

كنت أطرح الأفكار الأساسية بالنسبة إلى موضوع التحول، وأتداولها مع قيادة الجبهة، وبخاصة في أثناء انشقاق الديمقراطية. ولكن في ظل حالة البلبلة والتناقضات التي عاشتها الجبهة، بعد خروجنا من الأردن، والتي كانت تهدد بانشقاق جديد، فُرض علي أن أسجل وجهة نظري بالنسبة إلى موضوع التحول في وثيقة، بحيث لا تبقى وجهة نظر الأمين العام ومجموعة من الرفاق.

هذه الوثيقة سجلتُ فيها الظروف الموضوعية التي كانت تستند إليها عملية التحول، أهمها الوضع العالمي المتمثل بصمود الاتحاد السوفياتي وتحقيقه إنجازاتٍ كبيرة، ونمو بلدان المنظومة الاشتراكية، وانتصار الثورة الصينية، وكذلك بداية الانتصارات التي كانت تحققها الثورة الفيتنامية،

ومجمل الوضع العالمي في ذلك الوقت، يقابلها هزيمة حزيران/يونيو وعدم صمود ثورة عبد الناصر في وجه الهجمة الصهيونية.

أما بالنسبة إلى العاملِ الذاتي، فقد كان موضوع التحول يستند إلى طبيعة البنية الطبقية للبرجوازية الصغيرة التي لها طموحاتها في أن تصبح ضمن الطبقة البرجوازية الكبيرة. في المقابل، هناك روابط بينها وبين الطبقة العاملة، لكونها تقوم بالعمل نفسه الذي تقوم به هذه الطبقة، وكذلك وجود رأس قيادي متفهم لضرورة الانتقال من إطار الفكر المثالي إلى الفكر المادي الجدلي. كل هذه الموضوعات شرحتها بصورة واضحة ومسهبة في تلك الوثيقة التي كنا نسميها «الوثيقة التنظيمية».

قبل انعقاد المؤتمر في مخيم البداوي شمال لبنان، واجهنا الانشقاق الثالث الذي مرّت به الجبهة الشعبية بقيادة أبو شهاب، وهو عراقي وقيادي من تيار سوري، له توجه ماركسي يساري[3] وهذا كان آخر انشقاق واجهناه في ضوء الدروس الكبيرة التي استفدنا منها في هذه المسيرة الطويلة والشاقة.

هذا الانشقاق لم يعمر طويلاً، وفي بدايته كنت أخشى أن يتخذ حجماً بحجم انشقاق الديمقراطية. لكن أوضاع الثورة والمجموعة التي قادته وحركته لم تكن قادرة على شق مسيرة لها قيمة كبيرة. وقد اكتشفنا في ما بعد أن هذا الانشقاق حركته قوى معادية مرتبطة بإسرائيل.

توقف مؤتمرنا الثالث أمام الموضوعات التالية: أولاً، الموضوع السياسي والوثيقة التنظيمية، فالنظام الداخلي، ثم عملية تحديد الوضع القيادي وانتخاب اللجنة المركزية. لم يركز المؤتمر على الموضوع

(3) قد يكون المقصود «يساري طفولي» وهو توصيف لينيني (من لينين) لظاهرة التطرف اليساري أو اتخاذ مواقف يسارية متطرفة جداً لا تسمح بها موازين القوى، تأخذها عادة قوى ذات طبيعة اجتماعية برجوازية. انظر: فلاديمير لينين، مرض «اليسارية» الطفولي في الشيوعية، <https://revsoc.me/our-marxisms/30512>.

السياسي رغم أهميته بعد خروجنا من الأردن وأهمية الدروس التي سجلتها الوثيقة السياسية، وأهمية الرؤية السياسية للمرحلة الجديدة التي سجلتُها في كراس «مهمات المرحلة»؛ كما لم يقف طويلاً عند النظام الداخلي. فهذان الموضوعان، في ظل حالة التناقض التي عرفها أعضاء المؤتمر، أحالهما المؤتمرون إلى ما بعد انتخابي أميناً عاماً بالإجماع من الجميع، أي من جانب التيارات الثلاثة كافة.

كان من المفترض أن تكون مهمتي الأولى بعد المؤتمر تحديد أعضاء المكتب السياسي، وتقديم ذلك إلى اللجنة المركزية. لكن التناقضات بقيت قائمة ومنعتني من إنجاز هذه المهمة قبل إصابتي بالذبحة القلبية في 30 نيسان/أبريل 1972.

كان التيار اليساري يطرح ضرورة تمثيله بنسبة الثلثين في اللجنة القيادية. وكان الرفاق الآخرون يرفضون تحديد هذه النسبة، وتحديد عدد اللجنة القيادية على أساس النسب في الأصل. وبقينا في هذا الوضع المؤلم فترة من الوقت. ورغم ذلك، كان وجودنا في الساحة الفلسطينية يمثّل قوة أساسية في ضوء رصيدنا التاريخي، وكذلك وجودنا العسكري في قطاع غزة من خلال الرفيق «غيفارة غزة» الذي كان يمثّل ظاهرة نضالية من نوع فريد يصعب تكرارها، وكذلك في ضوء عملياتنا النضالية بوجه عام[4].

---

(4) «غيفارا غزة» هو الاسم التنظيمي لـ «محمد محمود مصلح الأسود»، وهو لاجئ فلسطيني هُجِّرت أسرته من حيفا وهو بعمر سنتين، وقطنت في مخيم الشاطئ في غزة. كان عضواً في حركة القوميين العرب منذ عام 1963 وواصل نشاطه في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين عقب النكسة في حزيران/يونيو 1967؛ وكان من مؤسسي الجناح العسكري في الأرض المحتلة. اعتقل لمدة عامين ونصف العام وخرج بعدها ليقود العمل العسكري ضد الاحتلال الإسرائيلي في غزة. استشهد وهو عضو في المكتب السياسي للجبهة في مواجهة مسلحة مع الجيش الإسرائيلي في 9 آذار/مارس 1972 مع اثنين من رفاقه (كامل العمصي وعبد الهادي الحايك).

في 30 نيسان/أبريل 1972، أصابتني ذبحة قلبية، وكنت في ذلك اليوم مع زوجتي هيلدا وابنتيّ ميساء ولمى، في دعوة غداء عند أحد الأقرباء. وأذكر أني أكلت بنهم شديد، وبعد عودتنا إلى البيت بوقت قصير، شعرت بنوع من الضغط البسيط في صدري وبوصفي طبيباً قلت في نفسي يجب التنبه، وحين اشتد الضغط بدأ العرق يتصبب مني ولاحظت زوجتي هذه الحالة فأسرعت الخطى لتنقلني إلى مستشفى الجامعة الأميركية، فتم ذلك بسرعة فائقة، وقد اضطرنا إلى ترك ابنتينا وحدهما رغم صغر سنهما في البيت، وأسرعت الخطى ونزلنا معاً إلى الشارع لنوقف سيارة تاكسي (أجرة). لم يكن لدينا في ذلك الوقت سيارة خاصة، فوجدنا صعوبة في إيجاد تاكسي بسرعة وحين وصلنا إلى باب الطوارئ في مستشفى الجامعة الأميركية سألنا الموظف عن اسم المريض وهنا وجدت هيلدا صعوبة في الكشف عن اسمي الحقيقي نتيجة الوضع الأمني، فأعطتهم اسماً مستعاراً لي، ولكنني أسرعت وأعطيت اسمي الحقيقي لأنني كنت أعلم أن وضعي خطير جداً ولا بد من إعلان الاسم الحقيقي، لكون بعض الأطباء أصدقائي شخصياً وسيعرفونني باسمي الشخصي. وبعد دخولي إلى المستشفى مباشرة، أصابتني نوبة قلبية ثانية حادة كادت تودي بحياتي لولا وجود الأطباء من حولي وتفانيهم في إنقاذ حياتي. وكان رأيهم أنها كانت أشد من النوبة الأولى. هنا سجل الأطباء لأم ميساء شجاعتها والقدرة على السيطرة على أعصابها والسرعة التي أوصلتني بها إلى المستشفى، الأمر الذي ساعد على إنقاذ حياتي. ليست هذه الحادثة الأولى التي أسجل فيها لزوجتي سرعة البديهة والحركة، والتغلب على المفاجآت، فمن عرف وضعي الصحي والأمني في ذلك الوقت سيوافقني الرأي في ذلك.

أشرف على علاجي عدد من الأطباء الأكفاء منهم أصدقاء لي من أيام الدراسة، مثل الدكتور منير شماعة الذي أكن له كل المحبة والتقدير. أما الطبيب الذي أشرف مباشرة على علاجي، فهو الدكتور فؤاد جبران

اختصاصي القلب المعروف، الذي أصبح صديقاً عزيزاً للعائلة في ما بعد. أود أن أشير أيضاً إلى دور الرفاق إلى جانب هيلدا؛ فقد استطاعت زوجتي الاتصال بالرفاق مباشرة بعدما اطمأنت أنني أصبحت تحت إشراف الأطباء. وفي الحال حضر الرفيق غسان كنفاني ومعه عدد كبير من الرفاق الذين كانوا يعملون معه في مجلة **الهدف** وكانوا جميعهم في حالة ذهول، ومن ثم حضر الدكتور وديع حداد ومعه رفاق آخرون، وكان للدكتور وديع دور كبير في السيطرة الأمنية على المستشفى حيث كان العدو الصهيوني في ذلك الوقت مستنفراً بقوة ضد المقاومة وضد الجبهة الشعبية بوجه خاص.

أشير هنا أيضاً إلى أن الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) تقدمت بطلب رسمي من إدارة المستشفى للحصول على تقرير طبي من الجامعة عن تفاصيل حالتي الصحية، كما جاء على لسان بعض الأطباء المشرفين علي الذين كانوا من ضمن إدارة مستشفى الجامعة في ذلك الوقت، وعلمنا أيضاً أنهم رفضوا رفضاً قاطعاً إعطاءهم هذا التقرير.

بعد أسبوعين، خرجت من المستشفى، وكانت زوجتي ورفاقي قد هيأوا لي بيتاً في جبل لبنان لقضاء فترة للنقاهة، بناء على توصية الأطباء بضرورة الابتعاد من العمل، وضرورة أخذ القسط الكافي من الراحة كمريض قلب، ولكن هذا القسط من الراحة لم يكتمل مع الأسف. فقد حدث بعد بضعة أسابيع حادث مؤلم جداً لي، هو اغتيال الرفيق العزيز ورفيق الدرب الطويل غسان كنفاني في 8 تموز/يوليو 1972 على يد الموساد الإسرائيلي، وقد تمت العملية الإجرامية بتفجير سيارة غسان حين همّ بركوبها وإلى جانبه ابنة أخته الشابة البريئة لميس، وكان لتلك الفاجعة وقع الصاعقة عليّ وعلى الشباب وعلى عائلته بوجه خاص.

لقد كان غسان بالنسبة إلي قيمة كبيرة منذ انتسابه إلى حركة القوميين العرب في الخمسينيات في دمشق، وكان يراسلني بعدما غادر دمشق للعمل في الكويت. وحين بدأ ظهور الموضوع الفلسطيني، وقبل انطلاقة

الثورة، كان يشرف على مجلة **فلسطين**. كان غسان شابا دمث الخلق، متواضعاً محبوباً من جانب الرفاق.

عند تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، بادر غسان إلى طرح فكرته بضرورة تأسيس مجلة مركزية لنا، من هنا تأسست **الهدف** التي ما زالت منبراً لأفكار غسان وجميع المناضلين الشهداء والأحياء في الثورة الفلسطينية.

أدى الرفيق غسان دوراً كبيراً في الإعلام الفلسطيني بوجه عام، وإعلام الجبهة بوجه خاص، وهو ما جعله منبراً إعلامياً مهماً على الصعيد العالمي. لم يكن غسان مجرد عضو مكتب سياسي للجبهة فقط، كما لم يكن مجرد مسؤول إعلامي فيها، بل كان كاتباً وأديباً موهوباً لامعاً ومرهفاً، شكّل علامة بارزة في تاريخ النضال الفلسطيني وأدب المقاومة. كان غسان صديقاً حميماً على الصعيد العائلي، نزوره بين وقت وآخر، وفي المناسبات الخاصة والأعياد. كان أطفالنا يلعبون معاً في حديقة المنزل التي كان يحرص غسان على زراعتها وتنسيقها لتبقى دائمة الاخضرار ومتنفساً لبيتهم البسيط.

سيبقى غسان حياً في وجدان شعبه ورفاقه، من خلال «مؤسسة غسان كنفاني» التي أنشأتها زوجته آني، ومن خلال مجلة **الهدف** وكتبه وقصصه ورواياته، ومن خلال مبادئه التي استشهد من أجلها. كان يوم استشهاده من أشد الأيام إيلاماً في حياتي. كنت أريد أن أشارك في الجنازة رغم وضعي الصحي، لكن الأطباء وزوجتي ورفاقي منعوني من ذلك، فاكتفيت بمشاركة هيلدا والرفاق الذين قاموا بواجب العزاء بالنيابة عني في تلك المناسبة الأليمة. لقد كتبت رسالة إلى الأخت آني كانت بمنزلة مشاركة وجدانية لها في هذا المصاب الجلل؛ فليس من السهل أبداً تعويض خسارتنا الفادحة بمثل هذا الإنسان المتميز والأديب المرهف والمناضل النقي، فكم هي طويلة قافلة الشهداء والطريق ما زالت طويلة.

رسالتي إلى آني كنفاني

آني الغالية،

لكم يؤلمني ألا تكون اللغة الإنكليزية لغتي الأصلية، فأعجز عن التعبير عن كل ما أشعر به وعن كل ما أود قوله في هذه اللحظة المهمة والصعبة.

لقد كان غسان بالنسبة لي شخصياً وبالنسبة لجبهتنا جمعاء، عزيزاً جداً، غالياً جداً، أساسياً جداً. عليّ أن أقر بأننا قد تلقينا ضربة موجعة.

الآن، يا آني، نواجه جميعنا وأنت بصورة خاصة السؤال التالي: ما ترانا نفعل لرجل، لرفيق، بهذا الإخلاص وهذه القيمة؟ ثمة جواب واحد فحسب: أن نعاني بشجاعة كل الألم الذي لا يمكن لأحد منا أن يتجنبه، ومن ثم، أن نعمل أكثر، ونعمل بطريقة أفضل، وأن نقاتل أكثر، ونقاتل بطريقة أفضل.

أنت تعلمين جيداً جداً، أيتها الأخت الغالية، أن غسان كان يقاتل في سبيل قضية عادلة؛ وتعلمين أن شعبنا الفلسطيني قد خاض حرباً عادلة على امتداد عقود من الزمن. ولقد وقف مؤخراً الثوريون الحقيقيون في العالم أجمع إلى جانب قضيتنا العادلة. وهذا يعني أن دم غسان الذي انضاف إلى نهر الدماء العظيم الذي قدمه شعبنا طوال العقود الماضية هو الثمن الذي ينبغي علينا أن ندفعه لنفوز بالحرية والعدالة والسلام.

ولا حاجة أن أخبرك أن تجربة الشعوب المقهورة في العالم أجمع تنبئ بأن ذلك هو الطريق الأوحد لهزيمة الصهيونية والإمبريالية والقوى الرجعية.

آني، إني أعرف جيداً جداً ما تعنيه خسارة غسان بالنسبة لك. لكن أرجوك أن تتذكري أن لديك فايز وليلى والآلاف من الإخوة والأخوات أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وفوق كل هذا لديك القضية التي حارب غسان من أجلها.

آني، نحن بحاجة إلى شجاعتك. إن شجاعتك في هذه اللحظة الحاسمة تعني الكثير بالنسبة لي، وبالنسبة لجميع الرفاق والمقاتلين في الجبهة الشعبية.

إن أكثر ما يؤلمني في هذه اللحظة ألا يكون بمقدور زوجتي هيلدا ولا بمقدوري أن نكون إلى جانبك. وأنت تعرفين أسباب ذلك معرفة جيدة كما أفترض. إنه ليحز في نفسي ألا أكون قد رأيت غسان، ولا كلمته قبل استشهاده.

أكرر: نحن بحاجة إلى شجاعتك، وبحاجة إلى أن تشعري بأنك لست وحدك ولن تكوني وحدك في أي زمن. وبانتظار المناسبة الأولى لرؤيتك، نبقى هيلدا وأنا أخلص أخت وأخ لك.

جورج حبش

تموز/يوليو 1972

في آب/أغسطس 1972 سافرت مع عائلتي إلى تشيكوسلوفاكيا تمهيداً لزيارة الاتحاد السوفياتي للعلاج. فبقينا في براغ بضعة أيام ثم غادرناها إلى الاتحاد السوفياتي.

في الاتحاد السوفياتي وجدنا صعوبة في الإقامة، لأن ميساء ولمى كانتا معنا وهناك قوانين لا تسمح بوجود الأطفال في المصحات. وكانت هذه بالنسبة إلينا مشكلة كبيرة في بداية الأمر، وبخاصة عقب وصولنا. وأخيراً كان الحل عن طريق الإخوة في سفارة اليمن الديمقراطي، حيث كانت علاقاتنا حميمة جداً مع الإخوة اليمنيين، وكان السفير في ذلك الوقت الصديق الحميم أحمد الشاعر، الذي توفي في ما بعد في حادث طائرة، فتغلبنا على هذه المشكلة من خلال عائلة يمنية في سفارة اليمن الديمقراطي كان لها الفضل في استضافة ابنتيّ.

في الاتحاد السوفياتي كوّنا فكرة عن طبيعة الإجازات التي يأخذها المسؤولون هناك، حيث كانوا قبل قضاء الإجازة يخضعون لفحوص طبية روتينية مرة كل سنة. وفي ضوء النتائج تقرر الإجازة أو يحالون إلى المستشفى عند وجود أي مشكلة صحية، وهذا كان ينطبق على جميع سفرائهم في الخارج.

كان المصح الذي أقمنا فيه بعيداً من موسكو نحو 50 كم يقع في منطقة جميلة جداً على ضفاف نهر. وبين وقت وآخر كنا نخرج مشياً على الأقدام للتمتع بالطبيعة الخلابة ولاستطلاع المنطقة. وكان بعض المسؤولين يقومون بزيارتنا للحوار وتبادل الآراء، وبخاصة أنهم يعرفون أن الجبهة الشعبية لها موقفٌ سياسيٌّ لا ينطبق تماماً مع موقفهم. وقد زارنا في ذلك الوقت بعض السفراء العرب المقيمين في موسكو، وكان السفير اليمني المرحوم أحمد الشاعر يزورنا على نحوٍ متواصل ويهتم بكل شؤوننا ومتطلباتنا ويصطحب معه ميساء ولمى لنتمكن من رؤيتهما. كنت أعرف أحمد الشاعر أثناء عملنا في حركة القوميين العرب، وكنت أعتبره من أنشط وأخلص الرفاق، رحمه الله.

كانت أغلبية المقيمين في المصح من كبار السن، وذوي الأوزان الثقيلة، أما نحن فكنا نكتفي بوجبة عادية خفيفة، ونراقب وزننا يومياً، حتى إن المسؤولين عن هذا المصح قدموا شكوى للطبيب ظناً منهم أننا لا نحب طعامهم، وهكذا فقدنا بعض الوزن. وقد كنا نُعد في ذلك الوقت شباناً في وسطهم.

خلال وجودنا هناك تم التعرف إلى عدد من الشخصيات السوفياتية، بعضهم أساتذة جامعات وبعضهم الآخر مسؤولون من مختلف الميادين.

بعد قضاء المدة المحددة في المصح، وقبل أن نتوجه إلى الوطن، وضع لنا الرفاق السوفيات برنامجاً للزيارة، أذكر منه زيارتنا لينينغراد وقصر الهيرمتاج الشهير، وبعض الأماكن التاريخية المعروفة في موسكو، منها الساحة الحمراء، وضريح لينين، والنصب التذكاري للشهداء، كما شاهدنا أول باخرة عسكرية أطلقت منها الرصاصة الأولى في ثورة تشرين الأول/أكتوبر.



جورج حبش في موسكو عام 1980

****

بعد انتهاء فترة العلاج، عدنا إلى بيروت، فوجدنا بعض الرفاق، الدكتور وديع وبعض الأصدقاء قد أعدوا لنا بيتاً مريحاً في منطقة هادئة لكي يوفروا لنا شيئاً من الراحة، وكنت حريصاً على الاستمرار بتنفيذ التوصيات الطبية، فاقتصر نشاطي على بعض القراءات والتقارير الحزبية المهمة وبعض اللقاءات والاجتماعات الحزبية ومقابلة عدد من الأصدقاء. أما موضوع التدخين، وطبيعة البرنامج الغذائي، وضرورة الحفاظ على الوزن والتمارين الرياضية بواسطة الدراجة الثابتة داخل البيت، فقد تقيّدت بها كلياً، ولا سيما باهتمام هيلدا وحرصها الشديد على متابعة كل التفاصيل التي كان يوصي بها الأطباء، وبخاصة الطبيب العزيز فؤاد جبران الذي كان متعاوناً معنا كلياً، ومهتماً بمتابعة وضعي الصحي.

أذكر جيداً كيف أن وزني قد نقص بناء على التقيد بتوصيات الطبيب، إلى 67 كغم، بعدما كان قبل المرض 85 كغم. وكان أول نشاط جماهيري قمت به بعد المرض، في آذار/مارس 1973، في مناسبةٍ لتخليد ذكرى شهيدنا غيفارة غزة الذي نعتز به، والذي يجب أن تعتز به الجبهة دائماً، إذ إن هذا الرفيق كان المسؤول العسكري في قطاع غزة في تلك الفترة وباعتراف العدو الإسرائيلي، وعلى لسان وزير الدفاع موشي دايان في ذلك الوقت، حيث أعلن أن غزة تسيطر عليها المقاومة كلياً أثناء الليل، وأن إسرائيل لا تستطيع دخولها إلا في النهار، فقد كان (محمد محمود الأسود) كالشخصية الأسطورية التي شكلت هاجساً للعدو الإسرائيلي لفترة من الوقت.

في أيار/مايو 1973 كان الجيش اللبناني يتهيأ لضرب المقاومة الفلسطينية خشية امتدادها لتصبح نموذجاً شبيهاً لما حصل في الأردن، فأصبح الجيش اللبناني يعدّ لمعركة حاسمة منذ البداية، قبل أن تستفحل الأمور.

كانت تجمعات المقاومة الأساسية في مناطق شاتيلا وصبرا وطريق المطار والفاكهاني ومخيم برج البراجنة. وقبل اندلاع المعارك بساعات

قليلة، كنت في بيت يقع في مكان قريب من تلك المناطق، أي بين منطقة المقاومة وثكنة من ثكنات الجيش الكبيرة والمعروفة. وفي ظل توتر الأجواء واستنفار الجيش، جاءتني أم ميساء لتخبرني بسخونة الجو، وبضرورة تغيير المكان فوراً. كان عليها أن تعود لميساء ولمى حتى لا تتركهما وحدهما. وبعد عودتها مباشرة، أقل من ساعة من الوقت، انفجر الوضع الأمني وأصبح التنقل من مكان إلى آخر ضرباً من الجنون. وبدأت أفكر في طريقة للخروج من هذا الوضع الملتهب لأتابع أوضاع المقاتلين، فلم أستطع بسبب غزارة النيران وقرب المكان من موقع إطلاق النار، وهو ما أدى إلى إصابة المبنى إصابات مباشرة، فاضطرت إلى النزول إلى الطابق السفلي وبقيت زوجتي على اتصال بي لنفكر معاً في كيفية الخروج من هذا الجحيم. ووجدنا أنه لا بد من الانتقال بسيارة إسعاف والادعاء بأنني مريض ظناً منا أنها ربما لا تتعرض للقصف. وبالفعل اتصلت هيلدا بالدكتور محمد شهاب الدين، وشرحت له حقيقة الأمر ومدى خطورة الوضع على حياتي إن بقيت في المكان نفسه. وعلى الفور تحرك بسيارته ترافقه زوجته ماري لإنقاذ الموقف، وتم نقلي بهذه الطريقة، بعدما تعرض البيت لعشرات القذائف بسبب موقعه الحساس. هنا نسجل أنا وزوجتي للدكتور محمد شهاب الدين والأخت ماري، تقديرنا لمثل هذا الموقف النبيل. وانتهت المعارك كما هو معروف من دون أن يحقق الجيش هدفه في توجيه ضربة للمقاومة الفلسطينية.

في حزيران/يونيو من العام نفسه، 1973، دُعيت إلى اجتماع للجنة المركزية لتسجيل الدروس المستخلصة من هذه التجربة، فسجلت درساً بعيداً من الحدث العسكري الذي حصل، وقلت للرفاق: إن المنطقة مقبلة على أحداث مهمة دوافعها الأساسية محكومة بموضوع النفط. هذا ما حصل في ما بعد، إذ إن ما فعله السادات والسياسة التي اتبعها بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973، والاتفاقيات التي وقعها مع العدو الإسرائيلي،

وكل سياسة كامب دايفيد، مرتبطة كل الارتباط بالنفط، الذي أصبح نقمة على الأمة العربية بدلاً من أن يكون نعمة رافعة لنهوضها.

وفي هذا العام 1973، جرت محاولة لاختطافي من جانب إسرائيل. فقد تم خطف طائرة «الميدل إيست» اللبنانية حيث كان لديهم معلومات أكيدة أنني من ركابها، وكنت بالفعل متوجهاً إلى المطار بناء على دعوة رسمية من الحكومة العراقية. وودعت عائلتي وحملت حقيبة السفر وتوجهت إلى المطار، ولكنني بدأت انتظر بعض أعضاء الوفد الآخرين. ولسبب من الأسباب اضطررنا إلى تأجيل الرحلة والعودة إلى البيت. كنت حريصاً على إخبار هيلدا بعودتي من المطار قبل انتشار الخبر عبر وسائل الإعلام، حتى أجنّبها أي صدمة، وهي التي كانت متأكدة أنني من ضمن الركاب. وبالفعل استطعت الاتصال بها قبل إعلان خبر اختطاف الطائرة من جانب إسرائيل.

كانت إسرائيل متأكدة من وجودي على متن الطائرة، وذلك بسبب معلومات أكيدة حصلت عليها من خلال عميل إسرائيلي تبيّن في ما بعد أنه أعطى كل التفاصيل لإسرائيل. وبعد ذلك عقدت مؤتمراً صحافياً وكان التركيز على كيفية معرفة الجبهة بالخطة الإسرائيلية، وكيفية تجنّب وقوع الجبهة في الفخ الإسرائيلي، وهنا امتنعت عن الإجابة، وقلت إنني لن أبوح بهذا السر للصحافة.

* * * *

حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973

في هذا العام أيضاً، 1973، حدثت حرب تشرين/أكتوبر بين إسرائيل من جهة، وبين سورية ومصر من جهة أخرى. فكانت مفاجأة بالنسبة إلى الجبهة أنها كانت تعتقد أن هذه الأنظمة، بما فيها الأنظمة الوطنية، غير قادرة على المواجهة بحكم بنيتها الأيديولوجية والسياسية والعسكرية. وقد كتبنا بهذا الموضوع المقالات العديدة وركزنا باستمرار على أن هذه

الأنظمة لا يمكن أن تكون قادرة على التحرير. وحين وقعت الحرب، خشينا أن تكون جماهيرنا، ومنها قاعدتنا الحزبية، مخدوعة بهذه الحرب، وبخاصة في الأيام الأولى مع نجاح الجيش المصري في عبور القناة، واختراق خط بارليف الشهير. ووجدت أنا وقيادة الجبهة أن ما حصل على الصعيد الميداني العسكري شيء كبير، ولا بدّ من أخذه في الحسبان، لكننا لم نفقد الرؤية الاستراتيجية، وكنا متأكدين من أن السنوات المقبلة ستثبت صحة رؤيتنا وموقفنا السياسي. وهذا الموضوع أثبتناه فعلاً، وهو موجود في أدبياتنا سواء بالنسبة إلى الموقف التكتيكي، أو بالنسبة إلى الرؤية الاستراتيجية. هنا يهمني كثيرا أن أسجل البطولات التي أثبتها الجيشان المصري والسوري في أثناء المعارك، والإعدادَ العسكري الذي حصل في أثناء السنوات التي تفصل بين هزيمةِ حزيران/يونيو 1967 وبين حرب تشرين/أكتوبر 1973 (كتاب محمد حسنين هيكل)، ودور سعد الدين الشاذلي وجميع الضباط الذين كانوا على رأس هذه المعارك، والقيادة العسكرية المصرية بوجه عام، حيث استطاع عبد الناصر إعادة بناء الجيش بسرعة فائقة، وخاض حرب الاستنزاف ضد إسرائيل التي أثبتت أن الإرادة الوطنية للجيش المصري ولهذا القائد الكبير لم تنكسر.

الموضوع السياسي ما بعد حرب تشرين الأول/أكتوبر

يوجد ترابط شديد ووثيق بين القضية الفلسطينية والقضية العربية ككل. وأشير هنا إلى أن من يقرأ التاريخ جيداً، يستطيع أن يحدد طبيعة القضية الفلسطينية وحجمها في تاريخ الأمة العربية. وحين قامت الثورة العربية ضد الأتراك في المشرق، كان الاستعمار، بقيادة بريطانيا وفرنسا، في ذلك الوقت يرصد حركة الشعوب ومصيرها في ما بعد. والاستعمار يعرف أهمية هذه المنطقة وثرواتها الضخمة، وفي ذهنه، بطبيعة الحال، موضوع النفط وأهميته. من هنا قابل هذه الثورة بالخداع من ناحية، وبالمخططات التآمرية من ناحية أخرى: مشروع سايكس ـ بيكو ووعد بلفور.

ثم جاء التقسيم عام 1947، ثم حرب 1948، وحرب السويس عام 1956، وحرب حزيران/يونيو 1967، وأخيراً حرب تشرين/أكتوبر 1973. هذه الحروب ليست معزولة عن القضية الفلسطينية، والصراع العربي ـ الصهيوني، وارتباط كل ذلك بالمصالح الإمبريالية كلها في الفترات المتلاحقة.

والانتصار العسكري الذي حصل في حرب تشرين/أكتوبر، ليس معزولاً عن هذه المخططات. حصل انتصار عسكري فعلاً ولكن في ذهن كيسنجر، أي الإمبريالية، هذا الانتصار يمكن أن نستغله ليكون ممراً لدفع الوضع العربي ككل في طريق تسوية الصراع العربي ـ الصهيوني، والصراع الفلسطيني ـ الصهيوني.

كان أبو عمار يطرح الأمور السياسية على نحوٍ يخفي حقيقة النيات، فطرحت الأمور في دورة المجلس الوطني سنة 1974 على أساس النقاط العشر. وحازت تلك النقاط على ما يشبه الإجماع، حتى نحن لم نعارضها. ولكن حين لمسنا بعد انفضاض دورة المجلس تحركات مشبوهة تدّعي أنها تستند إلى النقاط العشر، أعلنا رفضنا العلني لهذا المجرى السياسي، وأسسنا جبهة الرفض من دون أن ننسحب نهائياً من المجلس الوطني الفلسطيني. ومن يريد أن يؤرخ للنقاش الذي كان يدور في الساحة الفلسطينية في تلك الفترة، يستطيع أن يعود إلى الأساس السياسي لجبهة الرفض (التي تتكون من الجبهة الشعبية والجبهة الشعبية القيادة العامة وجبهة النضال وجبهة التحرير العربية)، أي الوثيقة التي أعلناها في ذلك الوقت.

لقد كنا نُتهم بأننا غير واقعيين، نريد تحرير كل فلسطين دفعة واحدة، إلى غير ذلك من الاتهامات. ولكن الحقيقة أننا كنا نقول إن الظروف لا تسمح بأي تسوية من دون أن يؤخذ في الحسبان موازين القوى في تلك الفترة التي لم تكن تسمح بحل مرحلي للقضية الفلسطينية، وأن أي تسوية

في أحسن الأحوال ستقوم على أساس التقسيم، لا على أساس حل مرحلي للقضية الفلسطينية، ونحن نرفض تقسيم فلسطين وسنبقى رافضين مثل هذا الحل. كذلك كنا نخشى أن تجعل القيادة القائمة لمنظمة التحرير الفلسطينية، أي قيادة عرفات، من التسوية المطروحة تسوية نهائية لا مجرد حل مرحلي للقضية الفلسطينية.

عُقد المجلس الوطني في عام 1973، وفي تلك الدورة سجلت الجبهة الشعبية قبولها بسلطة وطنية على أي بقعة يتم تحريرها لنتابع منها معركة التحرير، وهذا شيء، أما موضوع التسوية المطروحة في ذلك الوقت فكان شيئاً آخر.

أما في ما يتعلق بمؤسسات المنظمة الأخرى، فإننا كجبهة، انسحبنا من اللجنة التنفيذية، وأُلّفت لجنة تنفيذية لقيادة جبهة الرفض. كانت الجبهة الشعبية التنظيم الأكبر بين التنظيمات الأربعة لجبهة الرفض، وأصبح الرفيق أبو ماهر اليماني هو أمين سر تلك الجبهة، وأصبح لكل تنظيم من التنظيمات الأربعة ممثلٌ لها. إضافة إلى اجتماع مركزي لجبهة الرفض يعقد شهرياً كنت أحرص على حضوره.

على الصعيد الرسمي العربي لم يعترف بجبهة الرفض سوى العراق. أما نحن كجبهة شعبية، فقد كان لنا اتصالاتنا الرسمية الأخرى مع غير العراق، كاليمن الديمقراطي بطبيعة الحال، كما أن بروز الجبهة ووجودها في الميدان جعل الجزائر وليبيا ترغبان كذلك في إقامة علاقات معها. من هنا، بدأت زياراتي لهذين البلدين العربيين واستمرت هذه العلاقة فترة طويلة من الوقت.

كانت الجبهة الشعبية حريصة على الاشتراك في المناسبات الجماهيرية كجزء من منظمة التحرير حفاظاً منها على الوحدة الوطنية، كما كانت حريصة أيضاً على خطها السياسي المناهض لسياسة عرفات.

وكان موقف الحركة الوطنية اللبنانية بوجه عام مع الموقف الفلسطيني الرسمي، أي موقف منظمة التحرير (أبو عمار) باستثناء الحزب السوري القومي الاجتماعي (إنعام رعد) والحركة الناصرية، أمثال «المرابطون»، والتنظيم الشعبي الناصري (مصطفى سعد)، وغيرهما من المنظمات. وقد كان هناك عدد من المنظمات الصغيرة التي راهنتُ شخصياً على نموّها ولكنني أخطأت في التقدير.

في صباح يوم الأحد 13 نيسان/أبريل 1975، كنت مع عائلتي في صيدا، وكان من النادر أن نخرج للاستراحة في أيام الأحد. وكانت المفاجأة أن حصل اعتداءٌ كبيرٌ على حافلة تنقل فلسطينيين كانت تمر بمنطقة عين الرمانة، وهي من المناطق المسيحية في الضاحية الشرقية لبيروت. أدى ذلك الاعتداء إلى قتل معظم الركاب الذين كانوا داخل الحافلة، فصعقنا من هول الحدث؛ فبدأت أتساءل هل هناك بداية لمخطط جديد لزجّ المقاومة الفلسطينية في معارك جديدة تستهدف القضاء عليها في الساحة اللبنانية؟ ذلك أني اعترف بأن المعسكر المعادي لا يمكن أن يترك المقاومة الفلسطينية تستمر في تفاعلها مع الحركة الوطنية اللبنانية لتجعل من الساحة اللبنانية قاعدة للثورة، وبخاصة أن الثورة الفلسطينية، بعد الخروج من الأردن نجحت في تثبيت خطواتها الأولى في لبنان.

في الأيام الأولى للحادث المؤلم، لم يحسم المكتب السياسي للجبهة ولا أنا شخصياً ما حصل. هل كان مجرد حادث عابر أم أنه بداية لمخطط كبير يستهدف سحق المقاومة الفلسطينية في لبنان؟ والذين يستطيعون الإجابة عن هذا السؤال هم الذين خططوا للحادث، وبطبيعة الحال ليست المقاومة الفلسطينية أو الحركة الوطنية. ولكن مع استمرار المصادمات أياماً وأسابيع، أصبح واضحاً أن هناك مخططاً كبيراً وطويلاً هدفه اجتثاث المقاومة الفلسطينية، وتطويع الوجود الفلسطيني المدني.

في ضوء اتضاح هذا المخطط وأهدافه، أصبح من الضروري أن نضع إزاءه رؤيتنا الأساسية للمخطط المضاد.

بدأت أفكر بضرورة تثبيت رؤيتنا للحلقات الأساسية في المخطط المقابل: أولاً، الحركة الوطنية يجب أن تكون القوة الأساسية في المواجهة ويجب إعطاؤها أهمية خاصة في القضايا التي تتعلق بلبنان؛ ثانياً، محاولة إبعاد الطابع الطائفي عن المعركة بقدر الإمكان، مع اعترافنا بأن هذا الموضوع سيكون من أصعب الأمور؛ ثالثاً، إبعاد التدخل السوري العسكري، والقبول به كقوة سياسية وسيطة محايدة؛ رابعاً، ضرورة الإبقاء على وجود عسكري في الجنوب للاستمرار في محاربة إسرائيل، ومواجهة اعتداءاتها من ناحية، والإبقاء على العمل الفدائي من ناحية ثانية؛ خامساً، حماية المخيمات وردع محاولات الاعتداء عليها، والإسهام في المعارك كافة التي تخوضها المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية.

كانت بيروت وأطرافها الساحة الرئيسية للحرب الأهلية في لبنان. وكانت تنقسم إلى قسمين: بيروت الشرقية، وبيروت الغربية. كان معظم المسيحيين يسكنون في المناطق الشرقية، بينما أغلبية المسلمين يسكنون في المناطق الغربية. هذا بالنسبة إلى السكان الأصليين اللبنانيين. أما الفلسطينيون في بيروت فالموضوع يختلف. فبعد نزوح الفلسطينيين إلى لبنان في عام 1948، انتشروا في مناطق لبنان كافة بوجه عام، من دون أخذ الموضوع الطائفي في الحسبان. لكن مع بعض الاستثناءات، مثل مخيم ضبية الذي يضم عدداً من المسيحيين الفلسطينيين الذين أصابهم أيضاً التشريد والتهجير والقتل من جديد على يد الكتائب اللبنانية من دون أي اعتبار للدين أو الطائفة[5]. لذلك، قامت الثورة الفلسطينية على أساس

---

(5) يذكر الراحل صلاح خلف (أبو إياد) عضو اللجنة المركزية في مذكراته ما يلي: «وقد لاحظت بعد عودتي من جولتي في الخليج إلى بيروت في 10 كانون الثاني/يناير 1976 أن الحرب اتخذت منعطفاً جديداً من هذه الناحية. فقبل ذلك بأسبوع طُوق مخيم تل الزعتر الفلسطيني وتعرض لحصار صارم ومنع أهله من التموين. وبعد وصولي بأربعة أيام اقتحم الكتائبيون =

وطني وقومي بعيداً من التعصب الطائفي، وكان هذا وما زال مصدر اعتزازنا كفلسطينيين وعرب. واستغلال العامل الطائفي من جانب القوى المعادية، وبخاصة إسرائيل، كان دائماً موضوعاً قائماً كستار تخفي إسرائيل أهدافها الخاصة وراءه. ففي المنطقة الشرقية في بيروت كان هناك مخيمان للفلسطينيين: مخيم ضبية، وهو صغير نسبياً، ومخيم تل الزعتر الذي يضم تجمعاً أكبر من مخيم ضبية، إذ كان يضم نحو ثلاثين ألف نسمة. كان هذا المخيم يضم فلسطينيين مسيحيين ومسلمين، ومع ذلك كان المخطط الانعزالي يستهدف الفلسطينيين جميعاً، مسيحيين ومسلمين. لذلك بدأ الكتائب في تهجير وتشريد سكان مخيم ضبية رغم المقاومة العنيدة للشباب الفلسطيني المسيحي. وبعد ذلك ضربوا حصاراً حول مخيم تل الزعتر بغية إسقاطه، فلم يكن إسقاطه عملية سهلة، فكان الصمود في ذلك المخيم أمثولة تشكل بالنسبة إلى النضال الفلسطيني مأثرة كبيرة ستبقى مصدر اعتزاز للشعب الفلسطيني. استمر الصمود الأسطوري للمخيم ما يزيد على ستين يوماً، رغم انقطاع المياه والكهرباء وشح المواد الغذائية، ورغم كل عملية التدمير التي أصابت جميع مساكنه ومرافقه(6).

= ومغاوير «حراس الأرز» مخيم ضبية المأهول بالفلسطينيين المسحيين الذين ظلوا على هامش النزاع. وبرغم ذلك فإنه جرى تدمير المخيم وذبح أهله. وبعد ذلك بأسبوع، أي 19 كانون الثاني/ يناير مسحت أحياء الكرنتينا عن وجه الأرض بواسطة جرارات. فكانت الحصيلة ألف قتيل مُثِّل بكثير منهم تمثيلاً وحشياً. ثم إن جنود بيير الجميل وكميل شمعون احتفلوا بانتصارهم بشرب الشمبانيا فوق أكوام الجثث، وبالعزف على قيثاراتهم وصلبانهم على صدورهم أبداً. وقد بث صور احتفالهم هذا على مختلف أقنية التلفزيون في العالم. أما الناجون من المخيم، فإنهم طردوا من مساكنهم بالرشاشات وراحوا يتكدسون في مخيمات أخرى للاجئين سيستأصلها الجنود الموارنة بعد ذلك في وقت لاحق». انظر: صلاح خلف (أبو إياد)، **فلسطيني بلا هوية** (عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1996)، ص 197. وما ذكره الدكتور حبش عن مخيم ضبية تؤكده أيضاً الأمم المتحدة في الوصلة الخاصة المرفقة بالمخيم. انظر: <https://bit.ly/2R3IDBV>.

(6) Tabitha Petran, *The Struggle over Lebanon* (New York: Monthly Review Press, 1987).

أذكر أنني في لحظة سقوط المخيم، عند الظهيرة تقريباً، كنت قريباً من بيت أحد الأصدقاء المقربين الذي كنت أحمل مفتاح بيته. دخلت ذلك البيت، ووجدت نفسي في غاية الضيق، فانهمرت دموعي لشدة الضغط النفسي، وبدأت أتذكر الرفاق وصمودهم الأسطوري. وتذكرت أبو أمل عضو اللجنة المركزية الذي كان مثالاً للبساطة والتواضع والإخلاص، والذي وهب حياته للثورة منذ شبابه حين نزل إلى منطقة الجليل قبل بدء الثورة، أي مرحلة الإعداد للكفاح المسلح، وبدأت تبدو لمخيلتي صورة المأساة، وما يمكن أن يقوم به الانعزاليون من فظائع، وراحت الأخبار تصلنا عن بشاعة الممارسات التي قام بها هؤلاء الأوغاد من تمثيل في الجثث واحتساء الشمبانيا فوق هذه الجثث احتفالاً بانتصارهم وفظائع أخرى ارتكبوها مع ما تبقى من الأحياء في ذلك المخيم تفوق الوصف والخيال. فقدت كل عائلة عدداً كبيراً من أفرادها. أما من تبقى من أحياء ناجين من تلك المذبحة بعضهم لم ينجُ من حواجز الكتائب التي كانت لهم بالمرصاد على الطريق في أثناء خروجهم، فوقعوا في فخهم وقُتلوا، فقد كانت الكتائب اللبنانية وحلفاؤها يمارسون الذبح على الهوية ويمارسون حقدهم الأعمى ضد كل من هو فلسطيني، حتى لو كان جنيناً في بطن أمه. أذكر كيف فقدت أم فلسطينية أولادها الخمسة بين المخيم المنكوب والحواجز التي تربصت بالناجين.

من الطبيعي ألا تكتفي القوى الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية بموقف الدفاع، فانتقلت إلى موقف الهجوم من خلال معركة الدامور والأسواق التجارية، والمسلخ والكرنتينا، ومختلف المناطق التي كانت تسيطر عليها القوى الانعزالية[7] (مشاهد ظهرت على شاشات التلفزيون إضافة إلى شهادات من نجوا ووصلوا إلى بيروت الغربية).

---

(7) الفكرة والمعلومات نفسها التي ذكرها الدكتور حبش ترد عند صلاح خلف في فلسطيني بلا هوية.

والحقيقة أن هذه الحرب كانت في غاية البشاعة بكل ما في الكلمة من معنى، وتلك البشاعة لم تقتصر على ما فعلته القوى الانعزالية في تل الزعتر، بل كانت القوى الوطنية والمقاومة الفلسطينية تقترف الكثير من الأعمال التي تسيء لسمعتها. إن موضوع السرقات التي حصلت داخل الأسواق التجارية، أصبحت معروفة لدى الجميع. وهذا مأخذ مسلكي كبير على المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية وأعتقد أن ذلك مرده إلى أن المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية كانتا متعددتي الرؤوس، إضافة إلى غياب البنية المسلكية التي لم تعطَ الاهتمام الكافي، حتى بالنسبة إلى اليسار الفلسطيني.

لقد كان في إمكان القوى اليسارية أن تميز نفسها في هذا الموضوع؛ لكن يؤسفني أن أقول إن هذا الأمر غاب كذلك عن القوى اليسارية كافة؛ وأذكر أنني زرت منطقة الدامور بُعيد المعركة، ورأيت مدى الدمار الذي وقع فيها. كما أذكر أنني قرأت على أحد الجدران: «من هنا مرّ أبو الجماجم»، وتساءلت بيني وبين نفسي: أين هو مصدر الفخر والاعتزاز في مثل هذا التعبير؟! ومن هو أبو الجماجم هذا الذي يسمح لنفسه أن يقترف مثل تلك الجرائم وهو يسيء لسمعة الثورة وتاريخها.

رغم إدراكي خطورة الحرب الأهلية اللبنانية وأبعادها، وانصبابي على أهم ما يميز ذكريات هذه الفترة، إلا أنني أذكر حادثتين، الأولى تلبية كمال جنبلاط دعوتنا لحضور مهرجان من مهرجانات الجبهة الشعبية، وقد فهمت مغزى حضوره، فهو يعبّر في ذلك عن اعتراضه على قيادة عرفات للمعركة، التي من الطبيعي أن تكون معركة لبنانية في الدرجة الأولى. والحادثة الثانية مناسبة يوم الأرض، التي جعلتنا نعرف أكثر فأكثر أهمية أهلنا في داخل منطقة الـ48. لقد كان الرفيق غسان قد نبهنا إلى أهمية الأدب في منطقة الـ48. لكن يوم الأرض كان يوماً خاصاً بيّن مدى القوة الجماهيرية والجبارة التي لا يمكن تجاهلها، بل لا بد من أخذها في الحسبان ونحن نفكر في عملية التحرير الكامل للأرض الفلسطينية.

بعد يوم الأرض وفي ظل الحدث الكبير الذي سالت فيه الدماء الفلسطينية والذي بيّن لنا مدى تشبث الفلسطينيين في الداخل بأرضهم، بدأ العدو يعدّ الدراسات العلمية عن هذا الخطر الديمغرافي داخل إسرائيل ويعطيها الطابع السري.

* * * *

استمرت الحرب الأهلية اللبنانية نحو سنتين أو يزيد، وتفوقت فيها القوى الوطنية اللبنانية بمساندة المقاومة الفلسطينية، وهو ما جعل أمريكا تقف أمام النتائج الخطيرة التي يمكن التوصل إليها إذا استمرت الحرب الأهلية، لكن من الصعب على القوى المعادية المتمثلة بإسرائيل وأمريكا أن تسمح بذلك. وها قد حصل التغيير النوعي في طابع المعركة في الساحة اللبنانية حين دخلت قوات الردع السورية إلى ساحة لبنان(8) لتمنع تطور الأمور في هذا الاتجاه، فأصبحنا أمام واقع جديد بعد دخول القوات السورية إلى لبنان، فما هو هذا الواقع الجديد؟ إنه الدفاع عن وجودنا في الساحة اللبنانية، فدفعت مكتبنا السياسي باتجاه الدفاع عن الوجود. وقد وجدت مؤخراً بعض الأوراق التي تطالب الرفاق في بعض المناطق، بالدفاع عن النفس حتى الموت والشهادة.

كان واضحاً الاختلال الكبير في ميزان القوى بيننا وبين الجيش السوري، ولكن لم يكن أمامنا خيارٌ آخر. وحين وصلت الأمور إلى المخيمات، اتخذنا قرارنا بالدفاع البطولي مهما كانت النتائج. فأدى هذا الموقف إلى صدام بيننا وبين الجيش السوري أثناء مروره في منطقة شاتيلا. وكانت النتيجة مقتل ضابط أساسي من القوات المهاجمة، وأعتقد أن مثل

---

(8) في 16 تشرين الأول/أكتوبر 1976 عقد في مدينة الرياض السعودية، مؤتمر قمة عربي طارئ حضرته ست دول فقط (السعودية، مصر، سورية، الكويت، لبنان، ومنظمة التحرير الفلسطينية)، وكان من ضمن قراراتها تعزيز قوات الأمن العربية الموجودة في لبنان حينها لتصبح قوات ردع داخل لبنان. وبعدها بتسعة أيام، في 25 تشرين الأول/أكتوبر 1976 عقد في القاهرة مؤتمر قمة عربي حضرته أربعة عشر دولة عربية وصادقت على قرارات قمة الرياض السابقة.

هذه المواقف جعل القيادة السورية تأخذ هذه النقطة في الحسبان، وتعيد حساباتها في ما يتعلق بمعركة المخيمات. لا أقصد بذلك إعادة النظر بالموقف تجاه دخول القوات السورية إلى الساحة اللبنانية، فهذا موضوع استراتيجي بالنسبة إلى القيادة السورية، بل بالنسبةِ إلى معركة المخيمات، إذ من الممكن إعادة النظر فيها.

لقد تجلى الموقف السوري وكامل الوضع في لبنان من خلال اغتيال كمال جنبلاط، حيث اتضح تماماً أن دخول القوات السورية كان لمنع الساحة اللبنانية من التحول إلى لبنان ديمقراطي يشكل سنداً للثورة الفلسطينية، وشعرت في حينها أننا كفلسطينيين خسرنا حليفاً استراتيجياً مهماً كانت خسارته فادحة ومؤلمة[9].

---

(9) هذه حقيقة ذُكرت بوضوح في كتاب: جورج حبش، **الثوريون لا يموتون أبداً** (بيروت: دار الساقي، 2009).

15 - زيارة السادات القدس، وجبهة الصمود والتصدي

بعد هذه التطورات على الساحة اللبنانية حصل التحول الاستراتيجي الكبير في الصراع العربي - الصهيوني والصراع الفلسطيني - الصهيوني من خلال المبادرة المشؤومة التي أعلنها أنور السادات يوم زار القدس في 19 تشرين الثاني/نوفمبر 1977. إن الصراع العربي - الصهيوني قد اتضح تماماً من خلال موقف الجماهير العربية بكاملها، ومعظم الأنظمة العربية؛ الغزوة الصهيونية تختلف كلياً عما يسمى استعماراً. وهذا ما أدركته حركة القوميين العرب من خلال الشعارات التي حددتها في بداية عملها: الوحدة والتحرر والثأر. معنى ذلك بالنسبة إلى قيادة الحركة، التميز بين الاستعمار التقليدي والغزوة الصهيونية. إن الشعار بالنسبة إلينا كان يستهدف النضال ضد الاستعمار في الجزائر، وفي المغرب، وجنوب اليمن، ومنطقة الخليج.

كانت الغزوة الصهيونية المتحالفة مع الاستعمار تستهدف الوجود الصهيوني والاستيلاء الصهيوني على الأرض، واستمرار هذا الوجود وإسناده باستمرار. وهذا ما أدركته جماهيرنا من خلال صراعنا ضد هذا الغزو كما أدركت قيادة العدو أن هذا الوجود مرهون بالسلاح النووي الذي يشكل رادعاً لأي قيادة تفكر بإلغاء الوجود الصهيوني على أرضنا.

في أول لقاء مع الرئيس عبد الناصر عام 1964، وحين عرضت عليه إعدادنا لثورة فلسطينية شبيهة، على سبيل المثال، بالثورة الجزائرية، قال

لي: إن موضوع إسرائيل موضوع كبير أكبر مما يفكر به الجميع، وعلينا جميعاً أن نتسلح بالرؤية العميقة لهذا الخطر الذي يهدد الأمة العربية بأسرها.

حين أفكر بالموضوع الفلسطيني، أشعر أنّ من حق الفلسطينيين استعادة الأرض الفلسطينية حتى آخر شبر فيها لأنهم أصحاب الأرض. وفي الوقت نفسه لا يستطيع أي إنسان عاقل أن يتجاهل حقيقة وجود خمسة ملايين يهودي يعتبرون أنفسهم في دولة اسمها «إسرائيل»، وأن الدولة هي من حقهم. فهل نستطيع أن نفكر في حل يكفل لنا حقنا التاريخي على أرضنا؟ هناك معضلة كبيرة تواجهنا من هذا النوع، فهذه دولة قامت على أنقاض الشعب الفلسطيني. وبعد تفكير طويل، وصلت إلى قناعة عميقة بأن الدولة الواحدة الديمقراطية العلمانية هي الحل الوحيد.

في ضوء مبادرة الرئيس السادات، أخذ العقيد القذافي المبادرة إلى دعوة الأنظمة الوطنية العربية كافة إلى مواجهة هذا الوضع الجديد. وكان الوضع الوطني العربي الرسمي متبلوراً على النحو التالي: الجزائر وليبيا والعراق وسورية واليمن الديمقراطي لا يؤيدون مبادرة السادات بأي شكل في ذلك الوقت. أما بالنسبة إلى الوضع الفلسطيني، فإن مبادرة العقيد كانت ترمي إلى إيجاد جبهة للصمود والتصدي، ولم تكتفِ بوجود منظمة التحرير فقط، كون التطورات التي حصلت في ما يخص مبادرة السادات أعطت المبرر لوجود جبهة الرفض الفلسطينية.

وحين عُقد أول اجتماع دعا إليه العقيد، اعترض أبو عمار على وجود جبهة الرفض؛ فكانت هذه المشكلة الأولى التي تستوجب الحل. كان موقف العراق مؤيداً لوجودنا، وربط استمرار وجوده في الاجتماع بوجود جبهة الرفض. أما ليبيا والجزائر، فتريدان وجودنا أيضاً، لكنهما في الوقت نفسه تريدان حل المشكلة، وعدم إغضاب أبو عمار. وكانت النتيجة أن الرئيس

الأسد، بذكائه ورؤيته للتطورات العربية الرسمية ومبررات وجود جبهة الرفض الفلسطينية، لم يمانع وجود الجبهة، لأن الوضع كان يتطلب تجميع كل القوى التي تعارض زيارة السادات. هذه المبادرة التي اتخذها العقيد القذافي وضعت الأنظمة الوطنية العربية، والقوى الفلسطينية كلها، أمام مهمة جديدة، هي رفض النهج الذي أراد السادات أن يضع العرب أمامه.

في ما يتعلق بالقوى الفلسطينية، أصبح الوضع يتطلب تجميع كل هذه القوى، أي عودة منظمة التحرير لكل القوى الرافضة للاستسلام، وبطبيعة الحال كنت أرحب بذلك، ولكنني كنت أريد أن نستفيد من التجربة السابقة، ونحدد بدقة كيف نمنع النهج الذي مكّن عرفات من الانزلاق، وكانت النتيجة وثيقة طرابلس التي أكدت على اللاءات الثلاث: «لا صلح.. لا تفاوض.. لا اعتراف»، وجبهة الصمود والتصدي[1].

هنا يجب أن أعترف بدور أبو إياد (صلاح خلف) في هذا الموضوع، لكن أبو عمار لم يكن راضياً عن هذه الوثيقة. غير أن الجوّ العام في الاجتماع لم يكن في مصلحته. وعلى الصعيد العربي بوجه عام، كان عبد السلام جلود دافعاً إلى تجميع القوى التي تقف بصلابة ضد مبادرة السادات، فتم تجميع هذه القوى (ليبيا والجزائر واليمن الديمقراطي وسورية ومنظمة التحرير) على الصعيد الشعبي.

بعد انتهاء اجتماعنا في ليبيا، عدنا إلى لبنان، وكنت أعتقد أن هذا التطور السياسي الكبير الذي حصل على الساحة العربية، قد حلّ مشكلتنا

---

(1) عقب الزيارة التي قام بها الرئيس المصري أنور السادات للقدس المحتلة يوم 19 تشرين الثاني/نوفمبر دعت «الحكومة الليبية إلى عقد مؤتمر قمة الرؤساء للدول العربية التي جاهرت بمعارضتها لمبادرة الرئيس المصري، وأعلنت رفضها لنهجه وسياسته، بغية دراسة هذا الحدث». وهكذا اجتمع في طرابلس، ليبيا، رؤساء الجزائر وسورية وليبيا واليمن الديمقراطية ومنظمة التحرير وممثل عن الرئيس العراقي، بين 2 و5 كانون الأول/ديسمبر 1977 وصدر عن الاجتماع ما عرف بـ «وثيقة طرابلس»، وتم على أساسها تأسيس ما عرف بـ «الجبهة القومية للصمود والتصدي». انظر «الجبهة القومية للصمود والتصدي،» الموسوعة الفلسطينية. انظر: <https://bit.ly/2GE92NH>.

مع سورية. إلا أننا فوجئنا بوجود حاجز من القوات السورية بعد خروجنا من المطار، يستفسر عن هوياتنا، فكانت مفاجأة مضحكة! ولكن سرعان ما انتهت هذه المشكلة بمساعدة الإخوة الليبيين. وفي العام نفسه، وفي ظل التطور الذي حصل، شارك أبو عمار في احتفالات عيد انطلاقة الجبهة الشعبية؛ وأعتقد أن ذلك لم يكن ليحصل لولا التغيير الذي أكد صدق رؤية الجبهة الشعبية في الساحة الفلسطينية والعربية، لأن كل التطورات التي حصلت بين عامي 1973 و1977 سارت في الاتجاه الذي كانت الجبهة تدعو إليه.

وعلى صعيد اللقاء العربي الذي تم في ليبيا (2 ـ 5 كانون الأول/ديسمبر 1977) كان الموقف العراقي غير مُستهجن، ففي الوقت الذي كان الوضع العربي يتطلب تجميع القوى كافة، الرسمية والشعبية، التي تعارض مبادرة السادات، كان العراق يصرّ على أن تتخذ سورية موقفاً متطرفاً وتعجيزياً غير معقول بالنسبة إلينا، إذ كان الموقف العراقي متشدداً، وهو ما أحدث تبايناً في وجهات النظر. حاول الوفد العراقي الرسمي أن يأخذ وفد الجبهة، بمن فيهم أنا، إلى العراق؛ لكنني رفضت أن تتخذ الجبهة مثل هذا الموقف المتطرف، الذي سيؤدي إلى شق الموقف الذي اجتمعت عليه القوى العربية الرسمية والشعبية كافة التي كانت تقف ضد زيارة السادات.

في هذه الفترة شعرت أن الأمور مناسبة جداً لإثارة موضوع انعقاد المجلس الوطني في أسرع وقت. وقد عقدنا سلسلة من الاجتماعات في لبنان لتثبيت الموضوع السياسي والتنظيمي الذي تم الاتفاق عليه في ليبيا. نجحنا في ذلك، لأن الجو العام وموقف القوى الفلسطينية والعربية كان لمصلحتنا في ذلك الوقت؛ وبخاصة أن مشروع الوحدة بين سورية والعراق كاد يتم ضمن التوجه السياسي المناهض للنهج الأمريكي ومبادرة السادات، لكنه أجهض نتيجة وجود خلافات بين الطرفين.

المجلس الوطني الخامس عشر عام 1979 في سورية

حين عُقد المجلس الوطني الخامس عشر عام 1979 في سورية، وكانت تلك أول زيارة أقوم بها لسورية بعد اعتقالي عام 1968، شعرت أنني أستطيع أن أشارك فعلياً وأن أتحمل مسؤوليتي في القرار السياسي والتنظيمي لمنظمة التحرير الفلسطينية. لكن الأمور مع الأسف الشديد لم تسر بهذا الاتجاه الذي كنت أتمناه وأعمل على أساسه منذ فترة طويلة. فبعدما أُقِرَّ الموقف السياسي والتنظيمي للمنظمة في ضوء ما اتُفق عليه في ليبيا وفي ضوء المناقشات التي تلت ذلك في بيروت ضمن الإطار والتوجه نفسه، أصبح موضوع هذه الدورة أن نتفق على تشكيل اللجنة التنفيذية. ويبدو أن أبو عمار كان يعرف أنه يملك ورقة أخيرة يستطيع أن يستعملها في الوقت المناسب رغم اتفاق الجميع على الموقف السياسي والتنظيمي. هذه الورقة هي ورقة المستقلين، التي كان يراهن عليها أبو عمار في إفشال مخطط المنظمات كافة.

لكننا أدركنا أن موضوع المستقلين هو موضوع الجميع وليس موضوع أبو عمار فقط. من هنا قلنا (كمنظمات مجتمعة) إن أسماء المستقلين الذين سيصبحون أعضاء في اللجنة التنفيذية لا يختارهم أبو عمار فقط بل يتم اختيارهم من جانب الجميع. هنا أدرك أبو عمار أنه أصبح مطوّقاً كلياً ولم يعد قادراً على اتخاذ القرارات بمفرده. وهنا أصبح الموضوع مقلقاً، إذ انسحب أبو عمار ولم نعد قادرين على متابعة دورة المجلس الوطني.

في دورة المجلس الوطني التي عقدت في دمشق شعر أبو عمار في بداية الدورة وبداية النقاش الذي دار بين المنظمات أنه مطوّقٌ فعلاً، إذ كانت المنظمات كلها متفقة تماماً على الأمر الذي تم في بيروت، أي على الخط السياسي والتنظيمي. كما أذكر أن بعض أعضاء فتح كانوا موافقين على هذا الموضوع أيضاً، عندها اتخذ أبو عمار موقف الانفعال والاعتكاف، وأصبح المجلس نفسه والدورة كلها مهددة بالانفراط. أما

بالنسبة إلي، فقد شعرت أن هذه هي المناسبة الوحيدة التي نستطيع من خلالها الضغط على أبو عمار. فلماذا لا نتخذ في هذه الحالة موقفاً صلباً بحيث نتخلص من أسلوب أبو عمار، وهو التفرد في القيادة وفرض الأمور بالطريقة التي يريد. هنا تدخلت القيادة السورية، بحيث إن معظم المنظمات التي كانت تساندنا في ضرورة الحسم غيرت اتجاهها، وبخاصة الصاعقة والقيادة العامة، بحيث أصبحنا تدريجاً وحدنا. هنا فرض أبو عمار القيادة التي يريدها وما زلت أذكر الشعار الذي تبناه أبو عمار حين قال: «يبقى القديم على قِدمه». في تلك اللحظة وجدت نفسي في وضع صعب ومن أصعب الفترات التي مررت بها في حياتي.

أريد هنا أن أسجل درساً مهماً مرّت به منظمة التحرير الفلسطينية بالنسبة إلى التدخل الذي حصل من جانب الأنظمة العربية: إن القيادة السورية كان لها دور في إفشال جهود الجبهة واليسار في تصحيح أوضاع منظمة التحرير في ذلك الوقت.

هناك من يلوم الجبهة ويقول: لماذا تركتم أبو عمار يتصرف في القرار لوحده؟ ولماذا أيضاً تركتم أبو عمار يقود المنظمة كما يريد؟ لماذا تتركون أوضاع المنظمة بهذا الشكل؟ لا أريد طبعاً أن أقلل من أهمية الأخطاء التي مرت بها الجبهة في مسيرة الثورة، ولكنني أريد أن أسجل أهمية الدور الذي قام به النظام العربي الرسمي في التدخل في شؤون المنظمة. إنني أريد أن أسجل بوضوح الدور الكبير الذي أداه النظام العربي الرسمي في تشكيل واقع المنظمة بهذه الفترة. كما أنني أشعر بمرارة حين أسمع انتقادات «فتح الانتفاضة» و«القيادة العامة» باتهام الجبهة الشعبية على أنها تسير في مسار أبو عمار.

بعد هذه الفترة المريرة رجعت إلى بيروت وانغمست كلياً في الإعداد لمؤتمر الجبهة الرابع.

كان موضوع المؤتمرات الوطنية للجبهة موضوعاً أساسياً، وأعتقد أن من الأخطاء التي وقعتُ بها ووقعت بها قيادة الجبهة هو عدم التقيد بالنظام الداخلي لناحية انتظام انعقاد المؤتمرات الوطنية العامة. ومع أن الأحداث السياسية والعسكرية تبرر أحياناً أسباب عدم انعقاد المؤتمرات بحسب النظام الداخلي، أجدني الآن، حين أراجع مسيرة الجبهة بوجه عام، مضطراً أن أسجل أن مثل هذه المبررات لا يجوز أخذها في الحسبان. أعتقد أنه كان بالإمكان انعقاد المؤتمرات الوطنية للجبهة حسبما ينص عليه النظام الداخلي رغم الأحداث الكبيرة العسكرية والسياسية التي كان بالإمكان اعتبارها أعذاراً مهمة.

وفق النظام الداخلي، كان من المفروض أن يعقد مؤتمر الجبهة الرابع في عام 1977، بينما تم عقده في عام 1981.

16 ـ صعوبات وتحديات صحية

بعد انتهاء دورة المجلس الوطني الخامس عشر الذي عقد في سورية، عدت إلى بيروت وأنا متحمس جداً لكتابة التقرير السياسي الذي سأقدمه إلى اللجنة المركزية، وبالتالي إلى القاعدة الحزبية، تمهيداً للمؤتمر، وبخاصة أنه كان في ذهني الموضوع الأكبر، أقصد بذلك كامب دايفيد، أي نجاح إسرائيل وأمريكا في إبعاد مصر، وكل ما تعنيه مصر من مركز الثقل في العالم العربي، من الصراع العربي ـ الصهيوني وعزلها كلية عن هذا الصراع.

هذا موضوع خطير جداً. صحيح أن البند الرئيسي في المشروع الصهيوني هو تأسيس إسرائيل على أرض فلسطين كلها وتثبيتها، لكن المشروع الصهيوني لا يكتفي بذلك، بل يهدف إلى أن تصبح إسرائيل قاعدة استعمارية لاستغلال المنطقة العربية كلها، أي «مشروع الشرق الأوسط».

والقوة التي تستطيع أن تواجه الصهيونية وإسرائيل هي مصر بالدرجة الأولى. والذكاء الصهيوني والإمبريالي يدرك هذا الموضوع. من هنا كانت حماستي لانعقاد المؤتمر الرابع للوقوف أمام كامب دايفيد بمعانيه وأبعاده.

نجحت نسبياً في الانكباب على إنجاز مشروع التقرير السياسي. أقول «نسبياً» لأنه في تلك الفترة حصلت تطورات سياسية مهمة، أبرزها زيارة

السادات للقدس عام 1977 ثم توقيع معاهدة كامب دايفيد في 17 أيلول/ سبتمبر 1978. في المقابل انهار مشروع وحدة سورية والعراق، الذي كان من المفروض أن يشكل القوة التي كانت ستقف في وجه مشروع كامب دايفيد.

حين أستعيد في ذهني المحاولات العربية كافة التي وقفت في وجه هذا المشروع الصهيوني الإمبريالي، حين أستعيدها كلها ابتداء من مؤامرة سايكس - بيكو ووعد بلفور 1917 وثورة 1936 وحرب 1948 وحرب 1956 وحرب 1967 وحرب 1973 وحرب 1982، والمقاومة في لبنان، وآخرها الانتفاضة الباسلة لشعبنا في فلسطين، وحين أستعيد معها إمكانيات الشعب الفلسطيني والأمة العربية من حيث العدد والمساحة وطبيعة الموقع الجغرافي للأمة العربية، والإمكانيات والثروات الطبيعية للوطن العربي، بما فيها النفط، وكل ما تملكه الأمة العربية من تراث وتاريخ وعراقة، عندها أشعر بضرورة الدراسة العلمية لأسباب فشل كل هذه المحاولات وبالتالي ضرورة الانتصار في مواجهة هذا المشروع وانتصار قضيتنا العادلة جداً.

حينها، كانت تراودني فكرة إنشاء مركز دراسات علمي لدراسة أسباب فشل المواجهة العربية والفلسطينية للمشروع الصهيوني، وهذا الموضوع، أي موضوع المركز العلمي للدراسات موضوعٌ قائم بذاته. بعد ذلك أعود لموضوع التقرير السياسي الذي أنجزته ليكون أساس التقرير السياسي للمؤتمر الرابع. هذا التقرير لا بد لمن يريد أن يفهم فكري السياسي وفكر الجبهة أن يعود إليه لدراسته، لأنه يسجل خطنا السياسي ورؤيتنا السياسية لهذه المرحلة. صحيح أن هذا التقرير فيه أخطاء كبيرة حصلت في رؤيتنا السياسية، سواء على الصعيد الدولي أو على الصعيد الفلسطيني المحلي، ولكنه يسجّل الرؤية الصحيحة والدقيقة حول الوضع العربي وتأثير النفط في ذلك الوضع، إذ إن هذه الثروة النفطية التي حصلت في السبعينيات كانت العامل الأساسي في الانهيار العربي الرسمي، فموضوع كامب دايفيد كان له أساس اقتصادي مرتبط بموضوع النفط وتأثيره في النظام العربي

بوجه عام، فالثروة النفطية أثّرت في أنظمة الخليج ولكن هذا التأثير لم يبق محصوراً أو مقتصراً على السعودية وأنظمة الخليج، بل أخذ أيضاً يؤثر في مصر وسورية ودول عربية أخرى. إن ثروة النفط أوجدت الطبقة التي رأت أن من مصلحتها أن ترتبط بالمخططات الرأسمالية في أمريكا بوجه خاص. من هنا أصبح هناك حلف إمبريالي عربي رسمي وصهيوني في الوقت نفسه[1]، وهذا ما شكل أحد العوامل الأساسية في الانهيار الذي حصل في المنطقة العربية في الثمانينيات والتسعينيات.

إن الصراع العربي ـ الصهيوني لم يصل إلى هذا المستوى من الانهيار الكامل إلا نتيجة وجود طبقة نسيت قضيتها القومية كلياً ورأت أن وجودها ومصالحها مرتبطان بمصلحة الطبقة المستفيدة من الثروة النفطية الضخمة.

ما زلت أذكر اليوم الذي انتهت فيه مناقشة اللجنة المركزية للتقرير الذي قدمته ليكون الأساس للتقرير السياسي المقدم إلى المؤتمر الرابع للجبهة.

لقد شعرت يومها بسعادة كبيرة لأنني أنجزت شيئاً مهماً. ومن عادتي بين وقت وآخر أن أشعر برغبة شديدة في السير على الأقدام ولمسافات طويلة، وبخاصة في الليل، متحدياً الأوضاع الأمنية الساخنة في بيروت. وهذا ما شعرت به حين أنهيت مناقشة اللجنة المركزية للتقرير. وحين بدأت في السير وحيداً، شعرت أن أصابع اليد اليمنى تتحرك على نحو غير طبيعي وغير إرادي، لكنني في بداية الأمر لم أعطِ اهتماماً كبيراً له، وكان تفسيري لذلك أنه نتيجة الإرهاق والجهد الكبير الذي بذلته في كتابة التقرير الذي

---

(1) عقد المؤتمر الوطني الرابع للجبهة الشعبية في 28 نيسان/أبريل 1981 في لبنان وكانت التحولات الإقليمية (اتفاقية كامب دايفيد، الثورة الإيرانية، الحرب الإيرانية ـ العراقية) إضافة إلى مهمة التحول نحو حزب ماركسي لينيني، من القضايا الأساسية التي ناقشها المؤتمر، وشكلت الوثيقة السياسية للمؤتمر علامة فارقة على التطور والنضج الفكري والسياسي لدى قيادة الجبهة حينها. للمزيد: انظر: الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، «البيان السياسي الصادر عن المؤتمر الوطني الرابع للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين» الذي كتبه جورج حبش للمؤتمر.

استغرقت كتابته أياماً طويلة، إلى جانب العمل اليومي المنهك في ذلك الوقت. لكن هذه الحالة استمرت وهنا شعرت بضرورة رؤية الطبيب الذي كنت أعتبره طبيبي الخاص.

لكن، في ذلك الوقت كانت عائلتي عن طريق المصادفة خارج بيروت؛ فاضطررت إلى العودة إلى البيت للراحة. وفي اليوم التالي، رأيت الطبيب الذي نصحني بضرورة إجراء بعض الفحوصات الطبية، وبخاصة الفحوصات التي تتعلق بالجهاز العصبي. في هذا الوقت عادت أم ميساء إلى بيروت وانهمكت معي في التفكير لمواجهة هذه القضية الصحية الطارئة. وحين وجدنا أن الجهاز الأساسي لإجراء الفحص المطلوب لم يكن متوفراً في بيروت بسبب ظروف الحرب، اضطررت إلى الذهاب إلى دمشق لإجراء ذلك الفحص (CT scan). وحين أجريت ذلك الفحص تبين أن هناك بقعة (أو كتلة؟) في المنطقة اليسرى من الدماغ، ولا بد من إجراء مزيد من الفحوصات لمعرفةِ طبيعة تلك الكتلة، لأنها قد تكون بداية ورم سرطاني، أو نتيجة نزف دماغي «شرياني». ولدى العودة إلى بيروت وعرض الصورة على الطبيب طلب فحصاً آخر تبين من خلاله أنه نزف شرياني في الدماغ، وليس ورماً سرطانياً. رغم كل ذلك استمرّيت بالعمل اليومي المضني، ولم أُعِرْ وضعي الصحي أية أهمية.

بعد فترة قصيرة، توقف هذا النزف وعدت إلى حالتي الطبيعية، بعد التقيد بتعليمات الأطباء والاستراحة لمدة أربعة أسابيع. وبالفعل بدأت أشعر بتحسن يوماً بعد يوم، بحيث عدت قادراً على استعمال يدي اليمنى بصورة عادية، وقمت بكتابة رسالة من خمس صفحات لابنتي ميساء، حيث كانت متوجهة إلى الدراسة في ألمانيا.

ثم واجهنا السؤال التالي: هل نجري عملية لمنع تكرار النزيف مرة أخرى؟ هنا كان بعض الأطباء يعتقدون أنه لا داعي إلى إجراء عملية جراحية لأنه من المحتمل أن لا يتكرر النزيف. وكان هناك رأي آخر يقول

إن من الأفضل إجراء عملية لأنها ليست خطيرة، وإن النزيف، إن تكرر، قد يكون قاتلاً، وإنه نظراً إلى طبيعة حياتي العملية، فالأطباء، كما يقولون، لا يضمنون أن يتم إنقاذي في الوقت المناسب.

كنت وزوجتي في حيرة من اتخاذ القرار المناسب في هذا الموضوع، وبخاصة أنني كنت أشعر بتحسن كامل بعد أربعة أسابيع من النزيف، وأنه لا داعي إلى إجراء مثل هذه العملية، فهي في نهاية الأمر عملية جراحية في الرأس، وبخاصة أن أحد الأطباء قال لي «لو لم تكن أنت جورج حبش لقلت لك اذهب إلى البيت وانس الموضوع».

لكن حالة الحيرة استمرت، وكان بعض الأصدقاء المقربين من الأطباء منهمكين معنا في اتخاذ القرار. وفي يوم من الأيام، لا أذكره جيداً، تم حسم الموضوع باتجاه إجراء العملية، وبخاصة أن رأي بعضهم كان يرى أن مثل هذه العملية لا تشكل خطراً أكثر من عملية «الزائدة».

ملاحظة: تم الترتيب لزيارة طبيب من أهم جراحي الأعصاب في فرنسا لإجراء العملية، وكان ذلك عن طريق الدكتور محمد شهاب الدين الذي سافر إلى فرنسا بتكليف من الجبهة، وكان الترتيب أن يصل الطبيب الفرنسي في 30 آب/أغسطس من ذلك العام 1980 ليطلعَ على الوضع. لكن لسوء الحظ قرر الأطباء في بيروت إجراء العملية قبل وصول الطبيب الفرنسي بيومين فقط، وذلك في 28 آب/أغسطس، على يد أحد أطباء الجامعة الأمريكية، وهو الدكتور موريس سابا. وحين وصل الطبيب الفرنسي كان قد فات الأوان. أعتقد، بعد كل هذه السنوات، أن الاستعجال في إجراء العملية وعدم انتظار الطبيب الفرنسي كان خطأ كبيراً وقع فيه الأطباء المسؤولون والمقربون مني ومن ضمنهم الدكتور محمد شهاب الدين، الذي حدد بنفسه موعد العملية مع الطبيب الفرنسي، فقد كان عليه أن يعترض على موعد إجراء العملية قبل وصول الطبيب الفرنسي. لقد كلفني هذا الخطأ سنوات طويلة من المعاناة الصحية.

وحين اتخذت القرار ودخلت المستشفى لإجراء العملية، لم أشعر يومها أنني مقدمٌ على قرار خطر واعتقدت أنني بعد يومين أو ثلاثة سأكون في البيت بحسب ما قاله لي بعض الأطباء. وبعد دخولي غرفة العمليات لم أعد أذكر أي شيء سوى أنني أصبحت في غرفة العناية الفائقة وبدأت تدريجاً أستعيد وعيي، لكن ليس بالكامل. وأدركت حينها أنني لم أعد أستطيع أن أحرك يدي اليمنى وكذلك ساقي، ووجدت صعوبة في التعبير. استمر ذلك الوضع لفترة من الوقت، إلى أن تمكنت فيما بعد بإرادة وتصميم حديدي مع رحلة علاج طويلة، أن أستعيد ما فقدت، حيث اعتبر الأطباء في حينها أن ذلك بمثابة معجزة. هنا أدركت، كطبيب، أن شيئاً ما قد حصل أثناء العملية، وقد بقيت في العناية الحثيثة لفترة طويلة، عرفت من زوجتي في ما بعد أنها استمرت أكثر من شهر كامل، وقد حدث أثناءها مضاعفات كثيرة وخطيرة تعرضت فيها أكثر من مرة لخطر الموت، إذ لم تعد تقتصر المشكلة على العملية الجراحية بل على المضاعفات التي تلت تلك العملية. فالمضاعفات التي حصلت كانت عديدة وكلها حملت نسبة عالية من الخطورة كما قال الأطباء وكما قالت لي زوجتي في ما بعد، لأنني في تلك الفترة، لم أكن واعياً لكل ما كان يحصل لي، وسأختصر في كتابة تفاصيل هذا الموضوع لأن تلك الذكريات ما زالت تؤلمني.

لكن ما أريد فعلاً أن أسجله في هذه المناسبة هو الصلابة التي كانت تتحلى بها زوجتي هيلدا، إضافة إلى ضبط النفس والمعنويات العالية والدور الذي أدته بالنسبة إلي وإلى ابنتينا ميساء ولمى في المساعدة على تجاوز المحنة والانطلاق من جديد في مسيرتنا النضالية الصعبة، هذا ما لمسته وما قاله لي الأطباء بعد الشفاء.

إن صمودها من ناحية وما تحملته من معاناة كبيرة ورباطة جأش نادرة من ناحية ثانية، يحتم علي أن أذكر ذلك طوال حياتي. كما لم يكنْ سهلاً التعامل مع الزوار الكثيرين الذين كانوا يأتون لزيارتي حين علموا بالأمر ومضاعفاته، إذ إن بعض الزوار كانوا من المسؤولين اللبنانيين، الذين كان

من الصعب عليهم أن يتفهموا عدم تمكنهم من زيارتي ورؤيتي مباشرة بسبب وضعي الصحي الحرج. كذلك كان هناك بعض الأصدقاء الذين وصلوا خصيصاً من الخارج حين علموا بالخبر. إضافة إلى ذلك كله، كانت زوجتي يقظة جداً للناحية الأمنية في ضوء ما كان يحصل في الساحة اللبنانية بالنسبة إلى المناضلين والملاحقة التي كنت أتعرض لها من جانب إسرائيل، فكان الخطر علي أولاً من ناحية الأدوية التي يصعب حصرها، والاختراق الذي كان من الممكن أن يحصل أثناء وجودي في مستشفى كبير، كمستشفى الجامعة الأميركية، وبخاصة في ظروف الحرب. فلم يغب ذلك عن ذهنها لحظة واحدة. ومن جملة ما واجهته من صعوبات كان أغربها طلب السفارة الأمريكية تقريراً طبياً مفصلاً عن حالتي الصحية من الأطباء، هذا ما قاله وأكده لنا الأطباء الذين كانوا مشرفين على حالتي الصحية، لكنهم رفضوا إعطاءها أي تقرير من هذا النوع، بسبب إصرار زوجتي على رفض مثل هذا الطلب، كذلك بسبب رفض الأطباء الذين تربطني بهم علاقة صداقة، بدافع حرصهم علي؛ إذ كان رأيهم أن إدارة المستشفى تعرف كل التفاصيل وأن مثل هذا الطلب يحمل كثيراً من التحدي.

بعدما خرجت من غرفة العناية المركزة، بدأنا نفكر في الانتقال إلى مكان آخر نستطيع من خلاله متابعة العلاج من دون أن نبقى في بيروت وفي هذا المستشفى بالذات، لأسباب أمنية من ناحية [2]، ولطبيعة العلاج المطلوب في المرحلة القادمة، من ناحية أخرى. هنا كان بالإمكان أن نتابع العلاج في أحد البلدان الاشتراكية، وقد وقع الخيار على تشيكوسلوفاكيا. وكانت علاقتنا بالمنظومة الاشتراكية تمر بين وقت وآخر في مراحل من الصعود والهبوط في ضوء الموقف السياسي.

(2) كان الدكتور حبش مستهدفاً من قبل الكيان الصهيوني ووجوده في المستشفى، كما أشار، في ظروف الحرب حينها قد يسهل أي عملية اختراق لاستهداف حياته.

لقد كنت مدركاً أهمية العلاقة بين اليسار الفلسطيني من ناحية والقوى الاشتراكية من ناحية أخرى، منذ بداية عملنا، من هنا كانت زيارتي الصين وكوريا في عام 1970.

من الطبيعي أن أعتبر الجبهة الشعبية هي اليسار في الساحة الفلسطينية، وكان رفاقي في بيروت والقاهرة وعدن يعرفون ضرورة إقامة علاقة جيدة مع البلدان الاشتراكية من خلال سفاراتهم في تلك البلدان. كنا ننجح بين وقت وآخر في توطيد تلك العلاقات، لكن موضوع خطف الطائرات كان يعرقل جهودنا على هذا الصعيد.

بعد انعقاد مؤتمرنا الثالث، وإعلاني في هذا المؤتمر قرار وقف عمليات خطف الطائرات، أصبح من الممكن أن ننجح في إقامة علاقات جيدة مع المعسكر الاشتراكي. لكن موقفنا في إقامة جبهة الرفض في عام 1974 أعاد الموقف من جانب المنظومة الاشتراكية تجاه الجبهة إلى ما كان عليه سابقاً. استمر هذا الموقف حتى عام 1977 ـ زيارة السادات ـ وتشكيل جبهة الصمود والتصدي العربية. في تلك الفترة كانت صورة الجبهة الشعبية عالية ولا تستطيع بلدان المنظومة الاشتراكية تجاهلها. من هنا تحسنت علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي وباقي البلدان الاشتراكية، ومن هنا أيضاً كان خيارنا متابعة العلاج في براغ.

خرجنا من المستشفى في طريقنا إلى دمشق حيث كانت تنتظرنا طائرة مخصصة لنا من جانب الحكومة الليبية. كان خروجنا من المستشفى يتطلب تغطية أمنية وحماية تم تأمينها عن طريق قوات الردع السورية. وكان ذلك بقرار من القيادة وقد تم نقلنا بواسطة مروحية عسكرية سورية إلى دمشق وكان في وداعي في المطار في ذلك الوقت محمد الخولي. هنا أذكر كيف تم إغلاق الطريق إلى مستشفى الجامعة الأميركية وتطويقه من جانب قوات الردع. وحين خرجنا كانت المصفحات السورية تتقدم سيارتي وتقطع المرور، وذلك لتسهيل الوصول إلى القاعدة التي انطلقنا منها قرب

مطار بيروت بالمروحية العسكرية. هنا أيضاً تجدر الإشارة إلى أن الحكومة الجزائرية برئاسة الشاذلي بن جديد كانت قد أرسلت فريقاً طبياً وطائرة خاصة مجهزة لنقلي من مطار بيروت إلى الجزائر. ولقد قدرت لهم جداً هذا الموقف الوطني النبيل. لكن ترتيبات السفر كانت قد تمت على أساس السفر إلى براغ عن طريق سورية.

كانت علاقتنا بالأنظمة العربية الوطنية في تلك الفترة جيدة (الجزائر، ليبيا، سورية، العراق، اليمن الديمقراطي). لكن هذه العلاقة الجيدة لا يجوز أن تنسيني التقييم العلمي لهذه الأنظمة ومسيرتها في ضوء الشعارات التي طرحتها وعدم قدرتها على تحقيق هذه الشعارات. لقد كانت هذه الأنظمة تنادي بالوحدة العربية وتحرير فلسطين، بينما الوضع العربي الراهن الآن، الذي أكتب فيه هذه المذكرات، يعاني حالة انهيار كامل. ما هو تفسير ذلك؟ ما هي أسباب هذا الانهيار؟ إن إمكانيات هذه الأنظمة الوطنية تمكنها من الصمود والتصدي ومساندة الثورة الفلسطينية لتحقيق أهدافها، فلماذا نعيش هذا الوضع الآن؟ في ذهني موضوع البيروقراطية وغياب الديمقراطية والتناقض الطبيعي بين الثورة والدولة. فهل يكفي ذلك لتفسير هذا الوضع المتردي الضاغط على صدر كل مواطن عربي حر، حيث يشعر المرء بمرارة ما نمر به الآن؟ لكن مثل هذا التفسير لا يكفي. إن واجب المخلصين الذين تصدوا لتحقيق هذه الشعارات أن يدرسوا علمياً بدقة الأسباب كافة التي أدت إلى هذا التدهور، بحيث يستطيع الجيل الجديد الذي سيتابع من بعدنا مسيرة تحقيق هذه الشعارات أن يدرس باهتمام كبير تجارب هذا الجيل. إن هذه الشعارات شعارات عادلة وإمكانيات تحقيقها ممكنة. أليس من العدل أن يعود المواطن الفلسطيني إلى فلسطين؟ أليس من العدل أن يعيش الشعب الفلسطيني في وطنه سيداً وحراً؟ أليس من حق المواطن العربي أن يعيش في مجتمع عربي مستقر؟

إذا كان الجيل الذي أمثله قد فشل في تحقيق شعاراته العادلة، فعليه على الأقل أن يسجل الدروس والأسباب التي أدت إلى ذلك الفشل حتى يستفيد الجيل القادم، وكي نجنبه تكرار هذه الأخطاء.

رافقتني زوجتي في رحلتي إلى تشيكوسلوفاكيا لمتابعة العلاج وأنا أشعر دائماً بالامتنان والتقدير لها لتحمل أعباء ومسؤوليات البيت والحياة بجانبي في ظروف صعبة كانت تحيط بنا أثناء وجود الثورة في بيروت، وما كان يحيط بها من أخطار وصلت إلى حد اقتلاعها من الجذور، وانعكاسات تلك الظروف على زوجتي وعلى ابنتيّ الطفلتين في ذلك الوقت، لما كانت تتطلبه من احتياطات أمنية قاسية، وتنقُّل دائم من مكان إلى آخر، واستعمال أسماء مستعارة مختلفة مع اختلاف الأماكن، وحالة قلق دائم، وعدم استقرار، وحرمان كامل من كل مظاهر الحياة الطبيعية، كالصداقة والعلاقات مع الأصحاب، وتبادل الزيارات. كل هذه كانت من المحرمات، وللقارئ أن يتخيل ما معنى كل ذلك لزوجة وأطفال. إضافة إلى ظروف الحرب اللبنانية الطاحنة، حيث بقيت أسرتي في بيروت كل سنوات الحرب حتى عام 1982. وفي براغ، منذ وصولنا، كانت هيلدا تقابل الأطباء الكثيرين، وتناقش معهم حالتي الصحية، كما كانت تقابل العديد من المسؤولين والأصدقاء، من رفاق حزبيين وغير حزبيين، وعدداً من السفراء العرب. ورغم ما كان يجول في نفسها من تخوف كبير على صحتي في تلك الفترة، وقلقها الدائم على ميساء ولمى، اللتين كانتا بعيدتين عنا، إلا أنها كانت صامدة متماسكة، تواجه المصاعب بكل هدوء وصبر.

في براغ، ما زلت أتصور وجه الطبيب الذي كان مسؤولاً عن متابعة علاجي. هذا الإنسان كان يهتم كثيراً بالموضوع المعنوي، وأنا الآن أشعر بأهمية هذه الناحية وانعكاسها عليّ، وأتمنى حتى الآن زيارته لأعبر له عن شكري وتقديري.

رغم طبيعة المرض الصعبة وما كنت أعانيه من آلام، فإنني كنت أتابع أخبار الثورة والجبهة باهتمام. وكان الرفاق قد رتبوا لي مجيء عضو قيادي

(عضو مكتب سياسي) بصفة دورية إلى براغ التي بقيت فيها للعلاج لبضعة أشهر، وبعد ذلك كان الترتيب أن أعود إلى بيروت. وعند الخروج من المصح كان الإخوة المسؤولون في ليبيا قد أرسلوا لي طائرة خاصة لتكون طرابلس الغرب المحطة الأولى التي زرتها، برفقة زوجتي، للراحة المؤقتة قبل انعقاد مؤتمرنا الرابع في بيروت. وكنت في تلك الفترة في براغ ألتقي السفراء العرب والأصدقاء الذين يأتون خصيصاً لزيارتي، وكذلك قدّرتُ اهتمام السفير الفلسطيني في براغ وأعضاء السفارة.

بعدما أنهت القاعدة الحزبية مناقشة التقارير والوثائق التي ستقدم إلى المؤتمر، كانت القيادة تريد عقد المؤتمر مباشرة، وبخاصة أن انعقاده كان قد تأخر أكثر مما يجب. وبالنسبة إلي لم يكن ممكناً أن أقف عقبة في طريق انعقاده. لكن كوادر الجبهة والقاعدة الحزبية كانوا يريدون تأجيل انعقاد المؤتمر حتى أتمكن من حضوره بعدما أتحسن صحياً. وحتى أكون صريحاً بيني وبين نفسي، كنت راغباً في حضور المؤتمر، وقد قدّرت للقاعدة الحزبية وكوادر الجبهة هذا الموقف، وبخاصة أن فترة التأجيل كانت قصيرة جداً. وبالنسبة إلى المؤتمر والوثائق التي كانت معدة مسبقاً، فقد كانت الوثيقة السياسية هي التي تهمني بالدرجة الأولى، والآن وبعد مرور كل هذا الزمن على تلك الوثيقة السياسية، فإنني أشعر باعتزاز بما احتوته في القسم المتعلق بالشؤون العربية، لأنها بيّنت موضوع النفط وكيف ستؤثر الثروة النفطية في الوضع الاجتماعي في المنطقة العربية وانعكاس ذلك على الوضع السياسي، وبوجه خاص على الوضع القيادي الرسمي. فمن يقرأ ذلك التقرير الآن يتلمس بصورة واضحة أن ثروة النفط التي امتلكتها الأنظمة العربية كانت الطريق الذي أدى إلى كامب دايفيد.

لكن لا يجوز لي أن أكتفي بالإيجابيات التي احتواها التقرير السياسي التي أثبتت الأحداث صحتها؛ فالواجب أن أبين أيضاً بصورة واضحة التحليلات والأخطاء التي أثبتت الأحداث عدم صحتها على الصعيد الدولي وعلى الصعيد المحلي. فعلى الصعيد الدولي، كان التقرير يسجل،

وبخاصة بعد انتصار فيتنام، الإنجازات الكبرى للمنظومة الاشتراكية. فالأرقام التي كانت تسجلها وثائق الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية المنضوية في هذه المنظومة كانت تبين الإنجازات التي حققتها تلك البلدان على الصعيد الاقتصادي وانعكاس ذلك على الصعيد الاجتماعي. هنا أعترف أنني كنت مقتنعاً بما كنت أسمعه من خلال اللقاءات وما أقرأه من تقارير حول هذا الموضوع.

كانت ابنتي ميساء، التي كانت تدرس الطب في ليبزغ - ألمانيا الشرقية، تتحدث لي عن استياء قطاعات واسعة من الناس من الوضع القائم في ذلك الوقت، وأن الناس في تلك المناطق تتحدث عن الفارق بين وضعهم من ناحية ووضع الألمان في الشق الآخر، أي ألمانيا الغربية، من ناحية أخرى. كما أنني أذكر أن بعض الرفاق القليلين كانوا يشككون في الأرقام التي كانت تصدر عن الجهات الرسمية حول الوضع الاقتصادي والإنجازات الضخمة التي كانوا يحققونها في هذا الميدان. كما أن بعض الأصدقاء كانوا يشيرون لي إلى ضرورة قراءة بعض الكتب التي كانت تصدر عن بعض الخبراء والسياسيين الغربيين عن الصراع بين المعسكرين، وبعض هذه الكتب كانت تتنبأ بأن الصراع سينتهي بانتصار الرأسمالية وأن هذا الانتصار سيحدث قبل انتهاء القرن العشرين.

لكن كل هذه الموضوعات لم تكن تؤثر في قناعاتي حول المعسكر الاشتراكي والمنظومة الاشتراكية. إن الانهيار السريع والطريقة الذي تم بها لم يكن أحدٌ قادراً على التنبؤ به على هذا النحو.

لم يكن الخطأ الذي وقعتُ فيه في ما يتعلق بالوضع الدولي هو الخطأ الوحيد، كان هناك خطأ آخر وقعت فيه في ما يتعلق بالوضع الفلسطيني. لقد كنت أتوقع أن تُوجَّه الضربة الحاسمة إلى الثورة الفلسطينية في لبنان من جانب الجيش اللبناني لا من جانب الجيش الإسرائيلي كما حصل في صيف عام 1982.

كانت السلطة اللبنانية تعدّ بحماسة وبسرعة كبيرة الجيش اللبناني لهذه المهمة. ولمَ لا؟ لقد انتهت الثورة في الأردن عن طريق الجيش الأردني، كما حاول الجيش اللبناني القضاء على الثورة في عام 1973. لقد كانت الرجعية اللبنانية، وبخاصة «الكتائب اللبنانية»، مهيأة ومعبأة لهذه المهمة، كما كانت أدبياتنا ترى أن القوى والأنظمة الرجعية هي جزء من القوى المعادية للثورة. وقد كنت أستبعد أن تُقدم إسرائيل على مغامرة من هذا النوع، وبخاصة أن إنهاء الثورة في لبنان لا يمكن أن يتم إلا بالقضاء على وجود الثورة في بيروت تحديداً، كون قيادة الثورة تعتبر لبنان القاعدة الأساسية والأخيرة لها[3].

رغم أن المعسكر المضاد للثورة يشمل إسرائيل والرجعية العربية على الصعيد الاستراتيجي، لكن التجربة علمتنا ضرورة التمييز بين دور إسرائيل ودور الرجعية، وأن الثورة يجب أن تأخذ في الحسبان ضرورة الإفادة من التناقضات بين إسرائيل من ناحية والأنظمة العربية الرجعية من ناحية ثانية.

بعد انتهاء المؤتمر، عقدت اللجنة المركزية للجبهة اجتماعاً لانتخاب الأمين العام ونائبه. بعد ذلك، كان عليّ أن أتابع موضوع العلاج، وكانت الجبهة قد طورت علاقاتها كثيراً مع البلدان الاشتراكية. لذلك كانت الفترة التي قضيتها خلال عام 1981 مناسبة جيدة لاهتمامي بتحسين العلاقة وتعميقها مع معظم البلدان الاشتراكية. لكن العلاقة مع البلدان الاشتراكية لم تكن جميعها بالمستوى نفسه؛ فقد كانت علاقتي مع الاتحاد السوفياتي وألمانيا الديمقراطية وبلغاريا وتشيكوسلوفاكيا جيدة جداً، بينما كانت

---

(3) يشير الراحل أبو إياد في مذكراته إلى أنه «في مطلع عام 1975، توافرت لدينا عدة مؤشرات واستخبارات تشير إلى أننا لسنا مهددين من قبل قوى محلية وحسب، وإنما من قبل مؤامرة دولية حقيقية. فقد كان ثمة أسلحة تتدفق وتباع في لبنان ثم ما تلبث أن تتحول سراً وخفية إلى الميليشيات المسيحية. بل عرفنا بما هو أسوأ من ذلك. فثمة شركات ورجال أعمال عرب يمولون مشتريات الكتائبيين والشمعونيين من السلاح بكرم بالغ. وكان ثمة بادرة أخرى مقلقة؛ فبعض بلدان الخليج العربي، توقفت أو تأخرت في دفع معوناتها لفتح والمنظمات الفدائية الأخرى». انظر: صلاح خلف (أبو إياد)، فلسطيني بلا هوية (عمّان: دار الجليل للنشر والدراسات والأبحاث الفلسطينية، 1996)، ص 191.

العلاقة مع هنغاريا ورومانيا عادية جداً؛ ولم أزر هنغاريا إلا مرتين مقابل زيارة واحدة لرومانيا، أما بولندا فلم أقم بأي زيارة رسمية لها من جانبي.

في خلال تلك الفترة، أي فترة العلاج، كانت تتم لقاءات سياسية مهمة مع المسؤولين، وهو ما أدى إلى تمتين العلاقة على الصعيد الشخصي. ما زلت أذكر أسماء المسؤولين الذين أصبحت تربطني بهم صداقة شخصية، سواء في موسكو أو برلين أو براغ أو صوفيا. وإن لم أكن مخطئاً، فقد أصبحت علاقة الجبهة مع هذه البلدان الاشتراكية أعلى مستوى من علاقة باقي الفصائل الفلسطينية بتلك البلدان.

لقد حرصت أن أعود إلى بيروت قبل 1981/12/11، أي الذكرى الرابعة عشرة لانطلاقة الجبهة الشعبية؛ إذ إنها مناسبة عزيزة على قلبي، وبخاصة بعدما تجاوزت مرحلة العلاج وأصبح وضعي الصحي مستقراً، وهو ما مكنني من حضور الاحتفال وإلقاء كلمة الجبهة في ذلك اليوم. وكان من بين الحضور الأخ أبو عمار الذي - هو بدوره - أيضاً ألقى كلمة الثورة الفلسطينية، والأخ محسن إبراهيم الذي ألقى كلمة الحركة الوطنية اللبنانية.



17 ـ الاجتياح الإسرائيلي، وحصار بيروت وخروج المقاومة من لبنان

كان عام 1982، هذا العام المشؤوم، عام الاجتياح الإسرائيلي للبنان. ومهما كانت الأحداث أو الأنشطة التي قمت بها قبل الاجتياح أو بعده، فإن موضوع الاجتياح هو الموضوع الكبير والتاريخي الذي سأقف أمامه.

في بداية حزيران/يونيو (1982/6/4) كنت في دمشق، وفي هذا اليوم حصلت غارة إسرائيلية كبيرة على بيروت، وبالذات على المدينة الرياضية القريبة جداً من المنطقة التي توجد فيها قيادة المقاومة الفلسطينية. وعند سماعي نبأ الغارة، أسرعت في العودة إلى بيروت. ولدى وصولي، كانت سيارات الإسعاف ما زالت تخلي القتلى والجرحى من منطقة المدينة الرياضية، وكانت الطائرات الإسرائيلية لا تزال تحوم في الأجواء. لكنني بصراحة لم أكن أتوقع أن تكون هذه الغارة بداية الاجتياح التاريخي. وفي اليوم التالي بدأت عملية الاجتياح للجنوب اللبناني مع تكثيف الغارات الجوية فوق بيروت.

كنت أتوقع أن يكون هناك صمود عالٍ في الجنوب في ضوء الصمود الذي حصل عام 1978، ولكن المفاجأة الكبرى كانت بانهيار المقاومة في الجنوب بعد أيام فقط، حيث بدأت الأخبار تصلنا بأن القوات الإسرائيلية وصلت إلى صيدا وفي طريقها إلى الدامور. لكن هذا الانهيار لا يمكن أن ينسيني الصمود البطولي الذي حصل في قلعة الشقيف، الذي كتبت عنه

الصحافة الإسرائيلية وعن الخسائر التي كابدتها إسرائيل، قبل أن تتمكن من السيطرة على تلك القلعة[1].

يبدو أن إسرائيل كانت تريد تكرار ما حصل عام 1967، أي الانقضاض السريع على المقاومة، وإنهاء كل هذه العملية خلال أيام، وتدمير مركز القيادة الفلسطينية، وهو ما يدفع المقاومة إلى الهرب الذليل من لبنان.

هنا قلت في نفسي أن أمامنا قراراً تاريخياً كبيراً، إما الاستسلام والهروب وإما الدفاع المستميت عن الثورة الفلسطينية حتى آخر قطرة دم من مقاتلينا وقياديينا، حتى يسجل التاريخ للأجيال القادمة هذه الوقفة التاريخية «الأسطورية»، لتبقى مصدر فخر واعتزاز للأجيال القادمة وتستند إليها في مواصلة القتال.

في تلك اللحظة التاريخية عقدت مؤتمراً صحافياً وأطلقت شعار الدفاع عن بيروت وتحويلها إلى ستالينغراد ودعوت رفاقنا اللبنانيين في الحركة الوطنية اللبنانية إلى المشاركة في هذه المواجهة. كان عدد الصحافيين كبيراً جداً وقد كنت مدركاً أن موضوع الإعلام يجب أن يكون سلاحاً أساسياً في هذه المعركة.

عند بدء الاجتياح لم يكن أبو عمار موجوداً في لبنان، وأعتقد أنه حضر إلى بيروت في اليوم الثالث من الاجتياح. كان من الطبيعي أن أزوره يوم وصوله لنتباحث في هذا الوضع المصيري والمحرج، أي الاجتياح وأهدافه وآفاقه والموقف الذي يجب أن نتخذه. وما زلت أذكر بوضوح معالم وجه أبو عمار في تلك الزيارة. لا أستطيع أن أقول إنه كان خائفاً، لكنني أستطيع القول إنني لم ألمس منه أنه كان مصمماً على جعل بيروت والدفاع عنها مأثرة للشعب الفلسطيني واللبناني لتبقى درساً للأجيال القادمة، وفي

(1) للتفصيل انظر: جورج حبش، حول حرب لبنان ونتائجها (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، دائرة الإعلام المركزي، 1983).

الوقت نفسه تكون درساً لإسرائيل، وشارون بالذات الذي كان في ذلك الوقت وزيراً للدفاع.

كنت أحرص على تفقد المقاتلين في الخطوط الأمامية كل يوم في الصباح للاطمئنان عليهم؛ لأنني كنت أعرف جيداً أن موضوع المعنويات هو سلاحنا الأساسي في هذه المعركة غير المتكافئة من الناحية العسكرية البحتة. وبعد هذه المهمة، كنت أعود إلى الرفاق القياديين في المكتب السياسي لأطلع منهم على الأوضاع بوجه عام ولنتبادل الآراء وللاطلاع على أي رسائل آتية من سورية أو من أي بلد عربي آخر.

أما عن موقف جبهة الصمود والتصدي، فقد كانت منتهية قبل عملية الاجتياح. أما الرئيس معمر القذافي فقد كان يطالبنا أثناء المعركة بالانتحار وكان ذلك يُقابل بالسخرية. كنت أتمنى عليه على الأقل أن يطالبنا بالقتال حتى الاستشهاد وليس الانتحار[2].

في ظل كل هذا الوضع الدولي والعربي والرسمي، كنت أعرف أنه ليس أمامنا إلا الاعتماد على أنفسنا ومعنوياتنا ومقاتلينا حتى الشهادة.

المرة الثانية التي التقيت فيها مع أبي عمار كانت في لقاء ضمّ كل القيادات الفلسطينية الموجودة في بيروت من دون أي استثناء. وكان أبو عمار دائماً في لقاءات من هذا النوع يحرص على وجود محسن إبراهيم وجورج حاوي، الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني في ذلك الوقت. كان أبو عمار في لقاءات معيّنة يحرص على عدم إبداء رأيه في البداية، يصغي أولاً لآراء الآخرين، ومع معرفتي بهذا الأمر، كنت أريد أن أغتنم فرصة هذا اللقاء الواسع لأقول لجميع الحضور إن إسرائيل هدفها من الاجتياح هو إلحاق هزيمة ساحقة، بحيث إن الشعب الفلسطيني لن يفكر

---

(2) في أثناء حصار بيروت، أرسل الرئيس الليبي معمر القذافي برسالة للقيادة الفلسطينية طالبهم فيها بـ «الانتحار» وعدم الخروج من بيروت. احتجاج الحكيم هنا يأتي، أولاً، بسبب خذلان الحكومات العربية للمقاومة الفلسطينية التي صمدت نحو ثلاثة أشهر محاصرة في بيروت من دون أي إسناد عربي، وثانياً بسبب استخدام مصطلح «انتحار» بدلاً من المقاومة والاستشهاد.

مستقبلاً بالتصدي العسكري لإسرائيل وجيشها، وبالتالي ليس أمامنا إلّا الصمود ثم الصمود ثم الصمود، بحيث نلحق بإسرائيل أكبر عدد ممكن من الخسائر البشرية لتكون عظة للمستقبل. وأعتقد أن هذا الموقف كان عاملاً أساسياً في الصمود الذي استمر أكثر من شهرين ونصف الشهر، والذي فاجأ إسرائيل، التي كانت تتصور أن حربها مع الثورة الفلسطينية في بيروت ستكون خاطفة وسريعة كما حصل في عام 1967. لم يصدر عن تلك الاجتماعات قرارات محددة، لكن الجو العام كان مهيأً للاستمرار في القتال والصمود البطولي أمام تلك الهجمة الشرسة للعدو الإسرائيلي الذي كان مصمّماً على القضاء التام على الثورة أو الانسحاب والخروج من بيروت على نحوٍ مذلّ.

وبعد مجيء فيليب حبيب، كانت الصورة واضحة كل الوضوح: العدو يريد تحقيق هدفه[3] من خلال الضغط العسكري المترافق مع المناورات السياسية التي جاء الموفد الأمريكي خصيصاً لتحقيقها. وبدأ شارون يحلم باقتحام مركز القيادات العسكرية والسياسية الفلسطينية، ومن ثم أسر تلك القيادات وأخذها إلى تل أبيب لاستعراضها أمام الجمهور الإسرائيلي، وبذلك يحطم أي أمل لاستنهاض الثورة من جديد.

بدأ شارون يقذف حمم قنابله بصورة مكثفة فوق مركز القيادات الفلسطينية، فبدأت تنهمر عليها أطنان من القنابل والصواريخ، وهو ما دفع ضابطاً إسرائيلياً معروفاً إلى الاستقالة لأنه لم يعد قادراً على تحمل هذه الجريمة، في الوقت الذي كانت القيادة العسكرية الإسرائيلية تعتمد على هذا الضابط في عملية الانقضاض على القيادات الفلسطينية.

---

(3) الدبلوماسية الأمريكية متمثلة بجولات فيليب حبيب حينها كانت مكملة للعدوان العسكري بمطالبتها الفلسطينيين بالقبول بشروط لا تقل عن الاستسلام.

بدأت عملية الصمود التاريخية تزداد قوة وتتعزز يوماً بعد يوم، وهو ما جعل الجماهير الفلسطينية والعربية كافة خارج لبنان تعتز وتفتخر بصمودنا، «الأسطورة» التي ستبقى منارة تضيء مستقبل الأجيال القادمة.

أذكر ثلاثة أيام من أيام الحصار الطويلة التي كانت الأعنف. ففي يوم من هذه الأيام اضطررت إلى الذهاب إلى البيت الذي كان مكشوفاً أمنياً للعدو لقضاء ليلة واحدة، وفوجئنا بالقصف العنيف على المنطقة وبدأت القذائف تسقط قريباً من البيت وشظاياها بدأت تخترق المبنى، وهو ما جعل المرافقين يدفعونني دفعاً لأخذ كل الاحتياطات اللازمة، لأنني كنت في العادة أهمل ضرورة الأمن الشخصي. وما كدنا ننتقل من غرفة الصالة التي كنا فيها إلى ممر يفصل بينها وبين الغرف الداخلية، حتى سقطت قذيفة دمرت الصالون، حيث كنا نجلس قبل لحظات. وقد حالفنا الحظ ولم نصب بأذى. وخرجنا على الفور بعدما تدمّر سقف البيت وكتبت لي النجاة.

لدى مرور لحظات من الهدوء النسبي، كنت أخرج في كل مرة لأطمئن إلى الرفاق وإلى معنوياتهم. وأعترف بكل صدق أنني كنت أجدهم يضحكون ويستقبلونني بحماسة، وكنت أشعر بارتياح شديد للحالة المعنوية التي كان يتمتع بها الرفاق جميعاً.

في أثناء معركة الاجتياح، كانت زوجتي هيلدا وابنتي الصغرى لمى في بيروت. بقيت أسرتي في بيروت طوال فترة الحرب في لبنان. لقد عُرض علينا أن تنتقل عائلتي إلى ليبيا أو الجزائر أو العراق، ولكن هيلدا كانت ترفض هذه الفكرة من أساسها، وكانت تقوم ببعض الأنشطة الاجتماعية، منها الاهتمام بأسر الشهداء وبالجرحى ومواساتهم وتأمين حاجاتهم، كما كانت مسؤولة عن لجنة إحياء التراث والأشغال اليدوية وتزور المخيمات بانتظام تحت وطأة القصف. وحين اشتد لهيب المعارك في بيروت، كانت هيلدا صامدة وتتمتع بمعنويات عالية. وبعد كل غارة

كبيرة، كنت أجدها تبحث عني أو أبحث أنا عنها ليطمئن أحدنا إلى الآخر. فرغم المسافة القصيرة التي كانت تفصل بيننا فإن هاجسها كان دائماً أن تبقى إلى جانبي وتوفر لي المتطلبات الأساسية. كان هذا الموضوع يمنحني الكثير من السعادة والراحة النفسية. ولم تخرج هيلدا من بيروت إلا حين اتخذت الجبهة قراراً بالانسحاب. كان يوم وداع هيلدا ولمى من أصعب الأيام في حياتي، إذ لم نكن نعرف وسط الجحيم الذي كانت تعيشه بيروت هل سنلتقي مرة أخرى، أم أن هذا الوداع سيكون الأخير. وهنا وجدت نفسي أصعد السلالم ستة عشر طابقاً لأودعهما في المكان الذي أقامتا فيه في الفترة الأخيرة من دون التفكير بانعكاس ذلك على وضعي الصحي. وقد كانت الكهرباء والماء مقطوعة في تلك الأيام.

السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو لماذا قررت الجبهة الشعبية الانسحاب من بيروت، في الوقت الذي رفعت شعار الصمود وتحويل بيروت إلى ستالينغراد أخرى؟

كانت إسرائيل في حروبها ضد العرب تعتمد على سلاحين أساسيين إضافة إلى أسلحة أخرى: المفاجأة من ناحية، والحرب النفسية من ناحية أخرى. وكان إدراكي لهذا الموضوع بالذات هو ما جعلني أرفع شعار تحويل بيروت إلى ستالينغراد، وأكثف نشاطي الإعلامي، حيث بدأت أقوم بمهمة الإعلام الخارجي بنفسي. وأعتقد أن موقف الجبهة بهذا الشكل كان له تأثيرٌ كبيرٌ في معركة بيروت التاريخية. وبعد مرور ما يزيد على شهرين على استمرار المعركة، حيث حشدت إسرائيل كل طاقاتها العسكرية لكسب المعركة بأسرع وقت، كان الهدف قد تحقق من حيث الصمود البطولي وعدم الاستسلام. لكن، بعد كل هذا الصمود بدأت أفكر مع بعض رفاقي القياديين، هل هناك مبرر لاستمرار موقف الرفض الذي كانت تتخذه الجبهة من قضية الانسحاب؟

حين كانت إسرائيل، من خلال فيليب حبيب، تريد أن يتم انسحاب المقاومة الفلسطينية بلا سلاح، كان موقفنا كجبهة شعبية يعود ويتصلب من جديد ويتخذ موقف الرفض عن قناعة لإدراكنا أن هدف إسرائيل هو تحطيم معنوياتنا، كمقاتلين وكشعب، وإذلالنا أمام العالم. هذا الموضوع كان يدفعنا من جديد إلى التمسك بموقف الصمود والتحدي، وهو ما أجبر إسرائيل على القبول بخروج المقاومة بأسلحتها، فاعتبرنا ذلك انتصاراً معنوياً كبيراً.

هل كان الصمود الذي تحقق هو الأمر الوحيد الذي جعلنا كجبهة نقبل بالانسحاب من بيروت؟ جوابي أنه كان العامل الأساسي من دون شك، ولكنه لم يكن العامل الوحيد في ذلك الوقت. هناك عامل أساسي آخر أيضاً لا يقل أهمية، وهو أن الجماهير الفلسطينية واللبنانية كانت تعاني معاناة كبيرة، إضافة إلى اشتداد المعارك وكثافة القصف، من نقص في المياه، ومياه الشرب تحديداً، وانقطاع الكهرباء ونقص المواد الغذائية الأساسية، وهو ما جعل القيادة تأخذ الموضوع الإنساني في الحسبان وتضعه ضمن أولوياتها. فالمعركة في نهاية الأمر غير متكافئة بسبب التفوق الجوي الإسرائيلي، وعدم وجود أي دعم أو تدخل خارجي لدعم المقاومة، وبذلك فإن التمسك بقرار الصمود إلى ما لا نهاية سيقود مدينة بأكملها نحو الانتحار حيث حشدت إسرائيل قوة عسكرية كبيرة في معركة بيروت وأحكمت الطوق على المدينة.

بعد ذلك، كانت هناك رؤيتي النظرية السياسية لعملية المواجهة مع العدو الصهيوني. لقد كنت أنظر إلى عملية المواجهة مع العدو الصهيوني في إطارها القومي لا الفلسطيني البحت. ومن خلال التفاعل الذي كان يتم مع بعض أطراف الحركة الوطنية اللبنانية، وبخاصة مع الحزب الشيوعي اللبناني، كان واضحاً أن الاشتباك مع العدو الصهيوني في لبنان سيستمر وسيكون من مسؤولية الوطنيين اللبنانيين وأن انسحاب المقاومة الفلسطينية من بيروت سيساعد على تنفيذ مثل هذه المهمة.

في ضوء ذلك، كان هناك ترتيب للقاء مع الرفيق جورج حاوي لبحث هذا الموضوع المهم، وكانت علاقاتنا مع الحزب الشيوعي اللبناني تتعزز يوماً بعد يوم. من هنا كان الترتيب لاستمرار المقاومة من خلال المقاومة اللبنانية بالاشتراك مع المقاومة الفلسطينية. لكن يوجد فرق بين أن تكون المقاومة الفلسطينية هي الأساس في المواجهة وبين أن تكون المقاومة اللبنانية هي الأساس، ونكتفي نحن بالمشاركة والمساندة. هذا ما حصل فعلاً بعد خروجنا من لبنان في مناطق البقاع والجبل.

في يوم من الأيام، وبعدما تبلورت صورة الموقف وتبين أننا سنغادر لبنان، جاءني أبو عمار، وكنت في مبنى مجلة **الهدف**، وطلب مني اجتماعاً خاصاً على انفراد. عرض عليّ الأخ أبو عمار أن نخرج معاً من بيروت إلى تونس. ومن دون تفكير طويل، رفضت الفكرة في ضوء معرفتي أن أبو عمّار لم يعد قانعاً باستمرار الكفاح المسلح، وأنه يريد تسويةً ما في ضوء الضربة التي وُجِّهت للثورة من جانب إسرائيل، وأنه لم يعد أمامنا إلا الحلول السياسية عن طريق النضال الدبلوماسي في رأيه. جاء ذلك العرض في الوقت الذي كنت لا أزال قانعاً بضرورة الاستمرار في الكفاح المسلح من خلال التحالف مع الحركة الوطنية اللبنانية، وضرورة إعادة دورنا في المواجهة. وقناعتي أن الثورة الفلسطينية لم تنته بعد.

الخروج من بيروت

لا أذكر أنني كنت أرغب في أن أكون شاعراً في يوم من الأيام مثلما شعرت في تلك الأيام التي كنا نتهيأ فيها للرحيل من بيروت. لقد مررت في مسيرتي النضالية الطويلة بأيام سعيدة وأيام أخرى مريرة، لكنني لا أذكر أنه انتابتني في يوم مشاعر على ذلك النحو الذي أحسست به في تلك الأيام المؤلمة التي حُفرت في ذاكرة التاريخ. فبيروت مدينة اجتمعت فيها عوامل المكان والزمان لتصنع منها حالة فريدة لا يشبهها شيء، خارجة تماماً عن إيقاع كل العواصم العربية الأخرى، مدينة تنبض بالحياة والحضارة والثقافة،

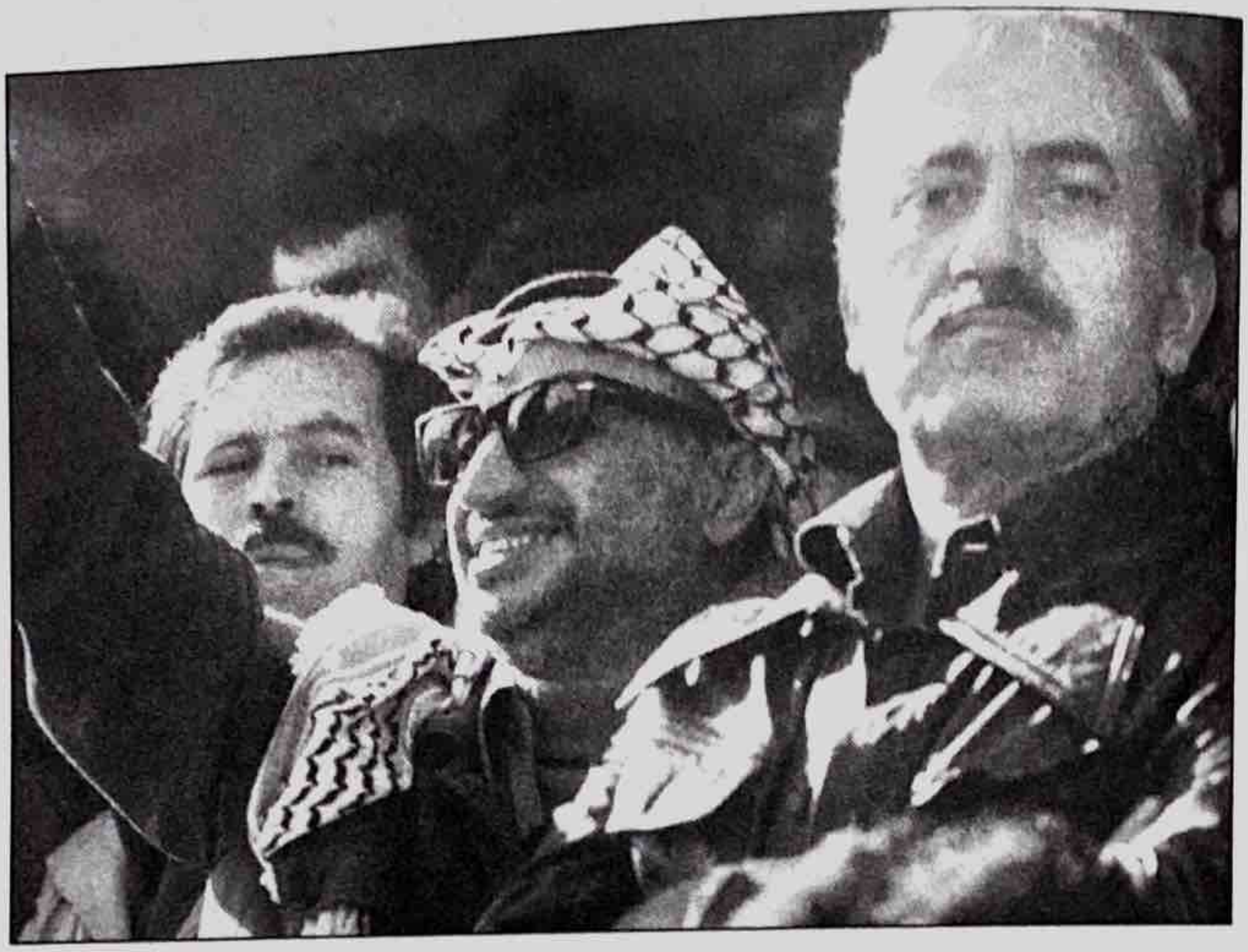
في ظل حرب يومية ودمار وموت، وإصرار على الحياة، وسط حزن لا ينتهي. هكذا كانت بيروت في سنوات الحرب الطاحنة. كما أنها المدينة التي قضيت فيها أجمل سنوات الدراسة والشباب، فقد شكلت بيروت جزءاً حميماً من تكويني الوجداني. لذلك كان يوم خروجي منها تاريخاً حزيناً ومنعطفاً صعباً.

من أيام الفرح التي لا تمحى من ذاكرتي أبداً هو يوم الوحدة بين مصر وسورية عام 1958، حين شعرت بسعادة غامرة للإنجاز الكبير الذي تحقق كخطوة أولى على طريق الحلم العربي بالوحدة. ومن أيام الحزن التي لا تنسى هو يوم سقوط القدس عام 1967. كان الحزن يغمرني ويجتاح كياني في كل خلية من خلايا جسدي. أما حين تحدد موعد الخروج من بيروت، وأخذت المقاومة تعد نفسها للمغادرة، فقد انتابني شعور بالحزن العميق، من ناحية، والشعور بالاعتزاز، من ناحية أخرى؛ لكن الأمل في المستقبل لم يفارقني رغم صعوبة تلك الأيام.

كانت الجماهير الفلسطينية واللبنانية، وكذلك المقاتلون اللبنانيون والفلسطينيون، يعبرون عن مشاعرهم وأفكارهم بالكتابة على الجدران التي امتلأت بالشعارات. كلها كانت تعبر عن الشعور بالامتنان للشعب اللبناني الذي ساند الثورة ودافع عنها طوال هذه المسيرة. وفي الوقت نفسه كانت بعض الشعارات تعبر عن تمنيات الشعب اللبناني بعودة المقاومة للاستمرار في النضال معاً لمواجهة هذا المشروع العدواني الصهيوني الرهيب.

لوحة أخرى ما زالت محفورة في مخيلتي ولا يمكن أن تمحى، هي لحظة الوداع بين المقاتلين وأهاليهم، وأصدقائهم اللبنانيين، والدموع المنهمرة تعبيراً عن مشاعر الحزن والتحدي في آن. كان يوم وداع تاريخي احتشدت الجماهير، بمن فيهم النساء والأطفال، وكانت الهتافات تحيي الصمود البطولي للمقاومة. وكانت المشاعر مزيجاً من الشعور بالاعتزاز والألم العميق للمغادرة.

أبحرنا باتجاه طرطوس، وأنا أحمل أجمل مشاعر الحب والتقدير لهذا البلد الجميل ولشعبه الوفي المعطاء. أما في طرطوس، فكان بانتظارنا استقبالٌ شعبيٌّ حارٌّ وحافلٌ حملني فيه الرفاق على الأكف تعبيراً عن محبتهم وعن تقديرهم للصمود التاريخي. وهنا شعرت أننا أمام مرحلة جديدة تماماً وعلينا أن نتأقلم مع واقع جديد تماماً.



18 ـ الثورة الفلسطينية مرحلة ما بعد لبنان ـ عرفات ونهج الانحراف والتنازلات(*)

بعد وصولنا إلى دمشق، اجتمعنا جميعنا كعائلة هناك، وكنا جميعاً بحاجة ماسة إلى إجازة قصيرة طلباً للراحة بعد فترة الحصار الطويل على بيروت. كان لي صديق في دمشق هو سفير بلغاريا في سورية، وهو الذي هيأ لي مثل هذه الإجازة في بلغاريا. وقد تم ترتيب الإجازة العائلية في البداية، على أن نقضي بعض الوقت في فارنا الواقعة على البحر الأسود والمعروفة بموقعها الجغرافي الجميل. هناك التقينا بالمناضل المصري المعروف خالد محيي الدين والسيدة عقيلته (أم أمين)، وكان هذا اللقاء الأول لي مع هذا الإنسان الكبير؛ وكانت فرصة جيدة للتفاعل حول أوضاع حركة التحرر الوطني وأوضاع مصر والحركة الوطنية في مصر، وأوضاع الثورة الفلسطينية بعد خروجها من بيروت. أما بالنسبة إلى هيلدا وميساء ولمى، فقد كان وجود السيدة أم أمين يضفي على الإجازة جواً عائلياً جميلاً نظراً إلى ما كانت تتمتع به هذه السيدة الفاضلة من روح مرحة وحضور جميل.

(*) الانحراف هو مفهوم سياسي يقصد به التخلي عن المبادئ الوطنية الأساسية، أو أسس المشروع الوطني بالتحرير والعودة ويستخدم لتوصيف أي مشروع سياسي فلسطيني أخل بأسس ومواد الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يعتبر فلسطين التاريخية كلها «وطن الشعب العربي الفلسطيني وجزء من الوطن العربي» وهذا يتضمن الاعتراف بالكيان الصهيوني والتنازل عن قسم من أرض فلسطين. للتفصيل انظر: جورج حبش، **أزمة الثورة الفلسطينية: الجذور والحلول** (بيروت: دار الفارابي، 1985).

كما التقينا - عن طريق الصدفة - بالسكرتير العام لحزب «راكاح»[1] الإسرائيلي ماير فيلنر وزوجته، وكان إنساناً ودوداً جداً أبدى تعاطفه مع قضية الشعب الفلسطيني العادلة، لكن هذا التعاطف لا يصل إلى حد الاعتراف منه بعدم شرعية وجود إسرائيل على أرضنا الفلسطينية العربية.

حين عدنا إلى صوفيا في طريق عودتنا إلى دمشق، حيث مكثنا بضعة أيام، كان الاهتمام بنا عالياً جداً، وهذا يعود في اعتقادي إلى الصمود البطولي للثورة الفلسطينية في لبنان في أثناء الاجتياح الإسرائيلي، وإلى علاقاتنا الجيدة مع بلغاريا، بعدما قضيت بعض الوقت للعلاج في فترة سابقة.

كان الاهتمام بي في بلغاريا كبيراً، كما قلتُ، والتقيت بعضَ كبار المسؤولين هناك، أذكر منهم الجنرال الكبير المناضل برانسكي وآخرين من أعضاء المكتب السياسي للجنة المركزية، وتبادلنا الآراء حول مختلف القضايا الفلسطينية والعربية والعالمية.

بعد عودتنا إلى دمشق، كنت متحمساً لعقد اجتماع اللجنة المركزية، لنسجل توجهاتنا للمرحلة الجديدة، خاصة أننا كنا مشدودين لفكرة التركيز على الداخل بعد خروج الثورة من الأردن، ومن ثم من لبنان، أي تركيز عملنا وجهدنا داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة. كذلك كنا نريد أن نسجل بأن الثورة الفلسطينية لن تنتهي، وأنها ستستمر من خلال تحالفها مع الحركة الوطنية اللبنانية، ومن خلال استنادها إلى سورية، ومن خلال تركيزها على جماهيرنا داخل فلسطين. كذلك أردنا تسجيل الدروس

(1) راكاح: وتعني حرفياً «القائمة الشيوعية الجديدة»، وهي اختصار لاسم «الحزب الشيوعي الإسرائيلي». تعود جذور راكاح للحزب الشيوعي الفلسطيني الذي تأسس في ثلاثينيات القرن العشرين. لكن التسمية، راكاح، جاءت في عام 1965 نتيجة انشقاق في الحزب الشيوعي الإسرائيلي (ماكي) بين أغلبية يهودية تعترف بحق «إسرائيل» في الوجود وتنتقد مواقف الاتحاد السوفياتي من «إسرائيل» والقضية الفلسطينية، وبين أغلبية عربية تنتقد «إسرائيل» والصهيونية شكلت نواة «راكاح».

والخلاصات التي تتعلق بمرحلة وجود الثورة الفلسطينية في لبنان، وهي كبيرة ومهمة.

انتقال قيادة الجبهة إلى الساحة السورية بدأ يفسح المجال للتفاعل مع القوى الوطنية والتقدمية في سورية، وأذكر أنني أول مرة قابلت خالد بكداش، الأمين العام للحزب الشيوعي السوري، الذي زارنا في مكتب الجبهة لتهنئتنا على الصمود الذي تم في مواجهة الهجمة الإسرائيلية، أي عملية الاجتياح.

وفي نهاية هذا العام، أذكر جيداً الاحتفال الذي تم في دمشق بمناسبة انطلاقة الجبهة الشعبية، وكان العيد الخامس عشر للانطلاقة. حضر هذا العيد الأخ أبو عمار وألقى خطاباً. ومن عادة أبو عمار ألّا يتحدث في موضوع سياسي عميق، بل يكتفي بالكلام العاطفي وبالشعارات الرنانة التي تثير المشاعر عند الحضور. وأذكر جيداً أن خطابي والخطابات التي تلت بعد ذلك كانت تركز على أن الثورة ستستمر، وأن الانتكاسة التي حصلت لنا في لبنان سنستفيد من دروسها لمتابعة النضال. وكما حصل في ثورة روسيا 1905، حين تعرضت للانتكاسة، ثم عادت ونهضت من جديد لتقوم بثورة تشرين الأول/أكتوبر 1917 المجيدة والتاريخية. كذلك ستؤدي هذه الانتكاسة بالنسبة إلينا إلى نهوض وصحوة من جديد، كما رأينا في ما بعد انتفاضة جماهيرنا في الأراضي المحتلة التي ملأت الدنيا إعجاباً ببطولات أطفالها وشبابها ونسائها (ثورة أطفال الحجارة).

في شباط/فبراير عام 1983، عُقدت دورة المجلس الوطني السادس عشر في الجزائر. وهذه الدورة كما أذكر أسميناها دورة الصمود في ضوء الصمود البطولي الذي استمر 90 يوماً أمام الآلة العسكرية الجهنمية للجيش الإسرائيلي في أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان. ذلك أن الصمود الذي تم كان يعدّ في أنظار جماهيرنا العربية وأمام العالم صموداً عالياً في ظل الهجمة

الإسرائيلية من ناحية وفي ظل عدم قدرة الجيوش العربية على الصمود في معاركها السابقة مع الجيش الإسرائيلي لأكثر من بضعة أيام من ناحية أخرى.

أذكر جيداً العدد الكبير للحضور من كبار المدعوين من مختلف بلدان العالم وبخاصة البلدان الاشتراكية، ومستوى التمثيل العالي لهؤلاء الوفود. ومن الطبيعي جداً أن أذكر الخطاب الذي ألقيته في تلك الدورة وكيف قابله الحضور بالتصفيق المتواصل والصدى الذي تركه ذلك الخطاب المهم لما كان يحمله من أفكار مستقبلية لتعزيز مكانة المقاومة واستمرارها.

في هذه الدورة تم ترتيب زيارتي إلى الاتحاد السوفياتي على رأس وفد من الجبهة، فقد لقي الموقف السياسي الذي اتخذته الجبهة أثناء الاجتياح تقديراً عالياً لدى الرفاق السوفيات. ففي هذه الزيارة، حصل لأول مرة لقاء مع بنماريوف عضو المكتب السياسي المرشح المكلف بالعلاقات الدولية، وكذلك مع مسؤولين آخرين.

حين عدنا إلى دمشق وجدنا أن الأخ أبو عمار قد اتخذ عدداً من الترتيبات والتنقلات في صفوف القيادة العسكرية، وهو ما أثار غضب ونقمة الضباط المعترضين على نهج أبو عمار داخل فتح، فأدى ذلك إلى انتفاضة هؤلاء الضباط المسنودين من القاعدة الحزبية لفتح. وقد شكلت هذه الانتفاضة بالنسبة إلي أملاً كبيراً في ذلك الوقت، ليس في تصحيح أوضاع فتح فقط، بل في أوضاع منظمة التحرير بكاملها. فقد شعرت أن هذه الانتفاضة كفيلة بتصحيح الخط السياسي لفتح، وهو ما سوف يعكس نفسه على أوضاع منظمة التحرير. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، شعرت أن هذه الانتفاضة والقيادة التي قامت بها ستساهم في تصحيح أوضاع فتح والمنظمة من الناحية التنظيمية، إذ إن مشكلة الثورة الفلسطينية ومشكلة منظمة التحرير في نظري كانت تكمن في القيادة الفردية التي مثلها ياسر عرفات والقرارات المنفردة التي كان يتخذها من دون الرجوع إلى باقي القيادات الفلسطينية.

في بداية انتفاضة فتح، كانت أغلبية القاعدة الفتحاوية تؤيدها بحماسة شديدة، وأذكر جيداً أن أبو إياد - رحمه الله - كان له تصريحٌ يقول إن 99 بالمئة يؤيدون ضرورة التغيير في أوضاع فتح التنظيمية.

هنا أريد أن أسجل أن هذه الانتفاضة، بغض النظر عما آلت إليه في ما بعد، كانت تشكل في بداية الأمر أملاً كبيراً وعالياً لعملية تصحيح كبيرة لأوضاع الثورة الفلسطينية وإحداث تغيير داخل فتح.

لقد كانت هذه الانتفاضة بقيادة أبو موسى (سعيد موسى مراغة)[2]، وأبو خالد العملة وأبو صالح (نمر صالح). وكان أبو صالح يحلم بتحالف فتح وسورية والحركة الوطنية اللبنانية. ومن خلال هذا التحالف، نستطيع أن نستمر في الثورة حتى تحقيق أهدافها الكبيرة، ونستطيع أن نُقلق ونُربك إسرائيل بالمعنى الحقيقي للكلمة.

وحين اضطرت إسرائيل إلى الانسحاب من مناطق الجبل، نتيجة شدة المقاومة الوطنية اللبنانية، وقبل ذلك من بيروت، ذهب أبو صالح مباشرة إلى بيروت وقابل قيادة «المرابطون» (إبراهيم قليلات) وأصدر من هناك تصريحاتٍ حماسية جعلت سورية تمتعض وتطلب منه الرجوع إلى دمشق، من هنا تبيَّن مدى الحدود التي يمكن أن تسمح بها سورية للثورة الفلسطينية، وبخاصة فكرة وجود نشاط فلسطيني في لبنان من جديد.

كان هناك تناقض مستمر بين قيادة فتح أبو عمار وبين القيادة السورية. لقد كان هذا التناقض قائماً في أثناء وجود أبو عمار في لبنان، وحين ذهب أبو عمار إلى تونس، وليس إلى دمشق، كان من الطبيعي أن تتعمّق هذه التعارضات أكثر فأكثر. لكن، عند حصول انتفاضة فتح، كان من الطبيعي أن تتعمق وتزداد مشكلة أبو عمار وعلاقته مع سورية حيث كان حينها

(2) قاد انشقاق هؤلاء الضباط لتشكيل تنظيم حركة «فتح الانتفاضة» عام 1983.

يراهن على تسوية سلمية للقضية الفلسطينية في ظل موازين قوى لا تسمح بتسوية وطنية وفي ظل علاقته بالقوى الرجعية العربية[3].

حين أخذت سورية قراراً في 19 حزيران/يونيو 1983 بإعطاء مهلة أربع وعشرين ساعة لأبو عمار لمغادرة دمشق، شعرت يومها أننا أمام مأزق كبير، وبخاصة أن أبو عمار يمتلك الشرعية في نظر العالم بوجه عام وفي نظر العالم العربي الرسمي تحديداً.

لقد أصبحنا كجبهة أمام نارين: نار أبو عمار والانحراف الذي يدفع الثورة باتجاهه من ناحية، ونار وجودنا الاضطراري في سورية وتحالفنا مع الحركة الوطنية ووجودنا على الأرض التي تشكل إحدى دول الطوق التي لا بد من أن نبقى عليها إذا أردنا الاستمرار في النضال ضد العدو الإسرائيلي، من ناحية أخرى[4].

---

(3) يذكر الدكتور حبش في تحليله لزيارة ياسر عرفات للقاهرة عقب خروج الثورة من بيروت عام 1982 أنه «لا يكفي أن نقول إنها [الزيارة] خروج عن مقررات المجلس الوطني، لأنه خرج مرات عديدة جداً عن مقررات المجلس الوطني. زيارة ياسر عرفات للقاهرة لها مغزى سياسي. وهذا المغزى السياسي هو وضع (م. ت. ف.) بكل ما تعنيه كمحصلة لنضال الشعب الفلسطيني على مدى 18 عاماً على أرضية كامب دايفيد. هذه هي حقيقة ما قام به عرفات». انظر: حبش، **أزمة الثورة الفلسطينية: الجذور والحلول**، ص 62.

(4) يناقش الدكتور حبش هذه القضية بالتفصيل في **أزمة الثورة الفلسطينية: الجذور والحلول** ويقول: «إنه يجب التمييز بين طبيعة التناقض ما بين الثورة الفلسطينية من ناحية والأنظمة الرجعية من ناحية، وما بين طبيعة التعارض ما بين الثورة الفلسطينية والأنظمة الوطنية من ناحية ثانية. هذه نقطة نظرية سياسية أعتقد أننا متفقون عليها. بعد ذلك كيف ننظر للتعارض ما بين الثورة الفلسطينية والأنظمة الوطنية على وجه التحديد، فلنقل سورية باعتبارها الساحة التي تتواجد فيها الثورة بجسمها الأساسي. كيف ننظر لهذا التعارض وكيف نحله؟» ويضيف لاحقاً، للتمييز «على ضوء فهمي المسؤول لخريطة التعارضات الآن، فإن سورية التي تقف ضد كامب دايفيد، والتي تقف ضد اتفاق 17 أيار/مايو بين السلطة اللبنانية والكيان الصهيوني يجعلني أصل مع سورية إلى صيغة تنظيم وجود الثورة على الأرض السورية بشكل يمكن الثورة من لعب دورها الوطني الفعال في ساحات الأرض المحتلة وفي الأردن، وما عدا ذلك، سنقوم بمسؤولياتنا في ممارسة مهمات حركة التحرر الوطني الفلسطيني بما لا يؤذي أو يتعارض مع سورية. لذلك ذكرت أن الطريقة التي عولج بها موضوع سورية شكلت خطأ كبيراً وحملت المسؤولية فيه لليمين الفلسطيني» (ص 44 ـ 45).

من هنا، عملنا مع رفاقنا في الجبهة الديمقراطية على تشكيل تحالفٍ جادٍّ بقدر الإمكان لمواجهة كل هذا الوضع الشديد الصعوبة، هذا التحالف كنا نريده لمواجهة نهج الانحراف الذي سلكه أبو عمار بعد بيروت، وفي الوقت نفسه لنواجه محاولات الاحتواء من ناحية ثانية من جانب سورية والأنظمة العربية.

كنت متحمساً جداً لهذا الاتفاق، وكنت آمل أن يمثّل فرصة لتقوية التيار الديمقراطي داخل منظمة التحرير، الأمر الذي يمكننا من تصحيح أوضاع المنظمة سياسياً وتنظيمياً، رغم معرفتي أن من الصعب المراهنة على الرفيق نايف في مواجهة أبو عمار إلى حد الإصرار والتشديد على إقامة قيادة جماعية لمنظمة التحرير.

لم يكن متوقعاً حجم الخسائر التي منيت بها إسرائيل في لبنان، وبخاصة في بيروت وفي الجبل. إن إسرائيل حساسة جداً للخسائر البشرية. هذه نقطة يجب أن نأخذها في الحسبان في صراعنا الطويل مع الصهيونية. ونتيجةً لذلك، بدأت إسرائيل تفكر في الانسحاب من بيروت ثم من الجبل وحتى من صيدا.

بدأت الفصائل الفلسطينية كافة تفكر في هذا الوضع الجديد في الساحة اللبنانية وكيف تتعاطى معه. وكما سبق وقلت، إن بعض الرفاق في قيادة فتح الانتفاضة ظنوا أنه أصبح في إمكانهم أن يعودوا كالسابق، أي استعادة وضع الثورة في لبنان، كما كان من قبل. أما في ما يتعلق بالجبهة الشعبية، فكان لنا موقفنا الذي يرى أن الحركة الوطنية اللبنانية هي فقط التي يحق لها قيادة هذا الصراع الجديد في الساحة اللبنانية. وهذا لا يعني أن هذا الوضع الجديد لا يعطي المقاومة الفلسطينية أي دور، لكن هذا الدور يجب أن يكون دوراً مسانداً للحركة الوطنية اللبنانية (كانت الجبهة الشعبية تعتقد أن هذه هي الفرصة المناسبة لإبراز دور الحركة الوطنية اللبنانية في هذا الصراع المرير الطويل في مواجهة العدو الصهيوني). وقد

عملت الجبهة على هذا الأساس وأقامت تحالفاتها مع الحركة الوطنية اللبنانية أيضاً على هذا الأساس. وكان لها دور في معركة الجبل، وكان تقييمنا إيجابياً لهذا الدور.

أما بالنسبة إلى أبو عمار، فقد ظنّ أن بالإمكان أن يعود إلى الساحة اللبنانية حتى تكون له حصة كبيرة في الكعكة اللبنانية، حسبما جاء على لسانه في تلك الفترة.

لم يكن أبو عمار مدركاً ما يمكن أن ينتج من هذا التدخل حين عاد إلى لبنان عن طريق طرابلس عام 1983. فقد اعتبرت سورية أن ذلك يحمل تحدياً كبيراً لها ويضرب مخططها في الساحة اللبنانية. من هنا بدأت المعركة الضارية بين أبو عمار وحلفائه في طرابلس (الشيخ سعيد شعبان)، وبين النظام السوري وحلفائه اللبنانيين والفلسطينيين، واحتدمت تلك المعارك وسقط فيها العديد من المقاتلين من الجانبين، وكان ذلك بالنسبة إلينا أمراً خطيراً ومريراً وغير مبرر. من هنا كان موقفنا ورفاقنا في الجبهة الديمقراطية إدانة الاقتتال بين الإخوة وضرورة إيقافه بأسرع وقت، وطالبنا أبو عمار بضرورة الانسحاب الفوري والعودة من حيث أتى.

بعد توقف القتال، كانت الأنظار متجهة إلى الوجهة التي سيأخذها الأخ أبو عمار. وكان الظن أنه سيذهب إلى اليمن أو إلى قبرص. ولكن المفاجأة المذهلة كانت ذهاب أبو عمّار إلى القاهرة، القاهرة المرتبطة والمقيدة بكامب دايفيد؛ فاتفاقيات كامب دايفيد كانت تشكل أكبر انتصار للحركة الصهيونية في ذلك الوقت. هذه الاتفاقيات عزلت أكبر دولة عربية، هي مصر، عن الصراع العربي ـ الصهيوني. أما أن تعكس هذه الاتفاقيات نفسها على الصراع الفلسطيني ـ الصهيوني، فهذه هي الضربة التي لم تكن متوقعة بأي شكل من الأشكال. اتفاقيات كامب دايفيد تعطي الشعب الفلسطيني حكماً ذاتياً، في الوقت الذي كان الشعب الفلسطيني في أوج ثورته، وكان يطمح ويناضل من أجل إقامة دولة فلسطينية مستقلة وعودة الفلسطينيين

كافة الذين شردوا من أرضهم. أما أن تبدأ قيادته الرسمية بالانجراف نحو كامب دايفيد فهذه هي المفاجأة الكبرى، من هنا كان تصريحي المعروف والشهير في ذلك الوقت: «إن أبو عمار هو سادات فلسطين».

إن تعبير سادات فلسطين يشكل قصة كبيرة بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني في الداخل وفي الخارج.

إنني عادة أحدد موقفي السياسي وموقف الجبهة بعد تأنٍ وتفكير، ولكنني أعترف أنه في سياق الثورة تأتي لحظات أفكر فيها بعقلي وقلبي ووجداني معاً.

إن تعبير سادات فلسطين كان مقبولاً جماهيرياً في تلك اللحظة التاريخية من ذهاب أبو عمار إلى القاهرة، ولكنني أدركت أن بعض الرفاق بدأوا يتخوفون من استمرار ترديدي لهذا التعبير خوفاً من إحداث شرخ عميق في صفوف الثورة، من هنا بدأت أخفف من استعماله.

لقد كان ذهاب أبو عمار إلى القاهرة مفاجأة حتى لعدد من قياديي فتح، وبخاصة أبو إياد وأبو الهول. وقد شعرت أن هناك فرصة لتوحيد الساحة الفلسطينية ومحاولة تغيير الخط السياسي الذي يمثله أبو عمار. كنت أعلم تماماً خلفية ياسر عرفات ومدى تأثيره الكبير في فتح وفي الساحة الفلسطينية عموماً. ولكن أن يصل نهج التفريط إلى هذا الحد، فهذا كان أمراً خطيراً في ذلك الوقت، وغير متوقع لدى الكثيرين. من هنا، ذهب عدد من رفاقنا والرفاق في الجبهة الديمقراطية إلى تونس لاستكشاف تأثير زيارة أبو عمار القاهرة في الكوادر في فتح وبعض القياديين الأساسيين.

إن توحيد الساحة الفلسطينية مهمة أساسية لا نستطيع تجاهلها بأي شكل من الأشكال، وكان من الضروري أن نغتنم أي فرصة تتاح لنا لمحاولة توحيد الصف الفلسطيني، وبخاصة في ضوء موقف بعض قياديي فتح الأساسيين الذين يدركون ضرورة توحيد الساحة الفلسطينية من ناحية، وصعوبة توحيدها من دون توافر الحد الأدنى من الأسس الوطنية.

كان الرفاق في اليمن الجنوبي يبدون اهتماماً في هذا الموضوع ويريدون مساعدتنا في هذه المهمة التوحيدية، وكذلك بعض القوى العربية، وبخاصة الحزب الشيوعي اللبناني، وكذلك كانت الجزائر تريد أن تؤدي دوراً في هذا الاتجاه؛ فضلاً عن القوى الديمقراطية الأخرى في الساحة الفلسطينية، كالحزب الشيوعي الفلسطيني وجبهة التحرير الفلسطينية بقيادة طلعت يعقوب. وفي ضوء ذلك حصل اتفاق عدن الذي عرف بعد ذلك بـ «اتفاق عدن ـ الجزائر»[5]. وسادت الساحة الفلسطينية حالة من الارتياح الشديد وبخاصة أن ذلك الاتفاق أغلق بوابة كامب دايفيد ومشروع ريغن والبوابة الأردنية وأعاد الاعتبار لقرارات المجلس الوطني في الدورة السادسة عشرة.

لقد كنت مرتاحاً بطبيعة الحال لهذا الاتفاق، وبخاصة في ظل تأثير اتفاق عدن في الساحة الفلسطينية والعربية والدولية، ووصول سيل من برقيات التأييد من جميع أنحاء العالم. أما بالنسبة إلي فقد كنت أريد أن أطمئن إلى موضوع أساسي جداً وهو مدى التزام أبو عمار بتطبيق هذا الاتفاق.

مع الأسف الشديد، بدأ أبو عمار، بصورة واضحة جداً، بالإخلال بهذا الاتفاق (أي اتفاق عدن ـ الجزائر)، من خلال تصريحاته من ناحية، وأنشطته السياسية من ناحية أخرى. فقد لمست بوضوح أن هذا الاتفاق يريده أبو عمار مجرد غطاء للاستمرار في سياساته التي بدأها منذ خروج المقاومة من بيروت. وكان هذا أمراً خطيراً بالنسبة إلى الجبهة الشعبية. فالجبهة ترى هذا الاتفاق في إطار التمهيد لقيام الوحدة الوطنية على أساس المشاركة الحقيقية، وليس على أساس التغطية لسياسات أبو عمار. وحين استمر أبو عمار في نهجه ضارباً بالاتفاق عرض الحائط من خلال تصريحاته وتحركاته السياسية، وجهت الجبهة الشعبية مذكرة إلى اللجنة

(5) عقد الاتفاق في تموز/يوليو 1984.

المركزية لفتح تسجل فيها أسس الوحدة الوطنية كما وردت في اتفاق عدن ـ الجزائر، مؤكدةً أن استمرار ياسر عرفات في سياساته الاستسلامية وتخليه عن هذا الاتفاق سوف يعرض الساحة الفلسطينية للانشقاق والتفسخ.

ومع الأسف الشديد، كانت الجبهة الديمقراطية مشدودة لوحدة منظمة التحرير بالدرجة الأولى، وليس بالضرورة على أساس تطبيق المبادئ الصحيحة لقيام تلك الوحدة. وكان هذا موضوعاً مؤسفاً جداً، لأن هذا الموقف من جانب الديمقراطية يضيّع الفرصة التاريخية لإقامة وحدة وطنية على أسس واضحة بينما يريد أبو عمار الجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية مجرد غطاء لسياساته.

كانت اللجنة المركزية لفتح تريد انعقاد المجلس الوطني في الجزائر في أسرع وقت من دون ضرورة الوقفة الجادة أمام تخلي أبو عمار عن اتفاق عدن ـ الجزائر. فكان الأساس هو في انعقاد المجلس، بينما كانت الجبهة الشعبية تريد انعقاد المجلس في الجزائر ولكن على الأسس الوطنية السليمة وضرورة الوقوف أمام تجاهل عرفات واستخفافه بكل ما تم الاتفاق عليه في عدن.

كانت هذه الفترة من أصعب الفترات التي مررت بها. وما زاد الطين بلّة، موقف الديمقراطية حيث قامت بتجميد علاقاتها وخروجها من القيادة المشتركة؛ فكأن موقف الجبهة الشعبية وتمسكها بالمبادئ هو المشكلة لا أبو عمار وسياساته التي مارسها منذ خروجنا من بيروت. أمام هذا الوضع استطاع أبو عمار أن يعقد المجلس الوطني الانقسامي في عمان الذي اعتبره أبو عمار الدورة السابعة عشرة عام 1984، بينما رفضنا نحن الاعتراف بهذه الدورة واعتبرنا الدورة السادسة عشرة وقراراتها هي الأساس الذي يجب أن تقوم عليه الوحدة الوطنية الفلسطينية. لم يكن هذا المجلس الذي عقد في عمان يمثل القوى والفصائل الفلسطينية كافة.

إن انعقاد المجلس الوطني في عمان يمثّل قضية ذات أبعاد بالنسبة إلى الساحة الفلسطينية؛ لأن القيادة المشتركة أصبحت منتهية من الناحية الشكلية والرسمية. وبالنسبة إلى الجبهة الشعبية، فقد بدأنا نفكر في تشكيل جبهة وطنية جديدة لمواجهة سياسة أبو عمار وتنازلاته. كانت تلك الجبهة هي جبهة الإنقاذ، التي تشكلت من الفصائل الفلسطينية القائمة في سورية. وكان الجو السياسي مناسباً جداً لقيام مثل تلك الجبهة. وحين اجتمعت اللجنة المركزية للجبهة الشعبية كنت متحمساً جداً لهذا الموضوع. وأذكر في ذلك الوقت أن كل أعضاء اللجنة المركزية للجبهة وافقوا على إقامة هذه الجبهة ولم يكن هناك إلا عضو واحد معارض. وبعد قيام هذا التجمع قمت بأنشطة متعددة على الصعيد الإعلامي والجماهيري والسياسي. وأذكر أنني قمت بأنشطة على الصعيد الجماهيري في المخيمات سواء في سورية أو في شمال لبنان، حيث كان متاحاً لي القيام بذلك، كما أنني أذكر أنشطة إعلامية عبر إذاعة مونت كارلو وكثير من الصحافة العربية (1984 ـ 1985).

كان بعض الرفاق القياديين يتصورون أن الفصائل الأخرى ستكون متحمسة لإعطاء الجبهة دورها القيادي، لكني فوجئت بأن الفصائل الأخرى لا يمكن أن تقرّ بهذا الدور للجبهة. غير أني كنت رغم ذلك مشدوداً للموضوع السياسي. وبرغم هذه الصورة، استمرّيت في نشاطي هذا بكل حماسة وحيوية. وكان تصوري أننا سنتمكن من مواجهة أبو عمار بحيث إن أغلبية الجماهير ستكون معنا في ضوء رؤيتها لخطورة انعقاد المجلس الوطني في عمان، وما يمكن أن يتضمنه هذا المجلس. وبعد بضعة أسابيع حصل اتفاق بين أبو عمار وبين القيادة الأردنية.

في ما يتعلق بموضوع اتفاق عمان (المجلس الوطني في عمان)، أسجل الملاحظات التالية:

1 ـ الشخصيات الوطنية الفلسطينية المعروفة كانت باستمرار تدين اتفاق عمان من خلال بيانات وتصريحات مستمرة ومتواصلة.

2 ـ دعوت إلى مؤتمر شعبي فلسطيني لمواجهة اتفاق عمان حتى أقول للعالم إن مؤتمر عمان لا يمثل الشعب الفلسطيني وإن هذا المؤتمر الشعبي هو الذي يمثل رأي الجماهير الفلسطينية.

3 ـ قام النظام الأردني بنشاط مكثف لتعريب اتفاق عمان وإعطائه الشرعية، وبالتالي حاول النظام أن يدعو إلى مؤتمر قمة عربي. في المقابل كانت الجبهة تدعو إلى مؤتمر لجبهة الصمود[6].

4 ـ كنت حريصاً على تعزيز العلاقة مع موسكو لمواجهة هذا المؤتمر الخطير، لذلك كانت زيارتي لموسكو، وقد عقدت مؤتمراً صحافياً هناك أوضحت فيه موقفنا من هذا الاتفاق[7].

5 ـ كان النظام الأردني يريد احتواء منظمة التحرير على أساس إعطائها حكماً ذاتياً أو أكثر من حكم ذاتي قليلاً، بينما كان أبو عمار يريد من هذه العلاقة مع النظام الأردني إقامة علاقة (على أساس دولتين متحدتين)، حيث كان يعتقد أن هذا ما يمكن أن تقبل به إسرائيل وأمريكا.

وفي هذه الأثناء، كانت سورية تشعر بخطورة هذا المخطط، وهي في ذلك الوقت لم تكن تريد نجاح هذا المخطط الذي ينهي الدور السوري على الساحة الفلسطينية.

بعد انغماس ياسر عرفات في تلك المخططات، وشعور سورية بأن منظمة التحرير قد خرجت من قبضتها، بدأت سورية تتجه نحو الساحة اللبنانية، ورمت بكل ثقلها في هذه الساحة، وكان من الضروري إنهاء

(6) حالت الخلافات العربية الشديدة حينها والحرب الإيرانية ـ العراقية في أواسط الثمانينيات دون إمكان عقده، حتى انعقد مؤتمر القمة في الدار البيضاء في 7 آب/أغسطس 1985 بدعوة من الملك الحسن الثاني.

(7) عقدت دورة المجلس الوطني الفلسطيني السابعة عشرة في عمّان بين 22 و29 تشرين الثاني/نوفمبر 1984، وألحقت بالاتفاق الأردني ـ الفلسطيني الذي تضمن للمرة الأولى الاعتراف الضمني بالقرار 242. وعليه تكون زيارة الدكتور حبش لموسكو قد حدثت في فترة قريبة عقب ذلك.

السلاح الفلسطيني في المخيمات، من هنا بدأت حرب المخيمات في لبنان.

حرب المخيمات في لبنان، جعلت الجبهة والقضية الفلسطينية بوجه عام تواجه وضعاً خطيراً وفي غاية الصعوبة. فبالنسبة إلى الجبهة واجهنا وضعاً هو من أخطر الأوضاع التي عرفناها في مسيرتنا؛ فقد أصبحنا نواجه المخطط الأردني الرسمي الذي يريد احتواء منظمة التحرير، من ناحية، والمخطط السوري لإنهاء الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان، من ناحية أخرى. اعتمدت سورية على حركة أمل في تنفيذ هذه المهمة. كان ذلك في عام 1985، وكانت بيروت هي البداية ثمّ مخيم شاتيلا بالذات، ثم برج البراجنة، وباقي مواقع المقاومة في بيروت[8].

لم يكن هذا الوضع سهلاً بالنسبة إلي وإلى الجبهة؛ فقد كانت سورية هي مركز تواجدنا، وكنا نعتبرها السند الذي سنعتمد عليه في متابعة الثورة، من هنا رفضت عرض أبو عمار للذهاب معه إلى تونس بعد الخروج من بيروت وتوجهت إلى سورية. لقد أصبح الموقف يتطلب وقفة جريئة من سورية. فالجماهير الفلسطينية كانت تعرف جورج حبش بصراحته وجرأته فهل يكون جريئاً في مثل هذا الوضع الصعب والمحرج الذي يمكن أن يقود إلى خروج الجبهة من سورية وإنهاء وجودها.

في ذلك الوقت ذهبت إلى الجزائر، وقلت في عدد من التصريحات الصحافية إن «أمل» لا يمكن أن تجرؤ على الإقدام على مثل هذه الخطوة من دون أن تأخذ الضوء الأخضر من سورية. كانت الصحافة الجزائرية والمغربية والتونسية، وكذلك الخليجية، تطلب منا تصريحات، فكان لا بد من التجاوب مع هذه الطلبات والاستمرار في الإعلان عن هذا الموقف المبدئي الذي كان ينسجم مع موقف الجماهير الفلسطينية في لبنان

(8) انظر: Joe Stork, «The War of the Camps: The War of the Hostages,» *MERIP Reports*, no. 133 (June 1985), pp. 3–7 and 22.

وسورية وفي داخل فلسطين، وكذلك مع الجماهير العربية في كل مكان. من الجدير بالذكر أنه بعد تلك التصريحات توقع الكثيرون عدم تمكني من العودة إلى سورية، وكانت المفاجأة أن الرئيس حافظ الأسد وجه لي دعوة إلى زيارة سورية، وعندها عدت إلى سورية تلبية لدعوة الرئيس وقدرت له ذلك الموقف.

وحين بدأت مخططات أمل المسنودة من سورية لإنهاء الوجود الفلسطيني المسلح في بيروت قاومته الجماهير الفلسطينية ومقاتلو الثورة في صمود لم يكن متوقعاً من جانب أمل ومن جانب سورية نفسها. واعتبر هذا الصمود انتصاراً للثورة الفلسطينية وجبهة الإنقاذ. استمر هذا الصمود مدة شهر تقريباً، وهو ما اضطر حركة أمل وسورية إلى إيقاف هذه الهجمة والوصول إلى اتفاق بين جبهة الإنقاذ من ناحية وحركة أمل من ناحية ثانية والحركة الوطنية اللبنانية (اتفاق دمشق). وأصبحت الجبهة الشعبية وجبهة الإنقاذ تستندان إلى اتفاق دمشق في مواجهة أي محاولات أخرى لإنهاء السلاح الفلسطيني.

حين ندقق في هذا الاتفاق لا نستطيع اعتباره انتصاراً كاملاً للفلسطينيين، ولكننا اعتبرناه انتصاراً جيداً على أساس أن الهجوم قد بدأته أمل وكان هدفها إنهاء السلاح في المخيمات، وهذا لم يتحقق لها.

لكن من المؤسف أن حركة أمل لم تغير سياساتها، وعادت تتابع مخططها الأساسي لإنهاء الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان؛ فتابعت الحركة هذا المخطط وانتقلت به إلى مخيمات صيدا[9]، حيث استمر الهجوم المسلح هناك بقوة وكثافة. لن أدخل في التفاصيل اليومية لهذه المعارك، ولكن لا بد من الإشارة إلى معركة مغدوشة الكبيرة التي أحدثت تغييراً أساسياً في دور مجموعات أبو عمار في هذه المعارك.

---

(9) Ibid.

كنت أتصور أن الجبهة بالدرجة الأولى ثم جبهة الإنقاذ ستعيدان للثورة الفلسطينية دورها، لكن الاستمرار في هذه المعارك أعطى فرصة لدخول أبو عمار، حيث أصبح له دورٌ أساسيٌّ في حماية السلاح الفلسطيني. وهذه نقطة مهمة في رأيي حيث كنت أعتبر أن معاركنا مع أمل ستجعل الجبهة وجبهة الإنقاذ القوة الأساسية في كل ساحة لبنان. لكن دخول أبو عمار في هذه المعارك مستفيداً من إمكانياته الكبيرة أعاد له دوره الأساسي في الساحة الفلسطينية في الجنوب. هذا هو الموضوع الذي لم تدركه حركة أمل وسورية.

إن كل معارك المخيمات، رغم خطورتها، لم تجعلني أنسى أن المخطط الأمريكي في ذلك الوقت للقضية الفلسطينية هو اتفاق عمان؛ فالاتفاق لا يجوز أن نكتفي بقراءته من خلال النصوص وإنما من خلال ما يضمره النظام الأردني منه.

في شهر شباط/فبراير 1986 عقدت جلسة لمجلس النواب الأردني حيث ألقى الملك الأردني خطاباً أوضح فيه ما أراده نظامه من اتفاق عمان؛ فالنظام الأردني رأى أن اتفاق عمان يعطيه الفرصة لدخول منظمة التحرير الفلسطينية في مشروع الحكم الإداري الذاتي، وهذا هو المخطط الأمريكي بعد الخروج من بيروت، إذ رأت أمريكا أن هذه هي الفرصة المناسبة لإخضاع منظمة التحرير الفلسطينية للحكم الإداري[10].

هنا، اتضح لقيادة فتح أهداف النظام الأردني من اتفاق عمان وبخاصة بعدما قام النظام بتحريك مجموعة أبو الزعيم في محاولة للضغط على

---

(10) في 19 شباط/فبراير 1986، تحدّث الملك حسين في خطاب بثه التلفزيون والإذاعة في شأن التحرك الأردني ـ الفلسطيني، استعرض فيه تاريخ العلاقات الأردنية ـ الفلسطينية، مركزاً على مسيرة التحرك السياسي المشترك في ظل اتفاق عمان. وقال في نهاية خطابه «إنني وحكومة المملكة الأردنية الهاشمية، وبعد تجربتين طويلتين، نعلن عن عدم تمكننا من مواصلة التنسيق، سياسياً، مع قيام منظمة التحرير الفلسطينية، حتى تكون للكلمة معناها، التزاماً ومصداقية وثباتاً». يمكن قراءة نص الخطاب كاملاً في: **يوميات ووثائق الوحدة العربية 1986** (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1987)، ص 559 ـ 569.

قيادة المنظمة عبر محاولة شق حركة فتح من خلال أبو الزعيم، لكن هذه المحاولة فشلت، وبخاصة في ضوء الصورة السيئة جداً المعروفة لدى جماهيرنا وكوادر فتح لشخصية أبو الزعيم ولوضوح أهداف هذه الحركة.

كان اتفاق عمان يعطي عرفات فرصة لإقامة دولة متحدة مع الأردن، ولكنه لم يكن يعرف أن هذا الاتفاق يقتصر على حكم ذاتي. أعتقد أن هذه التطورات السياسية التي أحدثها اتفاق عمان وخطاب الملك والتطورات التي حصلت بعد مرور عام على الاتفاق، جعلت أبو عمار نفسه يعيد تصوره لهدف الاتفاق، ولعله أصبح مستعداً للوحدة الوطنية على حساب علاقته مع الأردن.

هنا، جاءت المبادرة التي أطلقها الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد من أجل تحقيق الوحدة على أساس سليم سياسياً وتنظيمياً. وقد اعتبرت أن خطاب الملك حسين من ناحية، ووضوح هدف الملك حسين من ناحية ثانية واهتزاز موقف أبو عمار من المراهنة على علاقته مع الأردن على حساب علاقته مع الجبهة والقوى الوطنية الفلسطينية من ناحية ثالثة، إضافة إلى موقف القوى الوطنية في فتح، وبخاصة أبو إياد، من ناحية رابعة، أحدثت كلها تطورات في الساحة الفلسطينية يجب أن نأخذها في الحسبان لإقامة الوحدة الوطنية على أساس سليم.

بدأت أعمل على هذا الأساس، ولكن الجبهة الديمقراطية والحزب الشيوعي قد استعجلا أكثر مما يجب في هذا الاتجاه. وقد عُقدت لقاءات في موسكو وبراغ بين فتح والديمقراطية والحزب الشيوعي، لكن القياديين الوطنيين داخل فتح يعرفون أن الجبهة الشعبية هي القوة الأساسية في الاتجاه الديمقراطي، واعتبروا أن لقاءات موسكو وبراغ مع الديمقراطية والحزب الشيوعي لا تكفي لتحقيق وحدة وطنية حقيقية وشاملة.

كنت أدرك هذا الموضوع، وبالتالي قلت في نفسي إنني أستطيع تحقيق الوحدة الوطنية على أساس أفضل كثيراً مما تحقق في لقاءات موسكو

وبراغ بين فتح والديمقراطية والشيوعيين. هنا تم الاتفاق بيني وبين المرحوم الشهيد أبو جهاد، خليل الوزير، لعقد لقاء في براغ في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1986، حيث قلت له: ما لم يتم إلغاء اتفاق عمان علناً وقبل دخولنا إلى المجلس الوطني لا يمكن أن نشارك في المجلس الوطني المزمع عقده.



الحكيم مع أبو جهاد

وافق أبو جهاد على هذا الموضوع وقال: «إن قيادة فتح ستدرك أهمية وجود الجبهة الشعبية من ناحية، وضرورة الإعلان عن إلغاء اتفاق عمان من ناحية ثانية». على هذا الأساس عقد اللقاء التمهيدي للمجلس الوطني في الجزائر حتى نطمئن إلى الإعلان العلني لإلغاء اتفاق عمان، وكنت أعرف أن قيادة الجبهة ستكون متحمسة للاتفاق الذي تم بيني وبين الشهيد أبو جهاد.

كنت أعرف أيضاً أن سورية لن تكون راضية عن هذا الموضوع - وربما تحاول عرقلته - وهنا حضر الرفيق أبو علي مصطفى من الجزائر ومن خلاله علمت أن المكتب السياسي راضٍ عن حصيلة اللقاءات بيني وبين أبو جهاد.

مع الأسف لم تنتهِ المعركة بهذا الموضوع، فاللقاءات التي تمت مع أبو عمار كان يحاول فيها أبو عمار عدم الإعلان الواضح عن إلغاء اتفاق عمان، وإنما على نحوٍ ملتوٍ من نوع: إن الاتفاق لم يعد قائماً، ليس هناك ضرورة إلى الإعلان الواضح عن الإلغاء وإن الاتفاق يلغى داخل المجلس الوطني... وتعابير أخرى. أعرف من خلال علاقتي التاريخية بأبو عمار أساليبه المراوغة وكيف يكون قادراً على التلاعب بالألفاظ.

رغم إدراكي أن الاتفاق العلني لإلغاء اتفاق عمان يمثل انتصاراً كبيراً للجبهة، لكنني كنت أدرك أن إلغاء الاتفاق غير كاف لإغلاق البوابة الأمريكية وأن إلغاءه يفتح الآن معركة العلاقة مع القاهرة إضافة إلى المعركة التنظيمية. وقد ساعدني في هذا الموضوع وجودنا في الجزائر والموقف الذي كانت تتخذه قيادة الجزائر: الرئيس الشاذلي والأخ محمد شريف مساعدية، وهو مسؤول كبير. وقد بينت أن موضوع القاهرة أهم بالنسبة إلى أبو عمار من اتفاق عمان.

هنا أتذكر كيف كانت المعركة في الكواليس التي تمت بين الجبهة وفتح وأبو عمار بالدرجة الأولى حول موضوع إغلاق بوابة القاهرة. نعم، كانت معركة قاسية وصعبة.

لقيت هذه اللقاءات وما سينتج عنها اهتماماً واسعاً من جانب وسائل الإعلام العربية والدولية، التي كانت تتابع الموضوع باهتمام عالٍ وهل ستنجح الجهود لإعادة الوحدة الوطنية أم ستفشل.

كذلك، من واجبي أن أذكر الجهود التي بذلتها اليمن وليبيا في هذا الاتجاه الذي كان مهماً وأساسياً بالنسبة إليهم.

وبطبيعة الحال، لم أنسَ أهمية القضية التنظيمية، ولكنني كنت أدرك أن هذه القضية لا تعالج من خلال النصوص فقط، وإذا كان الموضوع موضوع نصوص فقد كانت هناك نصوص حددناها في الاتفاق الذي تم

بين التنظيمات كافة، باستثناء أبو عمار، في المجلس الوطني الذي عقد في دمشق.

كان الأساس بالنسبة إلى الموضوع التنظيمي أن يُعالج كله من خلال وجود الرفيق أبو علي مصطفى في اللجنة التنفيذية. وفي الجهة المقابلة، خرجت الجبهة من جبهة الإنقاذ الوطني الفلسطينية نتيجة موقفها المتشنج من الحوار ومن أبو عمار بوجه خاص[11].

أما بالنسبة إلى القوى الوطنية العربية بوجه عام، فقد كان انعقاد المجلس الوطني على أساس إلغاء اتفاق عمان انتصاراً كبيراً للثورة. وقد رأى الاتحاد السوفياتي والمنظومة الاشتراكية أن هذه الخطوة إنجاز مهم للوحدة الوطنية الفلسطينية. وما كاد المجلس الوطني ينتهي حتى أعاد ياسر عرفات علاقته بالنظام المصري، وهو أمر كان يمكن أن يؤدي إلى وقوع انشقاق فلسطيني لولا اندلاع الانتفاضة الشاملة في الأراضي المحتلة.

(11) كان الشهيد أبو علي مصطفى هو ممثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير التي يرأسها ياسر عرفات.

19 ـ الانتفاضة الفلسطينية الأولى في الأراضي المحتلة

اعتادت الجبهة أن تعتبر شهر كانون الأول/ديسمبر شهر فعاليات وأنشطة عالية ومتعددة، تتعلق بذكرى انطلاقة الجبهة الشعبية. من هنا، اعتبرت الأحداث التي وقعت بداية شهر كانون الأول/ديسمبر 1987 ـ أقصد بذلك حادثة الدهس في غزة التي راح ضحيتها أربعة شبان ـ اعتبرتها حدثاً كبيراً من الممكن أن يُشكل البداية لتصعيد المواجهة مع العدو.

هكذا تحوّل هذا الشهر ـ الحادثة التي تزامنت مع انطلاقة الجبهة ـ فرصة سانحة لهذا التصعيد. ولم يكن في ذهني ـ حتى أكون صادقاً وصريحاً ـ أن يشكل هذا التصعيد بداية الانتفاضة التي بدأت وتصاعدت واستمرت حتى توقيع اتفاق أوسلو، بل أردت أن تكون هذه الانتفاضة القوية والعنيفة مختلفة عن الهبات الجماهيرية السابقة.

شكلت هذه الانتفاضة فرصة لظهور حركة حماس التي لم يكن لها أي فاعليَة مؤثرة قبل ذلك. وبعدها تحولت هذه الهبة إلى انتفاضة متواصلة ومتصاعدة بمشاركة كل قطاعات الشعب الفلسطيني. من هنا، رأت حركة حماس أنها هي التي بدأت تلك الانتفاضة، لكنني لا أريد الدخول في هذا السجال.

هذه الشرارة التي بدأت في قطاع غزة انتقلت إلى كل مدن غزة والضفة الغربية والقدس وقراها ومخيماتها. وبعدها، بدأتُ أفكر في الشعار الذي

كنت أردده سابقاً حول قيام دولة وطنية مستقلة حقيقية كإمكان تاريخي، فهل أصبح هذا الشعار بفضل الانتفاضة إمكاناً واقعياً.

هكذا شعرت بضرورة عقد دورة للجنة المركزية للجبهة لتقف أمام هذا الوضع المهم جداً. وكان لاستمرار الانتفاضة وتصاعدها دور مهم في جعل كل أعضاء اللجنة المركزية من دون استثناء يوافقون على هذا الشعار. كانت نظرة قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ـ أقصد أبو عمار بالذات ـ تختلف إزاء هذا الموضوع، وكانت ترى أن المفاوضات التي فتحت الانتفاضة الطريق إليها يمكن أن تؤدي إلى دولة. لكن رأينا أن قيام دولة حقيقية على أرض الواقع يحتاج إلى نضال طويل وقاسٍ يتطلب من الشعب الفلسطيني الكثير من التضحيات.

في هذه الفترة، تعرفت إلى الرفيق أحمد قطامش من خلال الرسائل التي كان يكتبها للقيادة خارج الوطن، وحين شعرت أن هذه الرسائل تحمل في طياتها أفكاراً أساسية ومهمة وعميقة، وجدت أن أكتب إليه مباشرة لتأسيس علاقة مباشرة بيننا. ما زلت أحتفظ برسائله التي كان يبعثها لي سراً في فترة الانتفاضة. لقد أصبح هذا الرفيق في تقييمي له من خلال تلك الرسائل الرفيق الأول الذي يستحق أن يكون الأمين العام المقبل للجبهة كلها. وما زلت أذكر أحد الاجتماعات للمكتب السياسي حين أيّد الرفيق أبو علي، وهو نائب الأمين العام في تلك الفترة، فكرة أن الرفيق أحمد هو الذي يستحق أن يكون الأمين العام للجبهة الشعبية. إنني أشعر بألم شديد للموقف الذي اتخذه في تركه الجبهة مهما كانت مبرراته التي أوافقه على الكثير منها.

* * * *

كنا في الجبهة الشعبية نعمل على أساس الاستمرار في الانتفاضة وتصعيدها بقدر الإمكان، وكانت أوضاع الجبهة الداخلية تمكنها من أن تصبح قوة رئيسية على الأرض وتؤثر في القرار السياسي بالمستوى الذي

يمنع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من التجاوب مع المخططات الأمريكية. لقد كنت في الخارج أعمل على هذا الأساس، وكانت الجبهة في الداخل مهيأة لتصبح قوة كبيرة ومؤثرة في القرار الفلسطيني الرسمي. والمشكلة التي كانت تواجهنا في تلك الفترة هي المشكلة المالية. لذلك، حين أتت مناسبة ذكرى يوم الأرض في 30 آذار/مارس[1] شعرت أن ذهابي إلى الإمارات ثم إلى الكويت يمكن أن يساعد على حل هذه المشكلة، ونتيجة لهذه الزيارة تجاوبت الكويت جزئياً؛ أما الإمارات فكان جواب الشيخ زايد مشجعاً في بداية الحديث، وفي نهاية الجلسة سألني عن رقم الحساب لتحويل الدعم وكنت في غاية السرور. وبعد مغادرتي، انتظرت عدة أيام من دون أي نتيجة مع الأسف، رغم الحفاوة والتكريم. لكن مع كل ذلك ـ أي الأزمة المالية ـ كنا نعمل على تصعيد الانتفاضة، وكنا في تلك الفترة بالذات نرى أن هناك إمكانية كبيرة لتحقيق هدف الانتفاضة الذي نعمل على أساسه وهو «الحرية والاستقلال»، على أساس رؤيتنا وفهمنا للانتفاضة والهدف الممكن تحقيقه في تلك الفترة وليس على أساس ورؤية أبو عمار التي تقوم على أساس دولة فلسطينية تنهي الصراع مع إسرائيل. في تلك الفترة كان الرفيق أحمد قطامش يراسلني وكنت أجيبه على رسائله واستفساراته كافة، كما قلت أعلاه.

هناك عدة عوامل جعلتني أنظر إلى الوضع القائم في الأرض المحتلة في تلك الأيام على أنه يمثل مرحلة نوعية في مسيرة نضالنا الطويل.

1 ـ العامل الأول أن المنظمات الفلسطينية كافة في الداخل اتفقت على شعار علمي ودقيق وسليم للانتفاضة هو شعار الحرية والاستقلال.

2 ـ العامل الثاني تزايد دور الداخل في العمل الانتفاضي بعدما كان الخارج هو العامل الأساسي في تحديد الأمور سابقاً، وأصبحت فتح والجبهة الشعبية وبقية المنظمات القوة الأساسية التي تحدد مسار الانتفاضة

---

(1) هذه الزيارة حصلت في فترة مناسبة الأرض 30 نيسان/أبريل 1988.

وتصدر البيانات المشتركة التي كانت تحدد أنشطة الجماهير في كل أسبوع. وهذا العامل أعتبره عاملاً نوعياً حيث كانت قيادة الخارج هي الأساس سابقاً.

3 ـ العامل الثالث هو أن أبو عمار لم يعد له الدور نفسه والوزن نفسه الذي كان يؤديه سابقاً وأن قيادة الانتفاضة في الداخل كانت تتم بإشراف أبو جهاد.

لقد شكل اغتيال المناضل الكبير أبو جهاد، خليل الوزير، من جانب إسرائيل في نيسان/أبريل 1988 ضربة موجعة ومؤثرة في مسيرة الانتفاضة، لكنها لم توقفها، رغم الخسارة الجسيمة لغياب أبو جهاد. لن أنسى الطريقة التي استقبلت فيها الجماهير الفلسطينية والسورية جثمان أبو جهاد منذ لحظة وصوله إلى مطار دمشق ولغاية دفنه في مقبرة الشهداء. كان الاستقبال يليق بمناضل كبير.

كنت وزوجتي مع عدد من الرفاق القياديين في مقدمة المستقبلين للجثمان، وما زلت أذكر اللحظات الرهيبة التي عشناها ساعة وصول الطائرة، وما إن أطلت الأخت أم جهاد مع أبنائها وعدد كبير من قيادة فتح وكوادرها حتى عم الحزن والتأثر والشعور بالمرارة وكان الصمت أبلغ من الكلام. في اليوم التالي، بدأت مراسم التشييع وانطلق الموكب الجنائزي في مشفى المواساة، وكان في وداعه عدد من المسؤولين من القيادة السورية والقيادة الفلسطينية وكذلك رفاق الشهيد وأهله وحشد هائل من الجماهير الفلسطينية والسورية التي انطلقت كموج البحر لوداع القائد الشهيد. وكان الانفعال والتأثر عارماً. مشيت وأم ميساء، زوجتي، وراء النعش ببطء شديد ووجدنا صعوبة كبيرة في الوصول إلى المقبرة، إذ كانت الجماهير محتشدة على طول الطريق تطلق الهتافات وتحيي الثورة والثوار وسط هذا البحر الهائج من البشر. وعند منتصف الطريق، فوجئنا بعدد هائل من الشباب يطوقون سيارتي ويحاولون حملها ويهتفون لي وللجبهة

الشعبية. وقد شعرنا بالاختناق وبدأت أم ميساء تناشدهم الابتعاد حتى يتسنى لنا التنفس. لكن التطويق كان أقوى من أي صوت ومناشدة. كان منظراً رهيباً استمر أكثر من نصف ساعة حتى استطعنا بصعوبة بالغة أن نقتحم هذا الحشد الهائج لنجد طريقاً آخر يوصلنا إلى المقبرة. لن أنسى هذا المشهد ما حييت، الأضرار التي لحقت بالسيارة كانت كبيرة وكأنها تعرضت لحادث سير بحيث استوجب تصليحها.

كانت نظرة أبو عمار للانتفاضة تختلف عن نظرة الجبهة الشعبية لها. كانت الجبهة تريد لهذه الانتفاضة أن تستمر حتى تحقق الجماهير شعار الانتفاضة في الحرية والاستقلال.

كنت متيقناً أن إسرائيل لن ترضخ لشروط الانتفاضة في تحقيق أهدافها بإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة بهذه السهولة. لذلك كان تصوري أن الانتفاضة يجب أن تستمر سنوات حتى تجبر إسرائيل على القبول بهذه الأهداف.

كان من المعروف أن من عادة أبو عمار أن يماطل دائماً في انعقاد جلسات المجلس الوطني، وكنا نحن نطالبه دائماً في انتظام هذه الجلسات سنوياً وفق النظام الداخلي للمنظمة، لكنه كان يجد الطرق للتهرب من هذا الضغط عليه. وفي عام 1988، حين دعا إلى انعقاد المجلس الوطني لم يكن في إمكاننا معارضته في ذلك الوقت. كان هدف أبو عمار من وراء انعقاد تلك الدورة هو إعلان الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس رغم عدم توافر الشروط الموضوعية والذاتية لها.

كان البعض يعتقد أن الساحة الفلسطينية هي واحة للديمقراطية؛ لكن المفهوم من هذه الديمقراطية «ديمقراطية أبو عمار» أي حرية التعبير عن الرأي فقط من دون المشاركة في القرارات المصيرية حين تتخذ. وكان أبو عمار يقول: قولوا ما شئتم وفي النهاية أفعل أنا ما شئت. هذه هي الديمقراطية التي كان يمارسها أبو عمار.

كان الموضوع الرئيسي بالنسبة إلى تلك الدورة هو إعلان وثيقة الاستقلال الوطني. وكان النقاش آنذاك ساخناً حول هذا الموضوع. وكانت وجهة نظر أبو عمار وفتح وعدد كبير من أعضاء المجلس الوطني وبعض الفصائل الفلسطينية هي قيام دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل، أي دولتين على الأرض، **بينما كانت الجبهة الشعبية تريد دولة على الأرض مع الاستمرار في النضال من أجل إزالة هذا الكيان الصهيوني البغيض.** من هنا كان النقاش محتدماً ولمدة طويلة من الاجتماعات الماراثونية كي نوفق في الوصول إلى صياغة تشير إلى ضرورة الاستمرار في النضال حتى تحرير كامل التراب الوطني الفلسطيني وفق ما هو وارد في الميثاق الوطني. كان هذا الموضوع في غاية الصعوبة، وبخاصة أن قرارات الأمم المتحدة تنص على قيام دولة فلسطينية ولكن مع بقاء إسرائيل. من هنا، وجدنا أن نطالب إسرائيل بتنفيذ قرارات الشرعية الدولية كهدف مرحلي حتى يتسنى لنا أن نحصل على الدولة المستقلة ومن ثم نتابع نضالنا لتحقيق الهدف الاستراتيجي ألا وهو تحرير كامل التراب الفلسطيني.

أصبحت صياغة هذه الوثيقة التاريخية توفر لكل طرف الفرصة أن يقرأها كما يشاء. وأود أن أشير هنا إلى الاحتفالات الكبيرة والأعراس الوطنية التي تلت الإعلان عن وثيقة الاستقلال الوطني وتجلى ذلك داخل المجلس الوطني. ذلك بأنه في إثر الإعلان عن وثيقة الاستقلال هب المشاركون في المجلس جميعاً يتبادلون التهاني وعمت الفرحة أرجاء القاعة، وبدأت الزغاريد تنطلق لتعبر عن المشاعر الفياضة في ذلك الوقت. كما عمت الفرحة أرجاء الوطن في الأرض المحتلة وفي الشتات وكأن الدولة أصبحت حقيقة قائمة على الأرض. كما أود الإشارة أيضاً إلى دور الجبهة وموقفها المتميز الذي سبق انعقاد تلك الدورة وما تلا ذلك من فعاليات مؤثرة داخل الأرض المحتلة وخارجها أثناء الانتفاضة؛ لقد أصبحت الجبهة القوة الأساسية الثانية بعد فتح في الأرض المحتلة باعتراف أبو عمار، ولا أعتقد أن أحداً كان يمكنه أن ينكر ذلك.

كان من الطبيعي أن يسبق اجتماعات المجالس الوطنية، لقاءات مكثفة واجتماعات ماراثونية طويلة ومنهكة ومضنية تستمر حتى الفجر، ونقاشات حادة تصل في بعض الأحيان إلى مشادات كلامية نتيجة للآراء المتباينة بين الفصائل والتناقضات في ما بينها حول الكثير من القضايا المصيرية المتعلقة بالقضية الفلسطينية وبخاصة الموقف الأخير من موضوع إعلان الدولة وكيفية فهم كل فريق هذا الإعلان التاريخي.

فور انتهاء اجتماعات المجلس الوطني في الجزائر، ذهب أبو عمار إلى سويسرا حيث التقى هناك البرجوازية الفلسطينية الكبيرة التي كانت بانتظاره، والتي كانت مهيأة لتأدية دور الوسيط بين أبو عمار والأمريكان في ضوء القبول بدولتين فلسطينية وأخرى إسرائيلية. كانت هذه هي المرة الأولى التي ينتزع بها أبو عمار هذا القرار من المجلس الوطني، حيث إن الاعتراف الضمني بإسرائيل كما فهمه أبو عمار أعطاه الشرعية للتصرف والتحرك باتجاه اعتراف رسمي بدولتين على الأرض.

لم تكن تلك الخطوة الكبيرة وتلك النقلة النوعية في قرار القيادة الفلسطينية كافية لإرضاء أمريكا، بل بدأت تطرح من جديد ضرورة الاعتراف الواضح والصريح والرسمي بقراري الأمم المتحدة 242 و338، وكان من المعروف أن معظم الفصائل الفلسطينية، بما في ذلك فتح، كانت ترفض بشدة هذا القرار الذي كان يعتبر القضية الفلسطينية وكأنها قضية لاجئين.

كان انعقاد المجلس الوطني واتخاذه قراراً بإعلان الدولة قد شكّل بداية انقسام بين فهم كل من الجبهة الشعبية وأبو عمار للدولة. وهنا أصبحت واضحةً طبيعة الخط الذي يريده أبو عمار من إعلان الدولة. ومفهومه للدولة هو أن الأساس هو قيام أي دولة من دون التوقف أمام شروط قيام هذه الدولة.

فهم أبو عمار إعلان الاستقلال على أساس أنه بداية الاستثمار السياسي للانتفاضة، وأن أمريكا يجب أن تكون راضية عن هذه الخطوة، وعلينا

تقديم بعض الالتزامات تجاه أمريكا من نوع «الاعتراف بالقرار 242 وإدانة العمليات الفدائية تحت اسم إدانة الإرهاب» كما كانت تطالب الولايات المتحدة.

في المقابل، كنا ندعو، كجبهة شعبية، إلى اعتبار إعلان الاستقلال تصعيداً للانتفاضة وأنها خطوة باتجاه تجسيد الدولة، وأن الدولة لا يمكن أن تتم عن طريق تقديم التنازلات المجانية، بل من خلال استمرار حربنا ضد الكيان الصهيوني وإيقاع المزيد من الخسائر البشرية والمعنوية والاقتصادية به، كل ذلك من خلال تصعيد الانتفاضة وتجذيرها. وكنا نرى أن هناك فرقاً كبيراً بين إعلان الدولة وبين تجسيد الدولة على الأرض، وأن مهمتنا هي تجسير الفجوة ما بين إعلان الاستقلال وتجسيده على أرض الواقع.

كنا نستشعر الأخطار المحدقة بالانتفاضة من خلال ما كان يقوم به الفريق المتنفذ في قيادة منظمة التحرير الفلسطينية؛ فكانت تتم بعض اللقاءات السرية بين عدد من القيادات الفلسطينية في الداخل والخارج. وكنا نرى أن هذه اللقاءات هي خروج عن قرارات المجلس الوطني وأن تجاوزات اليمين تلحق أشد الأضرار بالانتفاضة والوحدة والمكتسبات الوطنية.

أمام هذا الوضع عقدت اللجنة المركزية للجبهة في شهر نيسان/أبريل 1989 اجتماعاً من أجل تقييم الانتفاضة وسبل دعمها وتصعيدها، ودعونا إلى فتح أبواب الحوار الجماعي للبحث في سبل تصعيد الانتفاضة ووقف السياسة المتهافتة. وفي عدة أحاديث صحافية كنت أقول دائماً: إن الدولة مهمة كفاحية لا تتحقق عن طريق التنازلات المجانية وإن الانتفاضة جعلت الدولة ممكنة واقعياً.

من أجل الأهداف نفسها وفي الشهر نفسه ـ أي شهر نيسان/أبريل ـ عقد المجلس المركزي الفلسطيني دورة له في تونس، وكانت نتائجه إيجابية

إجمالاً. وكنا نقول: إن الوحدة لا تعني نهاية الاختلاف وبخاصة في ما يتعلق بنظرتنا ونظرة أبو عمار إلى الانتفاضة وإلى إعلان الاستقلال.

في هذه الفترة كانت الانتفاضة في أوج تصاعدها؛ فرغم كل محاولات الكيان الصهيوني من خلال تشديد قبضته على المدن الفلسطينية من حصار وقتل واعتقال وعمليات إبعاد للمناضلين، واصلت الانتفاضة تصاعدها. في المقابل واصلت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تقديم تنازلاتها المجانية، وبدأت بالسير بالاتجاه الذي يريده أبو عمار، مع الأسف الشديد. فحين زار أبو عمار فرنسا في شهر أيار/مايو من ذلك العام وفي إثر لقائه مع الرئيس ميتران، أعلن أن الميثاق الوطني الفلسطيني أصبح قديماً ولاغياً.

تقدم رئيس الوزراء الإسرائيلي بمبادرة لاحتواء الانتفاضة وإجهاضها من خلال إجراء انتخابات في الضفة والقطاع لاختيار ممثلين للشعب الفلسطيني يكون لديهم الاستعداد للدخول في مفاوضات مع إسرائيل تفضي إلى حل مؤقت تحدد من خلاله ترتيبات الحكم الذاتي، وقد رأيتُ في ذلك رشوة سياسية لا يمكن شعبنا أن يقبل بها.

وعلى الصعيد العربي الرسمي، بدأت الأمور تسير باتجاه تهيئة الوضع إلى الحل الأمريكي في ما يتعلق بالقضية الفلسطينية. تمثل ذلك بعودة النظام المصري ومعه كامب دايفيد إلى الجامعة العربية من خلال القمة العربية التي عقدت في أيار/مايو من هذا العام في الدار البيضاء.

وبعد عودة نظام كامب دايفيد إلى الجامعة العربية بدأ الرئيس مبارك بمحاولات لجر قيادة منظمة التحرير الفلسطينية باتجاه المستنقع الأمريكي. أذكر أنه ـ أي مبارك ـ تقدم بمبادرة لحل الوضع القائم ـ أي إجهاض الانتفاضة ـ سميت باسمه؛ وقد ووجهت هذه المبادرة برفض شامل من القوى والشخصيات الفلسطينية في الداخل والخارج، ورأينا، كجبهة، أنها

شروحات لخطة شامير في ما يتعلق بالحكم الذاتي، وأن هدفها إجهاض الانتفاضة، ومحاولة أمريكية لإنقاذ خطة شامير ولتمرير الحل التصفوي.

في هذا العام، وتحت ضغط الانتفاضة، بدأت الولايات المتحدة الأمريكية من خلال سفيرها في تونس بحوار مع منظمة التحرير الفلسطينية، وقد رأينا في هذه الخطوة انتصاراً للانتفاضة. لكننا كنا نعرف أن هدف أمريكا من هذا الحوار هو جر منظمة التحرير الفلسطينية إلى القبول بالحل الأمريكي للقضية الفلسطينية. استمرت الجهود الأمريكية بالبحث عن الحلول لوقف الانتفاضة، التي أصبحت تهدد مصالحها في هذه المنطقة. هنا أتى وزير خارجيتها جيمس بيكر وأطلق مبادرة لحل هذا النزاع، وعلى الفور رأينا كجبهة أنها تتطابق مع خطة شامير؛ وفي مواجهتها كنا ندعو إلى تصعيد الانتفاضة وإلى الوحدة الوطنية. وقد دعونا، ومعنا معظم القوى والشخصيات الوطنية الفلسطينية في بداية عام 1990، إلى عقد مجلس وطني فلسطيني من أجل دراسة أوضاع الانتفاضة وتصعيدها ومن أجل إجراء إصلاح ديمقراطي في بنية منظمة التحرير الفلسطينية ومراجعة سياساتها الخاطئة.

كنت أقول إن لا خيار سوى خيار النضال وتصعيد المواجهة لتعديل موازين القوى. وكنت أرى أن الانتفاضة في ذلك الوقت هي أعلى مرحلة من مراحل النضال الوطني الفلسطيني.

20 ـ حرب الخليج الأولى

في خضم تصاعد الانتفاضة بدأت حملة إسرائيلية ـ غربية ـ أمريكية على العراق، بذريعة امتلاكه أسلحة دمار شامل، ومن خلال الادعاءات بقدرته على تهديد أمن إسرائيل والعالم.

في مواجهة هذه التهديدات عقدت قمة عربية خلال شهر أيار/مايو 1990 في بغداد وجّه العراق خلالها اتهامات لبعض الدول العربية بالضلوع بالحرب الاقتصادية التي تشنها الولايات المتحدة عليه، وذلك من خلال خفض كبير لأسعار النفط في وقت كان العراق بحاجة إلى الأموال من أجل بناء اقتصاده بعد خروجه من حربه الطويلة ضد إيران.

وبعد ذلك بدأت الحرب الإعلامية حول هذا الموضوع بين العراق والكويت، وهي ما لبثت أن انتقلت إلى تهديدات عراقية عسكرية للكويت من خلال حشد العراق قواته على الحدود وحصلت عدة محاولات لمنع تفجر النزاع، كان آخرها اجتماع جدة الذي عقد بين وفدين كويتي وعراقي برعاية سعودية يوم 31 تموز/يوليو 1990 لكن من دون جدوى.

فجر الثاني من آب/أغسطس 1990، دخلت القوات العراقية إلى الكويت. كان الغزو العراقي للكويت مفاجئاً لي، حيث لم أكن أتصور أن يقدم صدام حسين على مثل هذه الخطوة.

في صباح ذلك اليوم، كنت أمضي مع زوجتي إجازة قصيرة جداً ـ مع العلم أنها من الأيام النادرة التي كنت آخذ فيها إجازة داخل سورية ـ وحين سمعت الخبر كان مفاجأة كبيرة لي بل لكل العالم على ما أعتقد.

كنت أتابع قبلها الأزمة التي كانت تعيشها العلاقات العراقية ـ الكويتية، وبخاصة في ما يتعلق بمطالب عراقية في خصوص حقول النفط، أو في ما يتعلق بأسعار النفط، حيث كان العراق باستمرار يتهم الكويت دائماً بخفض أسعار النفط. رغم كل ذلك، لم أكن أتصور أبداً أن تصل الأمور بأي حال من الأحوال إلى حد دخول القوات العراقية إلى كامل الأراضي الكويتية. حينها قطعت إجازتي فوراً وعدت إلى عملي ودعوت إلى اجتماع للمكتب السياسي للجبهة لدراسة الموضوع من جوانبه كافة واتخاذ الموقف المناسب من هذه القضية.

كانت هناك آراء متباينة داخل اجتماعات المكتب السياسي، ولأول مرة شعرت أن المكتب السياسي في الجبهة لم يأخذ في الرأي الذي طرحته. بعض الأعضاء كانوا متحمسين لتلك الخطوة، في الوقت الذي كنت أدرك خطورة الموقف، وبخاصة أن الوضع الدولي لا يمكن أن يسمح بهذه الخطوة أن تمر مرور الكرام. لكن التحرك الأمريكي السياسي والعسكري بناء على طلب من الكويت قد حسم الموقف. وبدأت التهديدات الأمريكية والإنذارات التي كانت تنبئ بعمل عسكري كبير ضد العراق. وجدت أنّ من واجبي أن أذهب إلى العراق في ظل هذا الجو الساخن والمشحون، وبخاصة أن بعض الأنظمة العربية، ومنها سورية ومصر، اتخذت موقفاً مسانداً للكويت ومؤيداً للهجمة الأمريكية على العراق. لم يكنْ ذهابي إلى العراق مهمة سهلة، لأن مثل هذه الزيارة قد تؤثر في علاقاتنا مع سورية وفي كل وجودنا في هذا القطر. رغم ذلك، كان لا بد لي من أن أقوم بتلك الزيارة التي أعتبرها تاريخية دعماً للعراق ضد الهجمة الإمبريالية الأمريكية وتهديداتها.

كانت كيفية سفري إلى بغداد مشكلة، بحكم عدم وجود علاقة بين سورية والعراق منذ سنوات طويلة، والطريق إلى العراق من سورية مغلقة، وعلاقتنا مع الأردن كانت مقطوعة. هنا، جاء الدور الأساسي للسفارة العراقية في عمان لترتيب عبوري من الأردن إلى العراق عن طريق مطار عمان.

حين وصلت إلى العراق واستقبلني بعض المسؤولين بحفاوة، وجدت أنهم هيّأوا لي موعداً مع الرئيس صدام حسين في اليوم التالي. استقبلني الرئيس بحرارة وتقدير عالٍ، شعرت من خلاله أنه يقدر لي تلك الزيارة التي أتت في ظل الأوضاع الصعبة والملتهبة.

لم أعد أذكر تفاصيل الموضوعات التي تحدثنا بها، ولكن العنوان الكبير كان كيفية مواجهة الهيمنة الشرسة من جانب أمريكا، وكان تقديري الشخصي أن أمريكا لا يمكن أن تسكت على هذا التحدي من جانب العراق. بحثت مع الرئيس مختلف الخطوات التي يجب أن تتخذ سواء في العراق أو في الساحة العربية، وما هو دورنا كأحزاب وكقوى وطنية لمساندة هذا البلد العزيز والحفاظ على سيادته. أذكر لقائي مع الأخ سعدون حمادي، رئيس المجلس الوطني العراقي، وما قاله لي عن هذه الخطوة ـ أي دمج الكويت والعراق ـ التي ستمكننا من السيطرة على منابع النفط لنصبح القوة الأولى في الوطن العربي التي تحصل على 20 بالمئة من النفط العالمي.

غطت وسائل الإعلام العراقية والعربية تلك الزيارة وما تخللتها من لقاءات سياسية مهمة مع مختلف المسؤولين العراقيين، وتم نقل العديد من كلماتي وتصريحاتي الكثيرة في جميع وسائل الإعلام العراقية.

غادرت بغداد وقلبي ينبض محبة وقلقاً على هذا البلد وشعبه الغالي. وبدأت أفكر في العودة إلى سورية وكيف سيكون رد الفعل المسؤولين السوريين. لكنني فوجئت بالموقف السوري الرسمي الذي لم يتخذ أي

إجراء سلبي، سواء تجاه الجبهة أو تجاهي شخصياً، وما زلت أقدر موقف الرئيس حافظ الأسد تجاهي في ذلك الوقت.

استمر الموقف الشعبي الفلسطيني والعربي في إسناده ودعمه للعراق، حيث خرجت الجماهير الفلسطينية والمغربية والسودانية والمصرية واليمنية والأردنية في تظاهرات ضخمة مؤيدة وداعمة للعراق. وكان موقف الجبهة طبيعياً في دعمه للعراق في مواجهة القوات الأمريكية.

وفي مواجهة الحشود العسكرية الأمريكية وحلفائها، دعت القوى الشعبية والوطنية الأردنية إلى عقد مؤتمر شعبي عربي لدعم العراق، وكان يهمني كثيراً حضور مثل هذا المؤتمر. لكنّ المشكلة كانت في كيفية حضوري في ضوء موقفي المعروف من النظام الأردني بعد غيابي القسريّ عن الأردن عشرين عاماً. لكن موقف القوى الوطنية التي وجهت إلي الدعوة وطلبت مني الحضور، من ناحية، وموقف النظام الأردني المساند للعراق تحت الضغط الشعبي، من ناحية ثانية، كان عاملاً سمح لي بدخول الأردن لحضور المؤتمر؛ وكانت تلك المرة الأولى التي أزور فيها الأردن منذ عشرين عاماً.

حين وصلت إلى عمان بعد هذا الغياب الطويل، كان يدور في ذهني سؤال مهم: ماذا يمثل جورج حبش بالنسبة إلى الجماهير الفلسطينية والأردنية بعد هذا الغياب؟

في يوم انعقاد المؤتمر، تجسد الجواب الذي أبحث عنه في صورة واضحة تمثلت بالحشد الجماهيري الهائل الذي أحاطني من كل جانب، إلى درجة أنني وجدت صعوبة في الوصول إلى قاعة المؤتمر رغم محاولات المرافقين تأمين دخولي.

كنت أتصور أنني سأجد بين الحضور أنصاراً للجبهة، وأصدقاء من كبار السن الذين عرفوني في فترة الستينيات، ولكن المفاجأة كانت بالعدد الكبير جداً من الشباب في سن العشرينيات، الذين أحاطوني من كل جانب

وأعربوا لي عن محبتهم وتقديرهم لي ولمواقفي السياسية، وبخاصة موقفي المساند للعراق. وفي كل مرة كنت أعود فيها إلى الفندق بعد انتهاء جلسات المؤتمر كنت أجد جموعاً غفيرة في انتظاري، حتى إنني في إحدى المرات، ولدى خروجي من قاعة المؤتمر، تجمهر عدد كبير من الناس حول السيارة حتى وجدت صعوبة بالغة في الخروج من المكان.

ستبقى هذه اللحظات في مخيلتي ما حييت، لأنني أعتبرها من اللحظات الجميلة جداً التي كنت بحاجة ماسة إليها لتأكيد صحة موقفي. في هذه الزيارة أيضاً تم عقد اللقاء الأول لي مع الملك حسين وكان عبارة عن لقاء مجاملة لا أكثر.

في بداية هذا اللقاء، كان يهمني أن أسمع ماذا سيقول الملك بعد سنوات العداء الطويلة بيننا، وقد تطرق إلى هذا الموضوع على نحوٍ عابر على أساس أننا الآن أمام وضع جديد. أما الموضوع الأساسي الذي أثاره في هذا اللقاء كما أذكر، فكان موضوع المياه في المنطقة وما سيفرضه هذا الموضوع خلال السنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين التي قد تصل إلى حد المواجهات العسكرية.

مثّلت زيارة الأردن هذه بالنسبة إلي فرحة كبيرة جداً، حيث تمكنت من رؤية أصدقاء قدامى أحباء على قلبي؛ وهنا أذكر الدعوة التي أقامها على شرفي صديقي الحبيب علي منكو؛ والدعوة الأخرى التي أقامها الصديق نزار جردانة، وكم كنت سعيداً جداً بهما. كذلك أتاحت لي هذه الزيارة الفرصة للقاء الأهل والأقارب، الذين لم أرهم منذ سنوات طويلة بسبب العداء الذي كان قائماً بيننا وبين النظام الأردني. كذلك أُقيم لي استقبال حافل في مجمع النقابات حضره عدد كبير من النقابيين والأصدقاء والسياسيين الأردنيين.

بعدها واصلت أنشطتي ومتابعاتي موزعاً وقتي بين اهتمامي بالملف العراقي ـ الكويتي وبين الانتفاضة وما تتطلبه من دعم وإسناد. وكانت اجتماعات القيادة الفلسطينية في تونس مكثفة في سبيل ذلك.

يوم الخامس عشر من كانون الثاني/يناير 1991 كان صباحاً قاسياً؛ فقد بُلِّغت بنبأ اغتيال القادة الثلاثة أبو إياد وأبو الهول وأبو محمد العمري. كان للنبأ علي وقع الصدمة القاسية، فقد كنا في وقت أشد ما نكون فيه بحاجة إلى مثل هؤلاء الرفاق. كانت تربطني بالأخوين أبو الهول وأبو إياد علاقات رفاقية جيدة وحميمية في ضوء مواقفهم السياسية.

في صبيحة يوم 16 كانون الثاني/يناير 1991، بدأت القوات الأمريكية وحلفاؤها هجومها الجوي الهمجي على العراق، وكانت الأخبار الآتية من هناك بالنسبة إلينا غير مطمئنة بسبب حجم الأهداف التي دُمرت وبسبب عدم الرد العراقي. لكنْ، في الساعات الأولى من فجر اليوم الثاني للضربة الجوية جاء الرد العراقي بإطلاق الصواريخ على تل أبيب، فكانت فرحتنا كبيرة جداً، وكنت أرى الفرحة في وجوه كل الرفاق والجماهير التي التقيها من جراء هذه الصواريخ التي سقطت على الأهداف الإسرائيلية الحيوية.

في بداية شهر شباط/فبراير من هذا العام، تمت الدعوة إلى عقد مؤتمر للشعب العربي لدعم العراق في صنعاء. وكانت المشكلة في عدم وجود خط طيران بين دمشق واليمن بسبب الغارات على العراق، فطلبت من مرافقي تأمين السفر لي عن أي طريق مهما كانت صعبة وطويلة. وقد حصل ذلك بالفعل، حيث توجهت إلى موسكو ومنها إلى عدن فصنعاء، في سفر استغرق 24 ساعة من أجل حضور هذا المؤتمر. لقد كانت مواقف كل القوى والأحزاب الوطنية العربية في هذا المؤتمر داعمة ومساندة للعراق في دفاعه عن نفسه.

في صنعاء أبلغتُ بعض الإخوة السودانيين الذين حضروا المؤتمر برغبتي في زيارة السودان في ضوء موقفه الداعم للقضية الفلسطينية وموقفه من العراق. وقد توجهت من صنعاء إلى الخرطوم، وهناك عقدت أول لقاء لي مع الرئيس عمر البشير.

من الخرطوم، توجهت إلى طرابلس في الجماهيرية الليبية، وهناك شعرت أن من واجبي أن أكون إلى جانب الشعب العراقي وهو يدافع عن نفسه وعن أرضه، فطلبت من السفير الأردني في ليبيا بالسماح لي بالمرور إلى بغداد عبر الأردن، لكن الجواب لم يأتِ، رغم تدخل السفير العراقي عدة مرات. ثمّ حاولت عبر السفير الإيراني عدة محاولات لكنها فشلت. كانت هذه الأيام بالنسبة إلي عصيبة جداً وأنا أتابع أخبار الهجوم على العراق من بعيد. كم تمنيت أن أكون هناك لأقف معهم شاداً على أياديهم في مواجهة هذه الغطرسة الأمريكية.

أذكر تماماً أنني طلبت حينها من الأخ عبد السلام جلود أن أتوجه معه إلى بغداد لإقناع الرئيس العراقي بالانسحاب من الكويت ولكنه رفض ذلك وكان موقفه بالنسبة إلي مؤلماً جداً.

بعدما يئستُ من هذه المحاولات، غادرت إلى تونس، إذ قررت الجبهة، نتيجةً لكل هذه التطورات، وخشية انعكاسها على الجبهة وقيادتها، أن أبقى في تونس إلى حين انتهاء الحرب.

بقيت في تونس إلى ما بعد انتهاء الحرب. وفي يوم 21 نيسان/أبريل 1991، حضرت اجتماعاً للمجلس المركزي الفلسطيني خصص لمناقشة الحرب العراقية ـ الكويتية وانعكاسها على القضية الفلسطينية. في اليوم التالي وصل إلى تونس السيد طارق عزيز الذي زارني في مقر إقامتي، ثم حضر الأخ أبو عمار، وكم تألمت لحجم الدمار والقتل الذي حدثنا عنه. لكن في الوقت نفسه جعلني أبقى على مزيد من الأمل، وهو الإصرار على التحدي والصمود اللذين نقلهما لنا طارق عزيز عن القيادة والشعب العراقيين.

قبل ذلك، كنت قد حضرت اجتماعاً للمكتب السياسي للجبهة في تونس، حيث تدارسنا الأوضاع المستجدة بوجه عام ووضع الخطط في مواجهة هذه الأوضاع.

في 21 نيسان/أبريل 1991، توجهت برفقة الأخ ياسر عرفات والرفيق نايف حواتمة إلى السودان لحضور المؤتمر الشعبي العربي والإسلامي، ثم عدت إلى تونس وبقيت إلى 6 أيار/مايو 1991، ثم عدت إلى دمشق.

كان من الطبيعي جداً أن أبدأ في ترتيب أموري كي أقوم بزيارة للعراق للإعراب عن تضامننا معهم، وللاطلاع على حقيقة الموقف وما تركته الحرب ميدانياً. وفعلاً توجهت يوم 10 حزيران/يونيو 1991 إلى بغداد عن طريق عمّان وهناك التقيت بالرئيس صدام حسين مرة أخرى.

كان المناخ الجماهيري - وكذلك الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - يرى أن هذه الحرب التي شنتها القوات الأمريكية على العراق تمثّل ضربة معنوية للعراق وللأمة العربية. إلا أن القيادة العراقية كانت تعتبر ما حصل انتصاراً. فكان المقياس من وجهة نظر القيادة العراقية أن مجرد بقاء النظام يعدّ انتصاراً كبيراً، بينما الجماهير العربية كلها اعتبرته نكسة مؤلمة جداً. كانت الجبهة ترغب في عقد اجتماع للجنة المركزية لتقييم ما حصل. لكن بعض الرفاق القياديين في المكتب السياسي كانوا متأثرين بما حصل، لاعتقادهم أن القيادة العراقية قد تورطت أكثر مما يجب لاتخاذها قرار دخول الكويت، بينما كنت أنا شخصياً مشدوداً للموقف الأمريكي الذي كان يريد ضرب العراق للسيطرة على النفط كون العراق يملك ثاني أكبر مخزون من النفط في العالم بعد السعودية، رغم قناعتي بأن الخطوة التي أقدمت عليها بغداد بدخول الكويت كانت مرتجلة وغير محسوبة.

بعد الحرب وما نتج عنها من آثار مدمرة على الشعب العراقي وضرب أكبر مؤسسة عسكرية عربية في المنطقة، بدأت أمريكا تفكر في حل للصراع العربي - الإسرائيلي في ضوء الوعود التي قدمتها أمريكا إلى الجانب العربي الرسمي.

21 ـ الوضع الفلسطيني:
اتفاقية أوسلو المشؤومة

بدأت بالتفكير في أوضاع الجبهة، وبخاصة أنه مضى على المؤتمر الوطني الرابع عشر سنوات، وربما تكون هذه مناسبة لاستعراض مساهمتي في كتابة التقارير السياسية والتنظيمية التي قدمتها إلى مؤتمرات الجبهة. المؤتمر الأول لم أكتب التقارير بسبب وجودي داخل السجن في سجن الشيخ حسن في سورية عام 1968. أما المؤتمر الثاني عام 1969، فقد كتبت بنفسي التقرير السياسي (الاستراتيجية السياسية والتنظيمية)، الذي أعتبره من أفضل ما كتبت، إذ أخذنا في الحسبان الفترة التي كانت تعيشها الثورة الفلسطينية في ذلك الوقت. أما التقرير الثالث للمؤتمر، وعنوانه مهمات المرحلة في عام 1972، فهذا التقرير بالذات كنت أود أن يقرأه الرفيق غسان كنفاني قبل طرحه على القاعدة الحزبية. وقد كانت الملاحظة الأساسية التي طرحها الرفيق غسان هي التوسع في صياغة المهمة التي تتعلق بالأرض المحتلة عام 1948، وقد كلفته أن يصوغ هذا القسم فقط من التقرير السياسي.

أما التقرير الذي قدم إلى المؤتمر الرابع، فأرى أيضاً أنه من أفضل ما كتبت، وكان ذلك في عام 1980، بحيث عالج الأوضاع السياسية في تلك الفترة أيضاً. كان في نظري تقريراً مهماً، تناولت فيه موضوع النفط وتأثيره في كامل المنطقة، وكذلك موضوع كامب دايفيد، الذي رأيت أنه أيضاً

مهماً جداً لأن انعكاسه سيكون سلباً على المنطقة العربية كلها ولفترة طويلة من الزمن.

أما المؤتمر الخامس، 1991، فقد ساعدني على إنجاز التقرير السياسي الرفيق صابر محيي الدين، الذي أكنّ له كل تقدير. وكانت مساهمتي في هذا التقرير أساسية جداً. فقد كنت أكتب هيكل التقرير على نحوٍ تفصيلي، وبعد ذلك أناقشه مع الرفيق صابر، وفي ضوء المناقشة يقوم الرفيق صابر بالصياغة، ثم أقرأ هذه الصياغة وبعد التأكد من صحة الكتابة والصياغة نقدمه إلى المؤتمر. في تلك الفترة، كنت أريد أن أنهي مسؤوليتي كأمين عام للجبهة الشعبية، لأقدم مثلاً لتجسيد الديمقراطية داخل صفوف الجبهة والمقاومة الفلسطينية، وليكون ذلك أيضاً نموذجاً لكل المسؤولين الذين يتشبثون بمناصبهم إلى الأبد والذين يورثون مناصبهم إلى أبنائهم بغض النظر عن كفاءتهم وقدرتهم على تحمل المسؤولية. كما كان في ذهني أن أعمل على إنشاء مركز للدراسات يُعنى بدراسة تجربة حركة القوميين العرب ومن ثم الجبهة الشعبية والأحزاب القومية الأخرى، وكذلك تجربة الثورة الفلسطينية المعاصرة، والعمل القومي منذ النكبة، بحيث تكون تجربة الجبهة والحركة والأحزاب والتجارب الأخرى درساً مفيداً لمتابعة النضال الوطني والقومي، من دون أن يعني ذلك ابتعادي من ساحة النضال الوطني والقومي وبخاصة في هذه الفترة العصيبة من تاريخ الأمة العربية وتاريخ الشعب الفلسطيني. كنت في غاية الجدية وكلي إصرار وتصميم على تقديم الاستقالة وأنا ما زلت قادراً على العمل. لكن الرفاق داخل الأراضي المحتلة بوجه خاص استهجنوا هذا الموقف وأصروا على بقائي في الجبهة كأمين عام، وهو ما اضطرني إلى أن آخذ هذه النقطة في الحسبان لفترة من الوقت لتهيئتهم لتقبل الفكرة وإعطائهم الفرصة لتحمل مسؤولياتهم.

في الوقت الذي كنت أعدّ للمؤتمر الخامس للجبهة، كنت بطبيعة الحال منغمساً في الموضوعات السياسية التي كانت تواجهها الثورة

ومنظمة التحرير. وفي ما يتعلق بهذه الموضوعات، كان الموضوع الأول هو الانتفاضة، التي لم تنته بعد، حيث المهمة الأساسية للثورة ومنظمة التحرير هي الاستمرار في دعم الانتفاضة ومعالجة الثغرات التي وقعت فيها وبلورة الخط السياسي الذي يجب أن تستمر على أساسه. كان هذا الموضوع واضحاً من خلال التقرير السياسي الذي قدمته إلى المؤتمر. أما بالنسبة إلى أمريكا، فقد كان ما تريده هو إهمال منظمة التحرير واعتبار الموضوع الفلسطيني منحصراً في الضفة الغربية وغزة. على هذا الأساس، كانت زيارات بيكر لفلسطين وإجراء لقاءات مع عدد من الشخصيات الفلسطينية تمهيداً لتشكيل الوفد الفلسطيني الذي سيشترك في مؤتمر مدريد للسلام. هذا المؤتمر الذي كانت أمريكاً تعد له لإنهاء الصراع العربي - الإسرائيلي والفلسطيني - الإسرائيلي، وهو ما كانت قد وعدت به أثناء إقناع الأطراف العربية بالاشتراك بهذا المؤتمر لمكافأة تلك الأطراف لوقوفها إلى جانب قوى التحالف أثناء حرب الخليج. وكان جيمس بيكر (وزير خارجية الولايات المتحدة) قد زار فلسطين عدة مرات بهدف تأليف وفد فلسطيني يمثل الفلسطينيين في هذا المؤتمر بعيداً من منظمة التحرير. كان العنوان الفلسطيني الأساس هو فيصل الحسيني إضافة إلى عدد آخر، منهم حنان عشراوي وآخرون.

ولكن فيصل وحنان لم يكونا قادرين على تجاوز المنظمة وأبو عمار بالذات، وكانت الاتصالات بين أبو عمار وفيصل يومية لمتابعة ماجريات الأمور. وحين وصلت الأمور إلى تصور محدد للوفد الفلسطيني، أتى فيصل ومعه حنان عشراوي إلى تونس للتنسيق مع أبو عمار وعدد آخر من قيادة فتح ومن المستقلين لبحث هذا الموضوع الذي يجب أن ينتهي إلى تأليف وفد فلسطيني بعيداً من منظمة التحرير من الناحية الشكلية؛ أما من الناحية العملية، فكان أبو عمار يدير كل هذه الموضوعات.

في تلك الفترة حصل لقاء بيني وبين فيصل الحسيني وحنان عشراوي في تونس. ومن المعروف أن فيصل كان عضواً في حركة القوميين العرب

وسبق أن التقيته أكثر من مرة. أما بالنسبة إلى الأخت حنان، فقد كان لقائي بها هو الأول. في ذلك اللقاء تمت مناقشة موضوعات عديدة ومهمة، لكن الموضوع الأساسي بالنسبة إلي كان سؤال فيصل: هل إسرائيل مستعدة لإنهاء المستعمرات وإلغائها؟ وكان الجواب أن هذا الموضوع قد تم بحثه مع وزير الخارجية الأمريكي بيكر، وقد تم التفاهم عليه لمصلحة الفلسطينيين. أما بالنسبة إلي، وفي ضوء دراستي للمشروع الصهيوني وأهمية المستعمرات بالنسبة إلى إسرائيل، وفي ضوء ميزان القوى القائم الآن في المنطقة، فلم أقتنع بأن إسرائيل كان يمكن أن توافق على هذا الموضوع الأساسي بالنسبة إليها. وفي اجتماع المجلس الوطني الذي تم بحضور فيصل وحنان، ألقيت خطاباً مهماً شددت فيه على موقف الجبهة من المشروع الأمريكي في تلك الفترة، وضرورة التقيد بالثوابت الوطنية. وكان لذلك الخطاب صدى ودويٌّ بين الحضور من جميع الفصائل والمستقلين وأعضاء فتح تحديداً، الذين أعربوا لي بحماسة عن تأييدهم لذلك الخطاب وكل ما ورد فيه. وقد كان هناك لقاءات مكثفة عديدة ومنهكة سبقت المجلس الوطني، وكان الموضوع الأساسي الذي يثير الجدل موضوع الاعتراف الرسمي والصريح بالقرارين الدوليين 242 و338.

في ذلك الاجتماع للمجلس الوطني، تم اعتراف منظمة التحرير بالقرارين 242 و338 بقرار. وكان موضوع الاعتراف بالنسبة إلى الجبهة موضوعاً كبيراً وخطيراً، بحيث كان من المفترض أن تنسحب الجبهة من اللجنة التنفيذية، لكن نظراً إلى الوضع العام، وبخاصة في ضوء استمرار الانتفاضة في فلسطين، وجدت الجبهة أن تكتفي بالتحفظ على القرار من دون انسحابها من اللجنة التنفيذية حفاظاً منها على الوحدة الوطنية وحرصاً منها على استمرار الانتفاضة.

كان أبو عمار يركز على الاستمرار في دوامة التسوية التي كانت أمريكا تخطط لها وترغب في أن تشمل الموضوع الفلسطيني بعيداً من منظمة التحرير، والتي كانت ترى أن هذا الموضوع ما زال مرتبطاً بالأردن، لذلك

تم تأليف الوفد الفلسطيني على نحوٍ مستقل ظاهرياً لكنه في الواقع ما زال مرتبطاً من الناحية الشكلية بالأردن لأنه كان من الصعب أن تتجاهل أمريكا الوفد الفلسطيني[1].

تألف الوفد الفلسطيني برئاسة الدكتور حيدر عبد الشافي ليشارك في مؤتمر مدريد. لكن هذا الوفد بدأ يواجه صعوبات كبيرة منذ بدء المفاوضات التي استمرت في الولايات المتحدة في جولات تلت المؤتمر. هنا كنت أستغرب كيف أن شخصية كبيرة بمستوى الدكتور حيدر لم يكن يقدّر هذه العقبات الكبيرة التي ستواجهه. فقد كان يعتقد بأن الولايات المتحدة ستحل الموضوع الفلسطيني على نحوٍ يرضي الفلسطينيين. لقد فات الدكتور حيدر أن إسرائيل لا يمكن أن تسلم بموضوع القدس، وإزالة المستوطنات، وعودة اللاجئين، والمياه، والانسحاب الكامل من الأراضي المحتلة عام 1967، وإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة. وحين لمس الدكتور حيدر أن من المستحيل تحقيق كل ما كان يأمل في تحقيقه في ما يتعلق بالمطالب الفلسطينية كما كان في ذهنه، أعلن استقالته والانسحاب من الوفد الفلسطيني.

بدأ أبو عمار يبحث عن مخرج آخر لهذا الموضوع. وبدلاً من تصعيد الانتفاضة ودعمها واستمرارها حتى تفرض على إسرائيل انسحاباً كاملاً وإقامة واقع جديد لمصلحة الفلسطينيين، أخذ يجري الاتصالات السرية التي أدت به إلى أوسلو المشؤومة.

* * * *

استمراراً لسياسة التنازلات التي بدأتها السلطة في أوسلو، تم يوم 15 كانون الثاني/يناير 1997 توقيع اتفاق الخليل، الذي رأت الجبهة فيه تشريعاً للاستيطان وتسليماً بشروط إسرائيل. طالبتُ حينها بسياسة التحدي ورفض

---

(1) بسبب رفض «إسرائيل» التفاوض مع وفد فلسطيني مستقل تم ضم الوفد الفلسطيني إلى الوفد الأردني.

العار واستمرار المقاومة، كون هذه السياسة هي الوحيدة القادرة على كبح جماح العدوان. وكنت أطالب دائماً بتغليب التناقض مع الاحتلال على أي تناقض آخر.

أما في خصوص تلك الأزمة الداخلية، فنحن في الجبهة قطعنا شوطاً في مواجهتها عبر الإقرار بوجودها والتشخيص الدقيق لأسبابها الموضوعية والذاتية. وخلال هذا العام، لن أنسى لقائي الأول مع البابا شنودة، وكانت هيلدا معي، هذا الرجل وما يمثله من مواقف وطنية وقومية وإنسانية. كان اللقاء معه بالنسبة إلي أمراً مهماً لأعبر له عن تحياتي وتقديري له ولمواقفه المبدئية من الاحتلال الصهيوني.

خلال هذا العام، وقفت هيئاتنا القيادية أمام الحوار الوطني الفلسطيني، وبخاصة في ضوء جلسة الحوار التي عقدت في نابلس بهدف إعادة ترتيب البيت الفلسطيني.

كان موقفنا كجبهة أن الحوار يجب أن يسبقه كحد أدنى تعليق المفاوضات وإطلاق سراح المعتقلين عند السلطة. رغم أن رفاقنا ذهبوا إلى هذا الحوار من دون تحقيق هذه الشروط.

كان هدف السلطة في هذا الحوار هو مفاوضات الحل الدائم. وللأسف كان هناك عدد من الرفاق يؤيدون المشاركة في هذه المفاوضات، وكان هناك خلاف حول حوار نابلس وبخاصة قبل إطلاق سراح المعتقلين عند السلطة الفلسطينية. لكن ما أراحني هو قرار المكتب السياسي بالإجماع ضد المشاركة في مفاوضات الحل النهائي. ومن ناحية ثانية، كنا مندفعين في علاقاتنا مع الجبهة الديمقراطية، وكنا نسير باتجاه صيغة اتحادية جبهوية.

لم تكن أحداث الساحة الفلسطينية بكل تعقيداتها تمنعنا من إنجاز ومناقشة وثائق المؤتمر الوطني السادس للجبهة.

أما بالنسبة إلي، فكنت أدعو، في مواجهة كل ما كان يجري في الساحة الفلسطينية، إلى إقامة جبهة وطنية فلسطينية ضد إسرائيل، من ناحية، وضد نهج عرفات، من ناحية ثانية. وكان همنا فلسطينياً تجميع المعارضة الفلسطينية، وبخاصة اليسار. لكن المشكلة هي أن بعض أطراف اليسار كانت تؤيد أوسلو والسلطة. والمشكلة الأهم مع الجبهة الديمقراطية أنها كانت تسعى إلى تصويب اتفاق أوسلو والمفاوضات، لا العمل ضد المسار. هنا برز موضوع إعلان الدولة الذي أرادوا منه دغدغة العواطف، وقد أشرنا في مواقفنا إلى رفضنا لهذا الأسلوب.

وجهت إلينا الدعوة إلى المشاركة في الحكومة، فرفضنا ذلك إلى جانب الديمقراطية وحماس والجهاد.

على الصعيد العربي، كنت أتابع القوى التي تؤمن بضرورة تجميع العمل القومي، لما يمثله من رافعة وداعمة للقضية الفلسطينية. وكان هذا الموضوع من ضمن القضايا التي كانت تشغل تفكيري باستمرار. وقد عقدنا عدة لقاءات لبعض القوى القومية العربية بغية تجميع العمل القومي. وقد خصص المكتب السياسي للجبهة من جانبه، جلسة خاصة لهذا الموضوع.

ومع شعور عرفات بتعثر المفاوضات مع الجانب الإسرائيلي، بدأ يحاول الاستقواء بالفصائل من خلال الدعوة إلى الحوار وإلى عقد اجتماع للمجلس المركزي الفلسطيني.

في عام 1998، بدأت فكرة الحوار في القاهرة في أول حوار ثلاثي بين فتح والجبهة وبمشاركة الجبهة الديمقراطية. وكنت من الأساس أعارض هذه الفكرة نظراً إلى الأهداف الاستخدامية ـ من جانب السلطة ـ لهذا الحوار، إذ إن أبو عمار يريد الحوار غطاءً سياسياً. وقلت للرفاق في المكتب السياسي إن اللحظة غير مناسبة ولن أذهب على رأس وفد للجبهة، وكنت أطالبهم أن لا يذهبوا للحوار قبل تغيير أبي عمار خطه

السياسي وإطلاق سراح المعتقلين من سجون السلطة. ولكن هذا الحوار لم يكتب له النجاح.

وحول فكرة إعلان الدولة، كان موقفي «أنه لا يمكن لأي فلسطيني أن يكون ضد إعلان الدولة، ولكن للدولة مقومات، وهي غير موجودة، وإعلان الدولة يجب أن يكون على أساس قرارات الشرعية الدولية، وأنه يجب إعادة ملف القضية الفلسطينية للأمم المتحدة ومؤسساتها كمرجعية، وأن مشروع الدولة هو مشروع كفاحي وليس موضوعاً «استخدامياً»».

استمرت عملية تعثر المفاوضات أمام تصلب الجانب الإسرائيلي في ما يتعلق بالقضايا الأساسية إلى درجة إعلان مصر «أن اتفاق أوسلو وصل إلى طريق مسدود» وطالبت أن تعالج القضية في إطار قرارات الشرعية الدولية.

طرحت الولايات المتحدة خطة للحل تقوم على أساس انسحاب إسرائيل من 13 بالمئة من الأراضي الفلسطينية في الضفة، لكن نتنياهو رفض الخطة. وفي هذا العام، شهدت علاقتنا بالجبهة الديمقراطية توتراً كبيراً على خلفية مذكرات نايف حواتمة التي حملت الكثير من المغالطات وعدم الدقة بالمعلومات. وقد رد الرفيق أبو علي مصطفى عليه مما ترك أثراً سلبياً في هذه العلاقة.

كان موضوع الفساد في السلطة من ضمن القضايا التي كانت الجبهة الشعبية تركز عليه باستمرار. حتى إن المجلس التشريعي الفلسطيني أثار هذه القضية بحدة. وكان دورنا في الجبهة في مواجهة الفساد تحريضياً ودعاوياً لإيصال الحقيقة إلى الجماهير لنقول لهم إن ما بني على خطأ لن يولِّد إلا الأخطاء، وكنت أرى أن الفساد في السلطة ليس فساد وزراء، بل فساد المؤسسة نفسها، فساد النهج الذي يحكم المؤسسة.

وطالبنا بمراجعة، ولكن ليست أي مراجعة، مراجعة يجب أن تبدأ بالاعتراف بالهزيمة كمُعطى موضوعي، وأن تكون ديمقراطية وجماعية،

فهي ليست مسؤولية فصيل لوحده، وإنما مسؤولية جماعية فلسطينية وعربية.

أما في ما يتعلق بجماهير شعبنا في المناطق المحتلة عام 1948، فقد كانت الجبهة من أكثر الفصائل التي أولت الأهمية الخاصة لهذا التجمع، الذي يمثّل، بحسب اعترافات قادة العدو، «القنبلة الموقوتة» للكيان الصهيوني. لكن القيادة الرسمية الفلسطينية لم ترَ الأهمية الخاصة لدور شعبنا في هذه المنطقة، ولم تلتقط إشاراته السياسية والكفاحية.

كنت أرى أن الكفاح المسلح من أهم أوجه النضال وأكثرها إيلاماً لهذا العدو العنصري، وأنه كان ولا يزال مطلوباً. لكن، كان في الوقت نفسه ضرورياً ومطلوباً ممارسة أشكال نضالية أخرى من طبيعة مختلفة: من تظاهرات واعتصامات وانتفاضة شعبية.

في أثناء الاستمرار في الحديث عن الحوار الفلسطيني الداخلي، تم في واشنطن يوم 23 تشرين الأول/أكتوبر 1998 توقيع اتفاقية «واي ريفر» بين السلطة والكيان الصهيوني.

لم تكن اتفاقية واي ريفر مجرد اتفاقية سياسية، بل كانت اتفاقية أمنية من خلال العلاقة الاستخبارات الأمريكية (.C.I.A). لقد ثبّتت هذه الاتفاقية التصور الصهيوني الأمني للحل، والجانب التاريخي والجغرافي، والجانب الثقافي، وباتت تهدد الوحدة الوطنية الفلسطينية، بخطر نشوب حرب أهلية داخلية؛ وربطت إعلان الدولة بالموافقة الإسرائيلية؛ وشرّعت لبعض الدول العربية إقامة علاقات مع الكيان الصهيوني. كما وجهت هذه الاتفاقية ضربة للمشروع الفرنسي - المصري للحل الذي كان قد طرحه الرئيسان مبارك وشيراك في باريس. إضافة إلى أهم نقطة أدت إليها، وهي **إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني**. وقد أعلنت الجبهة رفضها التام لهذه الاتفاقية ومقاطعتها الشاملة لاجتماعات المجلس المركزي والوطني الفلسطيني التي تستهدف إلغاء الميثاق الوطني الفلسطيني.

في مواجهة دعوة عرفات إلى عقد اجتماع للمجلس الوطني في مدينة غزة، وبحضور الرئيس الأمريكي كلنتون لإلغاء الميثاق الوطني، بدأنا اتصالات مع الفصائل الفلسطينية والشخصيات المستقلة في الداخل والشتات لمواجهة هذا المجلس وخطوة إلغاء الميثاق. وقد أسفرت هذه الاجتماعات عن اتفاق على عقد مؤتمرات شعبية. عقد مؤتمران أحدهما في رام الله والآخر في غزة، وكان المؤتمر الأكبر هو الذي عقد في مدينة دمشق يوم 2 كانون الأول/ديسمبر 1998، وكان للجبهة الشعبية مع بعض الشخصيات الوطنية المستقلة الدور الأساسي لنجاح الدعوة والعمل على عقد هذه المؤتمرات في الوطن والشتات.

شاركت في هذا المؤتمر فصائل المعارضة الفلسطينية كافة، إضافة إلى الشخصيات الفلسطينية المستقلة من كل العالم، وعدد كبير من الأحزاب العربية **وعلى رأسها حزب الله وأمينه العام السيد حسن نصر الله،** وعدد كبير من الشخصيات العربية وعلى رأسهم السيد الرئيس أحمد بن بيلا.



الحكيم مع أحمد بن بيلا

في أثناء المؤتمر، حاول نايف حواتمة إثارة بعض المشاكل، وبخاصة حول شعار المؤتمر الذي يشير إلى أن حدود فلسطين من النهر إلى البحر، وحول تصريحات عن وجود اتجاهين داخل المؤتمر.

ورغم بعض الخلافات، حقق المؤتمر أهدافه السياسية والإعلامية وانتهى بقرارات جيدة وانتخب لجنة متابعة عليا لمتابعة قراراته. ولكننا كنا نواجه مشكلة المرجعية الوطنية وصعوبة إيجاد إجماع على البديل، وكنا نحذّر من نزعة البعض لإيجاد بديل لمنظمة التحرير.

في عام 1999، سقط نتنياهو وفاز إيهود باراك في الانتخابات، وكانت توجد توقعات بتسريع المفاوضات على الجانب السوري والانسحاب من جنوب لبنان. وأعلنت إسرائيل أنها تريد تسريع المفاوضات مع سورية ولبنان. وأمام الوضع العربي المعقد كنا ندعو إلى عقد قمة عربية شاملة رغم معارضة بعض الأنظمة الرجعية.

استمرت حالة المعارضة الفلسطينية في المراوحة مكانها؛ لكن مشاركة بعض فصائل المعارضة في اجتماع المجلس المركزي (حماس - رغم عدم تمثيلها في منظمة التحرير الفلسطينية سابقاً - والديمقراطية والعربية) أثّرت سلباً في عمل لجان المتابعة للمؤتمر الوطني الفلسطيني.

من جديد، عادت الدعوة إلى الحوار الفلسطيني. هنا أتت الدعوة مجدداً إلى عقد لقاء بين الجبهة وفتح في القاهرة يوم 1 آب/أغسطس 1999. برز الخلاف داخل الجبهة، وبخاصة من جانبي، حول الدعوة إلى الحوار مع عرفات. وقد أبلغت الرفاق أنه لا يمكن أن أقبل أن أشكل غطاء لتسوية يزمع أبو عمار أن يقدم عليها - تسوية إقامة الدولة الفلسطينية من دون القدس واللاجئين.

شعرت بخطورة الموقف، وبخاصة أن الجبهة تمر بأزمة هي من أخطر الأزمات التي تعرضت لها تاريخياً. وأمام هذا الموقف طلبت من الرفاق إما قبول استقالتي كأمين عام، وإما تأجيل الموضوع إلى حين عقد المؤتمر

الوطني السادس للجبهة. وبعد نقاش طويل وكحل وسط وكنوع من احترامي للجبهة وقراراتها، طلبت أن تعطيني الجبهة الفرصة لأعبر عن رأيي الخاص إذا سئلت إعلامياً وجماهيرياً وقد تم قبول ذلك.

في هذه الأثناء، وُجهت إلي دعوة من مركز دراسات الوحدة العربية لحضور حفل تسليم جائزة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر للأستاذ محمد حسنين هيكل في بيروت يوم 26 تموز/يوليو 1999. وقد لبيت هذه الدعوة ووصلت إلى بيروت ظهر ذلك اليوم، وكنت في غاية السعادة لسببين أساسيين:

الأول: أنها كانت زيارتي الأولى لبيروت منذ أن خرجت منها في إثر حصار بيروت المعروف وخروج المقاومة الفلسطينية من لبنان عام 1982؛ بيروت التي أحبها وأحب أهلها؛ بيروت المقاومة والصمود؛ لبنان الذي حطم أسطورة الجيش الصهيوني الذي لا يقهر.

أما السبب الثاني فلأنها جائزة القائد جمال عبد الناصر الذي ما زلت أكن له عميق المحبة والاحترام والتقدير، والذي ربطتني به صداقة حميمة. عبد الناصر القائد القومي الكبير الذي أرعب الأعداء والذي أعاد للأمة العربية عزتها وكرامتها.

وصلت إلى بيروت برفقة زوجتي، وكان لوصولي إليها صدى إعلاميٌّ كبير، حيث بدأت وسائل الإعلام على الفور تتناقل خبر وصولي إلى بيروت. وفي مساء اليوم نفسه، حضرت حفل التكريم، الذي ضم شخصيات قومية من كل أنحاء الوطن العربي. وقد كانت فرصة لي أن التقي بعدد كبير من الأصدقاء القوميين وفي مقدمتهم الدكتور سليم الحص ولقائي المهم مع الأستاذ محمد حسنين هيكل ولقاء جمعنا (زوجتي وأنا) مع ابنة القائد جمال عبد الناصر السيدة هدى. كذلك كانت لي لقاءات عديدة، منها مع الرئيس رشيد الصلح والأستاذ نجاح واكيم ومعن بشور وطلال سلمان، وآخرين كثر من كبار الشخصيات الوطنية اللبنانية.



الحكيم مع محمد حسنين هيكل وخلفهما طلال سلمان



الحكيم وزوجته مع محمد حسنين هيكل وهدى جمال عبد الناصر
خلال زيارته بيروت

على هامش الزيارة، أجريت لقاءات رسمية مع الدكتور سليم الحص رئيس الحكومة، والأستاذ نبيه بري رئيس البرلمان. وكان الموضوع المهم الذي بحثته معهم إضافة إلى دعم شعبنا الفلسطيني في الداخل، هو أوضاع شعبنا الفلسطيني في مخيمات لبنان.

وكان علي واجب لا بد من القيام به تمثل بزيارة علم من أعلام القومية العربية أستاذي قسطنطين زريق الذي زرته في منزله في بيروت وتبادلنا أحاديث ودّية.

وكانت لي زيارة مهمة قمت بها لمقر صحيفة السفير لما تمثله الصحيفة من خصوصية وطنية وقومية، وكصوت للمقاومة والأحرار لفترة طويلة من الزمن. وهناك التقيت مع المحررين بحضور الأستاذ طلال سلمان. وكان لقاءً مطولاً تم فيه طرح عدد كبير من الأسئلة المهمة والمتنوعة استمر لمدة ثلاث ساعات وقامت صحيفة السفير صباح اليوم التالي بتغطية اللقاء.

كذلك، حصل لقاء مع عدد من الشخصيات القومية والأصدقاء في منزل الصديق العزيز الأستاذ أنيس صايغ؛ ولقاء آخر كذلك في مكتب الأخ العزيز رفعت النمر. كما شاركت في لقاء دعا إليه الدكتور خير الدين حسيب لشخصيات من المؤتمر القومي العربي ولا يمكن أن أنسى عبارته التي قالها في بداية اللقاء «إن بيروت تحتفي اليوم بعبد الناصر وجورج حبش».

كذلك، أقام الأخ معن بشور حفل عشاء في فندق الماريوت باسم «المنتدى القومي العربي» وبحضور الأخ عبد اللطيف عربيات وهدى عبد الناصر والمدعوين على حفل تسلم جائزة الرئيس جمال عبد الناصر، وقيادات لبنانية وفلسطينية، وكنت مع زوجتي على رأس المدعوين.

قامت وسائل الإعلام اللبنانية بتغطية هذه الزيارة على مستوى واسع، وكانت فرصة لي لتوضيح موقفي عبر هذه اللقاءات الصحافية من الحوار

الذي سيعقد في القاهرة بين وفد من الجبهة وآخر من حركة فتح برئاسة ياسر عرفات.

وقد غادرت بيروت يوم 30 تموز/يوليو 1999 إلى دمشق. وبعد العودة إلى دمشق، دعونا إلى اجتماع من جديد للعمل القومي لعدد من القوى والشخصيات القومية العربية، كذلك عقدت اجتماعاً للهيئة المؤسسة لمركز الدراسات، الذي بدأت أعمل على تأسيسه جدياً.

كنت أتابع الشأن الحزبي الداخلي من خلال عقد لقاءات مع قيادات وكوادر الجبهة، كما كنتُ أتابعُ الشأن العام الفلسطيني من خلال اللقاءات مع شخصيات وطنية فلسطينية من داخل الوطن وخارجه، وكذلك مع القوى والفصائل الفلسطينية، وأصدقاء فلسطينيين وعرب، ومع وفود قومية عربية تزور سورية بين الحين والآخر، وكذلك الأردن. كما عقدتُ عدداً من اللقاءات مع السفراء العرب والأجانب في دمشق، وكان الهم الأكبر بالنسبة إلي هو موضوع المؤتمر الوطني السادس للجبهة. وقد كنت أشارك في اجتماعات المكتب السياسي واللجنة المركزية واللجنة التحضيرية للمؤتمر.

بالنسبة إلي، كان المؤتمر السادس يختلف عن كل المؤتمرات التي سبقته؛ ففي المؤتمرات السابقة كنت أعد أنا الوثائق كاملة، أما في المؤتمر السادس، فكنت أريد أن يكون الرفيق أبو علي مصطفى هو المسؤول عن كل شيء منذ التحضير للمؤتمر إلى حين انتهائه وتسلمه الأمانة العامة. وهذا ما كان. ولكن ذلك لم يمنع مشاركتي في كل الاجتماعات التي سبقت المؤتمر السادس والمساهمة الفعالة في النقاشات التي دارت أثناء انعقاد المؤتمر.

وفي نهاية عام 1999، وفي ذكرى الانطلاقة، كنت حريصاً على حضور المهرجان المركزي الذي أقيم في مخيم اليرموك، كما كنت حريصاً أكثر أن ألقي الكلمة المركزية للجبهة كآخر كلمة لي من موقع المسؤولية كأمين

عام للجبهة الشعبية، وحرصت أن تكون زوجتي إلى جانبي وتشاركني هذا الحفل تقديراً مني لدورها المساند لي أثناء مسيرتي النضالية.

تواصلت تحضيرات الجبهة لعقد المؤتمر السادس بدأب ونشاط، إلى أن عقد على ثلاث حلقات (الخارج في دمشق - والداخل في الضفة الغربية في رام الله - وفي قطاع غزة)، وذلك لحيثيات أمنية وبسبب ظروف الاحتلال. وهذه الميزة كانت من ميزات المؤتمر السادس، حيث كان يعقد المؤتمر سابقاً في الخارج مع إرسال الداخل رأيه مكتوباً، وعلى أرضية القرارات بنقل المركز القيادي للجبهة إلى داخل الوطن. كذلك كان من المقرر أن يُعقد المؤتمر على مرحلتين، ليتسنى للمؤتمرين الاطلاع على آراء بعضهم البعض. عقدت المرحلة الأولى في شهر نيسان/ أبريل 2000، وقد حضرت قسماً من أعمالها حيث ألقيت كلمة مهمة ومطولة في افتتاح أعمال المؤتمر تناولت الجوانب السياسية والتنظيمية كافة، وفيها طرحت موضوع التنحي وقدمت استقالتي من موقع الأمين العام للجبهة في كلمة تاريخية [2]، لأني أريد التفرغ لثلاثة موضوعات أساسية، كما سبق أن ذكرت: تأسيس مركز دراسات الغد العربي؛ وموضوع العمل القومي؛ وكتابة التجربة النضالية أو المسيرة النضالية لتبقى درساً للأجيال المقبلة.

بعد يومين من ورش العمل طلبت الإذن بالمغادرة، حيث كانت هناك ارتباطات عائلية ضاغطة في الأردن، ومن ثم قررت أن آخذ إجازة مع زوجتي. وفعلاً تم ترتيب ذلك مع الأخ سعيد كمال في القاهرة، حيث توجهت بزيارة خاصة إلى القاهرة. ولدى وصولي إلى المطار فوجئت بحفاوة الاستقبال. ورغم إصراري على الطابع الشخصي للزيارة كان

---

(2) الخطاب التاريخي للدكتور جورج حبش في المؤتمر الوطني السادس للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

الترتيب للاستقبال من خلال القصر الجمهوري حيث خصص لنا سيارة مراسم... إلخ.

هنا، لا بد من الإشارة إلى أن زيارة القاهرة كانت عبارة عن أول علاقة للجبهة بالنظام المصري، أي أول اتصال رسمي بين الطرفين. تحمل زيارة القاهرة لي ذكريات دافئة وجميلة وبخاصة مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وعدد من الأصدقاء. وفعلاً كانت فرحتي لا توصف. فها هي القاهرة التي يحسب لها العدو الصهيوني ألف حساب ولشعبها وحضارتها. وكم كنت أتمنى لو أن الوضع السياسي القائم الآن في مصر يختلف عما هو عليه، لتعود مصر كما كانت في عهد القائد عبد الناصر رافعة للنضال العربي وخندق المواجهة مع العدو الصهيوني.

وفي صباح اليوم التالي لوصولي إلى القاهرة، كان من الطبيعي أن يكون أول أمر نقوم به أنا وزوجتي هو زيارة ضريح القائد جمال عبد الناصر لتسجيل تقديرنا لهذا الزعيم التاريخي الفذّ. ومن ثم تجولنا ببعض أحياء القاهرة التي غادرتها منذ زمن طويل بسبب الظروف السياسية التي حصلت بعد اتفاقية كامب دايفيد.

رغم محاولتي أن تكون الزيارة خاصة جداً، فقد عقدت لقاءات رسمية وكان أبرزها لقاء مع الأخ عمرو موسى وزير الخارجية ولقاءان مع الدكتور أسامة الباز، مستشار الرئيس حسني مبارك. وقد طلبت مقابلة الرئيس، ولكن لم يتم ذلك. كما أقام الأخ الأمين العام المساعد للجامعة العربية، الأستاذ سعيد كمال، مأدبة غداء في النادي الدبلوماسي حضرها عدد من الشخصيات المصرية وقادة الأحزاب الوطنية والأصدقاء الأستاذ خالد محيي الدين وزوجته، إضافة إلى الابن العزيز خالد عبد الناصر والصديق الحكم دروزة وعدد آخر من الأصدقاء والمسؤولين.

وفي إطار زيارة الأصدقاء زرت الصديق العزيز أمين اسكندر في منزله، الذي أقام مأدبة غداء حضرها عدد من الشخصيات القومية المصرية وعلى

رأسهم الصديق العزيز حمدين صباحي، وجرى لقاء وحوار مطول مع الحضور.

كما وجه إلي الصديق العزيز، الكاتب الكبير الأخ محمد حسنين هيكل، دعوة غداء عائلية في مزرعته ليوم كامل. وفعلاً توجهت برفقة زوجتي إلى المزرعة حيث كان في استقبالنا الأستاذ هيكل مع السيدة قرينته. ولم يكن لدي أي رغبة في الحديث، كنت أريد فقط أن أستمع لهذا الأستاذ الكبير وتحليلاته ومعلوماته عما يجري في المنطقة. لقد قضينا فعلاً يوماً جميلاً ومفيداً ورائعاً.

خلال زيارتي للقاهرة، وبناء على إلحاح شديد، أجري حديث مهم مع صحيفة **الأهرام الدولي** التي خصصتها بحديث مطول وقد أبرزته الصحيفة باللغة الإنكليزية.

ومن القاهرة انتقلنا إلى تونس بدعوة من الأخ فاروق القدومي. ورغم الطابع الشخصي للزيارة إلا أنها كانت حافلة باللقاءات مع قيادات وكوادر حركة فتح ومنظمة التحرير الفلسطينية الموجودين في تونس. وكما كان الوضع في مصر من حيث الحفاوة الرسمية، كذلك كان الحالُ في تونس؛ إذ لأول مرة خلال الزيارات الكثيرة التي قمت بها لتونس، يتم تخصيص سيارة مراسم من القصر الجمهوري. كما تم ترتيب لقاء مع قيادة الحزب الدستوري الحاكم، وأقيمت دعوة عشاء على شرفي بحضور بعض الشخصيات من تونس، حيث تم اللقاء بحضور الأخ أبو اللطف والسفير الفلسطيني، وتحولت الزيارة من خاصة إلى زيارة مليئة بالمواعيد واللقاءات. ومن ثم غادرت تونس إلى عمّان، حيث بقيت هناك فترة من الوقت، ثم عدت إلى دمشق لأشارك في اجتماع اللجنة التحضيرية للمؤتمر والمكتب السياسي، حيث وضعنا ترتيبات الجولة الثانية من المؤتمر الذي عقد في شهر تموز/يوليو 2000. وتابعت مناقشة التوصيات المتبادلة للحلقات الأخرى بين بعضها البعض (الشتات، الضفة، غزة)؛ ومن ثم

أجريت العملية الانتخابية، حيث تم انتخاب الهيئات القيادية للجبهة وانتخب الرفيق الشهيد أبو علي مصطفى أميناً عاماً للجبهة، وقد ألقيت في ختام أعمال المؤتمر كلمة قصيرة.



الحكيم وزوجته هيلدا بعد سنة 2000

[22] أسبوع «الجنون» في فرنسا(*)

تحولت قضية الحكيم في فرنسا التي أطلق عليها «قضية حبش» من قضية علاج إلى قضية سياسية طغت على جميع الأحداث وشغلت وسائل الإعلام الفرنسي والعالمي لعدة أيام فأحدثت عاصفة هوجاء من ردود الفعل المتباينة وشغلت وسائل الإعلام المرئي والمسموع طوال إقامتنا في الفترة ما بين 29 كانون الثاني/يناير إلى 2 شباط/فبراير 1992.

توقفت جميع برامج التلفزيون والإذاعة لتبث أخبار وصول الحكيم وتصور لحظة الوصول إلى مطار بورجيه في باريس وتركز على الحكيم حين بدأ ينزل سلم الطائرة على قدميه. حتى برامج الأطفال تطرقت إلى قضية حبش والصور الكاريكاتورية تناولت الموضوع؛ وتعليقات الصحافة والصحافيين وجميع السياسيين على مختلف اتجاهاتهم السياسية أبدوا رأيهم إما عن طريق الندوات التي كانت تقام على شاشة التلفزيون أو عن طريق الصحافة اليومية أو الإذاعة والراديو.

(*) أعد هذا الفصل السيدة هيلدا حبش التي عاشت حادثة فرنسا بكل تفاصيلها، لذلك أوكل إليها الحكيم في حينها كتابة هذا الفصل عن هذه الحادثة بنفسها.

كان أسبوع الجنون في فرنسا، كما وصفه الرئيس الفرنسي آنذاك فرنسوا ميتران، هكذا أُطلق على الفترة الزمنية القصيرة التي قضيناها في باريس داخل أروقة مبنى مستشفى «هنري دونان» التابع للصليب الأحمر الفرنسي.

عاصفة هوجاء من ردود الفعل المتباينة ألمّت بالحكومة الفرنسية وأدت إلى استقالة أربعة وزراء، حتى إن الرئيس ميتران لم يُخف انفعاله ودهشته فقال لمستشاريه وبعض المسؤولين في أحد تصريحاته «كلكم مجانين لا تفهمون في السياسة».

كنت أستعد للسفر إلى تونس لألتقي بالحكيم كما تم الاتفاق معه أثناء زيارته عمان، بعدما أمضى معنا إجازة قصيرة ليرتاح من عناء العمل الروتيني المضني والمتواصل ومتابعة موضوع الانتفاضة في الأرض المحتلة على نحوٍ تفصيلي، إذ كان يعيش هموم شعبه داخل الأرض المحتلة وخارجها.

سافر إلى تونس لحضور اجتماعات المقاومة التي كانت تنعقد فيها بين جميع الفصائل وتستمر لساعات وأيام طويلة وسط جو مشحون بالتناقضات والخلافات في وجهات النظر والجدل البيزنطي الذي كان يدور بين جميع الفصائل برئاسة أبو عمار وجميع القادة المسؤولين الفلسطينيين.

جاءني اتصال من الحكيم قبل يوم من الحادث الذي تعرض له ليطمئنني عنه ويؤكد لي أنه بانتظاري في تونس بحسب الاتفاق الذي كان بيننا، أي بعد يومين فقط من الاتصال. وكان بمنتهى السعادة وبصحة جيدة جداً وعبّر عن اشتياقه وكان ينتظر وصولي إلى تونس بشغف بالغ.

في صباح اليوم التالي فوجئت باتصال هاتفي من مكتب الرئيس أبو عمار وكانت الأخت سهى على الخط، تخبرني بأن الحكيم قد تعرض لوعكة صحية أحدثت عنده ارتفاعاً عالياً في ضغط الدم فقد

في إثرها الوعي لمدة عشرين دقيقة وقالت لي إن أبو عمار يفكر بنقله إلى فرنسا للتأكد من تشخيص الأطباء في تونس، وطلبت مني أن أسافر من عمان مباشرة إلى باريس بتوصية من أبو عمار وهم يتولون ترتيبات السفر، لكن الحكيم رفض السفر إلى باريس قبل وصولي إلى تونس بحسب الاتفاق، وكذلك أنا قلت لها إذا كان وضعه الصحي يتحمل الانتظار فأنا أفضّل الحضور أولاً إلى تونس لأجتمع بالأطباء وأطلب تقريراً مفصلاً عن حالته الصحية. وبعدها أرافقه على الطائرة إلى باريس.

بدأ الشك يطغى على تفكيري، فربما استطاع بعض العملاء الوصول إليه، وهذا لم يكن مستبعداً في تونس، وبخاصة بعد اغتيال القائد أبو جهاد على يد الموساد. ومحاولات التجسس على مكاتب المقاومة ومحاولات إسرائيل اغتيال بعض القادة وعلى رأسهم الحكيم. ففي عام 1973 حين فشلت إسرائيل في النيل منه على الأرض اضطرت إلى خطف طائرة تابعة لشركة طيران الشرق الأوسط اللبنانية المدنية وكان بالفعل على موعد مع الإخوان العراقيين لتلبية دعوة رسمية، إلا أنه وصل إلى المطار وشعر بالجو الموبوء وأن الطيران الحربي الإسرائيلي يحلق في أجواء بيروت فلم يستقل الطائرة وعاد إلى البيت وقبل أقل من ساعة أعلنت إسرائيل عن خطف الطائرة لكنه لم يكن من بين الركاب، ونجا الحكيم يومها بأعجوبة وهذا يعود للإجراءات الأمنية التي كان الحكيم يتبعها ويتقيد بها.

كما نجا عام 1986 أيضاً من عملية خطف إسرائيلية لطائرة ليبية خاصة متجهة من طرابلس إلى دمشق يُفترض أن يستقلها الحكيم مع بعض القيادات الفلسطينية ومع نائب الرئيس السوري عبد الله الأحمر، حيث كانوا في زيارة لليبيا بناء على دعوة من الرئيس القذافي بمناسبة أعياد الفاتح. لكنه ألغى رحلته في اللحظات الأخيرة وهو في المطار بعدما طلب منه الرئيس القذافي أن يؤخر سفره لإجراء لقاءات

ومباحثات تتعلق بأمور مهمة للطرفين. وبالفعل تم خطف الطائرة وعليها عبد الله الأحمر وبعض المسؤولين، وأجبرتها إسرائيل على النزول في مطار عسكري في فلسطين المحتلة ثم أفرجت عنها وعن الركاب بعدما تأكدت أن الحكيم لم يكن من بينهم وفشلت العملية فشلاً ذريعاً ونجا الحكيم مرة أخرى بأعجوبة من الوقوع في فخ إسرائيل.

وصلت إلى تونس بتاريخ 29 كانون الثاني/يناير 1992، آتية من عمّان وانتقلت من المطار مباشرة إلى مستشفى التوفيق في العاصمة والتقيت الحكيم وكان التعب بادياً عليه. تأثر كثيراً حين رآني. ثم علمت في ما بعد أن الطائرة الخاصة الفرنسية التابعة للصليب الأحمر ستصل في غضون ساعتين. وعند الساعة السابعة مساءً كان الرئيس أبو عمار وبعض الإخوة المسؤولين في منظمة التحرير الفلسطينية في وداعنا على أرض المطار. قبل ذلك نجحت في ترتيب موعد مع الأطباء في تونس، وبخاصة البروفيسور بن حميدة الذي أشرف على علاجه وشرح لي عن الوضع الصحي للحكيم وسلمني تقريراً طبياً بناء على طلبي.

لقد أخبرني الرئيس أبو عمار في المطار أن الرئيس الفرنسي ميتران هو الذي سمح بإرسال الطائرة وأن الإليزيه على علم بذلك وتم ترتيب السفر مع السلطات المعنية على أعلى مستوى.

هبطت الطائرة في مطار بورجيه نحو الساعة التاسعة مساء، وحين فتح الباب صعد السيد إبراهيم الصوص إلى داخل الطائرة ليسلم على الحكيم ونزلنا معاً. وما إن وطأت قدماي أرض المطار حتى بدأت ألاحظ تسليط الأضواء علينا. التلفزيون الفرنسي، القناة الثانية TF2، كان حاضراً، وكان واضحاً أن عدداً كبيراً من رجال الصحافة والإعلام كما بدا لي من تسليط الأضواء علينا وسيارات رجال الأمن الفرنسي، كانوا جميعاً في انتظارنا وبعض أعضاء

السفارة الفلسطينية يتقدمهم السفير إبراهيم الصوص كما ذكرت. فوجئت بكل ذلك لأن الزيارة من المفروض أن تكون غير معلنة.

عند سلم الطائرة كانت تقف سيارة إسعاف فالتفت، إلي الأخ إبراهيم وقلت له: لماذا سيارة الإسعاف؟ ألم ترَ أن الحكيم بكامل وعيه وقد نزل سلم الطائرة على قدميه؟ لن يصعد في سيارة إسعاف بل دعه يطلع معك بسيارتك... هنا حاول الأخ إبراهيم إقناعي بأن هذه ترتيبات الفرنسيين وأنها قصة شكلية. قلت له: إذن يجلس في المقعد الأمامي، وركبت أنا مع الأخ إبراهيم، وانطلق الموكب بسرعة هائلة بحماية سيارات الأمن التي كانت تحيط بنا من كل جانب. وكانت المفاجأة ملاحقة الصحفيين للموكب على الدراجات النارية وهم يسلطون كاميراتهم على السيارة علهم ينجحون في التقاط بعض الصور للحكيم وهو في داخل سيارة الإسعاف.

هنا جن جنوني لهذا المشهد الذي استمر طوال الطريق حتى وصولنا إلى مبنى مستشفى الصليب الأحمر الفرنسي هنري دونان في مشهد يشبه تماماً الأفلام البوليسية. لم أصدق ما أشاهده وطلبت مراراً من الأخ إبراهيم بأن يضع حداً لتلك المهزلة عن طريق مخاطبة رجال الأمن، إلا أنه لم يفعل، وهو ما زاد من غضبي. واخترق الموكب شوارع باريس وسط الضجيج وأصوات الزمامير وأضواء سيارات الأمن وملاحقة الصحافيين والسرعة الجنونية التي تسير بها سيارات الأمن وشعرت وكأن الأرض تهتز تحت أقدامنا.

وفي اللحظة التي وصلنا بها إلى الباب الخارجي للمستشفى وقبل أن ينزل الحكيم فتحت باب السيارة ونزلت بغضب شديد لأمنع الصحافيين من التصوير وبدأت اشتبك معهم. هنا تدخل الأمن بقوة وحاول تهدئتي وبدأ بتفريقهم بالقوة وأثناء اشتباكي مع الصحافيين كانت سيارة الحكيم قد دخلت من الباب الرئيسي إلى داخل المستشفى من دون التقاط أية صورة له. وبعد ذلك وجدت نفسي

أركض حتى ألحق به، وإذ هو يبحث عني بنظراته ورحت أروي له كيف تغلبت بصعوبة على الصحافيين ووفرت عليه مضايقاتهم.

منذ اللحظة الأولى بدأت ألمس الجو المعادي وغير الطبيعي. إن ملاحقة الصحافيين للموكب لم تكن ودية بل كانت بقصد الإساءة للحكيم، وعرفت ذلك من الطريقة المتوحشة التي لاحقونا بها. كنا نحاول التخلص منهم عن طريق السرعة الجنونية التي انطلقنا بها. في تلك الليلة لم أذق طعم النوم رغم أني كنت مرهقة من السفر، إذ وصلت من عمان إلى تونس ومن ثم تابعنا السفر معاً إلى فرنسا في اليوم نفسه.

عند الفجر بدأت أسمع أصواتاً وهدير أناس خارج المستشفى، واكتشفت في ما بعد أن الصهاينة طوقوا المبنى وأخذوا يطلقون الهتافات المعادية للحكيم وللثورة. ومع بزوغ الفجر بدأت الحركة تقوى وقوات الأمن تزداد عدداً.

في صباح اليوم التالي بدأت الفحوصات الطبية الروتينية، ولم يكن الحكيم في غرفة العناية الفائقة. كما ذكرت وسائل الإعلام. لقد أعادوا الفحوصات الطبية من جديد ولم يكتفوا بالتقارير الطبية التي كانت بحوزتنا. في اليوم نفسه قبل الظهر، وقبل عملية الاحتجاز التي تمت في ما بعد، جاءني اتصال هاتفي وفوجئت بإذاعة مونت كارلو على الخط تقول: معك كمال طربيه من إذاعة مونت كارلو. هل لك أن تطمئنينا عن صحة الحكيم يا أم ميساء؟ يقال إنه نقل على وجه السرعة إلى فرنسا وفي حالة الخطر الشديد... وما كان مني إلا أن أطمئن الجميع وقلت له إن الحكيم بخير وصحة جيدة نسبياً، أطمئن جميع المحبين من خلالكم وبخاصة شعبنا داخل الأرض المحتلة. من هنا بدأت أدرك مدى انتشار الخبر والمبالغات في تصوير وضعه الصحي على أنه مصاب بنزيف دماغي.

هذا التصريح أثار غيظ الكثيرين وبخاصة الفرنسيين، إذ إنهم ومعهم من كانوا وراء تسريب الخبر يرغبون في تضخيم الموضوع حتى يبرروا أمام شعبهم أنهم كانوا مضطرين إلى استقباله لأسباب إنسانية.

وصلتنا المئات من المكالمات الهاتفية للاطمئنان على الحكيم معظمها من أصدقاء ومنظمات سياسية وحركات تحرر عربية وأجنبية. كنت أرد عليها بهدوء ومعنويات عالية، الرئيس ياسر عرفات كان على اتصال دائم معنا للاطمئنان عن صحة الحكيم وكذلك المسؤولون الجزائريون، وبخاصة الأستاذ الأخضر الإبراهيمي الذي كان على اتصال يومي كغيره من بعض المسؤولين الفلسطينيين والعرب. كانت قوات الأمن الفرنسية تدقق بهويات كل من يدخل المبنى ولم تسمح بزيارتنا.

وعند المساء طلب مني السفير إبراهيم الصوص أن أذهب للراحة وأنه من غير المعقول أن أبقى جالسة على كرسي طوال الليل. رفضت ذلك وقلت له لن أترك الحكيم ينام وحده، سأخرج لمدة ساعة فقط لأضع حقيبتي في أي مكان وأستريح قليلاً، ثم أعود إلى المستشفى. وبالفعل ذهبت بمرافقة رجال الأمن بسيارة دبلوماسية إلى الفندق الذي حُجز لنا فيه من قبل مكتب منظمة التحرير الفلسطينية لاستريح قليلاً من عناء السفر، وكانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء وفي العاشرة عدت لأجد مزيداً من قوات الأمن ترافقني من باب الفندق حتى باب المستشفى بسيارة الشرطة. وعند باب الدخول كان عدد كبير من رجال الأمن يدققون بالهويات ثم سمحوا لي بالدخول، وفي الوقت نفسه منعوا المرافق من الدخول فبقي طوال المدة خارج المستشفى. صعدت الدرج بمرافقة عناصر الأمن، وما أن وصلت إلى الطابق الأول وجدته يعج بقوات كبيرة من الأمن الخاص في مكافحة الإرهاب (DST). هنا بدأت أخاف على الحكيم، وبعد الاستفسار

علمت أن الأمن الفرنسي قام بمداهمة الغرفة وانتُزعت جوازات السفر وبعض الأوراق الخاصة، ركضت مسرعة لأطمئن على زوجي فوجدته متجهم الوجه واقفاً بتشنج، وبعد أن شرح لي الموقف وما حدث بغيابي وكان يشتمهم بأشد الألفاظ قلت له: استرح حتى لا تصاب بنكسة صحية وتكون قد خدمتهم بذلك واترك باقي الموضوع علي. وكانت في تلك اللحظة تقف ممرضة في الغرفة وبدا عليها الانزعاج وقالت لي: سأشهد يوماً أمام المحكمة بأن المريض أصيب بارتفاع مفاجئ في ضغط الدم كاد يودي بحياته نتيجة الأسلوب الوحشي الذي اتبعوه معه.

بعد ذلك خرجت من الغرفة إلى الممر وأنا في حالة غليان وبدأت أصرخ في وجههم وبصوت عال وبالفرنسية أهذه هي الحضارة الفرنسية التي تتغنون بها؟ أهذه هي حقوق الإنسان عندكم؟ بأي حق تقتحمون غرفة مريض وتنتهكون حرمة مستشفى تابع للصليب الأحمر الفرنسي، هذا تصرف مشين، نحن كمناضلين مستعدون دائماً لأسوأ الاحتمالات، ولكن هذه التصرفات تسيء لكم بالدرجة الأولى. ثم تابعت: أنتم تتحملون المسؤولية إذا حصل لزوجي أية انتكاسة صحية نتيجة تصرفاتكم غير المسؤولة، أنتم الآن في نظري أعداء وسأتعامل معكم على هذا الأساس. وسأعتبر نفسي في تل أبيب وليس في باريس، إذا أنتم صهاينة وأنا فدائية ومعنى ذلك أن حياتي في مثل هذه اللحظة لا تساوي لي شيئاً، سأدافع عن كرامة الحكيم وكرامة شعبنا، تقولون عنا إننا إرهابيون فليكن إذن، أنا إرهابية وإرهابية شرسة، وهنا تقدم مني رجل أمن واضح أنه المسؤول الأول عن المجموعة، وعرض علي مذكرة الاحتجاز التي أصدرها القضاء الفرنسي وكان يتسلح بها ليبرر اعتقال الحكيم. فصرخت في وجهه وقلت له: هذه المذكرة لا تعنيني بشيء بل تعنيك وحدك... إن زوجي الدكتور جورج حبش مناضل من أجل الحرية والاستقلال ومثل هذه المذكرات يجب

أن تصدر بحق شامير وشارون ورابين هم المجرمون الحقيقيون. لقد اغتصبوا أرضنا وشردوا شعبنا وأجبرونا على حمل السلاح من أجل استعادة حقوقنا الوطنية وكرامة شعبنا الفلسطيني وتحرير أرضنا من براثن المحتل الصهيوني الغاصب. ثم طلبت الاتصال بوزير الداخلية لأعرب له عن غضبي ورفضي لهذه التصرفات غير اللائقة لزعيم وقائد سياسي للشعب الفلسطيني، لكنه قال لي: أنا مرسل من قبله ولا فائدة من الاتصال، حاولت الاتصال بالسيد إبراهيم الصوص فوجدت الخط مقطوعاً، فقلت لهم: هل لديكم مذكرة توقيف بحقي؟ قالوا: لا، قلت لهم: إذن، من حقي الاتصال بمن أريد وأن أبقى على صلة مع العالم الخارجي، بعد ذلك سمحوا لي بالاتصال وطلبت الأخ إبراهيم وشرحت له كل ما يجري في أروقة المستشفى وطلبت حضوره فوراً كما طلبت إذاعة مونت كارلو وأخبرتهم بالحادث.

بعد ذلك أحاطني رجال الأمن من كل جانب وكأني متحزمة بالمتفجرات، ثم ظهر أمامي رجلان قالا إنهما أطباء مكلفون من قبل القضاء بالكشف عن زوجي، رفضت الحديث معهم قبل أن يصل ممثلنا، وانتظروا حتى وصل إبراهيم الصوص وهنا قلت لهم: لن أسمح لكم بدخول الغرفة والكشف عن زوجي. ونحن لسنا بحاجة إلى أطباء من خارج المستشفى وعندما نحتاج نطلب من البروفيسور بودرياس Budrias، لنا الحق في الاختيار. ثم حاولوا إقناعي بأن مهتهم طبية، فقلت لهم: أنتم مكلفون من قبل القضاء ومهمتكم أصبحت مرتبطة بموضوع سياسي كبير لذلك اعتذر، ثم بذلوا المستحيل لإقناعي ولكن من دون جدوى.

كان رجال الأمن المدججين بالسلاح يطوقون باب الغرفة على نحوٍ استفزازي، أكثر من عشرين عنصراً وقفوا أمام الباب، فكنت أشعر بضيق في كل مرة أدخل الغرفة وأخرج منها. نظرات الحقد كانت في عيونهم بدأت أصرخ في وجههم وأمرتهم بالابتعاد عن باب الغرفة كي

أتمكن من التحرك بحرية. وسحبت كرسياً بعصبية ووضعته أمام الباب وقلت لهم لن تمروا من هنا للتحقيق مع زوجي إلا فوق جثتي! إنكم تشكلون خطراً على حياته وسأحميه منكم. هنا قاطعني واحد منهم وقال: لم يسبق أن قتلنا فلسطينيين فلا تجبرينا على ذلك. أنتم قتلة وبدأ يعدد لي كل العمليات التي حصلت في فرنسا والتي ذهب ضحيتها العديد من الفرنسيين. لقد ربطوا بيننا وبين جميع العمليات الإرهابية التي حصلت في فرنسا. لقد تعمدوا تشويه صورة الحكيم أمام الرأي العام العالمي من خلال العرض المتواصل والمتكرر لحادثة تفجير الطائرات في الأردن في عام 1970 وإظهاره بأبشع صور الإرهاب أمام العالم.

لقد أخلوا الطابق كله من المرضى وتم احتلال الغرف من قبل عناصر الأمن حتى يتمكنوا من تطويقنا تماماً، هذا عدا عن محيط المستشفى وكل المباني والأسطح المطلة عليه، مئات من رجال الأمن تتدفق في كل ساعة. حتى إن محافظ باريس علق على ذلك وقال لم يتركوا لي عنصراً واحداً من الأمن كي أستطيع أن أحركه لو حصلت جريمة في باريس أو أي حادث آخر.

بدأت أفكر بالملف الطبي وصممت على خطفه من الإدارة حتى لا يقع في أيدي الأعداء. وطلبت من الطبيب المسؤول بأن يكون على حذر وحملته مسؤولية كطبيب في ما يتعلق بالأدوية والطعام الذي يعطى لزوجي خوفاً من أي اختراق أمني. في تلك الليلة لم أنم مطلقاً، بدأت بالاتصالات وطلبت الرئيس أبو عمار وشرحت له كل ما حصل بالتفصيل وتمنيت عليه أن يقطع العلاقات مع فرنسا وأن يسحب السفير ويقوم بضجة لا مثيل لها. بدأ يهدئ من روعي ووعدني بأنه سيبذل كل جهد للإفراج عن الحكيم جورج. واعتبر القضية قضيته شخصياً. كما اتصلت بالإخوة الجزائريين عن طريق الأخ والصديق الوفي الأخضر الإبراهيمي، وأبدى اهتماماً كبيراً. وكان الأخضر

الإبراهيمي قلقاً جداً على صحة الحكيم، إنه صديق شخصي له. لقد قال لي على الهاتف: أنا فخور بك يا أم ميساء، الشعب الجزائري كله فخور بك، لا تقلقي سنجري اتصالاتنا على أعلى مستوى، وهنا طلبت منه نقل الحكيم بأسرع وقت وضمان سلامته بالأجواء.

أذكر بأن الحكيم دخل فرنسا بجواز سفر دبلوماسي جزائري من هنا اعتبر الإخوة الجزائريون أنهم يدافعون عن الحكيم ليس كقائد فلسطيني فقط بل كمواطن جزائري أيضاً له كل الاعتبار. كنت على اتصال دائم بالإخوة في الأرض المحتلة لأطمئنهم، لأن جماهيرنا في داخل الوطن المحتل كانت مستنفرة وقلقة على مصيره، لقد عبروا عن ذلك بالاعتصام أمام السفارة الفرنسية وبتقديم مذكرة احتجاج إلى الهيئات الدولية وعملوا كل ما في وسعهم للضغط على الحكومة الفرنسية، وبخاصة بعدما علموا أن إسرائيل كانت على الخط وكانت تطالب الحكومة الفرنسية بتسليمه، وأن أعضاء الكنيست المتطرفين حرقوا صوره داخل الكنيست وطالبوا بمحاكمته، وهو ما زاد الأمور تعقيداً. أثناء ذلك تلقيت اتصالاً هاتفياً من راديو فرنسا الدولي وسألوني عن وضع الحكيم الصحي وكيف تم ترتيب السفر. هنا أكدّت لهم وبصوتي أننا لم نأت تهريباً بل أتينا بناء على ترتيب مسبق بين مكتب الرئيس أبو عمار وبين الجهات الرسمية في فرنسا على أعلى مستوى وأن الأليزيه كان على علم، وقلت لهم كيف يمكن لطائرة خاصة دخول الأجواء الفرنسية من دون علم السلطات فالطائرة لم تكن عصفوراً بالجو، وأن الضجة المفتعلة التي أحدثتها أجهزة الدولة لا مبرر لها بل تسيء لهيبة فرنسا أكثر ما تسيء لنا. وأشرت إلى التغلغل الصهيوني داخل فرنسا وأكدت لهم أن الحكيم لم يصب بنزيف دماغي بدليل أنه نزل سلم الطائرة على قدميه وشرحت لهم كيف أن عناصر الـ DST طوقت المبنى وأخلت الطابق من المرضى واحتلت الغرف وكيف تحول المستشفى إلى ثكنة عسكرية.

لا يفوتني هنا أن أذكر أن الأمن الفرنسي همس في أذني بأن تسريب الخبر جاء من تونس وأن الموضوع خرج عن نطاق سيطرتهم. في صباح اليوم التالي، في الساعة السابعة والربع صباحاً، فوجئت بطبيبين آخرين على الباب يطلبون مني الدخول للكشف عن زوجي بأمر من القاضي بريميير. في تلك اللحظة بدا عليّ الانفعال وقلت لهم: بأي حق تطرقون غرفة مريض في مثل هذه الساعة المبكرة؟ وطلبت منهم الابتعاد من باب الغرفة وعدم إزعاج المريض.

تكررت المحاولات من قبل القضاء وبدأت أشعر بأن الضغط يتزايد علينا. هنا صممت على أني سأرد لهم الإهانة وسأحافظ على كرامة الحكيم وعلى كرامة الجبهة الشعبية، وقلت لن أمكنهم من النيل منا سألقنهم درساً ليعرفوا أن المرأة الفلسطينية تدافع بشراسة عن هيبة شعبها وكرامته.

ثم بدأ يصلنا سيل من البرقيات ورسائل التأييد معظمها كان من مواطنين فرنسيين تعاطفوا معنا وشعروا بالخجل لتصرفات حكومتهم. ومنهم من شكر الحكيم لأنه اختار فرنسا للعلاج، وعند الظهر كان الحدث الكبير عندما أعلن الحكيم الاضراب عن الطعام احتجاجاً واستنكاراً لسوء المعاملة. وأعلنت التضامن معه... وعندما انتشر الخبر ضج المستشفى وبدأ الأطباء يشعرون بالخوف عليه كمريض.

بدأت الاتصالات المكثفة بين الأطباء والمسؤولين محملين إياهم مسؤولية أي تدهور يطرأ على صحته، وتعاطف معنا جميع الأطباء والممرضات.

بعد ظهر اليوم نفسه علمت بأن القاضي بريميير وصل إلى المستشفى وصوره التلفزيون الفرنسي وهو يدخل ليحقق مع الحكيم بنفسه حتى يأخذ القانون مجراه «بحسب رأيهم».

وبدأت المحاولات من جديد وبدأت الهمة تتجدد بالرفض القاطع لدخول أي من المسؤولين غرفة زوجي، مصرة على أنه لم يرتكب

جرائم بحق أحد وأنه مناضل في سبيل الحرية والاستقلال لشعبه ووطنه، وبدأ الضغط علي يزداد وبدأت أجد صعوبة في كل مرة يرسلون أطباء جدداً أو خبراء أمنيين لإقناعي وتليين موقفي. بقي القاضي في المستشفى في الطابق الثاني يتفاوض مع الأخ إبراهيم، وكان ينقل لي بالتفصيل كل ما يتحدث به القاضي ويطالبه بالضغط علي كي يتسنى له التحقيق مع الحكيم. نعتوني بالنمرة كما عبر مسؤول الأمن للأخ إبراهيم قائلاً: «Mme Habash est une tigresse» (السيدة حبش تقف في وجهنا بصلابة كالنمرة»، قلت له أنقل على لساني، «نعم بل نمرة شرسة» «We, mais je suis tigresse aggressive».

بعد ذلك طلبت مقابلة المسؤول الأمني الكبير من جديد، وقلت له بلهجة فيها نوع من التهديد: هل تريد أن نتحدث كأصدقاء؟ هنا اندهش ولم يصدق ما يسمع وقال نعم نعم، قلت له: أنا أنصحكم بالإفراج عن زوجي وهذه مصلحة مشتركة، إنه كما ترى بنفسك مدى الضجة الكبيرة التي أحدثها احتجازه في فرنسا وخارج فرنسا في العالم العربي وفي كل مكان. إنه رمزٌ تاريخي للشعب الفلسطيني وأنت تعرف تماماً كم لكم مصالح في الوطن العربي وأن سفاركم ومواطنيكم منتشرين في كل بلد عربي وأن سفاراتكم باتت مهددة بالخطر إذا استمر احتجاز الحكيم أكثر من ذلك، وأنا لم أعد أضمن لك سلامة مواطنيكم في بلادنا... أخذ يفكر وقال بالحال: «نعم نعم، معك حق سأنقل ذلك إلى الجهات المعنية» («oui vous avez raison»).

وفي هذه أثناء زارنا الطبيب بودرياس وبدأ عليه الارتياح. بالمناسبة، لقد كان موقفه رائعاً من الأزمة وتألم كما تألمنا وانفرجت أساريره عندما علم بقرار الإفراج عنّا.

لقد مكث القاضي بريميير لمدة خمس ساعات متواصلة في المستشفى وبقي على اتصال بالسيد إبراهيم الذي بقي هو أيضاً معنا في تلك الليلة العاصفة حتى صباح اليوم التالي. أي لغاية الساعة الثانية من صباح يوم 1 شباط/فبراير 1992، تاريخ صدور قرار الإفراج الذي اضطروا إلى اتخاذه رغم أنهم لم يتمكنوا من استجواب الحكيم كما جاء في البيان الرسمي بأنه تم الكشف عنه من قبل أربعة من الاختصاصيين ووجدوا أن وضعه الصحي لم يمكنهم من التحقيق معه، وهذا غير صحيح والأخ إبراهيم شاهد على ذلك، وعندما جاء مسؤول من قبل القضاء ليبلغني قرار الإفراج وسلّم علي بحرارة قال لي: أنا الصهيوني فلان ـ لم أعد أتذكر اسمه ـ رداً علي لأني شتمتهم ونعتهم بالصهاينة واعتبروا ذلك أكبر إهانة توجه لهم. لقد تم الإفراج عنكم وبإمكانكم المغادرة، أنتم الآن أحرار وأتمنى لكم رحلة سعيدة «Je suis le zionist … vous ete libre maintenant Je vous souete une bonue voiyage».

ثم شكرته وقلت له من باب الممازحة يعني الآن أصبح في إمكاني أن أحضر إلى باريس في زيارة خاصة؟ انتفض وقال: أنت؟ قلت له: نعم أنا، فقال: أنت أخطر منه. «Vous vous ete plus dangereuse que lui»

في صباح الأول من شباط/فبراير 1992 بدأت الاستعدادات للسفر، وبدأنا ننتظر الطائرة الخاصة لحظة بلحظة. زارنا بعض الأصدقاء سريعاً وهنؤونا بالسلامة. ثم ذهبت لأطلب من مسؤول الأمن الخروج إلى الشانزليزيه لأشتري لابنتي بعض الهدايا الرمزية... تردد كثيراً قبل أن يسمح لي بالخروج شرط أن يرافقني رجال الأمن. وما أن دخلت أول محل تجاري حتى بدأت أجهزة الأنذار تدوي داخل المحل وبدأت تصدر الأوامر بالعودة فوراً ولم أتمكن من التجول في الأسواق، ثم طلبت منهم أن أذهب إلى الفندق لأجمع ملابسي فلم يسمحوا لي،

وبالفعل وصلتني حقيبتي عن طريق سائق المنظمة في اللحظة الأخيرة.

يوم السفر ومغادرة المستشفى كان يوماً تاريخياً لن أنساه ما حييت، ولن أنسى كيف أن باريس كلها اهتزت ساعة انطلاق الموكب وأن الإجراءات الأمنية التي اتخذت في ذلك اليوم لم تحصل من قبل ولم تشهد العاصمة الفرنسية زائراً يدخل البلاد ويخرج منها محدثاً زلزالاً مدوياً وعاصفة ما زالت آثارها لغاية اليوم، كانت الخطة الأمنية التي اتبعتها السلطات الفرنسية للتمويه ثلاثة مواكب تحركوا في أوقات مختلفة كل موكب باتجاه يختلف عن الآخر، أول موكب اتجه إلى مطار بورجيه ولحق به عدد كبير من الصحافيين على اعتبار أن الحكيم داخل إحدى السيارات. الموكب الثاني اتجه نحو مطار شارل ديغول. ولحق به عدد آخر من الصحافيين والمراسلين. أما الموكب الثالث والأخير فكنا نحن فيه بالفعل، وكان يتألف من عدد كبير جداً من سيارات الأمن والسيارات الخاصة، وبعضها كان مصفحاً، محاطاً باحتياطات أمنية لم تشهد لها باريس مثيلاً من قبل ولم يسبق أن استقبلت فرنسا مسؤولاً من ضمن آلاف الضيوف الكبار وقامت الدنيا ولم تقعد مثل ما حصل مع الحكيم، حين وصلنا مطار أورلي كان يضج بقوات الأمن الخاصة بمكافحة الإرهاب وعدد كبير من الجنود المسلحين كانوا يعتلون أسطح المطار في كل الاتجاهات وتحول المطار إلى ساحة حرب.

أما الآن وبعد كل ما حصل لنا، أسأل المسؤولين الفرنسيين وعلى رأسهم رئيس الجمهورية السيد ميتران في ذلك الوقت وجميع المسؤولين الأمنيين الخبراء في مكافحة الإرهاب وعلى رأسهم القاضي بريميير، كيف يتم احتجاز الحكيم للتحقيق معه بتهمة إخفاء أسلحة في ضواحي باريس وكيف يطلق سراحه بهذه السرعة. كيف يسمح له بالدخول معززاً مكرماً وكيف يحدث ما حدث. أطالب

الحكومة الفرنسية بالاعتذار العلني أمام العالم لاحتجازهم مناضلاً فلسطينياً وقائداً يعدُ رمزاً من رموز النضال الوطني الفلسطيني بتهمة الإرهاب وإحالته إلى القضاء. وصلتنا معلومات أكيدة من مصادر صديقة موثوق فيها تفيد أن الموساد كانوا يخططون لاغتياله. وهذا ما يفسر السرعة في اتخاذ قرار الإفراج عن الحكيم. الإشارة إلى التناقض في تصاريح الرئيس ميتران وكيف قال لمستشاريه كلكم مجانين ولا تفهمون سياسة وأنا هنا بدوري أؤكد بأن السيد ميتران كان على علم بالزيارة وأن الموافقة على دخولنا الأراضي الفرنسية جاءت من قصر الأليزيه. وأن الحكيم لم يكن أول مسؤول فلسطيني يزور فرنسا للعلاج، فقد استقبلت فرنسا العديد من القيادات وبخاصة من منظمة التحرير. كنا نعتبر فرنسا حليفاً استراتيجياً للشعب الفلسطيني. وأن الحكيم أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان له دور مؤثر في تأسيس منظمة التحرير الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني. التفسير الوحيد هو ضغط اللوبي الصهيوني الذي يتغلغل في فرنسا على أعلى المستويات، حيث شهدنا في اليوم الأول لوصوله جحافل الصهاينة الذين طوقوا المستشفى يطالبون بتسليمه إلى إسرائيل وهذا ما طالبت به إسرائيل رسمياً من الحكومة الفرنسية.

والآن وبعد كل ما حصل أسأل الجبهة الشعبية لمصلحة من طوي ملف القضية. لماذا أوقفتم الدعوى القضائية التي تقدم بها الحكيم إلى السفارة الفرنسية في دمشق لمقاضاة الجهات الفرنسية المسؤولة عما حصل. هل بسبب الأزمة المالية أم لسبب آخر؟ أذكر أن أصدقاء الحكيم كثر ولا أحد منهم يتردد أمام تمويل القضية. أتذكر تماماً عندما استدعى الحكيم الأستاذ جوزيف مغيزل، المحامي اللبناني المعروف رحمه الله، إلى دمشق واستقبله في بيتنا، وأبدى مغيزل كل الاستعداد للتعاون، وتم رفع الدعوى على الحكومة الفرنسية وتم تسليمها إلى السفارة الفرنسية في دمشق. لكننا فوجئنا في ما بعد بإسقاط الدعوى

فكان هذا موقف الجبهة والمنظمة وأبو عمار، فمنهم من غلبّ موضوع مصالحهم وتحالفهم مع فرنسا واعتبروها بلد صديق. وكان لهذا القرار بالغ الأثر على معنويات الحكيم وعلي أيضاً. كان الهدف من رفع الدعوى هو رد الاعتبار للحكيم وللجبهة الشعبية وللشعب الفلسطيني ومطالبة فرنسا بالاعتذار لما أقدمت عليه من عمل مشين بحق زعيم تاريخي للشعب الفلسطيني. حتى إنني طالبت قيادة الجبهة بتشكيل لجنة تحقيق لتضع القيادة في تونس أمام مسؤولياتها، وبخاصة أن الأمن الفرنسي أكد لي أن تسريب الخبر جاء من تونس. لهذا السبب خرج الموضوع عن سيطرتهم وهذا أيضاً كان رأي الحكيم. أما أحد الذين كان لهم دور في تسريب الخبر للتلفزيون الفرنسي القناة الثانية ونحن ما زلنا في الأجواء، المستشار الإعلامي للرئيس أبو عمار بسام أبو شريف. تلك القناة الفضائية الفرنسية كانت بانتظارنا في مطار بورجيه ومراسلوها تعمدوا تسليط الأضواء علينا. وكذلك صحيفة الحياة اللندنية التي نشرت الخبر بشكل مقتضب؛ هذا عدا عن عملاء إسرائيل الذين كانوا يتغلغلون في مكاتب منظمة التحرير فحدّث ولا حرج.

التغطية الإعلامية لإذاعة مونت كارلو كانت أول بأول، وكانت الإذاعة على اتصال مباشر بنا، هذا الموقف الداعم لقضيتنا أدى إلى إقالة المدير العام للإذاعة السيد راشد الفايد. لن ننسى المساندة المعنوية لإذاعة مونت كارلو.

البيان الذي قرأته بالفرنسية لوكالة الأنباء الفرنسية كان له صدى كبير. البرقية التي أرسلتها إلى السيدة جورجينا دوفوا(*) تقديراً مني لموقفها الإنساني النبيل والمؤيد لقضيتنا العادلة وهي من ضمن الذين وافقوا على زيارتنا. والرسالة التي وجهتها لنا رداً على رسالتي لها.

(*) جورجينا دوفوا (مستشارة الرئيس ميتران ووزيرة الصحة).

الطبيب الخاص الذي رافقنا طوال الرحلة، الذي كان يحمل الجنسية الفرنسية وهو لبناني الأصل، ترك المستشفى ليلة الحادث أي تخلى عن دوره كطبيب وتركنا وحدنا في ساحة المعركة. ثم ظهر عند الإفراج عنا.

تم تزوير التقرير الطبي بإمضاء البروفيسور المنجي بن حميدة، لم تكن هناك جلطات أو نزيف دماغي كما ذكرت وسائل الإعلام، وأكبر دليل على ذلك أن زوجي قد نزل سلم الطائرة على قدميه. حصلت مبالغة متعمدة في وصف وضعه الصحي على أنه خطير جداً.

ختاماً ما زلت أذكر للرئيس أبو عمار موقفه الإنساني الذي كان يتميز به دائماً، عندما قام بالاتصال شخصياً بابنتينا ميساء ولمى في عمان لطمأنتهما عن والدهما وعن سير الأمور معبراً عن محبته العميقة للحكيم واهتمامه بوضعه الصحي ومتابعته للقضية عن كثب.

الخاتمة

إلى هنا وصل الحكيم في كتابة مذكراته، إلى اللحظة التي قدم فيها استقالته من الجبهة عام 2000. كان له مطلب وحيد عبّر فيه عن رغبته في زيارة القاهرة التي كان الحنين يملأ قلبه لزيارتها بعد ثلاثين عاماً من الغياب، وهي البلد الغالي على قلبه وله فيها ذكريات جميلة لمرحلة مشرقة من تاريخ حركة القوميين العرب التي كانت تربطها علاقات تاريخية وثيقة بنظام الرئيس عبد الناصر. وقد كتب بنفسه عن تلك الزيارة التاريخية التي ابتدأها بزيارة ضريح الرئيس جمال عبد الناصر وكنت أرافقه في تلك الرحلة. وبعدما وضع إكليلاً من الورود سجل كلمة مؤثرة عبّر فيها عن عميق محبته وتقديره واحترامه لهذا الإنسان الكبير ولمواقفه المبدئية من القضايا العربية المصيرية وعلى رأسها القضية الفلسطينية، وما تركه من إرث نضالي معنوي كبير تقتدي به الأجيال وسيبقى صفحة مجد ونقطة ضوء في تاريخ مصر والأمة العربية.

وأنا اليوم، وبعد قراءة هذه المذكرات ومراجعتها من جديد، أشعر أن من واجبي أن أنهي هذه الصفحات القيّمة بالتحدث، ولو بإيجاز، عن مرحلة ما بعد الاستقالة. ففي هذه المرحلة كان اهتمام الحكيم منصبّاً على ثلاثة مواضيع أساسية؛ أولها كتابة التجربة النضالية بكل مفاصلها ومحطاتها التاريخية لتبقى إرثاً للأجيال المقبلة، وثانيها التركيز على موضوع العمل

القومي وتجميع قوى اليسار في الوطن العربي لبناء جبهة قومية موحدة لمتابعة القضايا العربية والقومية المصيرية والإشراف المباشر لتوجيه مسارها بالاتجاه القومي السليم، أما ثالثها فهو تأسيس مركز الغد العربي للدراسات الاستراتيجية الذي يُعنى في قضايا الصراع العربي - الإسرائيلي.

بعد الانتهاء من المؤتمر الوطني السادس للجبهة الذي قدم فيه الدكتور جورج استقالته المدويّة التي أثارت جدلاً واسعاً في أوساط جماهيرنا، إذ لم يسبق أن قدّم أي مسؤول فلسطيني استقالته وهو في أوج عطائه وفي قمة مكانته السياسية والنضالية المرموقة، وبعد التحرر من أعباء المسؤوليات اليومية الشاقة، بدأ يفكر بالتفرغ لإدارة مركز الدراسات والإشراف اليومي عليه واستقطاب المفكرين والشباب القومي العربي.

وكان السؤال الذي طغى على تفكيره وكان يؤرقه ليلاً نهاراً هو: لماذا فشلنا أمام المشروع الصهيوني الاستعماري الاستيطاني؟ رغم كل ما بذلناه من جهود جبارة طوال هذه السنوات من النضال الدؤوب، ورغم الإمكانيات المادية والكفاءات العلمية والتضحيات الجسام التي بذلها شعبنا على مدى سبعين عاماً من الصراع مع العدو الصهيوني وعشرات الآلاف من الشهداء الذين قضوا دفاعاً عن حقوقنا الوطنية في فلسطين التاريخية، وآلاف الأسرى والمعتقلين في سجون العدو. لماذا فشلنا ولم نحقق أهدافنا الوطنية ومشروعنا القومي العربي التحرري في مواجهة المشروع الصهيوني؟

لذلك أقدم الحكيم في عام 2003 على تأسيس مركز الغد العربي للدراسات الاستراتيجية الذي يُعنى بقضايا الصراع العربي - الصهيوني، ووجّه الدعوة إلى عدد كبير من المفكرين والكُتاب وبعض الزعماء السياسيين والكثير من الضيوف العرب وعدد كبير من الأصدقاء. عُقد المؤتمر لمدة يومين في دمشق بتسهيلات من الحكومة السورية تقديراً منها للحكيم ولمسيرته النضالية ومكانته على الساحتين الفلسطينية والعربية،

وأسفر عن تأسيس مجلس أمناء للمركز ضم أكثر من خمسين عضواً أغلبيتهم من أصحاب الكفاءات الفكرية العالية من مختلف الأقطار العربية. وكنت أنا وابنتنا لمى من بين أعضاء مجلس الأمناء، وكان هذا تكريماً لنا من الحكيم وتقديراً لدورنا النضالي إلى جانبه، وكذلك ابنتنا ميساء. لقد قمنا بواجبنا تجاه شعبنا وقضيتنا الفلسطينية بأفضل ما استطعنا ووقع على كاهلنا الكثير من المسؤوليات والأعباء النضالية والأمنية دفاعاً عن الحكيم وعن الثورة الفلسطينية. ستبقى رحلة الكفاح هذه التي عشناها إلى جانبه عن كثب، وسيبقى تكريمه لنا، مصدر فخر واعتزاز مدى الحياة.

صدر في ما بعد عدد من الكتب والدراسات المهمة باسم مركز الغد العربي لأهم المفكرين والكتاب المعروفين، لكن المركز عانى نقصاً في الموارد والإمكانيات المالية، نظراً إلى اعتماده على بعض الاشتراكات والتبرعات من الأصدقاء والأعضاء التي لم تكن كافية، فركيزته الفكرية كانت راسخة لكن ركيزته المالية كانت بحاجة إلى الدعم والمساندة. كان الحكيم يطمح دائماً إلى إيجاد الوقت والإمكانيات ليتفرغ لتأسيس مثل هذا المركز، وقد كرّس له جل وقته بعد الاستقالة بكل شغف، حيث عقد عدة ندوات ومحاضرات فكرية وأشرف بنفسه على جميع الإصدارات التي كتب المقدمة لعدد منها. كان أول هذه الإصدارات كتاب **إسرائيل من الداخل** تقديم الدكتور جورج حبش وتحرير الأستاذ عماد جاد، الذي صدر بعده عشرات الكتب عن النفوذ الصهيوني والاقتصاد الإسرائيلي وقضايا اللاجئين الفلسطينيين والقضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي بوجه عام.

وكان أصعب أمرٍ واجهته بعد وفاته هو قرار الجبهة الشعبية إغلاق المركز من دون الرجوع إلى مجلس الأمناء لأخذ القرار المناسب رغم أنه أوصى الرفاق قبل وفاته بالمحافظة على المركز ودعمه مادياً ليستمر كما أراده هو أن يكون. أعتقد أن ذلك كان واجباً على رفاقه من باب الوفاء له وتخليداً لاسمه وتاريخه النضالي.

أما الإنجاز الثاني الذي تحقق للحكيم بعد الاستقالة فكان صدور كتاب **الثوريون لا يموتون أبداً** الذي استغرق العمل فيه مدة عام ونصف العام والذي تطلب أكثر من مئة ساعة من الحوار المباشر مع الترجمة الفورية مع الصحافي الفرنسي المختص بشؤون الشرق الأوسط جورج مالبرونو من صحيفة **لو فيغارو**. أخذ الحوار طابع سيرة ذاتية طويلة وشائكة وكنت حاضرة ومشاركة في جميع اللقاءات والحوارات القيّمة، واعتبر الحكيم أن هذه التجربة مشتركة وأراد أن يؤكد أنه لم يكن لوحده، بل كنا معاً في مسيرة الكفاح الشاقة ومشينا معاً درب الآلام.

صدر الكتاب باللغة الفرنسية عن دار النشر فايار قبل أسبوع من وفاته، وحملت له نسخة ليتصفحها وهو في غرفة العناية المكثفة في المستشفى، فبدت على وجهه علامات الرضى وابتسم قائلاً: «اقرأيه بدقة يا هيلدا وسجلي ملاحظاتك» وأوصاني بترجمته إلى اللغة العربية وكان ذلك قبل ثمانٍ وأربعين ساعة من وفاته؛ فكان له ما أراد حسبما أوصاني، وبعدما وقعنا العقد مع دار الساقي للنشر قمت أنا وابنتي لمى بمجهود كبير ومنظم استغرق أكثر من عام قمنا فيه بتدقيق وتنقيح وتحرير النسخة العربية. صدر الكتاب في الذكرى الثانية لرحيله وكان تكريماً له من عائلته وتعبيراً عن حبنا وتقديرنا له كأب وكزوج ورفيق درب وزعيم سياسي وتاريخي للشعب الفلسطيني أفنى عمره لتحقيق الأهداف الوطنية لشعبه في العدالة والحرية والاستقلال الوطني.

ستبقى هذه السطور المضيئة وهذه السيرة الاستثنائية للحكيم نبراساً للأجيال المقبلة وشعلة متقدة يستنير بها كل ثوار العالم.

هيلدا حبش

ملاحق

رسالة الحكيم من سجن الشيخ حسن في سورية عام 1968

١

١٠/٢/٦٨

هذا الدفتر، وشكله بوجه خاص، هو الذي أوحى لي بكتابة هذه الملاحظات اليومية. سأكتبها للتسلية، ولقتل الوقت، ولتسجيل بعض الأمور التي يهمني حالياً على الأقل، ألا أنساها بسرعة بعد أن أخرج من السجن. وربما وجدت زوجتي هيلدا وأختي سلوى شيئاً من المتعة في قراءتها. إنني نادراً ما أستمر في مثل هذه المبادرات، ولكن ظروف السجن قد تساعدني هذه المرة وتشجعني على الاستمرار.

الدفتر هدية من "أبو رباح". كم يحيطني هذا الإنسان بلطفه. وكم يضايقني أنني في وضع لا يمكنني من التعبير عن عواطفي تجاهه وتجاه الآخرين من إخوانه الطيبين. سأكون جحوداً جداً وناكراً للجميل إذا نسيت هؤلاء الناس بعد خروجي من السجن.

اليوم أنهيت مطالعة كتاب "ثورة في الثورة" لريجي دوبريه، إنه الكتاب الخامس والعشرون الذي أنهي قراءته في فترة السجن هذه. أشعر بارتياح شديد وفائدة كبيرة. الأمور أوضح في ذهني من أي وقت مضى. يجب أن نهتم بالمطالعة. يبقى عملنا ناقصاً ما لم يستوعب كل هذا التراث الثوري المفيد.

٢١

سأتحدث عن هذا الأمر مرة أخرى.

كنت هذا اليوم في غاية التعاسة. تجنبت لرابني في هذه الزاوية لا أخرج للتنفس، ولا يضايقني أحد بأي سؤال أو حديث. لن أذكر سبب كآبتي. هناك إنسان آخر يشاركني هذا الشعور. وهذا يزيد في إنقباضي.

ماذا تفعل هيلدا وسناء وليلى الآن؟!

١١/٨/٦٣

اليوم بدأت بمطالعة كتاب "أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة" لفريدرك انجلس. لم أقرأ هذا الأسبوع بنفس كثافة الأسابيع الماضية. إن رغبتي في الدراسة لم تفتر أبداً، ولكن وضعي النفسي هذا الأسبوع هو السبب. يجب أن أبذل جهداً للتغلب على ذلك، وأعود أقرأ بنفس كثافة الأسابيع الماضية.

عشت اليوم بقايا تعاسة الأمس.

إن هيلدا لا تغيب عن بالي لحظة واحدة.

وكذلك سناء وليلى وأختي سلوى ومفيد. إنهم معي في كل وقت حتى أثناء المطالعة وأثناء حديثي مع الآخرين. حبي لكل واحد منهم له شكله الخاص وطعمه الخاص. عجيب غريب مزيج المشاعر التي بمجموعها تشكل أساس وضعي الشخصي. عندما أعيش قضايا العمل من خلال المطالعة والتفكير والمناقشة

٣

أحس بلا صدق أن لا أحد لتصميمي واستعدادي لعطاء كل شيء.
في لحظات معينة أحس من أعماقي أنني أريد أن أعيش
هذه السعادة التي يوفرها لي جو البيت وحبي لهيلدا ومحبتي
لبابا ولمي وسلوى. إنه قانون التناقض الأساسي ...!!
لا بدّ من حسم هذا التناقض نهائياً.
الشباب الجدد سيتركون في نهاية الشهر. كم سأشعر
بالوحشة. لقد قضينا معاً أكثر من ستة أشهر. إن بعضهم أصبح
بالنسبة لي أكثر من أخ.

١٢/١٠/٦٨

رأسي مشوش جداً. فقدت اليوم "صديقاً غالياً"
كان يخفف كثيراً من وحشتي ويساعدني على قتل الوقت، ويبقيني
على صلة بالدنيا وأحداثها. فقدته عن طريق إهمالي المزعج.
إن هيلدا مصيبة إلى حد كبير فيما توجهه إليّ من نقد.
على أي حال، الشكر الجزيل لأبو الحسن. لقد عالج الموضوع
بنبل لن أنساه.
تابعت اليوم قراءة كتاب "أصل الأسرة ..."
لانجلز، غير أني لم أقطع شوطاً كبيراً. لا بدّ من
العودة إلى مستوى المطالعة كما كان خلال الشهرين
الأخيرين. لا بدّ من الإفادة الكلية من شق هذه الفترة.
فإنني بحاجة لذلك.
وجود أبو هشام في السجن يثقل عليّ.

إنني على إستعداد أن أتحمل فترة سجنه لو كان ذلك
ممكناً. إنه الشهر السابع الآن تقريباً لوجوده في السجن.
هذا كثير!! ثم لماذا سجنه أصلاً؟ كل العمل الوطني
بالنسبة إليه هو أن يحمل الناس السلاح ضد إسرائيل. وعندما
يجيء وقت حمل السلاح يجد نفسه في سجن عزلي. إن الخطأ
القائم في العلاقات بين القوى الوطنية في ظل إحتلال
إسرائيل لفلسطين وسيناء والجولان يكاد لا يغتفر ولا
يستطيع مواطننا أن يفهمه أو يبرره. من الضروري
أن نقف أمام مسؤولياتنا تجاه هذا الأمر. هذا
من ناحية، ومن ناحية ثانية لا يجوز التسليم بأن
الإشتراكية والقوانين العرفية إثنان لا يفترقان.
أخي الصغير يطل بين وقت وآخر.
لن أنساه. ربما تتأثر نفسيتي له دختاري تجاهه خلال
الأسبوعين القادمين، ولكن ذلك لن يؤثر على شعوري
بالمسؤولية نحوه وضرورة تأدية واجبي في رد الجميل.
هياء الآن مبسوطة على كتبها الجديدة.
لا حد لمحبتي لها.

١٦/١٠/٦٨

لم أكتب شيئاً خلال الأيام الثلاثة الماضية.
وكذلك لم أقرأ أي شيء. كانت هذه الأيام
أيام توتر شديد، واضطراب، وانفعالات حادة.

٥

هذه الانفعالات ليس سببها السجن، سببها شيءٌ آخر.
قبل ساعات فقط بدأت أهدأ قليلاً. وإذا ما استمر هذا
الهدوء واستقر فإنني أستطيع ابتداءً من الغد أن أعود
لجو المطالعة والدراسة.

لا بد أن أستفيد من تجربة هذا الأسبوع. ما زالت
نقطة الضعف فيَّ هي عاطفيتي وتصوري لعلاقات مثالية خيالية
بين البشر وبين الأصدقاء. الواقع أقوى من كل خيال. وعندما
تتضح هذه الحقيقة أشعر بالصدمة الشديدة. من الخطأ
إحاطة علاقاتي بالناس والأصدقاء بهالة من الأوهام والمثاليات.
ولا يجوز أن نتوقع من البشر أن تكون فوق البشر.

اليوم شعرت بالدموع الساخنة على وجهي وأنا
أقبل صورة جيلا وسيا ولمى. أعتقد أن هذه الدموع
هي التي أراحتني قليلاً وهي سبب هدوئي نسبياً الآن.
فتح رحيل عليَّ الزنزانة والدموع على وجهي. خجلت من نفسي.
لقد فاجأه منظري. لعله ما كان يتوقع يوماً أن يراني
بهذا الشكل. إن صورتي في ذهنه أنني أقوى من كل هذه
الظروف. تحدثنا قليلاً واعتقد أنه فهمني. رحيل بالمناسبة
رائع. شخصية قوية، ذكي وواقعي ومرح. هذا النوع من الناس
هو الذي يصمد للحياة وظروفها. المحبة والحنان لسمور. أما
الإعجاب فهو لرحيل.

وأنا أستحم سمعت من المذياع خبراً مفاده
أن منظمة فتح أصدرت بياناً اتهمت فيه سلطات

٦

الأردن بأنها تخطط لضرب العمل الفدائي. إن محاولات السلطات في الأردن لضرب العمل الفدائي ليست جديدة. ولكن صدور بيان رسمي وإذاعته معناه أن المحاولة هذه المرة قد تكون أخطر وأكثر جدية من المحاولات السابقة. الموضوع في غاية الخطورة. إن العمل الفدائي بالنسبة لنا رغم كل علاته الراهنة يمثل بداية التصدي التاريخي الحقيقي المخطط للعدوان الصهيوني على أرضنا، ويمثل بداية الإنتقال من مرحلة العمل الثوري "البرجوازي الصغير" حسب رأي أبو النوف إلى مرحلة العمل الثوري البروليتاري الكامل. إنه المدخل لتجديد حركة الجماهير في وطننا والإرتقاء بها من مرحلة إلى مرحلة. وضربه في هذه المرحلة خطيرة. إن ساحة العمل الفدائي الآن هي الأردن، وضربه في الأردن معناه ضربه بوجه عام. وما يقوله الدكتور وديع عن أهمية ساحة لبنان والساحة الخارجية لن يفيدنا ولن ينقذ الوضع. من الصعب علي أن أتنبأ بنتيجة الصدام فيما إذا حصل وأي شكل سيتخذ، ولكنني أخشى أن تكون النتيجة لمصلحة السلطات في الأردن. فالمنظمات الفدائية لم تتوحد ويمكن للسلطات أن تنجح في ضربها بعضها ببعض، والعمل الفدائي كقوة عسكرية ما زال غير قادر على الصمود في وجه جيش منظم، والإستقطاب الجماهيري الحاصل حول العمل الفدائي ما زال إستقطاباً عاطفياً لن يفيدنا في مثل هذه المعركة، وبالمقابل لقد استعاد جيش الأردن انضباطه وتسليحه. إن حقيقة الوضع داخل الجيش الأردني هي العامل الحاسم. عوامل أخرى

٧

وما دورها: القوات العربية في الأردن، المتحدة، وهل سينقسم الحكم على نفسه أم يبقى متماسكاً.

• لا بد من أن أجد طريقة لمتابعة هذا الموضوع..

كم هو مؤلم أن يكون المرء محجوز الحرية في مثل هذه الظروف

١٨/٦/٦٨

اليوم قمت بعملية تنظيف كاملة للزنزانة. لقد أكلني البق والرهص. إنني أشعر بالامتنان الشديد لاهتمام أبو الحوزي. ففكرة التنظيف الشاملة هذه هي فكرته والإخراج إخراجه. لقد نشرنا كل الملابس والأغراض والحرامات في الشمس طيلة فترة الصباح وبعد الظهر. أشعر أن رحيل يحب شيئاً من الضبط عندما يقدم لي أية مساعدة. إنه ضمن حدود واقعيته ومصلحته المتوقعة - صديق جيد ومخلص. سمير هو الذي قام بالقسم الأكبر من عملية التنظيف. لم أكن أقدّر هذا الشاب حق قدره. للأول وهلة قد يبدو أنه شاب يحب المزاح مع شيء من الطيش. الآن.. أعرف تماماً كم هو نبيل هذا الإنسان وطيب وخدوم. أعتقد أنه يعيش أصدق المشاعر تجاه الآخرين وتجاه القضية التي يعمل من أجلها. أكثر ما يؤثر فيّ هو عفة نفسه. إذا كان العمل الفدائي لدى خروجنا من السجن ما زال قائماً وناجحاً فإن اقتراحه بالالتحاق كلياً بالعمل الفدائي اقتراح معقول ومفيد. فإمكاناته للنمو جيدة، وقد لا يكون مؤهلاً

دور الشخص الأول في أية فرع أو قطاع من فروع وقطاعات العمل،
إلا أنه يمكن أن يكون مساعداً ممتازاً ودؤوباً وذكياً
لشخص أول يوجهه ويحبه ويتبنّى مواهبه.

وبالمناسبة أعتقد أن مجموعة شباب الحركة السوريين
الذين تعرفت عليهم في السجن يمكن إعتبارها مجموعة جيدة إجمالاً.
معظمهم إن لم يكن كلهم شباب صغار دون الثلاثين أو حتى دون
الخامسة والعشرين... عمرهم ومستقبلهم ومستقبل قضيتهم ما زال
أمامهم. موقفهم من السجن مقبولاً ويتراوح بينه "وسط" وجيد.
بعضهم صلب جداً، وبعضهم يعبر عن ضجره بشكل مقبول، ولم
يكن بينهم حالات تخريبية. كذلك لم ألمس أنانية فجّة
أو تصرفات شاذة على صعيد علاقاتهم ببعضهم بعضاً أو مع
الآخرين. بل بالعكس، هناك حد مقبول من الروح التعاونية
فيما بينهم... متحمسون لقضية الثورة والإشتراكية والتقدم)
وعلى هذا الأساس يمكن أن يبنى منهج إشتراكي علمي. وباختصار
فإن قيادة واعية وحكيمة يمكن أن تبلور منهم قوة تساهم في
بناء مستقبل أفضل

4

في المساء استمعت إلى خبرين جديدين. الأول يقول إن ممثلي المنظمات الفدائية اجتمعوا برئيس الحكومة الأردنية -التلهوني- وأن الأزمة في العلاقات قد سويت. [illegible] مجرد تأجيل للانفجار المحتوم. ولكن لا بأس. من المفروض أن يكون عامل الوقت لمصلحة العمل الفدائي. الخبر الثاني [illegible] صادر عن الجبهة الشعبية يقول أنه ما بين الثالث والخامس عشر من هذا الشهر قتلت وجرحت حوالي ١٦٠ من جنود العدو في الجولان. ليس هناك ما يبعث الارتياح في نفس السجين سوى أن من معرفته بأن التنظيم الذي ينتمي إليه يخدم القضية من خلال قائم وفعال ..... لست طرباً رغم خسائر العدو. إذا كان الزعم صحيحاً فإن الجبهة الشعبية تكون قد ضربت بقواها وإمكانياتها وكلها مصيبة أن تكون الجبهة قد انحرفت في تيار المنافسة بين التنظيمات الفدائية على حساب الحقيقة وعلى حساب احترام الجماهير وعلى حساب الوعي الناضج لإمكانات العمل وأبعاده.

وصلتني بعض الأغراض من البيت. توباكو وكولونيا وجبنة وبسكوت وتفاح. فهمت أن عمتي حاولت أن تراني ولم تستطع. لا شك أنها هي التي اشترت البسكوت والجبنة والتفاح من شفورا. ولا شك أن خيبتها كانت كبيرة لأنها لم تنجح في مقابلتي. ترى هل هي في طريقها للأردن؟ وهل تكون قد تركت هيلدا وحدها؟ كيف ستدبر هيلدا أمورها إذن؟ أين ستضع لي وقت الدراسة؟ وكيف ستعالج خوفها الطفولي من الظلام؟ رأسي يتفجر. لابدّ من جمع سلوى وهيلدا ومفيد والبنات في بيت واحد. فهم جميعاً بتعاونهم وتكاتفهم ومحبتهم لبعضهم البعض يستطيعون أن يواجهوا مشاكل الحياة. وفي هذه الحالة تكون أكثر حرية وقدرة على العمل والبذل .... إلى المستوى الفدائي جهداً وحقاً وفعلاً.

لم أقرأ شيئاً أمس واليوم. قررت الآن أن أضغط على نفسي في موضوع المطالعة. سأعود لها عندما أشعر بشكل طبيعي ودون ضغط أنني راغب فيها وبحماس.

١٩/١٠/٦٨

اليوم يوم سيئ. في غاية السوء. إن لم يكن أسوأ يوم في هذه "الحبس" على وجه الدقة، فهو من أسوأ الأيام حتماً. ولولا المعاملة المهذبة والإنسانية التي ألقاها من المسؤولين عن إدارة السجن لكانت أوقاتي

١١

الآن كآبة.

" وإن كان لما حدث اليوم من ميزة فهي أنني من المفروض بعد يومين أو ثلاثة من النقاش أن أستقر نفسياً لفترة طويلة قادمة.

اليوم رأيت الدموع في عيني أخي الصغير. أعتقد أنني كنت قاسياً معه، ولكن لم يكن معقولاً الآن أن أصارحه بكل ما يجول في خاطري. إنني واثق من محبته لي، ولكنه في نفس الوقت يستحق كل ما قلته له.

٢٩/١٠/٦٨

بعض السجناء أثقل علي من السجن نفسه.

زهقت حياتي من أحاديث صاحبنا عن نفسه... زوجته الرائعة! وكم مرة ينظف أسنانه، وعاداته وعبقريته... وكل شيء... أف... ألف مليون أف. أعصابي لم تعد تحتمل. يبدو أنني سأنسى خلقي في يوم من الأيام.. وربما قريباً. أحياناً أشعر أنه من الخطأ أن يكون الإنسان مجاملاً وربما أكثر مما يجب. ولكن المشكلة أنه طيب خلق. أنانيته أنانية طفل بريء. الأفضل أن أبرد أعصابي وأتحمله فترة أخرى. لعل الله يفرجها عليه أو علي أو علينا جميعاً.

مجموعة معينة من الشباب - غالبيتهم فلسطينيون - لا تغيب عن بالي - معظمهم الآن في سجون إسرائيل

١٢

وبعضهم في الأقبية، وبعضهم لا أدري أين. إنهم
بمجموعهم يشكلون ذخيرة جيدة دون شك للعمل
الثوري الفلسطيني. كم أتوق أن أكون بينهم،
كذلك أفكر كثيراً بحطان وعبد الفتاح وفيصل وكل
موضوع الجنوب.

لماذا أنا محشور في هذا المرحاض؟ وإلى متى سأبقى؟
وكم ستحتمل أعصابي أن أظل هكذا؟؟ ثم لماذا كل وجودي
أصلاً هنا؟ لقد حصلت على كل الفوائد التي يمكن أن يجنيها
الإنسان من السجن. تعمقت في نفسي بعض القيم الإنسانية
دون شك، اختبرت نفسي جيداً وأعتقد أنني راضٍ
عن ذلك. وتحققت من صحة ارتباطي بالعمل واستعدادي
للعطاء وتحمل كل شيء. عرفت كم تعز علي هيلدا وسلوى
وميساء وعلي وبعض الأقارب والإخوان والأصدقاء. كسبت
معارف وصداقات جديدة. أصبحت أكثر فهماً للوضع
السوري، وجدت ابناً جاهزاً عمره ٢٢ سنة، ضعيف
البنية، محدود الكفاءة، أحياناً عصبي المزاج، ولكنه بريء وطيب.
طالعت مجموعة جيدة من الكتب. تعرفت على عدد جيد
من الأشخاص. فماذا بعد؟ وماذا أنتظر؟؟
إن لم أكن في نهاية الشهر القادم خارج السجن فإنني —
فإنني ماذا؟؟ لا أدري. لعل الطريق الوحيد العقلاني
الذي سيبقى أمامي هو عودة للمطالعة الجادة ترشيداً
لبعض الكتابة. هذا إذا استطعت.

١٣

لم أقرأ شيئاً طيلة هذه المدة . السبب هو الأمل
المتجدد يومياً والخائب يومياً في الخروج من السجن .
لم أبقَ يائساً من "الطلعة" كما كنت قبل هذا الشهر
لم أستطع أن أكون أهدأ وأستفيد من وقتي بشكل
أفضل . لا أعتقد أن الإرادة ستمكنني من العودة للحالة
والخلاص من حالة التوتر التي أعيشها . سأترك الأمور تأخذ
مجراها الطبيعي ، ومن الطبيعي أنه يتحتم الاستمرار في
الحالة المتوترة التي أعيشها طبعاً .. إنني لست دائماً
متوتراً ومضطرباً . تتبع الأخبار ، وبعض الأحاديث ، وبعض
التأملات تمضي بعض الوقت .. ولكن يبدو أنني
لا أبدأ الكتابة الآن وأنا في غاية الضيق .

ماذا لو خرجت من السجن وكان رأي الشباب
أن أتوجه فوراً إلى الأهوار . إن هذا سيتعبني ..
وستتمزق مشاعري ربما إلى الحد الذي أتمنى أن أعود فيه
إلى السجن . ولكن لن يكون أمامي خيار ، سأذهب
إلى الأهوار ... مثلي مثل رأفت وأديب وبقية الإخوان .
لماذا استباق الأمور ؟ يكفيني ما يقلقني حالياً .

١/١١/١٩٦٨

يبدو أن الطقس هو الذي يحدد أحياناً مزاجي
النفسي . بالأمس كان الطقس غائماً .. وكان كل شيء غائماً
كذلك . إنني لا أحب الشتاء حتى وأنا في البيت ..

مع هيدا والبنات، ومع العمل والشباب ... وكل وسائل التسلية متوفرة، فكم بالحري إذا جاء التشاد وأنا في سجن الشيخ زايد، "الشيخ حسن". كم ستكون فترة التشاد مزعجة بالنسبة لي إذا قدر لي أن أبقى في هذا المكان دهراً آخر من الزمن

انعكس هذا المزاج على تصرفاتي مع الناس، كان أحد السجناء يقول لي إنه بعد خروجه من السجن سيترك العمل السياسي. فكان جوابي أنه قرار ممتاز. ممتاز بالنسبة له وممتاز أكثر بالنسبة للعمل السياسي. لقد فوجئ المسكين وأخذته الدهشة إذ أنه ما كان يتصور أن يجيب علي مثل هذا الكلام. وسجين آخر سألني أثناء التنفس: هل هناك مانع يا حكيم من أن نمشي معك كان جوابي: نعم. إن فترة التنفس بالنسبة لي هي فرصة للتخلص من كل المنغصات .... ولحظات شعرت أنه علي أن تكون لي كفاءة الى حد ما في إسكات بعض الناس أو بالأحرى إخراسهم وإنهاضهم حقيقتهم وإيذاء مشاعرهم. ولحظات أيضاً شعرت بشيء من اللذة لأنني أملك مثل هذه الكفاءة... ولكني عدت وشعرت أنه يصعب علي أن أمارس مثل هذه الموهبة، إنني لا أحب إيذاء مشاعر أحد.

ذلك من وحي هذا الجو القاتم الشرس خضت أمس نقاشاً حاسماً حول المؤسسات العسكرية في وطننا،

١٥

عشرون عاماً كاملة وهذه المؤسسات تمتص حوالي ١٥٪ من
كل الإنتاج القومي وما يزيد في بعض الحالات عن ٥٠٪
من الموازنة. الملايين والملايين دفعها الناس من عرقهم
وتعبهم لتحمي نفسها من خطر الغزو وخطر الاحتلال وصيانة
أمنها وكرامتها. ولكن هذه الملايين تحولت إلى مكاتب فاخرة،
وسيارات، ورواتب عالية، وبرادات، وكل وسائل الراحة
والرفاهية..... وعندما جاء وقت المعركة فرت كل هذه
الجيوش مثل الأرانب تاركة وراءها مئات المصفحات
والدبابات والمدافع والأسلحة وكرامة الوطن وأمن الناس.
أين هي أقوى قوة جوية في الشرق الأوسط؟ أين هي أقوى
قوة بحرية في الشرق الأوسط؟ أين هو الجيش الذي بإمكانه
أن يصل إلى تل أبيب في ٣ ساعات؟ أين هي كل العنتريات
التي مارسها ضباطنا على مواطنيهم لمدة عشرين عاماً. إنها
أكبر عملية استغلال وتدجيل للجماهير العربية. وليس مهماً
أن تكون تدعمت عن وعي أو غير وعي. والأهم من ذلك
كله أن هذه المؤسسات... عندما قامت الجماهير غاضبة
على كل هذا الذي حدث — المؤلم — بدأت أجهزة القمع
— المخابرات والاستخبارات — تخرس كل صوت
يرتفع. إنها تريد المحافظة على نفسها، وعلى وضعها، وعلى
امتيازاتها وعلى عشرائها. ولكن ذلك أصبح اليوم مدعاة
للسخرية ويستحيل أن ينطلي على الجماهير العربية من جديد.
عندما دخل أحد الضباط الأشاوس إلى السجن، وبعد [illegible]

١٦

الليل، وأخذ يدوس بأقدامه رؤوس بعض الشباب - فايز، صادق، أبو زياد، رياض - ويوجه لهم الكلمات والشتائم، كان منظره فعلاً أكثر مدعاة للشفقة والحزن من منظر الشباب أنفسهم. لو كان هؤلاء الأشاوس ثوار فعلاً وشرفاء فعلاً لكانوا اليوم يقودون سجناءهم للقتال ضد الاحتلال. إن حماية الثورة هي في القتال ضد الاحتلال، ولن يكون هناك طريق آخر. أما أن يبقى هؤلاء الأشاوس في مكاتبهم، يتيهون بياقاتهم المنشاة، وملابسهم النظيفة، يدخنون اللاكي سترايك فلتر، ويأكلون المشويات بعد الانتهاء من إهانة وتعذيب إخوتهم وأبناء وطنهم، ثم يدعون بعد ذلك أنهم ثوريون، مهمتهم حماية الثورة، فهذا مضحك. إنني واثق أنهم لا يصدقون أنفسهم. الأمور واضحة كما يقول إخوتنا العراقيون: امتيازات مصلحية ومادية وضرورة المحافظة على هذه الامتيازات على حساب كل القيم وعلى حساب كل شيء.

مساكين هؤلاء الذين يظنون أن بإمكانهم أن يتحكموا بمجرى الأمور حسب أهوائهم وأمزجتهم. إنهم يستطيعون أن يضعوا الآلاف في السجون، ولكنهم لن يستطيعوا أن يخفوا الحقائق الكبرى التي فجرتها أحداث حزيران

اليوم ودعنا الشباب المحمدين نهائياً. لن أراهم في السجن بعد اليوم. أحس بالوحشة والفراغ. تذكرت مشاعر الفراق التي كانت تثقل علي عندما كنت أترك البيت [illegible] للمدرسة الداخلية وأنا في حدود الرابعة عشر. تكويني العاطفي لم

١٧

فتختفي أبداً، ولكن كيف يمكن للإنسان أن يكون حجراً؟ لقد كانوا يشعرون الحياة في هذه المقبرة... سعيد وهزلياته، رحيل ومزاحه، سمور ونشوى حنانه... بالنسبة لي على الأقل. إنني الآن أتذكر دفعة كل واحد منهم عن الطاقة... ماذا كان يقول، وكيف كان يبتسم وبأية عبارات وملامح يترك الطاقة. أعتقد أن مشاعرنا متبادلة، وأعتقد أيضاً أنهم كانوا صادقين فيما عبروا به نحوي في الأيام الأخيرة حين كانوا يعرفون أنهم سيغادرون قريباً ويتركونني في هذا القبر. كم أشعر بالمحبة والامتنان نحوهم.

وداعي ليوسف وحسين كان عادياً. يوسف طيب وخدوم وخجول، ولكن تلك الاحتكاكات لم تترك في نفسي أية عاطفة قوية تجاهه. وإذا صحّ ما سمعته من بعض السجناء من أن انعزالية يوسف وخوفه وخجله يعود إلى كونه كردياً يحسّ بأنه أقلية غريبة بيننا تعيش مشاعر الخوف والفزع بشكل طبيعي، فإن مسؤولية الدولة العربية في توفير المناخ والشروط التي تلغي شخصية وإنسانية يوسف وإخوانه مسؤولية إنسانية كبيرة.

حسين كان قاسياً مع السجناء. معظمهم يكرهونه. إنني لا أكرهه ولكنني لا أستطيع أن أقول بأنني أحبه. أحياناً كنت أحس بشيء من الاشمئزاز منه. لقد علمت أنه أوصى المجندين الجدد بضرورة الإساءة إلي. قدرت ذلك، ولكن عواطفي تجاهه لم تتبدل.

١٨

وبقي لنا من ستة المجندين القدامى محمود. لقد بكى
عندما ودع رفاقه. وقد ارتحت لبكائه لأنني كنت أريد
منه أن يبكي بالنيابة عني لأنه لم يكن معقولاً أن أعبر عن
عواطفي بالبكاء أمام بقية العناصر. محمود جريء في غاية
البساطة وفطن، شجاع ومحدود جداً. عاملني بنوع من عواطف
شفقة... ولكن يوماً بعد يوم أحس أنه أقرب إلى نفسي.
إنني شاكر له معاملته لي.
لا أعتقد أنني سأنسى هؤلاء الشباب.
أعتقد أيضاً أنني سأسعى جاهداً إلى رؤيتهم وخدمتهم بعد خروجي
من السجن.

٣/١١/١٩٦٩

رسالة الرئيس عبد العزيز بوتفليقة

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
الرئيس

السيدة المبجلة
عقيلة الفقيد جورج حبش
وأفراد أسرتها الكريمة

تلقيت بأسف، نبأ رحيل الصديق المناضل جورج حبش، أحد رجالات النهضة العربية، منشئ حركة القوميين العرب، ومؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، المنظمة العتيدة التي كان لها باع طويل في مقارعة الاحتلال الصهيوني الاستيطاني، والتي رسمت لنفسها منذ تأسيسها منهجا للنضال لم تحد عنه في معاركها التحريرية، عقودا طويلة، تجلت فيها عبقرية الفقيد في ابتكار وسائل الكفاح، ووفائه للقيم الوطنية والقومية، ومدى قدرته على مجابهة أخطر الأزمات بوعي سياسي عميق ومهارة في الحوار، وسوق للحجج الداحضة لآراء خصومه، وتمسكه بمبدأ التحرير وشرعيته، وبعدالة القضية ووجوب إحقاقها، باستعادة الفلسطينيين أرضهم وإنشاء دولتهم المستقلة السيدة، مما جعله مرجعا لكل فصائل المقاومة في الساحة الفلسطينية، تعود إليه كلما أعجزها الأمر وعزب الراي.

وحتى حين اشتد به المرض وتنحى عن قيادة الجبهة للمناضلين من رفاقه، لم يبخل بالراي والنصح والمشورة، لا عليهم ولا على الفصائل الأخرى المنضوية تحت لواء منظمة التحرير الفلسطينية، وظل كما كان له الكلمة المسموعة، والراي الراجح، في إبقاء هذه المنظمة على وحدتها وتماسكها، لا سيما حين كادت تمزقها بل تقوضها كبريات المحن في الأردن سنة 1971

وفي لبنان وأثناء اجتياح الدولة العبرية للبنان، سنتي 1978 و 1982 واضطر زعماؤها إلى النزوح من ميناء طرابلس الشام.

ولئن انتقل اليوم إلى جوار ربه، والشعب الفلسطيني يعيش اقسى وأخطر أزماته، يعاني ما يعاني من الفتنة والحصار والجوع والتقتيل، فإن في الموروث الذي خلفه الفقيد، إن في ثباته وقوة عزيمته أو في كتاباته وتآليفه وخبرته أو في مسار كفاحه وتجاربه النضالية مع شعبه ضمن رؤية شاملة تتعدى حدود فلسطين لإقامة جبهة قومية عربية موحدة ذات سطوة ومنعة، تكون في مستوى مواجهة التحديات التي تستوجبها رهانات الصراع، إن في هذا الموروث ما يهتدي به ويقتدي أبناء وطنه بنفس الحزم والتصميم والوعي، إلى أن يستعيد الشعب الفلسطيني حقوقه.

أعزز عليّ، وعلى كل وطني مخلص، بأن يفقد الشعب الفلسطيني بل العرب أجمعون، في هذه الظروف الدقيقة الصعبة، واحدا من أبرز فرسانهم القوميين وروادهم الأولين الذين ناضلوا من أجل تحرير فلسطين والوحدة العربية أمدا طويلا، فلم يكن الفقيد جورج حبش منشئ حركة القوميين العرب، ومؤسس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فحسب، بل كان السياسي العربي المحنك والمثقف الواعي الذي استطاع بما يتحلى به من قوة إرادة وحصافة رأي وثبات في الملمات، وحكمة وتبصر في مواجهة الصعاب، أن يستقطب الأحرار في الأقطار العربية ، على اختلاف دياناتهم وطوائفهم، وأن يشدهم إلى منهجيته في العمل والتفكير القومي، كما استطاع، بما استنبط من أساليب ووسائل الكفاح، أن يلفت أنظار العالم إلى معاناة الشعب الفلسطيني، ويشد انتباهه إلى كفاحه المشروع من اجل قضيته

التي ما زالت تتصدر جداول أعمال المحافل الدولية، ومحور كل ما يجري في منطقتنا من أحداث مأسوية.

أعزز عليّ وعلى كل عربي أن يغيب الزعيم القومي العربي جورج حبش عن ساحة الكفاح وميدان الفكر والرأي في هذا الوقت الذي تشتد حاجة الفلسطينيين والعرب عامة إلى حكمته وحنكته، ولكن ما حيلة المرء أمام قضاء الله وقدره سوى الصبر والإيمان ، ومتابعة النضال الذي بداه شهداؤنا، لأن في ذلك أكبر عزائنا.

فبقلب يعتصره الأسى والألم، أعرب لك ولكل أفراد الأسرة الكريمة ولكل الشعب الفلسطيني كافة، عن تعازي الأخوية الصادقة، وتعازي الشعب الجزائري ، داعيا المولى العلي القدير أن يكرم مآبه ويجزل ثوابه ويتولاه برحمته ورضوانه، وأن يحتسب عدد حسناته كفاء جلائل أعماله لأبناء وطنه وقومه، كما أسأله أن ينزل في قلوبكم صبرا جميلا، ويعوضكم فيه خيرا كثيرا، ويعظم لكم أجر الصابرين، إنه سميع مجيب الدعاء.

أخوكم
عبد العزيز بوتفليقة

رسالة الحكيم للمحامية فالتسيا لانغر

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

الرقم : ____________

التاريخ : ٤ / ٨ / ١٩٩٤م

السيدة الفاضلة المحامية فليتسيا لانغر المحترمة

تحية ود وتقدير ،

لقد تابع شعبنا ، وتابعت أنا شخصيا باهتمام كبير دورك النضالي والانساني المميز في الدفاع عن المناضلين من أبناء شعبنا في سجون الاحتلال ، حيث كان لهذا الدور صداه وأثره العميق في نفسي وفي نفس كل فرد من أبناء فلسطين والأمة العربية .

لقد مثلت البعد المشرق في مهنة المحاماة ، فكان صوتك أعلى من محاكم التفتيش ، مما جعل قضاة الاحتلال يضيقون ذرعا ، ولا يفوتون فرصة لمضايقتك وحصارك .

ان كل مناضل فلسطيني وقفت الى جانبه كان يدرك بأنك لن تستطيعي تغيير وجه الاحتلال ومع ذلك كانوا يرون فيك كلمة الحق التي يجب أن تقال وليكن بعدها ما يكون .

ان شعبنا لن ينسى لك هذه الوقفة النضالية وهذا الالتزام دفاعا عن حقوقه وحقوق مناضليه في مواجهة الاجراءات والممارسات الاحتلالية القمعية على مدار ثلاثة عقود من الزمان ، والتي ما زلت تتابعين الدفاع عنها بكل الوسائل والسبل النبيلة .

لقد كنت أيتها الصديقة الوجه المشرق والانساني لجماهير اليهود التي تدرك جيدا معنى الظلم والاضطهاد . ثم جاء الاحتلال بممارساته وأرهابه ضد شعبنا ليجعل من تعرض للمجازر والارهاب قوة تمارس الارهاب والظلم ضد شعب آخر . غير أنك وباصرار نادر رفعت صوت الحق والعدل ، وأعلنت قولا وفعلا بأن انسانا يضطهد ويستعبد انسانا آخر لا يمكن أن يكون حرا . ان نضالك المشرف ضد الاحتلال بقدر ما كان يمثل دفاعا عن حقوق شعبنا الفلسطيني المقاوم ، فإنه في ذات الوقت يمثل دفاعا عن انسانيتك وحريتك بالذات . انك لم تكوني محامية فقط ، وانما كنت صاحبة قضية بكل أبعادها ، انك الصرخة المدوية النقيض للظلم والاحتلال واستعباد شعب بكامله بحجة الدفاع عن حرية اليهود وحقوقهم .

ان نضالنا لنيل حريتنا واستقلالنا لن يتوقف مهما طال الزمن ، وأي حديث عن السلام والأمن ، وأية اتفاقيات ومعاهدات لا تقوم على أساس الاعتراف بحقوقنا الوطنية الثابتة ، ما هي الا خداع واحلام مبنية على الرمال .

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

الرقم : ـــــ ٢ ـــــ

التاريخ : ـــــــــ

وحتى يأتي ذلك اليوم الذي سنحقق فيه أهدافنا النبيلة ، فإن لنا حقا على كل انسان تقدمي وديمقراطي لكي يقف معنا ، لنصنع معا مستقبلا يقوم على الحرية والعدل ، مستقبلا يحفظ للانسان انسانيته ، بغض النظر عن لونه أو دينه أو جنسه أو هويته .

عزيزتي /

لقد سرني كثيرا أن أتعرف على شخصك ومواقفك النبيلة والمؤثرة من خلال مشاهدتي لفيلم " صوت الزمن الصامت " ، مما زادني أعجابا وتقديرا لك ولمسيرتك النضالية المبدئية والثابتة في زمن أصبح فيه الصمت سمة سائدة ، وفي عالم أضحى ينظر لمن يدافع عن حقوقه سواء كان شعبا أم مطلق انسان ، كأرهابي يجب حصاره ومطاردته . غير أن هذا الواقع ومهما بدى قاسيا فإنه لا يعدو مرحلة عابرة ومؤقتة في تاريخ البشرية ، فمهما كان جبروت الامبريالية ، ومهما اشتدت غطرسة الاحتلال فإنهما لن يتمكنا من قتل بذرة الحرية التي ستنمو بالنضال المتواصل ، لتورق وتزهر في لحظة ما .

لكل هذا رأيت أن من واجبي أن أكتب هذه الرسالة تعبيرا عن تقديري واحترامي لك ولحضورك الفعال في الدفاع عن قضية شعبنا في المحافل الدولية وكليات الحقوق في الجامعات الاوروبية .

ان العاطفة الصادقة التي يكنها لك الفلسطينيون هي بمثابة وسام آخر يضاف الى الاوسمة والجوائز التي تستحقينها بجدارة والتي منها جائزة نوبل البديلة .

آمل أن نلتقي على أرض فلسطين التي غادرتها قبل أعوام بعد أن أتضح لك عمق وحجم المأساة ، ولم تقبلي على نفسك بأن تكوني شاهدة على الجرائم التي ترتكب بحق الأبرياء ، وآثرت مواصلة النضال في ميادين وساحات أخرى .

لك تحياتي ، وآمل أن نلتقي قريبا

بكل الاحترام والمودة

د . جورج حبش

دمشق ٤/٨/١٩٩٤م

فهرس

- ب -

- ت -

- ث -

- خ -

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

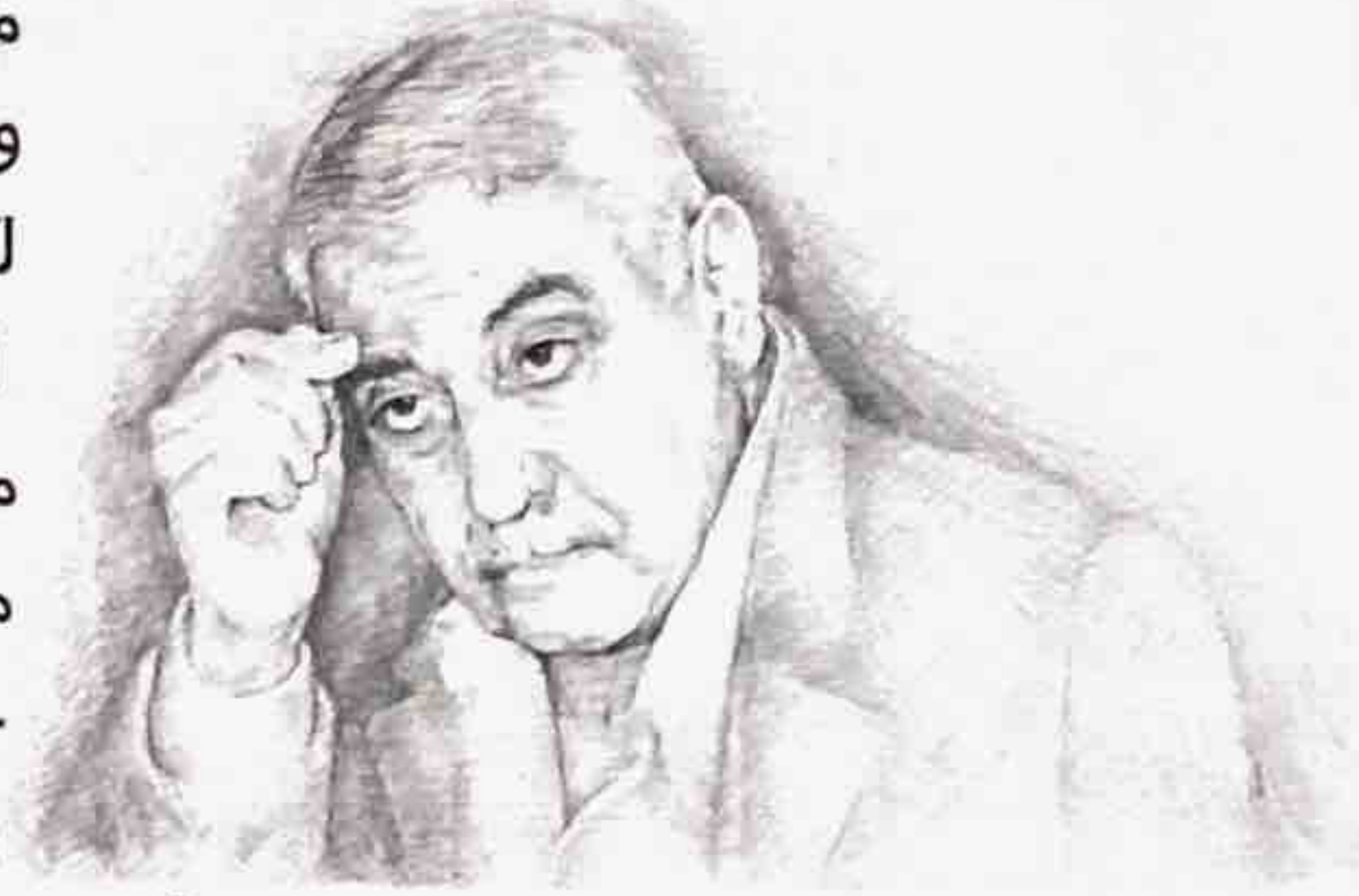
- ع -

- غ -

- ف -

- ق -

- م -



من الصعب أن تُختصر سيرة القضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي بكتاب في هذا الحجم. لكن أن يكون الكتاب مذكرات واحدٍ من كبار قادة الثورة الفلسطينية وحركة التحرر العربية فلهذا معنى آخر؛ فكيف إذا كان الكتاب يحمل بين دفتيه مذكرات حكيم الثورة الفلسطينية وأحد كبار قادتها جورج حبش، الذي جاهد في القضية الفلسطينية والصراع العربي - الصهيوني وحركة التحرر العربية على مدى أكثر من نصف قرن، وكان من أوائل المبادرين إلى تأسيس حركة القوميين العرب وإطلاق الثورة الفلسطينية والكفاح المسلح عقب نكبة عام 1948، فعاش هذه الثورة وصنع جزءاً من تاريخها يوماً بيوم، متنقلاً في مسيرته النضالية هذه بين العمل متخفياً حيناً، والعمل من خلف قضبان السجون العربية أحياناً، والعمل العلني، لكن المحكوم بإجراءات أمنية غير عادية، في معظم الأحيان.

لا يقدّم الحكيم في هذه المذكرات، التي تمثل النص الأخير له في سلسلة كتاباته، السياسية والفكرية، سرداً وصفياً لمسيرته النضالية وللأحداث التي عايشها خلالها، بل يقدم قراءة للأحداث والوقائع من زاوية محددة وفق رؤية فكرية وسياسية ووفق منطلقات مبدئية حكمت سلوكه ومواقفه، التي أسست لمدرسة في العمل الثوري ما زالت الأجيال العربية الحالية والمقبلة بحاجة إلى الاستنارة بها، ولو بحس نقدي، للتعلّم من أخطاء الماضي، وللتحصن في وجه ثقافة الهزيمة والتبعية والتطبيع التي تطغى على المشهد السياسي العربي، ولمواجهة التحديات والمخاطر والتراجعات المحدقة بالوطن العربي اليوم، في الوقت الذي لا يزال المشروع الصهيوني جاثماً على أرض فلسطين.

مركز دراسات
الوحدة العربية

بناية "بيت النهضة"، شارع البصرة
ص ب: 113-6001 الحمرا - بيروت 2034-2407 لبنان

تلفون: 750084-750085-750086-750087 (+9611)

برقياً: "مرعربي" - بيروت

فاكس: 750088 (+9611)

www.caus.org.lb
@CentreForArabUnityStudies
info@caus.org.lb
@CausCenter
CausCenter

الثمن: 20 دولاراً
أو ما يعادلها

978-9953-82-870-1

9 789953 828701